تقـــديـم

منذ ما يقرب من نصف القرن أدت الجمعية المصرية للدراسات التاريخية دورًا بارزًا فى النهوض بالدراسات التاريخية فى الوطن العربى ، حيث كانت تحمل وحدها أمانة رعاية البحوث التاريخية فى وقت لم تكن فيه جمعيات علمية مناظرة تضطلع بهذا العبء فى البلاد العربية الأخرى . وجاءت « المجلة التاريخية المصرية » – الدورية التى تصدرها الجمعية – تمثل قناة الاتصال التى تتدفق خلالها بحوث ودراسات المشتغلين بالتاريخ فى مصر والوطن العربى ، وسرعان ما اكتسبت المجلة اعتراف وتقدير الهيئات العلمية العربية والدولية ، وأصبحت إحدى الدوريات الأساسية التى يستشيرها الباحثون فى تاريخ بلادنا فى مختلف العصور .

ولكن صعوبات مادية تعود إلى قصور فى الموارد المالية للجمعية المصرية للدراسات التاريخية أدت إلى تأخر صدور المجلة التاريخية المصرية فى موعدها برغم إلحاح الأوساط العلمية العربية والدولية فى طلبها ، حتى استطاع مجلس إدارة الجمعية إسناد مهمة الطبع والنشر والتوزيع إلى مكتبة الدار العربية للكتاب ، بدءًا بهذا العدد الذى يسعدنى تقديمه اليوم إلى القراء الكرام ، وهو يضم نخبة من الأبحاث التاريخية التى كتبها متخصصون فى مختلف العصور التاريخية ، وحكّمها أساتذة أعلام ، وسوف تصدر الأعداد التالية – بمشيئة الله – تباعًا فى موعدها المعتاد ، وترحب الجمعية المصرية للدراسات التاريخية بنشر البحوث التى تتوفر فيها الشروط العلمية وتجيزها لجان التحكيم التى يشكلها مجلس إدارة الجمعية .

وتعد الجمعية المصرية للدراسات التاريخية المهتمين بالدراسات التاريخية فى الوطن العربى بمتابعة إصدار أعداد « الموسم الثقافى » التى تتضمن المحاضرات التى تلقى بصفة دورية فى المواسم الثقافية السنوية ، وهى بحوث رصينة ، تُبذل فيها جهود علمية لها وزنها درجت الجمعية على إصدارها سنويًا ، ثم توقفت عن الإصدار فى السنوات الأخيرة لتترك بذلك فراغًا فى ميدان الدراسات التاريخية الذى يعانى من أزمة النشر أصلا ، لنفس الأسباب التى أعاقت صدور « المجلة التاريخية المصرية » فى موعدها .

ولعل صدور هذا العدد من « المجلة التاريخية المصرية » فى ثوبها الجديد القشيب يرضى القراء والمهتمين بالدراسات التاريخية الذين نعتذر لهم عن تأخر الصدور ، متمنين أن تكون « الجمعية المصرية للدراسات التاريخية » عند حسن ظنهم ، وأن تنال دعمهم المادى والأدبى .

ويسعدنى أن أتوجه بالشكر لكل من ساهم فى صدور هذا العدد ، وأخص بالشكر دار النشر التى أخرجت العدد بهذا المستوى الفنى الرفيع .

وعلى الله قصد السبيل ،

أ. د. إبراهيم نصحى
رئيس الجمعية المصرية للدراسات التاريخية

« صور من المجتمع الأندلسي في عصري الطوائف والمرابطين من خلال نوازل ابن رشد القرطبي »

دكتور
كمال السيد أبو مصطفى
أستاذ التاريخ الإسلامي والحضارة المساعد
بكلية التربية - جامعة الإسكندرية

« صورة من المجتمع الأندلسي في عصري الطوائف والمرابطين
من خلال نوازل ابن رشد القرطبي »

تمهيـــد

التعريف بابن رشد :

هو أبو الوليد محمد بن أحمد بن رشد ، قاضي الجماعة بقرطبة ، وصاحب الصلاة بالمسجد الجامع بها ، ومن أبرز الفقهاء المالكية في الأندلس خلال عصر دولة المرابطين . ولد بقرطبة في عام ٤٥٠ هـ / ١٠٥٨ م ، ودرس الفقه والعلوم الشرعية الأخرى على يد شيوخ وعلماء عصره من الأندلسيين أمثال ابن رزق ، وابن سراج ، وابن خيرة وغيرهم [(١)] .

وتولى ابن رشد قضاء قرطبة بتقديم من أمير المسلمين علي بن يوسف بن تاشفين المرابطي في عام ٥١١ هـ / ١١١٧ - ١١١٨ م ، « فسار فيه بأحسن سيرة وأقوم طريقة » ، وامتاز بأنه كان فقيهًا عالمًا ، حافظاً للفقه ، مقدماً فيه على جميع علماء عصره ، عارفاً للفتوى على مذهب الإمام مالك وأصحابه ، بصيرًا بآرائهم ، وتصفه المصادر بأنه « من أهل الرياسة في العلم والبراعة في الفهم ، مع الدين والفضل والوقار والحلم ... » [(٢)] .

---

(١) انظر . ابن بشكوال ، الصلة ، ق ٢ ، الدار المصرية للتأليف ، القاهرة ، ١٩٦٦ م ، ص ٥٧٦ ترجمة رقم ١٢٧٠ ؛ والنباهي المالقي ، تاريخ قضاة الأندلس ، منشورات دار الآفاق ، بيروت ١٩٨٣ ، ص ٩٨ .

(٢) ابن بشكوال ، المصدر نفسه ، ق ٢ ، ص ٥٧٦ - ٥٧٧ ؛ والنباهي ، المصدر نفسه ، ص ٩٨ - ٩٩ ؛ وابن عذاري ، البيان المغرب ، ج ٤ ، تحقيق إحسان عباس ، بيروت ، ١٩٦٧ ، ص ٦٤ .

وكان للفقيه ابن رشد – الذى عُرف عند المؤرخين « بالجد » تمييزاً له عن حفيده الفيلسوف (١) دور كبير فى القضاء والفتيا والسياسة . ففى مجال القضاء والفتيا ، كان الناس يفدون عليه ويبعثون إليه بالرسائل من شتى أنحاء الأندلس والمغرب يستفتونه ، ويأخذون بآرائه وفتاواه فى المسائل الفقهية ، ومشاكل حياتهم اليومية التى تتطلب معرفة حكم الشرع فيها ، وظل متقلدًا لخطة القضاء بقرطبة حتى استعفى – وقيل عزل – فى سنة ٥١٣ أو ٥١٥ هـ (٢) .

أما فى السياسة : فقد وقف موقفًا حازمًا ومشهودًا من حملة الفونسو المحارب (ابن ردمير) ملك أرغون (أراجون Aragon) على الأندلس فى سنة ٥١٩ هـ / ١١٢٥ م ، والتى قام خلالها بأعمال النهب والتخريب فى شرق وجنوب شرق الأندلس ، حيث توجه ابن رشد إلى المغرب فى عام ٥٢٠ هـ / ١١٢٦ م إثر تلك الغارة النصرانية المدمرة على الأراضى الإسلامية ، وقابل أمير المسلمين على بن يوسف المرابطى بالحاضرة مراكش ، الذي استقبله بالحفاوة والإكرام ، وأوضح له ابن رشد مدى الخطر المسيحى الذى يهدد بلاد الأندلس ، وماحدث من المُعاهِدة (النصارى المستعربين) بها من غدر ونقض للعهد ، وخروج عن الذمة ، وأفتى بتغريبهم وإجلائهم عن أوطانهم ، وهو أخف ما يُؤخذ به من عقابهم ، واستحسن أمير المسلمين فتواه وأخذ برأيه ، وأمر بإجلاء المعاهدين إلى العدوة المغربية « فأزعج منهم إلى بر العدوة فى رمضان من العام المذكور (أى سنة ٥٢٠ هـ) عدد جم ، أنكرتهم الأهواء وأكلتهم

(١) يُقصد به القاضى الفيلسوف أبو الوليد محمد بن أحمد بن محمد بن رشد ، المعروف عند المؤرخين بابن رشد الحفيد .. اشتهر بعلمه فى مجال الفلسفة والطب ، علاوة على أنه كان من قضاة قرطبة وفقهائها البارزين فى عصر دولة الموحدين ، وتوفى بمراكش فى حدود سنة ٥٩٨ هـ وقبل سنة ٥٩٥ هـ . انظر (النباهى ، نفسه ، ص ١١١ ؛ والسلاوى الناصرى ، الاستقصا لأخبار المغرب الأقصى ، ج ٢ ، الدار البيضاء ، ١٩٥٤ م ص ١٩٢ – ١٩٣ ؛ وفرح أنطون ، ابن رشد وفلسفته ، منشورات جامعة الإسكندرية ، ١٩٠٤ م ، ص ٩ – ٢٢) .

(٢) انظر . ابن بشكوال ، نفسه ، ق ٢ ، ص ٥٧٧ ؛ والنباهى ، نفسه ، ص ٩٩ ؛ والسلاوى ، نفسه ج ٢ ، ص ٦٨ .

الطرق ... » ، كذلك أوصى ابن رشد بضرورة بناء وترميم الأسوار حول المدن ، واستمع أمير المسلمين إلى نصحه ، وشرع فى بناء سور محدق بمراكش - حاضرة المرابطين - فى عام ٥٢٠ هـ / ١١٢٦ م ، كما بعث برسائل إلى أمراء المرابطين فى مختلف الولايات الأندلسية ، يأمرهم فيها بضرورة النظر فى الأسوار بجميع الحواضر هناك [١] .

وللفقيه ابن رشد نشاط علمى ملموس ، ومؤلفات عديدة نذكر منها : كتاب « المقدمات لأوائل كتاب المدونة » ، و « البيان والتحصيل » ، و « بداية المجتهد ونهاية المقتصد » و غيرها ، علاوة على مجموعة النوازل والفتاوى المنسوبة إليه - وهى موضوع بحثنا - والتى اضطلع تلميذه ابن الوزان [٢] بجمعها وترتيبها فى كتاب مستقل عرف باسم « نوازل ابن رشد » [٣] .

وبعد حياة حافلة بالنشاط والعمل فى مجال القضاء والفتيا والتأليف ، توفى الفقيه القاضى أبو الوليد بن رشد بقرطبة عقب عودته من مراكش فى سنة ٥٢٠ هـ / ١١٢٦ م ، ودفن بمقبرة العباس [٤] ، « بالروضة المنحازة لهم بمدفن سلفه » ، وشهد جنازته جمع عظيم من أهل قرطبة [٥] .

---

(١) راجع التفاصيل حول حملة الفرنسو المحارب فى : (مجهول ، الحُلل الموشية ، تحقيق سهيل زكار وعبد القادر زمامه ، الرباط ، ١٩٧٩ م ، ص ٩٠ - ٩٧ ، وابن الخطيب ، والإحاطة فى أخبار غرناطة ، المجلد الأول ، تحقيق عبد الله عنان ، القاهرة ١٩٧٣ ، ص ١٠٨ - ١١٣ ؛ وعبد العزيز سالم ، تاريخ المغرب فى العصر الإسلامى ، الإسكندرية ، بدون تاريخ ، ص ٦٥٠ ؛ عبد الرحمن الحجى ، التاريخ الأندلسى ، دار القلم ، دمشق ، ١٩٨٧ ص ٤٣٢ - ٤٣٣ ؛ Simonet, Historia de Los Mozarabes de Espana, Madrid, 1897, p.790 & Aguadc Bleye, Manual de historia de Espana, t, I Modrid, 1947, P. 589 .

(٢) هو الفقيه أبو الحسن محمد بن عبد الرحمن بن إبراهيم بن يحيى بن مسعود ، المعروف بابن الوزان (ويذكره ابن بشكوال خطأ بابن الوراق) تولى الصلاة بجامع قرطبة ، وكان دَيِّنًا فاضلاً ، معتنياً بتقييد العلم وتوفى بقرطبة فى سنة ٥٤٣ هـ / ١١٤٨ - ١١٤٩ م . انظر (ابن بشكوال ، الصلة ، ق ٢ ، ص ٥٩١ ترجمة رقم ١٢٩٨ ؛ نوازل ابن رشد ، نشر إحسان عباس ، مجلة الأبحاث ، الجامعة الأمريكية بيروت ، مجلد ٢٢ ، ج ٣ - ٤ سنة ٦٩ ص ٥) .

(٣) انظر ابن بشكوال : نفسه ، ق ٢ ، ص ٥٧٧ ، النباهى ، نفسه ، ص ٩٩ ؛ المقري : أزهار الرياض فى أخبار عياض ، ج ٣ ، الرباط ١٩٧٨ ، ص ٦٠ .

(٤) مقبرة العباس أو مقبرة عباس - تسمى أيضاً بمقبرة البرج - وكانت تقع على مقربة من باب عباس ، من أبواب محلة الشرقية بقرطبة انظر (عبد العزيز سالم ، قرطبة حاضرة الخلافة ، ج ١ بيروت ، ١٩٧٢ ، ص ٢٢٦) .

(٥) راجع ترجمة ابن رشد بالتفصيل فى : (ابن بشكوال ، نفسه ، ق ٢ ، ترجمة رقم ١٢٧٠ ؛ =

أهمية نوازل ابن رشد :

أوضحت فى بحث سابق حول مظاهر الحياة الاجتماعية والاقتصادية والدينية والعلمية فى المغرب الإسلامى ، من خلال نوازل المعيار [(١)] ، مدى أهمية كتب النوازل والفتاوى الفقهية بصفة عامة فى دراسة التاريخ الحضاري للمجتمعات الإسلامية [(٢)] ، وعلى هذا فتجنباً للتكرار رأيت أن أركز حديثى فى تلك المقدمة الموجزة على الإشارة إلى أهمية نوازل ابن رشد - على وجه الخصوص - فى دراسة المجتمع الأندلسى فى عصري الطوائف والمرابطين .

فمن خلال دراستنا لنوازل ابن رشد القرطبى يتضح لنا أنها تتناول العديد من جوانب الحياة الاجتماعية والدينية والاقتصادية فى الأندلس خلال النصف الثانى من القرن الخامس الهجرى (الحادى عشر الميلادى) وحوالى الربع الأول من القرن السادس الهجرى (الثانى عشر الميلادى) أى فى عصرى الطوائف والمرابطين .

ويلاحظ على تلك النوازل تميزها بالشمولية ، بمعنى أنها تتعرض لمختلف مظاهر الحضارة ، كما تتميز بتجسيدها للواقع الأندلسى ونبض الحياة اليومية بكل دقة ووضوح وتفصيل . ولاشك أن دراسة تلك النوازل والفتاوى وتحليلها يكشف لنا عن نواحٍ مهمة فى حياة المجتمع الأندلسى ودور الطبقات الاجتماعية فيه ، والتى يندر العثور على معلومات عنها فى مصادرنا التاريخية [(٣)] .

فمن الناحية الاجتماعية تعرضت النوازل لبعض طبقات المجتمع وأهم المشكلات الأسرية (مثل مشكلة زواج المتعة والطلاق وحضانة الأطفال) ، والعلاقات بين الجيران

= التباهى ، نفسه ، ص ٩٨ - ٩٩ ، ابن القطان ، نظم الجمان ، تحقيق محمود مكى ، الرباط ، بدون تاريخ ، ص ١٠٧ هـ ١ ؛ المقرى ، أزهار الرياض ج ٣ ، ص ٥٩ - ٦١ ، نوازل ابن رشد ، نشر إحسان عباس ، ص ٣ - ٨ ؛ Josep Puig, Averroes epitome Fisica, Madrid, 1987, P.9)

(١) جدير بالملاحظة أن الونشريسى صاحب كتاب « نوازل المعيار » أورد فى كتابه هذا الكثير من نوازل وفتاوى ابن رشد ، ولذلك رجعنا إليه مرارًا خلال البحث .

(٢) راجع : كمال أبو مصطفى ، جوانب من الحياة الاجتماعية والاقتصادية والدينية والعلمية فى المغرب الإسلامى ، من خلال نوازل وفتاوى المعيار للونشريسى ، دار نشر الثقافة ، الإسكندرية ١٩٩١ م ، ص ٧ - ٩ .

(٣) انظر : نوازل ابن رشد ، نشر إحسان عباس ، ص ١٠ - ١٤ ، وسعد غراب ، كتب الفتاوى وقيمتها الاجتماعية - مثال نوازل البرزلى ، حوليات الجامعة التونسية ، عدد ١٦ : سنة ١٩٧٨ ، ص ٦٩ - ٧١ .

والمنازعات التى تنشب بينهم وأسبابها ، علاوة على إشارات تتعلق ببعض الاحتفالات الأسرية ، وجوانب من العادات والتقاليد الأندلسية ، ودور المرأة فى العصر المرابطى وإسهاماتها فى الحياة الأدبية والعلمية .

ومن جهة أخرى ألمحت النوازل إلى المذاهب الدينية الغريبة على المجتمع الأندلسى ، والتى اعتنقها قلة من الأندلسيين ، مما أثار قلق الفقهاء المالكية آنَ ذاك . كذلك تسلط النوازل الأضواء على قضية الجهاد ضد النصارى الأسبان ، ومدى أهميتها فى الأندلس خلال عصر المرابطين ، وما ترتب على ذلك من مشكلات اجتماعية ، كما تشير إلى مظاهر الرعاية الاجتماعية فى المجتمع ، وجوانب من القلق الاجتماعى الذى كان الأندلسيون يحسون به نحو المرابطين البربر .

وتحدثت النوازل أيضًا عن مظاهر الفساد والانحلال الأخلاق فى المجتمع ، كحوادث السطو والسرقة ، والمشاجرات والمنازعات المسلحة التى تنشب أحياناً بين الأفراد ، كما أوضحت السياسةَ القضائية والإجراءات التى يتخذها القضاة عند تطبيق حد القصاص فى القتل ، ودورَ القضاء فى الحد من عبث أهل الشر والفساد .

ومن الناحية الطبوغرافية والعمرانية ، أوردت النوازل العديد من أسماء القُرَى والحصون والمواضع التى لا نجد لمعظمها ذكراً فى المصادر التاريخية والجغرافية ، كما أعطتنا فى كثير من الأحيان وصفاً مهمًّا ودقيقًا لبعض القرى الأندلسية ، ومدى الارتباط الوثيق بين سكانها ، وقد احتوت النوازل على معلومات قيمة عن تأثير ازدياد السكان فى مدينة ما على النمو العمرانى بها ، وما تشتمل عليه الدار الأندلسية من غرف ، والعلاقات الاجتماعية بين سكانها .

ومن الناحية الاقتصادية تزودنا النوازل بإشارات قيمة لا ترد عادة إلا فى كتب الفتاوى والحسبة ، وخصوصاً ما يتعلق بوصف الأرحاء وكيفية بنائها ، ومدى اهتمام الأندلسيين باستصلاح الأراضى البور واستثمارها وتحويلها إلى حدائق وبساتين مزدهرة ، ولم تغفل النوازل الإشارة إلى ملامح الريف الأندلسى ، والعملة المتداولة فى بلاد الأندلس خلال عصرى الطوائف والمرابطين ، وأثمان بعض العقارات .

---

(١) الأرحاء : قطعٌ من الأرض غِلاظٌ دون الجبال ، تستدير وترتفع عمّا حولها . وقيل : هى مكان مستدير غليظ يكون بين رمالٍ . [انظر لسان العرب – مادة : « رحا »] .

وأوضحت النوازل أيضًا مدى تأثير الحروب والفتن واضطراب الأمن على الأوضاع الاجتماعية والاقتصادية ، كالعلاقة بين الملاك والمستأجرين ، ورحلة الحجيج الأندلسيين إلى الأراضى المقدسة ، وآثار سقوط بعض الحصون والثغور الأندلسية فى أيدى النصارى الأسبان على مسلمى الأندلس اجتماعيًا واقتصاديًا .

* * *

الأندلس ، « وأقام بها بقية عمره بين جاهه وَوَفْرِه ... » [(١)] .

ويتضح من المصادر أن العلاقات بين بنى عباد أصحاب إشبيلية وبنى زهر قد تحسنت فى عهد المعتمد بن عباد (٤٦١ - ٤٨٤ هـ / ١٠٦٩ - ١٠٩١ م) ، فقام المعتمد باستمالة الطبيب زهر بن عبد الملك بن زهر [(٢)] لبراعته فى الطب ، وحثه على العودة إلى بلده إشبيلية ، وأعاد إليه بعض أملاك أسرته بها ، غير أن ابن زهر لم يستقر بإشبيلية إلا بعد خلع المعتمد وسقوط دولة بنى عباد على أيدى المرابطين فى عام ٤٨٤ هـ / ١٠٩١ م . فاستدعاه أمير المسلمين يوسف بن تاشفين إليه بالعاصمة مراكش ، واستقبله بالحفاوة والتكريم [(٣)] .

وازداد نفوذ ابن زهر فى عهد أمير المسلمين على بن يوسف المرابطى (٥٠٠ - ٥٣٧ هـ / ١١٠٦ - ١١٤٣ م) ، وصار من أهل الحل والعقد ومن ذوى الرأى والمشورة فى بلدة إشبيلية ، ويدل على ذلك قول ابن عذارى ، بأن ابن زهر كان « يولى من قبله حاكمًا يحكم من حاشيته ، وصاحب المدينة [(٤)] من توليته ، وشهود البلد

= صفة المغرب وأرض السودان ومصر والأندلس من كتاب نزهة المشتاق ، طبعة ليدن ، ١٨٩٤ م ، ص ١٩٢ ؛ محمد الفاسى ، الأعلام الجغرافية الأندلسية ، مجلة البينة ، عدد ٣ ، الرباط ١٩٦٢ م ، ص ٣٤) .

(١) ابن بسام ، الذخيرة ، ق ٢ ، مجلد ١ ، ص ٢١٩ ؛ المقرى ، نفح الطيب ، ج ٤ ؛ تحقيق يوسف البقاعى ، بيروت ١٩٨٦ ، ص ٤٠٠ .

(٢) هو الوزير الطبيب أبو العلاء زهر بن عبد الملك بن مروان بن زهر الإيادى ، نشأ بمدينة شاطبة ، وبرع فى علم الطب الذى أخذه عن أبيه ، كما كان شاعرًا أديبًا ، ويذكر ابن بسام أن الآفاق كانت تتهادى عجائبه ، وتتدارس بدائعه وغرائبه خاصة الشام والعراق .. ، وتوفى بقرطبة فى عام ٥٢٥ هـ ، وحمل إلى بلده إشبيلية فدفن بها . (راجع عن بنى زهر : الذخيرة ، ق ٢ ، مجلد ١ ، ص ٢١٨ - ٢٢١ ، ٢٢٧ ؛ وابن سعيد ، المُغرب فى حُلى المَغرب ، ج ١ ، تحقيق شوقى ضيف ، دار المعارف ، ص ٢٧٠ ترجمة رقم ٢٠٠ ؛ وابن الأبّار ، التكملة ، ج ١ ، طبعة عزت العطار ، والقاهرة ١٩٥٦ ، ص ٣٣٤ - ٣٣٥ ترجمة رقم ٩٠٧ ؛ والمقرى ، نفح الطيب ، ج ٤ ، ص ٤٠٠ - ٤٠١ ، وحسن أحمد محمود ، قيام دولة المرابطين ، ص ٤٣٩ - ٤٤٠ ؛ وحمدى عبد المنعم ، تاريخ المغرب والأندلس فى عصر المرابطين ، الإسكندرية ، ١٩٨٦ ص ٤٠٨ ، وسلامة المرفى ، دولة المرابطين ، دار الندوة ، مكة ، ١٤٠٤ هـ ، ص ٣٥٦ - ٣٦٠) .

(٣) انظر : ابن بسام ، نفسه ، ق ٢ ، مجلد ١ ، ص ٢٢٠ ؛ المقرى ، نفح الطيب ، ج ٤ ، ص ٤٠٠ .

(٤) صاحب المدينة : يذكر المقرى - نقلا عن ابن سعيد المغربى - أن صاحب خطة الشرطة فى الأندلس كان يُعرف عند العامة بصاحب المدينة ، أو صاحب الليل ، وكانت مهام صاحب المدينة متعددة ، ومنها : مسئولية عن الأمن فى المدينة ، والإشراف على السجون وجمع الضرائب ، والمحافظة على الآداب العامة ، وكذلك الإشراف على تنفيذ الأحكام التى يصدرها القاضى ، حيث كان أعوان صاحب المدينة هم الذين يقومون بتنفيذ تلك الأحكام =

بحكمه ، وأمر المستخلص (أى أملاك بيت المال) وأملاك السلطان جارية على نهيه وأمره بمدينة إشبيلية .. » [١] .

وظل ابن زهر يحتفظ بمكانته ونفوذه إلى أن تغيَّر عليه الأمير على بن يوسف فى عام ٥١١ هـ / ١١١٧ - ١١١٨ م بسبب وشايات خصومه ومنافسيه ، فلم يسمح له بالقدوم عليه بالحاضرة مراكش [٢] .

وجدير بالملاحظة أن الفقهاء ورجال الدين والقضاة تمتعوا بمركز مرموق فى ظل دولة المرابطين التى كانت تحرص على استمالتهم وتوثيق أواصر العلاقات معهم ، حتى تضمن مساندتهم لها ، مما يدعم سلطة المرابطين ، وخصوصًا فى البلاد الأندلسية ، وهذا كان له أثره فى ازدياد ثراء الفقهاء الذين احتكروا معظم المناصب العليا فى ذلك العصر ، خصوصًا خطط القضاء والفتيا والحسبة [٣] .

ومن أمثلة تلك الأسر المنتمية إلى طبقة الفقهاء الثرية ، والتى أشارت إليها النوازل : أسرة الفقيه سفيان بن العاصى الأسدى [٤] ، وأصل سلفه من مربيطر [٥]

= ويذكر ابن عبدون أن صاحب المدينة يجب أن يكون رجلاً عفيفاً ، فقيهاً ، شيخًا ، لأنه فى موضع الرشوة وأخذ أموال الناس .. ويجب ألا ينفذ أمرًا من الأمور الكبار إلا أن يعرف القاضى والسلطان بذلك ... » . (انظر : ابن عبدون ، رسالة أندلسية فى القضاء والحسبة ، نشر ليفى بروفنسال ، القاهرة ، ١٩٥٥م ، ص ١٦ - ١٧ ؛ والمقرى ، نفح ، ج ١ ، ص ٢٠٦ ؛ وليفى بروفنسال سلسلة محاضرات عامة فى أدب الأندلس وتاريخها ، ترجمة عبد الهادى شعيرة ، الإسكندرية ، ١٩٥١ م ، ص ٨٠ - ٨١) .

(١) البيان المغرب ، ج ٤ ، ص ٦٥ .

(٢) ابن عذارى ، البيان المغرب ، ج ٤ ، ص ٦٥ .

(٣) انظر . سعيد عاشور ، الحياة الاجتماعية فى المدينة الإسلامية ، مجلة عالم الفكر ، مجلد ١ ، الكويت ١٩٨٠ ، ص ٩٣ - ٩٤ ؛ وعز الدين موسى ، النشاط الاقتصادى فى المغرب ، بيروت ص ١٥٢ - ١٥٣ .
Levi-Provençal, Histoire, t. III, PP 196-197 .

(٤) هو أبو بحر سفيان بن العاصى بن أحمد بن العاصى بن سفيان الأسدى ، أصله من مربيطر ، حيث ولد فى سنة ٤٤٠ هـ ، وسكن قرطبة ، وكان من كبار العلماء بها فى عصرى الطوائف والمرابطين ، ويصفه ابن بشكوال « بأنه من جُلة العلماء وكبار الأدباء ، وكان ضابطًا لكتبه ، صدوقًا فى روايته ، حسن الخط ، جيد التقييد ، من أهل الرواية والدراية ... » ، وتوفى بقرطبة فى سنة ٥٢٠ هـ / ١١٢٦ م ودفن بالربض . (انظر : ابن بشكوال ، الصلة ، ق ١ ، ص ٢٣٠ ترجمة رقم ٥٢٧) .

(٥) مربيطر أو مرباطو (Murviedro) ، تسمى الآن ساجنتو Sagunto ، وهى تقع فى منطقة شرق الأندلس ، شمال بلنسيه ، على مسافة ١٢ ميلاً منها . وتذكر المصادر أنها مدينة قديمة مطلة على البحر المتوسط ، وكانت من أعمال كورة بلنسيه ، وبها « قرى عامرة ، وأشجار ، ومستغلات ، ومياه متدفقة .. (انظر : الرازى ، وصف الأندلس ، نشر ليفى بروفنسال فى : Al-Andalus, XVIII, Madrid, 1953, P.72,

غير أنه سكَنَ قرطبة ، وكان من الفقهاء وأهل العلم فيها ، وعلى صلة بالفقيه القاضى ابن رشد – صاحب النوازل – أما أخوه محمد بن العاصى الأسدى فكان من أعيان بلده مربيطر ، ومن ذوى الأموال والأملاك فيها ، فتذكر النوازل أنه التزم بعد أداء حجة الفريضة على تثمير عقاره ، والنظر فيه بما ينمى غلته ، وانتشر عنه فى بلده الذكر سبعة حال ووفور مال (أى الأموال النقدية) (١) ...

المؤدبون :

أشارت النوازل إلى فئة المؤدبين ، أو معلمى الكتاتيب وواجباتهم ودورهم فى التعليم الدينى ، فتفيد إحدى النوازل بأن المؤدبين كانوا يحصلون على أجرة مقابل تحفيظ الصبيان القرآن الكريم (٢) .

ويتضح من المصادر أن تلك الطائفة كانت كثيرة العدد داخل المجتمع الأندلسى ، ويبدو أن بعضهم كان يهمل فى أداء واجباته ، ولذا كان لابد من الإشراف عليهم من قبل المحتسب أو صاحب السوق ، فيذكر ابن عبدون أنه يجب « منع المؤدبين من حضور الولائم والجنائز والشهادات إلّا فى يوم عطلة ، فإنهم مستأجرون » ، كما ينبغى على المؤدب ألّا يكثر من الصبيان ، حتى يتمكن من الإشراف عليهم ورعايتهم ، « فالتعليم صناعة تحتاج إلى معرفة ودُربة ولطف ، فأكثر المؤدبين جُهال بضاعة التعليم لأن ضبط القرآن شيء والتعليم شيء آخر لا يحكمه إلا عالم به ... » ، ويضيف ابن عبدون أن معنى التأديب هو أن يقوم المؤدب بتعليم الصبى تجويد تلاوة القرآن وحسن الألفاظ فى القراءة والخط الحسن والهجاء ، ويأمر من كان كبيرًا بالصلاة (٣) .

ويتصل بالمؤدبين ، فئة أهل العلم من قُراء الحديث والأدباء والكُتّاب وغيرهم ، وقد تعرض لهم ابن رشد فى نوازله ، وأشار إلى أن قلة منهم جنحوا إلى التطرف ، فاستخفوا باللغة العربية ، وجهروا بالقول بأنهم لا يحتاجون إلى لسان العرب ، وأخذوا

---

(١) نوازل ابن رشد ، ص ٥٠ .

(٢) الونشريسى ، المعيار المعرب ، ج ٨ ، نشر وزارة الأوقاف المغربية ، ١٩٨١ م ، ص ٢٥٢ .

(٣) انظر . ابن عبدون ، رسالة أندلسية فى القضاء والحسبة ، ص ٢٥ ، ومحمد توفيق بليع : المسجد والحياة فى المدينة الإسلامية ، مجلة عالم الفكر ، مجلد ١١ ، الكويت ١٩٨٠ ، ص ٢١٢ ؛ وليفى بروفنسال ، سلسلة محاضرات عامة فى أدب الأندلس وتاريخها ، ص ٩٣ .

يقرءون بعض سور القرآن باللسان الأعجمي (أى لاتينية أهل الأندلس المعروفة باللغة الرومانسية Romance [١] . ومن الغريب أن يظهر مثل هذا التطرف فى عصر بعث ديني ، مثل عصر دولة المرابطين ، التى اهتم حكامها بالنواحي والجهاد ورعاية الفقهاء والعلماء .

الجنـــد :

ألمحت إحدى النوازل إلى طائفة من طوائف المجتمع الأندلسى وهم الجند من المرابطين البربر والأندلسيين ، كما أشارت إلى مستواهم المعيشى ، ويتضح من النازلة أن الجند – سواء من المغاربة البربر أو الأندلسيين – كانوا يتمتعون بمركز اقتصادى واجتماعي مرموق ، وبمستوى معيشي مرتفع . حيث كانوا يصرفون رواتب عينية تعرف بالبراءات ، وهى عبارة عن كميات من الطعام أى الحبوب ، يصرفها أمير المسلمين المرابطى للجند فى الحصون والثغور ، وهى تشبه المواساة التى كان يفرقها الموحدون كل سنة بعد وصول المحاصيل إلى مخازن الدولة [٢] .

ويستدل من تلك النازلة على أن الجند المرابطين كانوا يبيعون تلك البراءات (الأطعمة) إلى أهل الأندلس قبل قبضها ، مما دفع ابن رشد إلى الإفتاء بأنه « لا يجوز للجند من المرابطين وغيرهم بيع الطعام المرتب لهم على خدمتهم وعملهم إذا خرجت لهم به البراءات إلا بعد أن يقبضوه ويستوفوه ... » ونستنتج من ذلك أن عطاء الجند المرابطى كان أثبت وأكثر من عطاء الجند الأندلسى ، ولعل مثل هذا التمييز يفسر جانبًا من مظاهر القلق الاجتماعي الذى كان الأندلسيون يحسون به نحو المرابطين البربر القادمين من المغرب [٣] ، ولعله يبرر إلى حد كبير ثورات أهل الأندلس على المرابطين قرب نهاية عصرهم .

---

(١) نوازل ابن رشد ص ٥٧ و ٥٩ ، وتجدر الإشارة هنا إلى أنه عندما عرضت تلك النوازل وأمثالها على ابن رشد أوضح أن من يسب أو يستخف باللغة العربية عليه أن يتوب ويقلع عن مثل هذا القول . أما إذا ظهر خبث فى دينه أو نحو ذلك ، فعلى الإمام أن يقوم بتقويمه وتأديبه التأديب الموجع حسبما يرى . انظر (نوازل ابن رشد ، ص ٥٧ و ٥٩) . وعن ظاهرة ازدواجية اللغة بين الأندلسيين راجع أيضاً : (لطفى عبد البديع ، الإسلام فى أسبانيا ، نشر مكتبة النهضة المصرية ، ١٩٦٩ ص ١١٠ ؛ وأحمد مختار العبادى ، الإسلام فى أرض الأندلس ، مجلة عالم الفكر ، المجلد العاشر ، العدد الثانى ، الكويت ١٩٧٩ م ، ص ٣٥٠ – ٣٥٢) .

(٢) نوازل ابن رشد ، ص ٢١ ؛ وعز الدين موسى ، النشاط الاقتصادى فى المغرب ، ص ١٤٢ – ١٤٤ .

(٣) نفس المصدر السابق ، ص ١١ ، ٢١ .

الأسرة ودور المرأة فى المجتمع الأندلسى

أمدتنا نوازل وفتاوى ابن رشد القرطبى بمعلومات قيمة حول الحياة العائلية فى الأندلس ، ودور المرأة فى المجتمع ، فتشير إحدى تلك النوازل إلى وجود الحاضنة أو المربية التى كانت تحصل على أجرة معينة يتفق عليها نظير قيامها بهذا العمل ، كما كان يحق لها بعد انتهاء مهمتها زيارة محضونتها من حين لآخر ، « خوفا من المضرة من انقطاعها ، لأنها أشفق على المحضونة وأنفع لها من كثير من قرابتها » [(١)] .

وقد تعرضت النوازل للعديد من المشاكل الأسرية ، من ذلك نازلة – يندر وجودها ضمن كتب النوازل والفتاوى الأندلسية والمغربية – تتعلق بمشكلة زواج المتعة ، وهو الزواج إلى أجل معين ، فتذكر النازلة أن رجلاً من أهل العلم فى مدينة بطليوس [(٢)] تزوج امرأة نكاح متعة إلى أجَلٍ مُسمى ، بلا ولِّى ولا صداق إلا نصف درهم ، وأقر عند القاضى بوطئها ، وبرر اضطراره إلى هذا الزواج – برغم تحريمه – بأنه لم يستطع أن يتزوج زواجًا مشروعاً خوفًا من أبيه الذى لم يكن يسمح له بهذا الزواج ، كما أن الذى تزوجها زواج متعة لم تكن تصلح لمثله ، وأنه خشى أن يزنى بها ، فلجأ إلى زواج المتعة [(٣)] .

---

(١) انظر . الونشريسى ، المعيار المعرب ، ج ٣ ، ص ١٠٧ .

(٢) بطليوس (Badajoz) : إحدى مدن منطقة غرب الأندلس ، حاضرة بلاد الجوف ، ويصفها الإدريسى بأنها مدينة جليلة فى بسيط الأرض ، وعليها سور منيع ، وهى تقع على ضفة نهر « يانه » قبل اتجاهه إلى المصب بنحو ستين كيلو متراً . والمعروف أن اسم بطليوس لم يظهر إلا فى عهد الأمير الأموى محمد بن عبد الرحمن الأوسط (٢٣٨ – ٢٧٣ هـ) عندما ثار عليه عبد الرحمٰن الجليقى المولّد فى سنة ٢٦١ هـ / ٨٧٤ – ٨٧٦ م) فاستقل بتلك المنطقة ، وأسس بها مدينة بطليوس الجديدة وعمَّرها ، وازدهرت بطليوس عمرانيًا واقتصاديًا وثقافيًا فى عصر الطوائف عندما استقل بها بنو الأفطس . (انظر الإدريسى ، المصدر نفسه ، ص ١٨١ ، وابن عذارى ، المصدر نفسه ، ج ٢ ، ص ١٠٢ ، وعبد العزيز سالم فى تاريخ وحضارة الإسلام فى الأندلس ، الإسكندرية ١٩٨٥ ، ص ١٠١ ؛ وسحر سالم ، تاريخ بطليوس الإسلامية ، ج ١ ، الإسكندرية ١٩٨٩ ص ١٦١) .

(٣) نوازل ابن رشد ، ص ٥٦ ؛ الونشريسى ، المصدر نفسه ، ج ٤ ، ص٤٩ ؛ وسعد غراب ، كتب الفتاوى وقيمتها الاجتماعية ، ص ٩٦ – ٩٧ . ويذكر ابن رشد أن نكاح المتعة الذى نَهى عنه النبى (ﷺ) وحرمه وأجمع العلماء على تحريمه هو أن يتزوج الرجل امرأة إلى أجل معلوم بولِّى وصداق وشاهدين ، وتكون أمور الزوجية كلها قائمة بينهما إلى ذلك الأجل – عدا الميراث . ويضيف بأنه إذا تراضى رجل مع امرأة فيما بينه وبينها على أن يطأها ويستمتع بها مدة من الزمان على شىء يبذله لها من ماله ، فليس ذلك بنكاح المتعة وإنما هو زنى ولذا يجب إقامة الحد عليه . وجدير بالملاحظة أن نازلة زواج المتعة – سالفة الذكر – تختص برجل من أهل العلم =

وعندما عرضت تلك القضية على ابن رشد أفتى بإقامة الحد على مَنْ تزوج زواج متعة ، لأن الرجل . تزوج بغير ولىّ للمرأة ، وعُقد النكاح بشهادة غير العدول (١) .

وهناك أيضًا مشكلة الطلاق ، التى كان من أهم أسبابها فى الأندلس الضرر الذى يلحق بالزوجة من زوجها ، وكان لهذا الضرر صور شتى منها : سوء معاملة الزوج لزوجه ، وكثرة مشاجراته معها (٢) ، أو غياب الزوج عن زوجه فترة طويلة بسبب الجهاد ضد النصارى أو فقدان الزوج أثناء الحروب والفتن الداخلية بحيث لا تدرى الزوجة حياته من مماته (٣) .

وألمحت إحدى النوازل إلى مشكلة أسرية أخرى ، وهى مشكلة حضانة الأطفال ، ومدى أحقية كل من الزوجين فى تلك الحضانة . فتفيد النازلة بأن رجلاً طلق امرأته وله منها ابنة تركها عند والدتها (مطلقته) التى تزوجت من آخر ، ومكثت

= أو المتقمين الذين انغمسوا فى حياة اللهو والمجون ، ويعللون مجونهم واستهتارهم الدينى ببعض التفسيرات الدينية ، ولعلهم أول المقرين داخليًا بمغالطتها ، وهذا ما سبب غضب ابن رشد وحنقه على صاحب تلك النازلة ، إذ يعلق على الخبر بقوله : « وما ذكرته عنه – أى الرجل صاحب النازلة – من المعرفة والطلب حجة عليه توجب له الخزى فى الدنيا والآخرة ، وتنزله أسوأ المنازل ، لأنه عرف الحق فعانده ، والصواب فغالطه ، والمحظور فاقتحمه اجتراءً على الله ، واستخفافًا بحدوده ، وتلاعبًا بدينه .. » انظر (نوازل ابن رشد ، ص ٥٦ ؛ وسعد غراب ، المصدر نفسه ، ص ٩٦ – ٩٧) .

(١) نوازل ابن رشد ، ص ٥٦ . وجدير بالذكر أن كتب الحسبة الأندلسية تعرضت أيضاً لزواج المتعة وحذرت منه ، فيقول ابن عبد الرءوف : « ويُمنع الناس والموثقون من عقد نكاح المتعة فهو حرام ، لأنه لا ميراث فيه ولا عدة .. ويفسخ ويعاقبون عقوبة موجعة .. وهذه العقوبة على الزوجين والولى والشهود » . انظر (رسالة

الابنة معها حوالى خمسة أعوام ، وعندئذ أراد الأب أخذ ابنته من والدتها التى رفضت ذلك ، ولجأ الأب إلى القضاة وأهل الفتوى ، فأفتى ابن رشد – آن ذاك – بأنه لا يحق للأب أخذها إلا أن يثبت عدم أمانة الأم على حضانة ابنتها (١) .

وتشير نازلة أخرى إلى أن الزوجة بعد طلاقها كانت تترك ابنها أو ابنتها – غالبا – عند أمها ، خاصة فى حالة زواجها مرة أخرى ، وهنا كان على الأب إجراء النفقة على ابنه أو ابنته (٢) .

ويتضح من النوازل كثرة الهبات والصدقات والأحباس داخل نطاق الأسرة ، فهناك ما يشير إلى أن رجلاً وهب ابنته – فى صحته وجواز أمره – رباعًا (٣) مكونة من دارين وثلاثة حوانيت ، كذلك تصدقت الأم على ابنتها المذكورة بمائة مثقال (أى دينار من الذهب) ، كما وهب الأب ابنته قبل وفاته حليًا وثيابًا (٤) .

وتضيف نازلة أخرى أن رجلاً بإشبيلية – فى عصر المرابطين – يسمى أيوب وهب لابنته – وتدعى عائشة – بعض الأموال والأملاك ببلده إشبيلية ، واشترط الأب فى عقد الهبة أنه فى حالة وفاة ابنته عائشة الموهوب لها من غير ولد فإن الهبة المذكورة ترجع إلى حفيدته أمة الرحمن المدعوة بقنة ابنة أحمد ، وإن لم تكن قنة على قيد الحياة عند موت عائشة ، فإن الهبة تورث عن عائشة لمن يحق له ذلك من ورثتها (٥) . كذلك هناك مايفيد بقيام رجل من أهل أشبونة (٦) بشراء دار ، وهبها لزوجته ، كما

---

(١) انظر ، الونشريسى ، المعيار ، ج ٤ ، ص ٥١٧ .

(٢) نفس المصدر السابق ، ج ٤ ، ص ٥١٧ .

(٣) الرباع : جمع ربع ، وتُطلق على الدار وما حولها ، وهى العقار من الدور والحوانيت ونحو ذلك . انظر (ابن الرامى ، الإعلام بأحكام البنيان ، تحقيق محمد عبد الستار ، الاسكندرية ١٩٨٩ ، ص ١٧٠) .

(٤) الونشريسى ، المصدر نفسه ، ج ٩ ، ص ١٣٠ – ١٣١ .

(٥) المعيار ، ج ٩ ، ص ١٣٢ – ١٣٣ .

(٦) أشبونة (Lisbonne) : إحدى مدن منطقة غرب الأندلس ، وتقع على البحر المحيط (المحيط الأطلسى) شمال نهر تاجة قرب مدينة شنترين ، ويصفها الإدريسى بأنها مدينة حسنة ممتدة مع النهر ، ولها سور وقصبة منيعة ، واشتهرت بكثرة الثمار وامكان ضروب الصيد من بر وبحر ومعدن من التبر الخالص . انظر (الإدريسى : صفة المغرب ، بلاد السودان ومصر والأندلس ، ص ١٨٣ – ١٨٤ ؛ ابن غالب ، فرحة الأنفس ، تحقيق لطفى عبد البديع ، مجلة معهد المخطوطات العربية ، ج ٢ ، القاهرة ١٩٥٥ ، ص ٢٩١ ؛ عبد العزيز سالم ، فى تاريخ حضارة الإسلام فى الأندلس ، ص ١٠٧ ؛ ومحمد الفاسى ، المصدر نفسه ، ص ٢٠ – ٢١) .

تصدق رجل أندلسى على ابنته بتابوت فى بيته يحوى حليًا وثيابًا ، وكتب بذلك عقدًا أشهد عليه بعض الشهود العدول فى بلدته (١) .

ومن الملاحظ أيضًا أن أهل الأندلس وجهوا عنايتهم إلى حبس – أى وقف – بعض الأملاك والعقارات على أبنائهم وأفراد أسرتهم وأقربائهم ، ومن ذلك قيام الفقيد محمد بن زهر (٢) فى سنة ٤١٤ هـ / ١٠٢٣ – ١٠٢٤ م بحبس فندق وضياع ببلده إشبيلية على ذريته وأعقابهم ما تناسلوا (٣) ، كذلك قام رجل يدعى ابن أبى عبدة فى سنة ٤٢٩ هـ / ١٠٣٧ ع ١٠٣٨ م بحبس دار قرب مسجد طرفه بقرطبة على ابنه وابنته (٤) .

ومن جهة أخرى ألمحت النوازل إلى بعض العادات والتقاليد داخل الأسر الأندلسية ، فمن ذلك الاحتفال بختان الطفل (ويسمى حفل الإعذار) الذى كان يتم غالبًا فى العام السابع من عمره ، حيث جرت العادة أن يقوم رب الأسرة بدعوة أقربائه وأصدقائه إلى الحضور وليمة فى داره للاحتفال بذلك الحَدَث السعيد (٥) . ومن أمثلة تلك الاحتفالات – والتى ورد ذكرها فى إحدى النوازل – حفل اعذار أقيم بقرطبة فى سنة ٤٩٩ هـ / ١١٠٥ – ١١٠٦ م حضره فقيه قرطبى فى دار أحد رجال الحاشية فى بلاط ابن الحاج أمير قرطبة المرابطى آن ذاك (٦) .

---

(١) المعيار ، ج ٩ ، ص ١٥١ ، ١٨٧ ، ج ١٠ ، ص ٣٩٠ .

(٢) هو أبو بكر محمد بن مروان بن زهر الإيادى ، من أهل أشبيلية ، وعندما صادر ابن عباد أمواله وأجبره على الخروج عن بلده ، رحل إلى شاطبة فسكنها فترة من عمره ، وكان فقيهاً حافظًا للرأى ، حاذقًا بالفتوى ، مقدمًا فى الشورى ، وتوفى بطليرة قرب طليطلة فى سنة ٤٢٢ هـ / ١٠٣١ م . انظر (ابن بسام ، نفسه ، ق ٢ ، مجلد ١ ، ص ٢١٩ ؛ ابن شكوال ، نفسه ، ق ٢ ، ص ٥١٤ – ٥١٥) .

(٣) نوازل ابن رشد ، ص ٢٤ – ٢٥ .

(٤) نفس المصدر السابق ، ص ٢٨ – ٢٩ . وجدير بالإشارة هنا أنه علاوة على حرص رب الأسرة فى الأندلس على توفير الحياة الكريمة لزوجه وذريته – سواء بالحبس أو الهبة ، فإنه وجدت مظاهر عديدة للرعاية الاجتماعية والتكامل الاجتماعى بين أفراد المجتمع الأندلسى ، فهناك إشارة إلى قيام رجل بإحدى مدن الأندلس بالتطوع بالنفقة على رجل آخر مدة حياته ، كذلك قام أحد الأثرياء بتزويج عبده ، والتزم طائعًا متبرعاً بالإنفاق على زوجته ما استمرت الحياة الزوجية بينهما . راجع التفاصيل فى : (المعيار ، ج ٣ ، ص ١٩ ، ٤٠٠ ؛ ج ٩ ، ص ٤٠٨ ، ٤٥٥) .

(٥) انظر سعيد عاشور – الحياة الاجتماعية فى المدينة الإسلامية ، مجلة عالم الفكر ، مجلد ١١ ، الكويت ١٩٨٠ م ، ص ١٠٤ ؛ Levi-Provençal, Histoire, t. III, P.406 .

(٦) المعيار ، ج ٤ ، ص ٤٤٧ .

كذلك هناك إشارة إلى عادة أندلسية كانت تتبعها الأسرة في الجنائز ، وهي قيام المرأة بالخروج وراء جنازة زوجها عند وفاته ، فتذكر إحدى النوازل أن الحرة حواء بنت تاشفين (ابنة أخي أمير المسلمين يوسف بن تاشفين) ، خرجت تتبع نعش زوجها الأمير سير بن أبي بكر (١) – والي إشبيلية ، وتضيف نازلة أخرى بأن المرأة كانت تقف أحيانًا على شفير قبر زوجها عند دفنه (٢) .

ومن العادات الأندلسية أيضًا ، والتي وُجدت في كثير من المدن مثل قرطبة ومرسية ، أن الإمام الذي يصلي بالناس صلاة عيد الأضحى لا يخرج أضحيته إلى المصلى (الشريعة) لذبحها عند انصرافه من خطبة العيد ، بمعنى أنه لا يقوم بذبح أضحية العيد إلا بعد الوصول إلى داره (٣) .

وفيما يتعلق بمكانة المرأة في الحياة العامة ودورها في المجتمع خلال عصري الطوائف والمرابطين ، فقد أمدتنا النوازل بمعلومات قيمة تفيد بأن الأميرات من أسرة بني تاشفين – حكام الدولة المرابطية – كن يتمتعن بثراء واسع ، وكثرت صدقاتهن على الفقراء والمساكين واليتامى بالأندلس ، ومن أمثله ذلك : قيام الحرة حواء – عقب وفاة زوجها سير – بالتصدق بثلث مالها على المساكين في مدينة إشبيلية كما أعتقت ما لديها من رقيق لوجه الله تعالى (٤) .

---

(١) هو أبو محمد سير بن أبي بكر بن تاشفين اللمتوني ، ابن أخي أمير المسلمين يوسف بن تاشفين المرابطي ، ومن أكبر قواده ، فقد قام بخلع المعتمد بن عباد بإشبيلية سنة ٤٨٤ هـ ، وتولى إمارتها حوالي سبع وعشرين سنة ، كما قام بمحاصرة بطليوس ودخولها عنوة في سنة ٤٨٧ هـ والقضاء على حكم بني الأفطس بها ، وتوفي الأمير سير بإشبيلية في سنة ٥٠٧ هـ / ١١١٣ – ١١١٤ م ودفن بها . انظر (ابن أبي زرع ، وروض القرطاس ، طبعة أوبساله ، ١٨٤٣ م ، ص ١٠٥ ؛ ابن عذارى ، نفسه ، ج ٤ ، ص ٥٦ ، ص ٥٧ ؛ عبد العزيز سالم ، تاريخ المغرب في العصر الإسلامي ، ص ٦٤٥ ؛ الحجي ، التاريخ الأندلسي ، ص ٤٢٣ وراجع أيضًا التفاصيل حول أسرة بني تاشفين في : Codera, La Familia real de los Beni Texufin, Madrid, 1917 pp. 75,s99

(٢) انظر نوازل ابن رشد ، ص ٢٢ ؛ الجرسيفي ، رسالة أندلسية في الحسبة ، نشر ليفي بروفنسال ، ص ١٢١ .

(٣) انظر . المعيار ، ج ٢ ، ص ٣٢ – ٣٣ . ومن الملاحظ في هذا الصدد أن تأخر الإمام في ذبح أضحيته يؤدي إلى قيام بعض الناس بالذبح قبل إمامهم . وأوضح ابن رشد أن الذبح يوم عيد النحر للضحايا مرتبط بذبح الإمام أضحيته ، وذلك وفق مذهب الإمام مالك ، ويضيف بأنه يجب على أهل كل بلد وقرية تُصلى فيها صلاة العيد جماعة ألا يذبحوا أضحياتهم حتى يذبح إمامهم الذي صلى بهم صلاة العيد . ويذكر الونشريسي أن بلدان إفريقية على خلاف الأندلس في تلك العادة ، فهم لا يذبحون أضحياتهم إلا بعد قيام السلطان أو الأمير الذي تؤدى إليه الطاعة بالذبح . راجع : (المعيار ، ج ٢ ، ص ٣٢ – ٣٣ ، ٣٥) .

(٤) نوازل ابن رشد ، ص ٢٢ .

وكان للحرة حواء دور بارز فى الحياة الأدبية سواء فى مراكش – حاضرة المرابطين – أو فى إشبيلية التى سكنتها بعد ذلك ، فتذكر المصادر أنها كانت تحضر مجالس الشعراء والأدباء والكُتاب ، وتشارك فى تلك المجالس الأدبية بالشعر ، حيث كانت أدبية شاعرة ذات نباهة ، واختصت الشعراء والأدباء برعايتها وأعطياتها ، وامتدحها الشاعر الوشاح الأندلسى الأعمى التطيلى بعدة قصائد [١] .

ونستنتج من النوازل أيضًا أن المرأة – خلال عصرى الطوائف والمرابطين – كانت تتمتع بالحرية الاقتصادية ، وخصوصًا التصرف بالعقود والوصايا ، وتمكنها من إدارة تجارتها ، والسيطرة المستقلة على شئونها المالية ، وكذلك هناك مايشير إلى قيام المرأة بإقراض زوجها واشتراكها مع قوم فى استثمار أراض زراعية [٢] .

* * *

(١) راجع : ابن عذارى ، البيان المغرب ، ج ٤ ، ص ٥٧ ؛ وابن عبد الملك المراكشى ، الذيل والتكملة ، السفر الثامن ، تحقيق محمد بن شريفة ، المغرب ، بدون تاريخ ، ص ٤٩٧ ، هـ ١١٢٤ ، وحسن أحمد محمود ، قيام دولة المرابطين ، ص ٤١٦ ؛ وحمدى عبد المنعم ؛ نفس المرجع السابق ؛ ص ٣٣٤ ؛ وسلامة المرفى ، دولة المرابطين ، ص ٢٩٦ – ٢٩٧ . ومن أمثلة شعر التطيلى فى مدح الحرة حواء قوله :

أما رأيت ندى حواء كيف دنا بالغوث إذ كان يأتى دونة المطلب
دين ولا ترف دين ولا قشف ملك ولا سرف درك ولا طلب

(انظر : ابن عبد الملك المراكشى ، نفسه ، السفر الثامن ، ص ٤٩٧) .

(٢) نوازل ابن رشد ، ص ١٣ – ١٤ ، ٥٣ – ٥٥ ؛ الونشريسى ، المعيار ج ٩ ، ص ١٥١ ، ٣٨٣ .

العلاقات بين الجيران

أشارت نوازل ابن رشد إلى العلاقات بين الجيران داخل المدن الأندلسية ، وحقوق ارتفاق الجوار ، أى إمكانية انتفاع الجار بما توجب الحاجة إليه من المبنى المجاور بدون إضرار بحق جاره ، ويتضح من تلك النوازل أن كسب حق الارتفاق كان مقرًّا به فى حالة وجود ضرورة ملجئة إلى تقريره ، ولكن يشترط الاتفاق بين الجيران على هذا المبدأ والتراضى بينهم ، مع الحرص على عدم إلحاق ضرر بأحد منهم ، مما يدل على مدى التعاون بين الجيران داخل المجتمع ، والاهتمام بتطبيق المبدأ الإسلامى بأنه « لا ضرر ولا ضرار » ، وأن دفع الضرر مُقدم على جلب المنافع ، غير أن ذلك لم يمنع من نشوب بعض المنازعات أو الخلافات أحيانًا بين الجيران ، والتى كانت تحسم سريعًا عن طريق القضاة وأهل الفتوى [١] .

وقد أوردت النوازل العديد من الأمثلة التى توضح العلاقة بين الجيران ، والالتزام بعدم الإضرار بالجار ، ومن ذلك نازلة عرضت على ابن رشد ، ومَفادها أن رجلاً له غرفة وبابها يقابل سطح بيت جاره ، ولا يرى منه غير السطح الذى يتصل بالغرفة ، وظل الحال هكذا فترة طويلة من الزمن إلى أن باع صاحب البيت داره ، وأراد المشترى رفع بنيان البيت ليعلو كالغرفة ، فيسد بذلك على جاره باب غرفته ، غير أن الجار (صاحب الغرفة) منعه من ذلك ، وعندما احتكما إلى الفقيه القاضى ابن رشد ، قضى بأن لصاحب البيت أن يرفع بنيانه ماشاء ، شرط ألا يسد باب غرفة جاره ، وعليه أن يستر على أهله إن شاء ، أما إذا كان باب الغرفة ينتفع به فقط فى التطلع على جاره ، فمن حقه أن يسد باب الغرفه لقول رسول الله « لا ضرر ولا ضرار » [٢] .

كذلك تشير نازلة – سُئل عنها ابن رشد – إلى وجود بابين متقابلين لجارين ، وبينهما زقاق [٣] نافذ ، فعمد أحدهما إلى فتح باب وحانوتين فى داره ،

---

(١) انظر ابن سهل الأندلسى ، وثائق فى شئون العمران فى الأندلس مستخرجة من الأحكام الكبرى ، تحقيق محمد خلاف الكويت ١٩٨٣ ، ص ٤١ ؛ ومحمد عبد الستار عثمان ، المدينة الإسلامية ، عالم المعرفة ، الكويت ١٩٨٨ م ، ص ٣٣٠ .

(٢) انظر . المعيار ، ج ٩ ، ص ١٩ ؛ محمد عبد الستار عثمان ، المدينة الإسلامية ، ص ٣٣٢ ، ٣٣٣ .

(٣) اصطلح أهل المغرب والأندلس على إطلاق كلمة « زقاق » على الطريق الضيق ، سواء كان نافذًا أو غير نافذ ، والزقاق دون السكة . (ابن الرامى ، الإعلام بأحكام البنيان ، تحقيق محمد عبد الستار ، ص ١٧٨) .

مما أدى إلى إيقاع الضرر بجاره ، فلم يعد يمكن لأحد الدخول أو الخروج من باب دار جاره إلا ويراه من هو بالحانوتين من الناس ، ولذلك حكم ابن رشد بأنه إذا ثبت ما ذكر ، فإنه يُؤْمَرُ صاحب الحانوتين بتحويل اتجاه بابيهما ليكونا بعيدين عن مواجهة باب دار جاره (١) .

وكان النزاع ينشب – أحيانًا – بين الجيران بسبب عين الماء التى تنبع فجأةً فى إحدى الدور ، مما يحدث ضررًا بسكانها ، فتذكر إحدى القضايا أن عينًا نبعت فى وسط دار قديمة ، وأضر الماء بها ، فضاقت السكنى فيها ، وكانت بإزاء الدار المذكورة عَرَصه (أى أرض فضاء ملاصقة للدار) ، لرجل ثان ، فهوى هذا الماء عليها ، ورأى صاحب الدار أن يخرج الماء إلى هذه العرصة ، بعمل سرب تحت الأرض ، فيكون ذلك صلاحًا بين الجارين ، إذ ليس فى ذلك إضرارٌ بالعرصة . وقد أفتى ابن رشد فى تلك القضية بأنه إذا كانت العين قد نبعت فى داره دون أن يستنبطها ، فمن حقه أن يرسل الماء إلى تلك العرصة إن كانت تقع فى الجهة التى إليها انصباب الماء ، وليس أن يحفر للماء تحتها سربًا إلا بإذن صاحب العرصة وموافقته تطبيقًا للمبدأ الإسلامى « لا ضرر ولا ضرار ... » (٢) .

ومن الملاحظ فى المدن الأندلسية كثرة تضرر أصحاب الدور المجاورة للمساجد ، حيث يسهل إطلاع ضعاف النفوس من المؤذنين على ما يدور داخل تلك الدور ، ويكشفون من المآذن المرتفعة عورات البيوت المجاورة ، وقد عرضت على ابن رشد العديد من تلك النوازل ، ومنها أن صومعة (مئذنة) أحدثت فى مسجد بإحدى مدن الأندلس ، فاشتكى منها بعض الجيران لأنها أدت إلى كشف عورات بيوتهم فأوضح ابن رشد أنه إذا كان المؤذن يَطَّلع من المئذنة على الدور من بعض نواحيها دون بعض ، فيمنع من الوصول منها إلى الجهة التى يطلع منها بإقامة حاجز أو ساتر يبنى بين تلك الجهة وغيرها من الجهات ، ويضيف ابن رشد بأن هذا بقرطبة فى كثير من صوامعها ، ولعل ذلك دفع أهل الفتوى إلى القول بأن « يُؤمر المؤذن بأن يسد عينيه عند الصعود ، ويُوكل ذلك إلى أمانته ، فإنه قل من يصعد إلى المنار إلا أهل الصلاح فى غالبَ الأمر ... » (٣) .

---

(١) المعيار ، ج ٩ ، ص ١٩ . وراجع أيضًا : ابن سهل ، وثائق فى شئون العراق فى الأندلس ، تحقيق محمد خلاف ، ص ٩٤ ، ٩٨ – ١٠٢ ؛ ومحمد عبد الستار ، المدينة الإسلامية ، ص ٣٢٨ – ٣٤١ .

(٢) المعيار ، ج ٨ ، ص ٤٠٣ .

(٣) نفس المصدر السابق ، ج ٨ ، ص ٤٨٧ ، ج ٨ ، ص ٢٣ . وقد ذكرت كتب الحسبة الأندلسية أمثلة توضح =

مظاهر الحياة الدينية

ألمحت النوازل إلى بعض مظاهر الحياة الدينية فى المجتمع الأندلسى خلال عصرى الطوائف والمرابطين ، فيتضح من إحدى المسائل الفقهية – التى أوردها ابن رشد – أن القرى المتجاورة كان يتم الاتفاق بين سكانها على اختيار أحد مساجدها الكبيرة إلى حد ما ليكون جامعًا يؤدى فيه جميع أهل تلك القرى صلاة الجمعة . غير أنه كانت تحدث – أحيانًا – منازعات بين الأهالى عند اختيار أى المساجد أكثر صلاحية لإقامة صلاة الجمعة فيه . وتذكر النازلة – التى ترجع إلى عصر الطوائف – أن هناك قرية ضمن أربع عشرة قرية بمنطقة بشرق الأندلس كان بها جامع قديم ، اتفق أهل القرى المتجاورة على إصلاحه وتعميره والصلاة فيه يوم الجمعة ، لما فى ذلك من المنفعة لأهل القرى المذكورة ، لأنه يقع فى مركز وَسَطٍ منها ، وصلوا فيه إلى نشوب الفتنة القرطبية (أوائل القرن ٥ هـ / ١١ م) ، حيث اضطروا للانتقال إلى حصن آمن على مقربة من القرى المذكورة ، أدوا الصلاة فى جامِعِه ، وبعد أن وضعت الفتنة والحروب الداخلية أوزارها أصبحوا يصلون الجمعة فى مسجد إحدى القرى المجاورة للحصن ، إلى أن استقرت الأوضاع واستتب الأمن والهدوء ، فانصرف الناس إلى قراهم المذكورة ، وثار النزاع بينهم ، وانقسموا إلى طائفتين : إحداهما تصلى فى الجامع القديم ، والأخرى تصلى فى المسجد الحديث الكائن بالقرية المتاخمة للحصن ، واحتج أهل القرية الأخيرة بأن قريتهم أكثر دوراً وسكانًا من القرية الواقع بها الجامع القديم ، أما سكان القرى الأخرى فقد تعللوا بأن الجامع القديم يقع فى قرية تتوسط بقية القرى ، وأضافوا بأن الصلاة فى جامع غيره يسبب لهم الضرر لبعد المسافة ، وعلى هذا فمن منطلق الرفق بهم يطالبون بالصلاة فى الجامع القديم حسبما تم الاتفاق من قبل ، وجرى عليه العمل منذ القديم [1] .

= إمكانية إطلاع المؤذن على البيوت المجاورة للمسجد ، وما ينجم عن ذلك من أضرار ومشكلات ، ومن ذلك أن دهَّانًا كان مؤذنا بمدينة غرناطة فى شبابه ، « وكان يشرف من موضع أذانه على دار فيها جارية حسناء أعجبه حالها ... فعرضت له يوماً وهو فى أثناء الأذان وشغلته حتى زاد أو نقص ، وسمعه الناس ، فأجفلوا إليه ، وشاع أمره إلى أن فر عن ذلك الموضع واستوطن غيره ... » انظر : (السقطى المالقى ، آداب الحسبة ، نشر كولان وليفى بروفنسال ، باريس ١٩٣١ م ، ص ٧ – ٨ ؛ ومحمد عبد الستار ، المدينة الإسلامية ، ص ٣٢٣ – ٣٢٤) .

(١) انظر . نوازل ابن رشد ، ص ٣٢ .

وهم يتكلمون مثل أصحاب مذاهب أهل السنة فى الأصول ، وتضيف النازلة أنهم « يختصون بالمعرفة بها عن مذاهب الفقهاء فى الأحكام والشرعيات التى تجب معرفتها فيما تعبد الله به عباده من العبادات ... » ، وأوضح ابن رشد أن العالِم – سواء كان مالكيًا أم أشعريًا هو « العالم بالأصول والفروع ، لا من عنى بحفظ الفروع ، ولم يتحقق بمعرفة الأصول (١) .

وقد تعرضت بعض النوازل لقضيتى الجهاد والحج ، وهما من القضايا التى كانت تشغل تفكير أمير المسلمين على بن يوسف المرابطى ، ويدل على ذلك إرساله إلى الفقيه ابن رشد يسأل : أيهما أفضل ، الحج أم الجهاد بالنسبة لأهل الأندلس ؟ ويتضح من تلك النازلة مدى اهتمام دولة المرابطين بالجهاد ، والذَبّ عن ثغور المسلمين المواجهة للممالك المسيحية ، وكذلك الخطر الذى كان يحدق ببلاد الأندلس وثغورها من قبل النصارى الأسبان . كما نستنتج أن الحج من بلاد الأندلس والمغرب إلى الأراضى المقدسة بالحجاز كان محفوفاً بالمخاطر ، ويتميز بالصعوبة والمشقة في ظل المسافة بينهما وانعدام الشعور بالأمن على النفس والمال أثناء رحلة الحج التى غالبًا ما تتم عن طريق البحر ، ولعل هذا دفع بعض الفقهاء إلى التركيز على شرط الاستطاعة على أداء فريضة الحج ، لأن تلك العصور افتقرت إلى الأمن وانعدم فيها الشعور بالطمأنينة مما ينتفى معه شرط الاستطاعة ، وبالتالى تسقط فريضة الحج لصعوبة أدائها (٢) .

بعض ملامح الريف الأندلسى

أمدتنا نوازل ابن رشد بإشارات تتسم بالجدة والأصالة حول الريف الأندلسى ، والتى لا نجد لها نظيراً فى المصادر التاريخية والجغرافية .

فيتضح لنا من إحدى النوازل أن القرية الأندلسية كانت – غالباً – صغيرة المساحة ، فهى تشتمل على عدد محدود من الدور ، يتراوح ما بين اثنتى عشرة وثلاثين داراً ، وبالتالى كان عدد السكان بها قليلاً (٣) .

---

(١) نوازل ابن رشد ، ص ١٠ – ١١ ، ٢٠ .

(٢) انظر نوازل ابن رشد ، ص ١٠ ، ١٨ ؛ سعد غراب ، كتب الفتاوى وقيمتها الاجتماعية ، ص ٩٢ – ٩٣ .

(٣) نوازل ابن رشد ، ص ٣٢ .

وتضيف نازلة أخرى أن القرية كانت تحتوى على حارات كثيرة ، وكل حارة منها منسوبة إلى قوم ، معروفة لهم ولآبائهم . ولعل قلة عدد السكان والدور بالقرية كان عاملاً مساعداً على زيادة الترابط والتعاون داخل القرية سواء بين أفراد الأسرة الواحدة أم بين سكان القرية بصفة عامة [١] .

ونستنتج مما ذكره ابن رشد وجود قلة من الأفراد – من ذوى الثراء – كانوا يمتلكون الضياع الواسعة فى الريف الأندلسى ، فهناك إشارة إلى أن رجلا من أهل بطليوس امتلك وحده قرية بكاملها حول المتجيل (من أعمال بطليوس بغرب الأندلس) ، وتذكر النازلة أن تلك القرية كانت تشتمل على أرحاء ، ويشقها جدول صغير أو نهير يستفاد منه فى أعمال الرى [٢] .

وتشير بعض المسائل الفقهية إلى وجود منازعات فى بعض الأحيان بين سكان الريف حول الرى والأراضى الفضاء التى ليست ملكاً لأحد ، فبالنسبة للمنازعات حول مياه الرى ألمحت نازلة إلى أن رجلاً باع حقلا لآخر على أن يشاركه المشترى فى الاستفادة من البئر الكائنة على مقربة من الحقل ، فيروى منها أرضه كل ثلاثين يوماً ، غير أنه فى أحد الأعوام عجز المشترى عن زراعة الحقل المذكور ، وأراد ألّا يترك نصيبه فى مياه الرى ، واحتكم المتنازعان إلى الفقيه ابن رشد ، فقضى بأن له (أى للمشترى) الحق فى الاستفادة من مياه البئر ، إن كان له فى ذلك منفعة ، أما إذا أراد أن يحفر بركة لنفسه يحبس فيها الماء ، ولايتركه لمن يشاركه فيه ، فليس له ذلك [٣] .

كذلك هناك إشارات إلى مشكلات كانت تثار من آن لآخر بين أصحاب البساتين المتجاورة حول مياه الآبار ، خاصة عندما يكون لصاحب أحد البساتين بئر وفيرة المياه ، فى الوقت الذى كانت فيه مياه آبار أصحاب البساتين المجاورة شحيحة لا تفى بمتطلبات السقيا والرى [٤] .

---

(١) المعيار ، ج ١٠ ، ص ٣٣١ .

(٢) المعيار ، ج ١٠ ، ص ١٩ .

(٣) نفس المصدر السابق ، ج ٨ ، ص ٤٠٣ – ٤٠٤ .

(٤) نفس المصدر السابق ، ج ٨ ، ص ٤٠٤ – ٤٠٥ .

وكانت المنازعات بين سكان الريف الأندلسى حول الأراضى الفضاء عديدة أيضاً ، فمن ذلك أن أهل قرية تنازعوا فيما بينهم حول أملاكٍ ببعض حاراتها ، إذ أن القرية بها حارات عديدة ، وكل حارة منسوبة إلى قوم منهم ، فثار أهل إحدى تلك الحارات على جيرانهم فى حارة أخرى ، وادعوا أن عندهم أملاكا لهم ، ورفعوا شكواهم إلى القضاء ، ووكل كل فريق منهما وكيلاً مفوضاً ، وانتهى النزاع بالصلح بين الفريقين أمام القاضى ، حيث تنازل المدعى عليهم عن الأملاك التى كان يطالب بها المدعون [(١)] .

كذلك وجدت بإحدى القرى سبخة (أى أرض ملحية كثيرة المياه) بين أراضى قوم محدقة بها ، ولم يدعها أحد ، بمعنى أنها أرض مشاعة ليست ملكاً لأحد ، ثم ادعى رجل ملكيته لها ، وأتى بشهود غرباء ليسوا من أهل الموضع ، يشهدون بامتلاكه لها ، وأنكر جيرانه ذلك ، مدعين أنها أرض مشاعة ومنفعة عامة لجميعهم ، وذلك لقربها من أراضيهم ، وعندما عرضت تلك المشكلة على ابن رشد حسمها بقوله بأنه « إذا كان فى البلد من العدول جماعة من أهله لا يدعون فى السبخة حقًّا ، ولا يعرفون للقائم فيها ملكاً ، فشهادة الغرباء له بها غير جائزة ، والواجب أن تبقى على حالها مسرحاً لجميعهم ومنفعة لعامتهم ... » [(٢)] .

وهناك ما يشير أيضاً إلى اعتداء بعض الأفراد بالقرى على الطرق أو المرافق العامة ، ومن أمثلة ذلك أن رجلا بإحدى القرى الأندلسية أدخل طريقاً من طرق المسلمين فى بستانه ، وحازها ، وغرسها ، وقطع المرور فيها ، وأغتلّها مدة ، ثم بعد ذلك ثبت أنها ليست من أملاكه ، وأنها من المرافق العامة للمسلمين ، ولذلك حكم القاضى بتأديبه على اعتدائه على الطريق العام ، ولكن يأخذ غلة ما اغترسه من زرع ، على أن تعود الأرض التى اغتصبها للمصلحة العامة للمسلمين [(٣)] .

ومن ناحية أخرى يلاحظ فى الريف الأندلسى كثرة وجود نظام المزارعة والمغارسة [(٤)]

---

(١) المعيار ، ج ١٠ ، ص ٣٣١ — ٣٣٢ .

(٢) نفس المصدر السابق ، ج ١٠ ، ص ٨٠ .

(٣) المعيار ، ج ٩ ، ص ١٦ — ١٧ .

(٤) حول نظام المزارعة والمغارسة راجع التفاصيل فى بحثى : جوانب من الحياة الاجتماعية والاقتصادية والدينية والعلمية فى المغرب الإسلامى ، ص ٦٥ ، هـ ٦ ص ٦٥ .

وتكوين الشركات الزراعية [١] ، مما يدل على مدى اهتمام الأندلسيين بالزراعة ، وبراعتهم فى فنون الفلاحة وغرس الحدائق والبساتين [٢] .

وكذلك يتضح من النوازل كثرة الأرحاء الطاحنة فى قرى الأندلس خلال العصر المرابطى فتذكر إحدى النوازل أن ضفة وادى بلون قرب جيان [٣] ، كانت تكثر بها الأرحاء التى تدور بقوة جريان المياه ، كما شاع فى تلك المنطقة نظام اكتراء الأرحاء من أصحابها الذين كانوا يشترطون فى العقد - أحياناً - على المستأجرين أن يسمحوا لهم بطحن كمية محددة من القمح كل شهر بدون أجر طوال مدة الكراء ، وأن يترك المستأجرون - بعد انتهاء مدة الكراء - الأحجار الطاحنة وأية أدوات وآلات أخرى أصلحوا بها بيت الرحى [٤] .

ونستنتج من النازلة أن الأندلسيين اهتموا اهتماماً كبيراً ببناء بيت الرحى [٥] ، واستخدموا في ذلك الأحجار الغليظة ، وأخشاب البلوط الجيدة والحديد والقراميد [٦] .

---

(١) انظر نوازل ابن رشد ، ص ٣٠ - ٣١ ؛ وابن العطار ، الوثائق والسجلات ، نشر شالمتيا وكورنيطى ، مدريد ١٩٨٣ ، ص ٨٢ ؛ J. Vallvé, La agriculture en Al-Andalus, Al-Qantara, Vol,III, Madrid, 1982, p. 30.

وحول تلك النظم الزراعية راجع التفاصيل أيضًا فى : كمال أبو مصطفى ، مصادر الثروة الاقتصادية فى الأندلس ، رسالة دكتوراه غير منشورة ، نوقشت بآداب الاسكندرية ١٩٨٥ ، ص ١٦٠ - ١٦٢ .

(٢) انظر نوازل ابن رشد ، ص ١٢ ، ٣٠ - ٣١ ؛ عبد الله عنان ، دول الطوائف ، ص ٤٤١ .

(٣) جيان (بالأسبانية Jaén) : كانت فى العصر الإسلامى قاعدة كورة تعرف بنفس الاسم ، وهى تتصل بأحواز كورة البيرة (غرناطة) ، وتقع على مسافة ٩٧ كيلومترًا من غرناطة ، ويذكر الإدريسى أنها مدينة حسنة كثيرة الخصب ، وبها بساتين ومزارع وعيون جارية ، وعلى ميل منها يقع نهر بلون ، وهو نهر كبير عليه أرحاء كثيرة . (الإدريسى ، صفة المغرب وبلاد السودان ومصر والأندلس ، ص ٢٠٢ ؛ وابن غالب نفسه ، ص ٢٨٤ ؛ ومحمد الفاسى ، الأعلام الجغرافية ، ص ٢٦) .

(٤) نوازل ابن رشد ، ص ٣٥ .

(٥) أمدتنا نازلة بوصف دقيق ونادر لبيت الرحى - فى إحدى قرى جيان - فتذكر أنه يتكون من ثمانية أحجار غليظة ، كل حجر شبر وثلث وسعته أربعة أشبار ونصف ، ودواليها من البلوط بأعمدة الحديد ، ومنصب البيت أربعة من الألواح ، وكان سُدّ الرحى يرفع بالحجارة والأوتاد ، وماؤه يخرج فى ساقية الرحى . وفى جوف بيت الرحى كان يوجد اصطبل للدواب ، سعته مثل سعة بيت الرحى ، متصل بالبيت وأساسه من الحجر والطين ، أما غطاؤه وبيت الرحى فكانا بالقراميد . انظر (نوازل ابن رشد ، ص ٣٥ ؛ عز الدين موسى ، النشاط الاقتصادى فى المغرب ، ص ٢٣٨) .

(٦) نوازل ابن رشد ، ص ٣٥ .

العملــة

ألمحت نوازل وفتاوى ابن رشد إلى بعض العملات الأندلسية التى كان يتعامل بها أفراد المجتمع خلال عصرى الطوائف والمرابطين ، ومنها ما يلى :

١ - الدينار العبادى :

ويسمى أيضاً بالمثقال الذهبى العبادى [١] ، وهو الذى ضرب بمدينة إشبيلية فى عهد دولة بنى عباد ، حيث قام المعتضد بن عباد بسك عملة خلال فترة حكمه (٤٣٣ - ٤٦١ هـ / ١٠٤٢ - ١٠٦٩ م) ، ونقش عليها : « الإمام هشام أمير المؤمنين ، المؤيد بالله » . وبعد وفاة المعتضد خلفه ابنه المعتمد بن عباد فى سنة ٤٦١ هـ / ١٠٦٩ م ، الذى اتبع سياسة مغايرة فى نقوشه على عملاته التى قام بسكها فنقش عليها عبارة : الإمام عبد الله أمير المؤمنين ، المؤيد بنصر الله » [٢] . ويتضح لنا من إحدى الفتاوى أن الدينار الذهبى العبادى لم يكن من الذهب الخالص ، وإنما كان مشوباً بالفضة [٣] .

٢ - الدينار الشرق أو المشرق :

وهو الذى ضرب بشرق الأندلس إبان عصر دويلات الطوائف (القرن ٥ هـ / ١١ م) ، ويتضح من إحدى فتاوى ابن رشد أن الدينار الذهبى الشرق كان مشرباً بالنحاس ، وعلى هذا كان الدينار العبادى يفوق الدينار الشرق وزناً وعياراً [٤] .

---

(١) نفس المصدر السابق ، ص ٤١ ، ٥٣ .

(٢) David wasserstein, The rise and Fall of the party-kings, New Jersey 1983, pp.155-160

وجدير بالملاحظة أن عبارة « الإمام عبد الله أمير المؤمنين » المذكورة بالمتن ، هى إشارة إلى الخليفة العباسى ببغداد ، حيث أن الخلفاء العباسيين كانوا يكنون عن أنفسهم بلقب عبد الله فى النقود أو النقوش ولم يذكروا أسماءهم المجردة ، أما لقب المؤيد بنصر الله ، فهو لقب للمعتمد بن عباد ، راجع (مختار العبادى ، دراسات فى تاريخ المغرب والأندلس ، ص ١٠٠ ، حسن محمود نفسه ، ص ٢٣٥ - ٢٣٦) .

(٣) نوازل ابن رشد ، ص ١٣ ، ٤١ . وعن عمله بنى عباد بإشبيلية راجع التفاصيل فى : Prietoy vives, Los reyes de Taifas, Madrid, 1926, pp.227-234

(٤) نوازل ابن رشد ، ص ١٣ ، ٤١ .

٣ - الدينار المرابطى :

وكان يسمى بالمثقال المرابطى ، وهو تقريباً من الذهب الخالص ، ويوصف هذا المثقال المرابطى - عادة - فى النوازل بأنه من « الذهب الوازنة » . ويتضح مما ذكره ابن رشد أن الدينار الذهبى المرابطى كان يفوق الدينار العبادى والشرقى من ناحيتى الوزن والعيار . وتفيد إحدى النوازل بأن هناك ديناراً مرابطيًّا سك بغرناطة كان صرفه أحياناً بستة عشر درهماً فضة ، وأحياناً أخرى كان يرتفع صرفه إلى عشرين درهماً فضة وذلك تبعاً لقيمة الصرف من وقت لآخر فى ذلك العصر (١) .

٤ - الدنانير الثلثية :

أشارت النوازل إلى وجود دنانير بجيان خلال عصر الطوائف ، عرفت بالدنانير الثلثية ، وكانت مشوبة بالنحاس مثل الدنانير الشرقية التى سكت بمنطقة شرق الأندلس خلال نفس ذلك العصر . ولا شك أن هذه الدنانير الثلثية كانت أقل قيمة من الدنانير المرابطية والعبادية (٢) .

٥ - القراريط اليوسفية :

وتنسب إلى أمير المسلمين يوسف بن تاشفين المرابطى ، وكان القيراط يساوى نصف درهم من الفضة وقد ساعد سك تلك القراريط على تسهيل التعامل بين الأفراد . وجدير بالملاحظة أن قراريط يوسف بن تاشفين التى ضُربت فى دور السكة المغربية أو الأندلسية جاءت على غرار قراريط سلفه الأمير أبى بكر بن عمر ، وبنفس العبارات الدينية التى نُقشت عليها ، وكانت تلك القراريط اليوسفية تتميز بأنها غير مستقرة الوزن ، وبعدم ذكر تاريخ الضرب (٣) .

---

(١) نفس المصدر السابق ص ١٣ ، ٣٥ ، ٣٩ ، ٤١ . وجدير بالذكر أن الدينار المرابطى حافظ على قوته وارتفاع عياره ، حيث بلغت نسبة الذهب فيه حوالى ٩٦٪ ، كما اكتسب بما له من جودة وارتفاع وزن سمعة عالية فى بلدان أوروبا فى العصور الوسطى . راجع التفاصيل عن العملة المرابطية فى : (صالح بن قربة ، المسكوكات المغربية ، الجزائر ، ١٩٨٦ م ، ص ٥٤٩ ، ٥٨٩ ، Codera, Decadencia Y desa paracion de Los Almoravides, zaragoza, 1899, pp. 382-383.)

(٢) نوازل ابن رشد ، ص ١٣ ، ٤٣ .

(٣) نفس المصدر السابق ، ص ١٣ ، ٤١ ، ٥٦ ؛ صالح بن قربة ، المسكوكات المغربية ، ص ٥٩٩ - ٦٠٠ ؛ وراجع أيضًا : Codera, op. cit, pp.380-381

الحروب والفتن وتأثيرها على الأوضاع الاقتصادية والاجتماعية

من الثابت أن الأوضاع الاقتصادية والاجتماعية تتأثر تأثراً بالغاً بحالة الأمن والاستقرار فى المجتمع ، فالأندلس تعرضت خلال فترة الانتقال من حكم الطوائف إلى حكم دولة المرابطين لحالة من الاضطراب واختلال الأمن وانعدام الطمأنينة ، حيث كثرت – فى تلك الفترة المذكورة – حالات الغصب ، والإكراه ، ومصادرة الأموال ، وإنهاك الرعية بالضرائب والمغارم .

فتذكر إحدى النوازل التى تؤرخ بعام ٤٩٢ هـ / ١٠٩٨ – ١٠٩٩ م أن أحد الثوار فى أواخر عصر دويلات الطوائف ، ويدعى سعيد بن زيغل ، ثار بحصن شقورة (١) واستولى عليه وعلى جميع جهاته عدة أعوام ، وخلال ذلك اصطنع كل مظاهر العسف والظلم مع الرعية ، وأنهك كاهلهم بالمكوس والضرائب الباهظة ، واستولى على غلات تلك المنطقة أعوامًا ، كما اغتصب أموال بيت مال المسلمين وأملاكه بها ، وأثرى من وراء ذلك ثراءً فاحشاً ، فاشترى الضياع الواسعة والعقارات والرباع بجيان وغيرها (٢) ، وانعكس هذا الوضع السيىء على مستوى معيشة الأفراد فى تلك المنطقة وحياتهم الاجتماعية والاقتصادية بصفه عامة .

كذلك هناك ما يدل على اتجاه بعض ملوك الطوائف إلى الاستيلاء على أموال الناس بالباطل ومصادرة ممتلكاتهم ، مستغلين فى ذلك سطوتهم وجبروتهم ، وعدم وجود من يردعهم من القضاة والعلماء وأهل الفتوى الذين لا يخشون فى الحق لومة لائم ، ومن أمثلة ذلك قيام المعتضد بن عباد – صاحب إشبيلية – بغصب مجشر (ضيعة) لابن زهر ، ونجم عن ذلك مشكلة فقهية فيما بعد ، وذلك أن رجلاً يدعى ابن عاصم اشترى المجشر المذكور من ابن عباد ، وبعد عدة أعوام قام ابن موسى وكيل ابن زهر ،

---

(١) شقورة (بالإسبانية Segura de la sierra) : حصن منيع من أعمال جيان ، ويصفه الإدريسى بأنه حصن المدينة ، عامر بأهله ، وهو فى رأس جبل عظيم متصل ، منيع الجهة ، واشتهر هذا الجبل بأشجار الطخش والأعشاب العطرية . انظر (الإدريسى ، نفسه ، ص ١٩٥ ؛ والحميرى ، صفة جزيرة الأندلس فى كتاب الروض المعطار ، نشر ليفى بروفنسال ، القاهرة ١٩٣٧ م / ص ١٠٥) .

(٢) نوازل ابن رشد ، ص ١٦ ؛ المعيار ، ج ٩ ص ٥٣٨ – ٥٤٠ . ويلاحظ أن ابن رشد أفتى فى تلك النازلة بأن ما وجد من رباع وأصول وعقارات فى يد ورثة الثائر ابن زيغل وجب أن يضم إلى بيت مال المسلمين ، أما الذى بيع منها فلا سبيل إلى المشترى فى شىء من ذلك . انظر (نوازل ابن رشد ، ص ١٦) .

بالمطالبة بالجشر الذى كان لسلف موكله ابن زهر ، وأنه من جملة ما غصبه ابن عباد ، وعندما عرضت القضية على أهل الفتوى والقضاة بإشبيلية حكموا بإعادة الجشر المذكور إلى ورثة ابن زهر (١) .

ومن جهة أخرى كان للغارات النصرانية ، والحروب بين المسلمين والنصارى الأسبان انعكاساتها على الأوضاع الاقتصادية فى المدن والقرى الأندلسية ، فلا شك أن تلك الغارات النصرانية على الثغور والحصون المتاخمة لحدود الممالك الإسبانية المسيحية كانت تؤثر على النشاط التجارى وحركة البيع والشراء وحرية الانتقال من موضع إلى آخر ، وغير ذلك من مظاهر الحياة الاقتصادية . فتذكر إحدى النوازل أن متقبلى الفنادق والأرحاء والحوانيت وما شابههم تعرضوا للكثير من الأضرار الاقتصادية والمالية نتيجة للحروب والفتن وانعدام الأمن ، لأن تلك الحالة أدت إلى انعدام الإقبال على سكنى الفنادق وقلة العملاء الذين يأتون بالحبوب لطحنها فى الأرحاء ، مما دفع المتقبلين إلى مطالبة ملاك الفنادق والأرحاء باعتبار ذلك حائجة يجب بسببها تخفيض قيمة الكراء عنهم (٢) .

وتضيف نازلة أخرى أن نصارى طليطلة كانوا يشنون غارات على أحواز قرطبة وقراها ويعيثون فى تلك المناطق نهباً وسلباً ، غير أن هذا لم يمنع تجار طليطلة النصارى من الوفود على قرطبة فى أوقات الصلح أو الهدنة من أجل التبادل التجارى ، وقد حدث أن قام أهالى قرطبة بأسر بعض التجار النصارى وأخذ أموالهم رهينة لحين رد مانهبه إخوانهم المغيرون من أموال مسلمى قرطبة ، وما أسروه من أهلها (٣) .

كذلك كان لسقوط بعض المدن والثغور الأندلسية فى أيدى النصارى الإسبان تأثير على العلاقة بين المالك (أو صاحب العمل) والأجير ، فتذكر إحدى النوازل أن رجلًا من أثرياء مجريط (مدريد Madrid حالياً) استأجر آخر مقابل كمية محددة من القمح ، ثم اضطر للخروج منها إثر سقوطها فى أيدى النصارى ، واجتمعا بقرطبة ،

---

(١) الونشريسى ، المعيار ، ج ١٠ ، ص ٥٥ – ٥٦ . وراجع أيضًا عن نوازل الغصب والإكراه فى قرطبة خلال عصر الطوائف فى : (نفس المصدر السابق ، ج ٩ ، ص ٦١١ – ٦١٢) .

(٢) نوازل ابن رشد ، ص ٣٧ .

(٣) نفس المصدر السابق ، ص ١٩ .

حيث طلب الأجير حقه من القمح ، ولكن صاحب العمل رفض إعطاءه القمح بقرطبة بحجة أن ثمنه بها مضاعف ، وأصر على أن يعطيه قيمة ما كان يساويه بمجريط آنَ ذاكَ (١) .

وقد تأثرت الحياة الاجتماعية والدينية فى المجتمع أيضًا بالفتن والحروب ، فنستنتج من إحدى النوازل أن الخطر الإسبانى المسيحى كان له تأثيره على اختيار المسجد الجامع لأهل القرى المتجاورة الواقعة على مقربة من حدود الممالك الإسبانية المسيحية ، فالحروب قد تضطر أهالى القرى إلى اختيار مسجد الحصن ليكون جامعاً لهم تُقام فيه صلاة الجمعة لحين زوال الأخطار (٢) .

كذلك كان للحروب الداخلية فى الأندلس والتى اندلعت عند قيام المرابطين بخلع بعض ملوك الطوائف تأثيراتها على الأوضاع الاجتماعية ، حيث يتضح من إحدى القضايا الفقهية أن بعض الجوارى - بمدينة إشبيلية سقطن فى أيدى الجند المرابطين بطريق الغصب ، إثر دخول قوات المرابطين المدينة وخلع المعتمد بن عباد فى سنة ٤٨٤ هـ / ١٠٩١ م ، مما نتج عنه نوازل فقهية ، فقد طالب أسيادهن بهن ، وأثبتوا أحقيتهم فيهن ، واضطر المرابطون إلى إعادتهن إليهم (٣) .

ومن الثابت أيضًا أنّ اندلاع الفتن والثورات الداخلية ، واضطراب حالة الأمن فى المجتمع ، خصوصاً فى أوقات ضعف سلطة الدولة ، يؤدى غالباً - إلى انتشار حوادث السرقة والنهب والقتل والمشاجرات الدامية ، وتشير النوازل إلى حوادث عديدة تسمى « بالتدمية » ، وقعت ببجيان ومريبطر وإشبيلية وقرطبة ، ونجم عنها سقوط قَتْلى وجَرْحَى ، ومطالبة أوليائهم بالقصاص من القتلة . ويلاحظ أن أغلب تلك الحوادث سببها محاولة السطو وسرقة أموال من أُشْتُهر بالثراء فى تلك المدن (٤) .

---

(١) نوازل ابن رشد ، ص ٣٨ .

(٢) نوازل ابن رشد ، ص ٣٢ .

(٣) المعيار ، ج ٩ ، ص ٢٠٣ .

(٤) نوازل ابن رشد ، ص ٤٨ - ٤٩ ، ٥٠ - ٥٢ ؛ المعيار ، ج ٢ ، ص ٣٠٣ - ٣٠٤ ، ٣٠٧ ، ٣١٣ . وراجع أيضًا ابن سهل ، وثائق فى القضاء الجنائى فى الأندلس ، تحقيق محمد خلاف ، الكويت ١٩٨٣ ، ص ٦٣ - ٦٨ وتجدر الإشارة هنا إلى أنه فى حالة ثبوت اتهام بالقتل على متهم ما ، وعجزه عن الدفاع فإنه يجب بعد ذلك أن يقوم والد القتيل وأخوه بالقسم خمسين يميناً بأن المدعى عليه (القاتل) هو الذى قتله ، حيث يقول الأب فى يمينه وهو مستقبل القبلة إثر صلاة العصر من يوم الجمعة على ما مضى عليه عمل القضاة : « بالله الذى لا إله إلا هو ، عالم الغيب والشهادة ، لقد قتل هذا - ويشير إلى القاتل - ابنى فلانًا بالجرح الذى أصابه به ومات منه على سبيل العمد بغير حق ، وكذلك يقسم الأخ ، فإذا استكملا خمسين يميناً على هذه الصفة فإنهما يقومان بالإجهاز على القاتل بالسيف على ما أحكمه الشرع من القصاص فى القتل . انظر (نوازل ابن رشد ، ص ٤٨ - ٤٩) .

الملاحق

ملحق رقم (١)

« عقد طلاق ومباراة بأشبونة فى سنة ٥١٢ هـ / ١١١٩ م »
(أى فى العصر المرابطى)

« بارى عبيد الله بن محمد الأزدى راق بنت الفقيه أبى الوليد يونس بعد بنائه بها ، إذ تفاقمت أمورهما واختلفت أهواؤهما على أن أسقطت جميع ما كان أمهره لها من كالىء [١] بعد معرفتهما بعدده ، وعلى أن صرفت جميع ما كان أمهره لها فى كتاب صداقها معه من دور بالوط الغربى الذى من قصبة أشبونة لوالد المبارى المذكور ، وجنات بنواحى الجهة المذكورة وأرضين بقرى مدينة الأشبونة ... طائعة بذلك كله ، وأمضى ذلك كله من فعلها والدها الفقيه أبو الوليد المذكور ... وعلى هذا الإسقاط المذكور الموصوف مَلَّكَها عبيد الله المذكور أمر نفسها ، و لم يبق بين راق المذكورة وعبيد الله المذكور شىء من الأشياء من جميع الدعاوى والتباعات ، وانفردت راق المذكورة بجميع الثياب المقبوضة منه المكتوبة ... فى كتاب صداقها معه ، ولا حقَّ لعبيد الله فى جميع الثياب المقبوضة منه كذلك ، وكذلك لاحق لعبيد الله المذكور فيما قبل راق المذكورة ولا قبل أبيها المذكور فى شىء من الأشياء من صداق أو تجارة ولا شىء من الأشياء . شهد على إشهاد عبيد الله بن محمد والفقيه يونس على أنفسهما بجميع ما فى الكتاب عنهما من سمعه منهما وعرفهما وهما بحال الصحة والجواز ، لأربع بقين من شهر شعبان من سنة اثنى عشرة وخمسمائة » [٢] .

ملحق رقم (٢)

« عقد استئجار بيت رحى بإحدى قرى جيان فى سنة ٥٠٩ هـ / ١١١٦ م »

« بسم الله الرحمٰن الرحيم : اكترى محمد بن عبد الرحمن بن طارق الأنصارى ، وعبد الصمد بن على الأموى ، ومحمد وعلى ابنا عبد الله بن حرب اللخمى ، بينهم

---

(١) كالىء : متأخر .

(٢) نقلا عن : الونشريسى ، المعيار ، ج ٤ ، ص ٥ - ٦ .

على السواء والاعتدال ، من أحمد بن جزى التجيبي ، ومن عبد الله بن دلول الناظرين للقريش بقرطبة جميع بيت الرحى الدائرة المعروفة ببيت السانية بقرب الخرب على ضفة وادى بلون من جيان لمدة سبعة أعوام متصلة ، أولها منتصف ذى الحجة الأدنى إلى تاريخ هذا الكتاب بمائة مثقال واحدة ، وأربعين مثقالا من الذهب المرابطية الوازنة ، يدفع منها محمد عبد الرحمٰن ، وعبد الصمد ، ومحمد وعلى ابنا عبد الله المذكورين ، لأحمد وعبد الله المذكورين ، أو إلى من يجب له ذلك بسبب القريش المذكورين أرباب القرية وبيت الرحى المذكورين عند انقضاء كل شهر من أول الأمد المذكور مثقالاً واحدًا وثلثى مثقال أداءً متواليًا إلى تمام العدد وانصرام الأمد ، وعلى أن يطلق محمد ابن عبد الرحمن ، وعبد الرحمٰن وعبد الصمد الأخوان ومحمد وعلى المذكورون فى البيت المذكور أربعة أحجار طاحنة ... وتكون دواليبهما من البلوط بأعمدة الحديد ... ومنصب البيت أربعة من الألواح ويرفعون سد الرحى المذكورة بالحجارة والسلك الأوتاد ، ويخرج ماؤه فى ساقية الرحى ، وعلى أن يقيموا فى جوف بيت الرحى اصطبلاً للدواب ، سعته مثل بيت الرحى ومتصل بالبيت ... وغطاؤه وغطاء بيت الرحى بالقراميد ، ويشوكون البرج المتصل ببيت الرحى المذكورة من ناحية الغرب بالجص ، وتواصفوا ذلك كله صفة أقاموها مقام العيان ، فإذا انقضت المدة المذكورة ترك محمد عبد الرحمٰن وعبد الصمد ، والأخوان محمد وعلى المذكورون الأربعة الأحجار المذكورة طاحنة بآلاتها كلها مستقيمة فى جريتها فى البيت المذكور للقريش المذكورين أرباب القرية المذكورة ، وطاع محمد وعبد الصمد والأخوان محمد وعلى المذكورون بعد تمام الكراء المذكور طوعاً صحيحًا دون شرط ، أن يطحن عبد الله وأحمد بن جزى المذكوران فى الرحى المذكورة فى كل شهر من أشهر الأعوام المذكورة قفيزين من القمح بكيل جيان دون أجر ، وعرفوا قدر ذلك . شهد عليهم بذلك من أشهدوه به فى صحتهم ، وجواز أمورهم فى شعبان من سنة تسع وخمسمائة » (١) .

* * *

---

(١) نقلا عن : نوازل ابن رشد ، ص ٣٥ – ٣٦ .

١٥ – السقطى المالقى : آداب الحسبة ، نشر كولان وليفى بروفنسال ، باريس ١٩٣١ م .
١٦ – المقرى : أزهار الرياض فى أخبار عياض ، ج ٣ ، الرباط ، ١٩٧٨ م .
١٧ – المقرى : نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب ، تحقيق يوسف البقاعى ، بيروت ، ١٩٨٦ م .
١٨ – النباهى المالقى : تاريخ قضاة الأندلس المعروف بكتاب المرقبة العليا ، بيروت ، ١٩٨٣ .
١٩ – الونشريسى : المعيار المعرب ، نشر وزارة الأوقاف المغربية ، الرباط ، ١٩٨١ م .

ثانيا – مراجع عربية حديثة ومعربة :

١ – أحمد مختار العبادى (دكتور) : دراسات فى تاريخ المغرب والأندلس ، الطبعة الأولى ، الاسكندرية ١٩٦٨ م .
١ م – أحمد مختار العبادى (دكتور) : الإسلام فى أرض الأندلس ، عالم الفكر ، المجلد العاشر ، العدد الثانى ، الكويت ١٩٧٩ م .
١ م – حسن أحمد محمود (دكتور) : قيام دولة المرابطين . القاهرة ، ١٩٥٧ م .
٢ – حمدى عبد المنعم محمد (دكتور) : تاريخ المغرب والأندلس فى عصر المرابطين – دولة على بن يوسف بن تاشفين – الاسكندرية ، ١٩٨٦ م .
٣ – سحر سالم (دكتورة) : تاريخ بطليوس الإسلامية : ج ١ ، الإسكندرية ، ١٩٨٩ .
٤ – سعيد عبد الفتاح عاشور (دكتور) : الحياة الاجتماعية فى المدينة الإسلامية ، مجلة عالم الفكر ، مجلد ١١ ، الكويت ١٩٨٠ م .
٥ – السيد عبد العزيز سالم (دكتور) : تاريخ المغرب فى العصر الإسلامى ، الاسكندرية ، بدون تاريخ .
٦ – السيد عبد العزيز سالم (دكتور) : فى تاريخ وحضارة الإسلام فى الأندلس ، الاسكندرية ، ١٩٨٥ م .
٧ – السيد عبد العزيز سالم (دكتور) : قرطبة حاضرة الخلافة ، بيروت ، ١٩٧٢ م .
٨ – صالح بن قربة : المسكوكات المغربية ، الجزائر ١٩٨٦ م .
٩ – صلاح خالص : إشبيليه فى القرن الخامس الهجرى ، بيروت ، ١٩٨١ م .

١٠ – عبد الرحمن الحجى (دكتور) : التاريخ الأندلسى ، نشر دار القلم ، دمشق ، ط ٣ ، ١٩٨٧ م .
١١ – عز الدين موسى (دكتور) : النشاط الاقتصادى فى المغرب الإسلامى ، بيروت ، ١٩٨٣ م .
١٢ – كمال أبو مصطفى (دكتور) : جوانب من الحياة الاجتماعية والاقتصادية والدينية والعلمية فى المغرب من خلال نوازل المعيار ، الإسكندرية ، ١٩٩١ م .
١٣ – ليفى بروفنسال : سلسلة محاضرات عامة فى أدب الأندلس وتاريخها ، ترجمة عبد الهادى شعيرة الأسكندرية ١٩٥١ م .
١٣ م لطفى عبد البديع (دكتور) : الإسلام فى إسبانيا ، المكتبة التاريخية ، عدد ٢ ، نشر مكتبة النهضة المصرية ، ط ٢ ، سنة ١٩٦٩ م .
١٤ – محمد توفيق بلبع (دكتور) : المسجد والحياة فى المدينة الإسلامية ، مجلة عالم الفكر ، مجلد ١١ ، الكويت ١٩٨٠ م .
١٥ – محمد عبد الستار عثمان (دكتور) : المدينة الإسلامية ، عالم المعرفة ، الكويت ، ١٩٨٨ .
١٦ – محمد عبد الله عنان : دول الطوائف ، القاهرة ، ١٩٦٠ م .
١٧ – محمد الفاسى : الأعلام الجغرافية الأندلسية ، مجلة البينة ، عدد ٣ ، الرباط ١٩٦٢ .

ثالثاً – مراجع أجنبية حديثة :

1- Aguado Bleye, Manual de historia de Espana, Madrid, 1947.
2- Codera, Decadencia Y desaparacion de los Almoravides, Zaragoza, 1899.
3- Codera, La Familia real de Los Beni texufin, Madrid, 1917.
4- David Wassserstein, The rise and Fall of the party-kings- New Jersey, 1983.
5- Jospen Puig, Averroes epitome de Fisica, Madrid, 1987.
6- Levi-Provençal, Histoire de L'Espagne Musulmane,t,III, Parid, 1967.
7- Monés, Clasificavion de las ciencias segun Ibn Hazm, Revista del instituto egipcio, Madrid, 1965-1966.
8- Simonet, Historia de Los Mozatabes de Espana, Madrid, 1897.
9- Vallvé La agricultura en al-Andalus, al Qantara, Madrid, Vol. III, 1982.
10- Vives, Los reyes de taifas, Madrid, 1926.

قَطْيَة

« جمرك مصر الشرقى فى العصور الوسطى »

قَطْيَة أو قَطْيَا بالفتح ثم السكون وياء مفتوحة ، قرية فى طريق مصر فى وسط الرمل قرب الفَرَما ، وقُطَيَّة كأنه تصغير قَطَاة من الطير ، وهو ماء بين جبلى طىء وتيماء [1] . وقد ذكرت بعض المصادر أن قطية تقع فى الطريق بين مصر والشام [2] بالرمل المعروف بالجفار ، بالقرب من ساحل البحر [3] المتوسط فى أول شبه جزيرة سيناء من ناحية الشمال الغربى ، وقد حددها البعض بأنها فى الطريق بين القنطرة والعريش فى الجنوب الشرقى من محطة الرمانة ، وعلى مسافة عشرة كيلو مترات منها ، وتبعد عن القنطرة خمسة وأربعين كيلو مترا ، إذ تقع فى الشمال الشرقى منها [4] .

وقد ظهر اسم قطية على الطريق بين مصر والشام ، وقد اجتازها الرحالة والتجار والعساكر خلال القرن الثالث الهجرى / التاسع الميلادى [5] ، كما أشار بعض الجغرافيين فى القرن الرابع الهجرى / العاشر الميلادى إلى أهمية تلك المنطقة التى تقع

---

(١) ياقوت الحموى : معجم البلدان جـ ٤ طهران ١٩٦٥ م ص ١٤٤ .

وانظر ض ابن عبد الحق : مراصد الاطلاع على أسماء الأمكنة والبقاع ، ليدن ١٨٥٢ م ، ص ٤٣٥ .

(٢) المقريزى : السلوك لمعرفة دول الملوك جـ ١ ق ٣ ، دار الكتب ١٩٧٠ م ، هامش ص ٣٠٣ .

ويذكر أبو الفدا : « ومما هوداخل فى حد مصر الجفار ، وهو المعروف برمل مصر ، وبه منازل للسفارة ، أشهرها وأكبرها قطية ، ثم الورادة ، وبهما سكان ونخيل » . انظر : تقويم البلدان ، باريس ١٨٤٠ م ص ١٠٨ .

وانظر : عبد العال الشامى : مدن مصر وقراها عند ياقوت الحموى ط ١ ، الكويت ١٩٨١ م ص ٢٠ .

(٣) القلقشندى : صبح الأعشى فى صناعة الإنشا جـ ٣ نسخة مصورة عن الطبعة الأميرية ص ٤٠١ .

وانظر : ابن دقماق : الانتصار لواسطة عقد الأمصار جـ ٤ الطبعة الأولى بولاق ١٣٠٩ هـ ص ٥٢ .

– الجفار : « جمع جفر ، وهى البئر القريبة القعر الواسعة لم تطو » وقد سميت الجفار لكثرة مابها من هذه الآبار التى كانت من وراء قيام الواحات . انظر : عبد العال الشامى : نفس المرجع ص ٥٨ .

ويذكر ابن دقماق أن الجفار سمى جفارًا لأن الجمال تجفر فيه ، أى تهلك من السير لبعد مراحله .

انظر : الانتصار بواسطة عقد الأمصار جـ ٤ ص ٥٢ .

(٤) محمد رمزى : القاموس الجغرافى ق ١ القاهرة ٥٣ – ١٩٥٤ م ص ٣٥١ .

انظر الخريطة فى آخر البحث موضحًا عليها موقع قطية .

(٥) ابن خرداذبة : المسالك والممالك ، ليدن ١٣٠٦ هـ ص ١٠٣ .

وانظر : ابن إياس : بدائع الزهور فى وقائع الدهور ، تحقيق محمد مصطفى ٨٢ – ١٩٨٥ جـ ١ ق ١ ص ٢٨ .

بها قطية ، ولم يشيروا إلى اسم قطية صراحة ، إذ ورد « يردها التجار فى البحر والبر ليلا ونهارًا من الفسطاط والشام » (١) .

ويبدو أن أهمية قطية – كمحطة أو نُزُل ينزل بها المسافرون والسفراء والتجار – بدأت تظهر فى أوائل القرن السابع الهجرى / الثالث عشر الميلادى بعد ما أخذت مكانة الفرما تقل (٢) . فنقرأ فى مصادر ذلك القرن أن قطية أصبحت نقطة جمارك للداخل إلى مصر عن طريق الشام والخارج منها (٣) ، ذلك أن ملوك بنى أيوب بدءًا من عهد الملك الكامل محمد اتخذوها نقطة للقاء القادمين من كبار البيت الأيوبى من الشام ، إذ فى شوال ٦٣٤ هـ / يونيو ١٢٣٦ م « وصل الملك الناصر صلاح الدين داود ابن الملك المعظم عيسى ، وتلقاه السلطان بنفسه إلى منزلة قطيا » (٤) ، وفيها استقبل القاضى بدر الدين بن الحسن السنجارى سنة ٦٥٠ هـ / ١٢٥٢ م ، وسنة ٦٥٤ هـ / ١٢٥٦ م ، الشيخ نجم الدين عبد الله بن محمد البادرائى ، الذى أرسله الخليفة العباسى ليصلح بين الملك المعز أيبك فى مصر والملك الناصر يوسف فى الشام (٥) ، وعند قطية أيضًا تفرقت العساكر من حول الناصر يوسف الأيوبى سنة ٦٥٧ هـ / ١٢٥٩ م – عندما فر من وجه المغول – فأصبح وحيدًا وقبض عليه (٦) .

وهكذا بدأ اسم قطية يرد فى المصادر المعاصرة مقترناً بأهمية تلك المنطقة على حدود مصر الشرقية ، وتذكر بعض المصادر أنه عندما خرج قاضى القضاة شمس الدين

---

(١) ابن حوقل : كتاب صورة الأرض ، ق ١ الطبعة الثانية ليدن ١٩٦٧ م ص ١٤٤ .

(٢) عباس عمار : المدخل الشرقى لمصر « أهمية جزيرة سيناء كطريق للمواصلات ومعبر للهجرات البشرية » مقال بمجلة الجمعية الجغرافية ط ٢ القاهرة ١٩٤٥ م ص ٢٣ ، ٤٧ .

وانظر : أحمد رمضان أحمد : شبه جزيرة سيناء فى العصور الوسطى ، القاهرة ١٩٧٧ ص ٧٥ ، ٨١ .

(٣) الدوادارى : الدر المطلوب فى أخبار بنى أيوب ، تحقيق / سعيد عاشور ، القاهرة ١٩٧٢ م ، هامش ص ٢٨ . وانظر : عباس عمار : نفس المرجع ص ٥١ .

(٤) الدوادارى : نفس المصدر ص ٣١٧ .

(٥) المقريزى : السلوك جـ ١ ق ٢ طبعة ثانية القاهرة ١٩٥٧ م ص ٣٨٢ – ٣٨٣ ، ٣٩٧ – ٣٩٨ .

(٦) أبو الفدا : المختصر فى أخبار البشر جـ ٣ مصر ١٢٨٥ ص ١٩٠ – ١٩١ ، وأيضًا : الدوادارى : الدرة الزكية فى أخبار الدولة التركية ، تحقيق أولرخ هارمان ، القاهرة ١٩٧١ ص ٤٦ .

وكذلك : العينى : عقد الجمان فى تارخ أهل الزمان (١) تحقيق / محمد محمد أمين ، القاهرة ١٩٨٧ م ص ٢٣٣ – ٢٣٤ ، ٢٤٨ .

وانظر : سعد بن محمد الغامدى : الملك الناصر يوسف والمغول ، مقال بمجلة آداب الاسكندرية المجلد ٣٤ ، ص ١٢٥ .

ابن خلكان من مصر فى الخميس ٢٣ المحرم ٦٧٧ هـ / يونيو ١٢٧٨ م ليتولى قضاء دمشق وأعمالها بدلا من شمس الدين بن الصائغ ، خرج أهالى دمشق لتلقى واستقبال ابن خلكان فوصل بعضهم إلى قطية [١] ، ويتردد فى المصادر أيضًا اسم قطية فى مناسبات عابرة ، مثل « وصل الأمراء إلى قطية ووصل السلطان إلى قطية ، ومات فلان ودفن بقطية ، وذلك خلال القرن السابع الهجرى / الثالث عشر الميلادى [٢] .

ولعل أهمية تلك المنطقة – أعنى قطية – دفعت سلاطين المماليك إلى الاهتمام بها اهتماماً كبيرًا منذ أوائل القرن الثامن الهجرى / الرابع عشر الميلادى ، فأصبحت بمثابة نقطة جمارك ، وغدا لها ناظرٌ فى سنة ٧٠٣ هـ / ١٣٠٣ – ١٣٠٤ م مضافة إلى الأعمال الشرقية وأشمون الرمان [٣] . ونظمت لها السلطنة المملوكية إدارة لتحصل على نسبة من التجار « وتُؤخذ منهم زكاة ، وتفتش أمتعتهم » [٤] . وقد قدر بعض المعاصرين تلك النسبة المأخوذة من التجار بقيمة العشر [٥] .

ولا شك فى أن هذا الدخل لقطية قد غير من وضعها كنقطة صغيرة إلى ورود اسمها مسبوقًا بكلمة مدينة ، فيذكر ابن تغرى بردى فى حوادث ٧٨٤ هـ / ٨٢ – ١٣٨٣ م ، أنه حدث كذا « بمدينة قطية » ونزل فلان « بمدينة قطية » [٦] وسار السلطان إلى أن وصل « مدينة قطية » سنة ٧٩٢ هـ / ١٣٩٠ م [٧] . وبالرغم من ذلك فإنها لم تصل إلى درجة الإقليم ، ولكنها كانت مدينة مستقلة تمام الاستقلال ، ولا يمكن الوصول إلى الديار المصرية ولا الخروج منها إلا بالمرور من قطية [٨] .

---

(١) الكتبى : عيون التواريخ ، جـ ٢١ تحقيق / نبيلة عبد المنعم داود ، وفيصل السامر ، العراق ١٩٨٤ ص ١٧٠ .

(٢) المقريزى : السلوك جـ ١ ق ٣ القاهرة ١٩٣٩ م ص ٦٩٧ ، ٧٠١ ، ٩٠٥ .

(٣) الدواداري : الدر الفاخر فى سيرة الملك الناصر ، تحقيق / هانس روبرت رويمر ، القاهرة ١٩٦٠ م ص ١١٤ ، ١١٥ ، ١١٧ .

(٤) ابن بطوطة : تحفة النظار فى غرائب الأمصار وعجائب الأسفار جـ ١ باريس ١٩٨٨ م ، ص ١١٢ . وانظر : عباس عمار : نفس المرجع ص ٥١ .

(٥) ابن دقماق : انتصار بواسطة عقد الأمصار جـ ٤ ص ٥٣ ، وانظر : المقريزى : البيان والأعراب عما بأرض مصر من الأعراب ، تحقيق / عبد المجيد عابدين ، القاهرة ١٩٦١ م هامش ص ٦١١ .

(٦) ابن تغرى بردى : النجوم الزاهرة جـ ١١ دار الكتب ، ١٩٥٠ م ص ٢٧٥ .

(٧) المصدر السابق جـ ١٢ ص ٦١ .

(٨) ابن شاهين : زبدة كشف الممالك وبيان الطرق والمسالك ، تحقيق بولس راويس ، باريس ١٨٩٤ م ، ص ٣٤ .

مقبل الدوادار الحسامى إلى قطيا تحت تأثير العربان ، وفر من ميناء الطينة إلى عرض البحر [١] .

وعلى أية حال فقد أدرك سلاطين المماليك أهمية ذلك الميناء فاهتموا به وبتجديده لارتباطه بقطية ، منطقة الجمارك الآنفة الذكر ومحور بحثنا ، إذ كثرت إغارات الفرنج البحرية على ميناء الطينة ، ويحدثنا المقريزى عن أمثلة كثيرة لهذه الإغارات ، ففى أول المحرم سنة ٧٧١ هـ / ١٣٦٩ م أسر الأمير ناصر الدين محمد بن الأمير طاز أربعة وعشرين من الفرنج قصدوا الهجوم على ذلك الميناء [٢] . وكانت هجماتهم لا تنقطع بين حين وآخر ، ففى منتصف شهر ربيع الآخر ٧٨٥ هـ / ١٣٨٣ م هجموا عليها وأسروا سبعة أفراد من أهلها ، وقتلوا واحدًا ، ثم اتجهوا إلى دمياط وباعوا بها الأسرى [٣] ، ثم فى ربيع الآخر سنة ٨١٤ هـ / ١٤١١ م اتجهوا من الاسكندرية إلى ميناء الطينة بمراكبهم « فسبوا نساء أهلها » وحدثت معركة بينهم وبين أهلها ، وبالرغم من مساعدة أهالى دمياط لأهالى الطينة إلا أن الفرنج تمكنوا من قتل عدد من الأهالى ، واستولوا على مالهم ونهب أمتعة التجار [٤] ، وتكررت تلك الهجمات مرات عديدة مثلما حدث فى شوال ٨١٤ هـ / ١٤١٢ غير أن الفرنج تركوا ميناء الطينة تحت هجوم أهلها ، فاتجهوا إلى دمياط حيث قاتلهم أهلها [٥] ، وقد أدركت السلطنة المملوكية ذلك ، فكانت القوات الحربية البحرية عندما تهاجم الفرنج فى البحر تعود إلى مصر من ميناء الطينة مثلما حدث فى شوال ٨٢٨ هـ / ١٤٢٥ م عند رجوعهم من الهجوم على قبرص [٦] . كما أرسلت السلطنة تجريده لحماية الطينة فى ذى القعدة ٨٤٤ هـ / ١٤٤١ م من الهجوم المشترك من الفونسو صاحب قشتالة وأهل رودس [٧] .

---

(١) المقريزى : السلوك جـ ٤ ق ٢ ص ٥٦٧ .
(٢) المصدر السابق جـ ٣ ق ١ ص ١٨٠ .
(٣) المصدر السابق جـ ٣ ق ٢ ص ٤٩٠ .
(٤) المقريزى : السلوك جـ ٤ ق ١ ص ١٨٢ .
(٥) المصدر السابق جـ ٤ ق ١ ص ١٩٤ .
(٦) المصدر السابق جـ ٤ ق ٢ ص ٦٩٤ - ٦٩٥ .
وانظر : سعيد عاشور : قبرص والحروب الصليبية ، القاهرة ١٩٥٧ م ، ص ١٠١ .
(٧) المقريزى : نفس المصدر جـ ٤ ق ٣ ص ١٢٢٧ - ١٢٢٨ .

ومن ثم نجد أن الفرنج ينزلون إلى بر الطينة ويتوغلون إلى قطية فيهجمون على التجار ويستولون على أملاكهم ، لأن الطريق من قطية إلى العريش كان يبدو خلوًا من الناس ، فاهتم سلاطين المماليك بإقامة برج بالقرب من الطينة على البحر المتوسط ، وكان هذا البرج مربعَ الشكل ، طول ضلعه ثلاثون ذراعًا ، حيث أخذت حجارته من خراب مدينة الفرما ، كما أحرق الجير من حجارتها أيضًا ، ونفذ بناء هذا البرج الزينى عبد القادر بن فخر الدين بن عبد الغنى بن أبى الفرج ، وفى شهر ربيع الآخر ٨٢٨ هـ / فبراير – مارس ١٤٣٤ م ، إبان عهد السلطان الأشرف برسباى ، ثم بُنِىَ وشُحن بالأسلحة ، وأقيم فيه خمسة وعشرون مقاتلا ، منهم عشرة فرسان ، كما أحاط به عربان الطينة لحراسته (١) .

والذى لاشك فيه أن تلك التحصينات قد أضعفت من هجمات الفرنج على الطينة ، وأبعدت نظرهم فى بعض الأوقات عنها ، لأن هناك إشارات تشير إلى وقوف السفن المملوكية لتلك الهجمات بالمرصاد دائمًا (٢) .

وتباعًا حاول سلاطين المماليك الاهتمام بميناء الطينة كإحدى الموانىء المصرية العامة ، ففى عهد السلطان خُشقدم ربيع الآخر ٨٦٥ هـ / يناير – فبراير ١٤٦١ م كلف الأمير بردبك الداودار الثانى ، والأمير ناصر الدين نقيب الجيش بالتوجه إلى ميناء الطينة لإقامة برج آخر (٣) ، ويبدو أنه اكتمل بناؤه (٤) .

وليس أدل على أهمية ذلك الميناء والأبراج التى أُقيمت فيه من أن العثمانيين عندما استولوا على الشام وعزموا على الدخول إلى مصر ، استولوا على الطينة والقلاع التى بها فى ذى الحجة ٩٢٢ هـ / ديسمبر ١٥١٦ – يناير ١٥١٧ م ، وهرب من بها من المماليك وغيرهم (٥) ، بالرغم من أنها كانت نقطة عسكرية لحراسة الحدود (٦) .

---

(١) المقريزى : السلوك جـ ٤ ق ٢ ص ٦٨٣ . وانظر : ابن تغرى بردى : النجوم الزاهرة جـ ١٤ ص ٢٧٢ .
(٢) ابن تغرى بردى : النجوم الزاهرة جـ ١٤ ص ٢٧٨ ، ٢٨٠ ، ٢٩٨ .
وانظر : ايرا مارين لابيدوس : مدن الشام فى العصر المملوكى ، ترجمة سهيل زكار دمشق ١٩٨٥ ص ٧٦ .
(٣) ابن تغرى بردى : النجوم الزاهرة جـ ١٦ تحقيق : جمال الشيال ، القاهرة ١٩٧٢ ص ١٥٦ .
(٤) ابن شاهين : نفس المصدر ص ٣٤ .
(٥) ابن إياس : بدائع الزهور جـ ٥ ص ١٣٣ .
(٦) المقريزى : البيان والإعراب ، هامش ص ٦١ .

وعلى هذا فإن ميناء الطينة كان يتبع مدينة قطية إداريا التي كان لها جهاز إداري فيه الوالي والناظر والقاضي والشهود والمباشرون [١] والدواوين [٢] .

ويبدو أنه لم يكن لقطيه جهاز إداري كامل إلا منذ بداية عصر سلاطين المماليك ، فبعد أن استقرت الأمور للسلطنة المماليكية وأدركت أهمية قطية أضافت نظرها مع أشمون الرمان والأعمال الشرقية في سنة ٧٠٣ هـ / ١٣٠٣ - ١٣٠٤ م إلى الأمير جمال الدين الذي كان نائب الكرك من قبل [٣] ، ثم تطور الأمر فأصبح لقطية والٍ [٤] من نهاية العقد الأول من القرن الثامن الهجري / العقد الأول من القرن الرابع عشر الميلادي ، هو الأمير بدر الدين ميخائيل [٥] . ومما يلفت النظر أن والي قطية في البداية كان برتبة أمير طبلخاناه [٦] ثم أصبح فيما بعد برتبة أمير عشرة [٧] وكانت تكتب إليه المخاطبات أحياناً عن نائب الشام بـ « ضاعف الله تعالى نعمه الجناب العالي » [٨] . وأحيانًا كان يكتب له عن النائب الكافل والأتابك بـ « صدرت والسامي » [٩] ، على أية حال فإنه عين لها واليًا في ٢٣ ذي القعدة ٧٣٦ هـ / يوليو ١٣٣٥ م الأمير عز الدين أيبك الحسامي أحد مقدمي الحلقة [١٠] . ولم يكن قد مضى عام حتى عزل الأخير وعُين مكانه الأمير نلبيه البريدي في ١٦ ربيع الآخر ٧٣٧ هـ / نوفمبر ١٣٣٦ م [١١] .

---

(١) ابن دقماق : الانتصار جـ ٤ ص ٥٢ . وانظر المقريزي : البيان والإعراب هامش ص ٦١ .

(٢) ابن بطوطة : تحفة الأنظار ص ١١٢ . وانظر عباس عمار : نفس المرجع ص ٥١ .

(٣) الدواداري : الدر الفاخر في سيرة الملك الناصر ص ١١٧ .

(٤) الوالي : وكان هذا الاسم قديماً لا يسمى به إلا نائب السلطان . انظر السبكي : معيد النعم ومبيد النقم ، بيروت ص ٤٠ .

(٥) الدواداري : الدر الفاخر في سيرة الملك الناصر ص ١٦٧ .

(٦) القلقشندي : صبح الأعشى جـ ٤ ص ٢٦ ، ٢٧ ، جـ ٧ ، ص ١٥٨ .

أمير طبلخاناه : مرتبة حربية من مراتب أرباب السيوف في مصر المملوكية ، صاحبها يلي أمير مائة مقدم ألف ، ويطلق على أمير طبلخاناه أيضًا أمير أربعين . انظر سعيد عاشور : العصر المماليكي في مصر والشام ، القاهرة ١٩٦٥ ص ٤١٤ .

(٧) أمير عشرة : مرتبة حربية يكون في خدمة صاحبها عشرة مماليك ، انظر سعيد عاشور : نفس المرجع ص ٤١٥

(٨) القلقشندي : صبح الأعشى جـ ٨ ص ٢٢٠ .

(٩) المصدر السابق والجزء ص ٢٢١ .

(١٠) المقريزي : السلوك جـ ٢ ق ١ ص ٤٠٣ .

(١١) المصدر السابق والجزء ص ٤١٠ .

ولا نريد أن نسرد أسماء ولاة قطية وفترات حكمهم طيلة العصور الوسطى ، وإنما نكتفى بالقول : إن السلطنة المملوكية لم تغض الطرف عنها حتى سقطت فى يد العثمانيين ، لكى يسترعى النظر عدة جوانب حول تعيين واختيار ولاة قطية ، الأول : المكان الذى يأتى منه الوالى ، والثانى : المكان الذى ينقل إليه ، والثالث : موقف السلطنة من أولئك الولاة وأولادهم فى حالة ارتكابهم جرائم ، والرابع : المال الذى كان يرسله والى أو نائب قطية إلى السلطنة المملوكية ، فتشير بعض المصادر إلى أن هناك أمراءَ أُسند إليهم نيابة ثغر دمياط مع ولاية قطية ، كما حدث عندما صدر أمر سلطانى للأمير علاء الدين على بن الطشلاقى فى الثلاثاء ١٥ شعبان ٧٦٤ هـ / ٣١ مايو ١٣٦٢ م (١) ، وهذا لا يعنى أن قطية ليست ذات أهمية لعدم انفراد واليها بها ، ولكن ربما لقرب دمياط من قطية دفع السلطنة المملوكية لإخضاعهما لأمير واحد ، وخاصة إذا علمنا أن هذا الأمير استمر فترة طويلة فى ولاية قطية لكفاءته (٢) ، وليس أدل على ذلك من أنه انفرد بولاية قطية فى جمادى الآخرة ٧٦٩ هـ / يناير – فبراير ١٣٦٨ م (٣) . ثم عزل ذلك الأمير فى ذى الحجة ٧٧٠ هـ / يوليه ١٣٦٨ م ، ونُقل إلى ولاية قطية الأمير الشريف بكتمر الذى كان والى القاهرة (٤) . ثم عزل وعين مكانه أمير آخر كان معزولا من قبل عن قطية ، ثم عزل وعُين الأمير حسن السيفى أمير أخور (٥) فى ٢٦ شعبان ٧٨٩ هـ / سبتمبر ١٣٨٧ م (٦) .

وكان إذا تم نقل والى قطية فيتم تعيينه فى نيابة لاتقل عن قطية مكانه ، ففى جمادى الآخرة ٧٣٩ هـ / ديسمبر ١٣٣٨ – يناير ١٣٣٩ م ، ولى الفيوم عز الدين استادار قرا لاجين الذى كان والى قطية (٧) وفى ٢٣ رمضان ٧٦٤ هـ / يوليو ١٣٦٢ م نقل الشريف بكتمر بن على الحسنى من ولاية قطية إلى ولاية القاهرة (٨) .

---

(١) ابن إياس : نفس المصدر جـ ١ ق ٢ ص ٥ .
(٢) انظر ابن قاضى شهبة : تاريخ ابن قاضى شهبة ، مجلد ١ جـ ٣ ص ٣٦٩ .
وأيضًا الصيرفى : نزهة النفوس والأبدان جـ ١ تحقيق : حسن حبشى ، القاهرة ١٩٧٠ ص ٢٢١ .
(٣) المقريزى : السلوك جـ ٣ ق ١ ص ١٥٧ .
(٤) ابن إياس : نفس المصدر جـ ١ ق ٢ ص ٩١ .
(٥) أمير أخور : إليه أمر الخيول والإصطبل . انظر السبكى : نفس المصدر ص ٣٦ .
(٦) المقريزى : السلوك جـ ٣ ق ٢ القاهرة ١٩٧٠ م ص ٥٦٥ .
(٧) الشجاعى : تاريخ الملك الناصر محمد بن قلاوون ، تحقيق بربارة سيفر ق ١ فسبادن ١٩٧٨ ص ٤٦ .
(٨) المقريزى : السلوك جـ ٣ ق ١ ص ٨٤ .

فى الوقت الذى نقل فيه ابن الطشلاق من ولاية القاهرة إلى ولاية قطية كما سبق ذكره ، فضلاً عن ذلك فإنه فى نهاية ربيع الآخر ٨٠١ هـ / يناير ١٣٩٩ استقر الأمير تاج الدين عبد الرزاق فى الوزارة بمصر منقولا من ولاية قطية [١] . وفى ٢١ ربيع الأول ٩١١ هـ / أغسطس ١٥٠٥ م نُقل الأمير أيدكى والى قطية نائباً لنيابة القدس [٢] .

ومما سبق يمكن القول : إن الولايات التى نُقل منها أو إليها أمراء وُلُّوا ولاية قطية ليست بالقليلة الأهمية ، بل ذات مكانة عظيمة فى السلطنة المملوكية ، مما يجعلنا نقرر أن سلاطين المماليك اهتموا بقطيه برغم صغر حجمها ، وذلك لعلو شأنها ، وينهض دليلاً على ذلك أن هناك أميرًا من الأمراء يدعى روح لو نائب غزة نُقل إلى ولاية قطية ، ثم نُقل نائبًا لحلب ، ثم حصل على رتبة أمير مقدم ألف [٣] . وبعد ذلك عاد إلى قطية نائبًا فى ١٨ جمادى الآخرة ٩١٦ هـ / سبتمبر ١٥١٠ م [٤] . وهذه أول مرة نلاحظ إطلاق لقب نائب على والى قطية ، إذ تواتر فى المصادر المعاصرة لقب والٍ ، فربما الذى دفع ابن إياس إلى ذلك أن هذا الأمير قد ولى نيابات كبرى مثل غزة وحلب قبل أن يلى قطية مما جعله يطلق عليه لقب نائب قطية .

ولما لقطية من أهمية فإن السلاطين المماليك اتخذوا الإجراءات الصارمة ضد ولاتها وأولادهم عند ارتكابهم جرائم ، فقد ارتكب الأمير أحمد ابن والى قطية (على الطشلاق) جريمة ، فأمر السلطان برقوق فى ٦ رمضان ٧٩٣ هـ / أغسطس ١٣٩١ م بتوسيطه [٥] كما قبض السلطان فى صفر ٧٩٧ هـ / نوفمبر ١٣٩٤ م على الأمير سيف الدين جلبان الكمشبغاوى نائب قطية ، وسُفر بحراً من ميناء الطينة إلى ميناء دمياط [٦] ربما لجريمة ارتكبها هو الآخر .

وليس مراقبة ولاة قطية هو الأسلوب الأوحد لإخضاعهم إلى السلطنة المملوكية

---

(١) المقريزى : السلوك جـ ٣ ق ٢ ص ٩٢٤ . وانظر : ابن إياس : نفس المصدر جـ ١ ق ٢ ص ٥١٦ .

(٢) ابن إياس : نفس المصدر جـ ٤ ص ٨٢ .

(٣) أمير مقدم ألف : أعلى مراتب الأمراء فى عصر المماليك ، وهذه المرتبة خاصة بأرباب السيوف ويكون فى خدمة صاحبها مائة مملوك ، وهو فى نفس الوقت مقدم على ألف جندى من أجناد الحلقة وقت الحرب .
انظر سعيد عاشور : العصر المماليكى ص ٤١٥ .

(٤) ابن إياس : نفس المصدر جـ ٤ ص ١٩٣ .

(٥) ابن الفرات : نفس المصدر مجلد ٩ جـ ١ ص ٢٦٣ . وانظر المقريزى : السلوك جـ ٣ ق ٢ ص ٧٣٦ .

(٦) ابن الفرات : نفس المصدر مجلد ٩ جـ ١ ص ٣٩٨ .

فحسب ، بل إن الأموال التى طلبتها السلطنة من ولاة قطية هى الأخرى أداة لعدم استفحال خطر وزيادة ثراء أولئك الولاة ، فقد كانت الأموال التى يجمعها الولاة من التجار بقطية – كما سيأتى ذكره – ترسل إلى السلطنة أولاً بأول ، كما كان بعضهم يلتزم بدفع مبالغ مثلما اشترطه السلطان برقوق على الأمير علاء الدين ابن الطشلاق فى ربيع الأول ٧٩٣ هـ / فبراير ١٣٩٠ م ، عند تعيينه فى قطية ، على أن يؤدى كل شهر ١٣٠٫٠٠٠ درهم (١) .

هذا عن والى قطية ، أما عن بقية الموظفين بها ، فهناك إشارات فى بعض المصادر تشير إلى وظيفة النظر (٢) . وكان قد وليها تاج الدين عبد الرزاق بن أبى الفرج ، وقد أضيفت هذه الوظيفة إلى هذا الأمير مع وظيفة الوالى فى ١٥ ربيع الآخر سنة ٧٩٨ هـ / يناير ١٣٩٦ م . فجمع بذلك بين النظر والولاية (٣) واستمر على ذلك حتى ٢٦ شوال ٨٠٣ هـ / يونيه ١٤٠٠ م (٤) . كما وجدت أيضًا وظيفة الصيرفى والمباشر ، اللتان وليهما تباعًا تاجُ الدين عبد الرزاق الآنف الذكر ، غير أن وظيفة الصيرفى كانت أقل من النظر والمباشرة « وكان ابتداء أمره صيرفيًا بقطية ، وترق حتى باشَرَ بها ، ثم ولى النظر إلى أن جمع بين النظر والولاية » (٥) كما ولى وظيفة الاستيفاء (٦) ، علاوة على هذا فإن هناك دلائلَ تشير إلى وجود وظيفة شاد الدواوين (٧) ، ووظيفة القاضى (٨) .

وعلى أى حال فإن الاهتمام بقطية الذى تمثل فى جهازها الإدارى وانتقاء ولاتها من بين ذوى المكانة والحظوة ، جاء نتيجة لأهمية موقعها كحلقة وَصْل بين مصر والشام ، سواء فى المراسلات البريدية أو فى لقاء الأمراء أو السلاطين ، أو الجيوش ، أو توديعهم واستقبالهم .

---

(١) انظر المقريزى : السلوك جـ ٣ ق ٢ ص ٧٣٦ .
(٢) انظر المقريزى : السلوك جـ ٢ ق ١ ص ١٥٦ .
(٣) المصدر السابق والجزء ، ص ٨٥٤ . وانظر ابن قاضى شهبة : نفس المصدر والجزء ، ص ٥٧٧ .
(٤) المقريزى : السلوك جـ ٣ ق ٣ القاهرة ١٩٧١ ص ١٠٢٠ .
(٥) المصدر السابق جـ ٣ ق ٢ ص ٨٥٤ . وانظر : ابن إياس : نفس المصدر جـ ١ ق ٢ ص ٥١٦ . وأيضًا : إيرا مارفين لابيدوس : نفس المرجع ص ١٩٢ .
(٦) المقريزى : السلوك جـ ٣ ق ٢ ص ٩٢٤ .
(٧) المصدر السابق جـ ٢ ق ١ ص ١٥٦ .
(٨) ابن دقماق : الانتصار جـ ٤ ص ٥٣ . وانظر محمد رمزى : القاموس الجغرافى ق ١ ص ٣٥٠ .

ولا يخفى عنا أنه فى عصر سلاطين المماليك بالذات كانت بلاد الشام تمثل الجناح الشرق للدولة وأطلق على الدولة اسم دولة البرين والبحرين ، إشارة إلى أنها تتألف من برى مصر والشام ، مما قوى الروابط بين القطرين وأدى إلى زيادة العناية بمراكز الأتصال بينهما ، فقطية كانت بمثابة علامة بارزة لمن يخرج من مصر وإلى الشام أو من يدخل مصر من الشام (١) ، وكانت تضرب عليها الإقامات السلطانية ، كما حدث فى شهر شعبان ٨٠٢ هـ / ابريل ١٣٩٩ م (٢) ، وورد فى المصادر أن السلطان المؤيد شيخ المحمودى عزم على السفر فى ٢٣ محرم ٨٢٠ هـ / مارس ١٤١٧ م ، فعرف أن نائب حلب قادمٌ ووصل قطية فى ثمانى هُجُن ، فأمر السلطان بتلقيه (٣) ، وأن نائب طرابلس عزم على الحضور إلى القاهرة بدون إذن السلطان فى ٤ رجب ٨٦٥ هـ / أبريل ١٤٦٠ م ، ثم ترد الإشارات أنه لم يعبر قطية (٤) ، وورد أيضًا أنه فى آخر شوال عاد الأمير شرف الدين بن غريب من قطية بعد وداع الأمير الدوادار الكبير (٥) ، وفى رمضان ٨٢٢ هـ / أكتوبر ١٤١٩ م جاءت الأخبار بأن السلطان المؤيد شخ المحمودى قدم إلى قطية قادمًا من الشام ، فخرج الأمراء وأرباب الدولة للقائه (٦) .

وفضلًا عمّا تقدم ، فإن قطية كانت مركزًا بريديًا مهمًّا لربط مصر بالشام ، فتواجد بها برج للحمام الزاجل (٧) . ويذكر القلقشندى عن أهميتها البريدية : « ثم منها إلى قطية ، وهى قرية صغيرة بها تؤخذ المرتبات السلطانية من التجار الواردين إلى مصر والصادرين منها .. فيكون من القاهرة إلى قطية اثنا عشر بريدًا ... » (٨) ومن ثم فإن الأخبار كانت تأتى إلى مصر من الشام وبالعكس عن طريق قطية ، فقد أوردت بعض المصادر أن البريد جاء من قطيه بـ ... (٩) وجاء الخبر من قطية

---

(١) الدواداری : الدر الفاخر فى سيرة الملك الناصر ص ١١٥ .
(٢) المقريزى : السلوك جـ ٣ ق ٣ ص ١٠١٥ .
(٣) ابن تغرى بردى : النجوم الزاهرة جـ ١٤ ص ٤٤ .
(٤) المصدر السابق جـ ١٦ ص ٢٢٦ .
(٥) الصيرفى : أنباء الهصر بأبناء العصر ص ٢٨١ .
(٦) ابن إياس : نفس المصدر جـ ٢ ص ٤٩ .
(٧) القلقشندى : صبح الأعشى جـ ١٤ ص ٣٩٢ .
(٨) المصدر السابق جـ ١٤ ص ٣٧٧ .
(٩) الصيرفى : نزهة النفوس والأبدان فى تواريخ الزمان تحقيق حسن حبشى ص ١٩٥ .

أن ... (١) وأنه فى مستهل شهر رمضان ٧٩٣ هـ / أغسطس ١٣٩٠ م قدم البريد من قطية مخبرًا بأن السلطان برقوق نزل بها هو ومن معه فى غاية الأمن والسلامة ، وفى ١١ محرم ٧٩٤ هـ / ديسمبر ١٣٩١ م ورد البريد مخبرًا بأن السلطان حَلَّ رِكابه من قطية (٢) . وفى ٦ ذى الحجة ٨٠٧ هـ / يونية ١٤٠٥ م سقط الطائر من بلبيس بنزول الأمراء قطية (٣) . وعندما بدأ نظام البريد يختل أصدر السلطان المملوكى فى جمادى الآخرة ٧٤١ هـ / نوفمبر - ديسمبر ١٣٤٠ م أمرًا ؛ ألَّا يركب البريد إلَّا من يأذن له السلطان فى ركوبه ويكون معه ما يثبت ذلك ، وأن يُفَتَّشَ بقطية من ورد ، فمن وجد معه ورقة وكتب لغير السلطان أُخذت منه وحُملت إلى السلطان ، (٤) .

يُضاف إلى ذلك أن المصادر أوردت ما أقطعه الملوك والسلاطين للأمراء بقطية ، فنجد السلطان الناصر محمد بن قلاوون قطع جزءًا كبيرًا منها للعاجزين من الجُند ، وقرر لكل منهم ثلاثة آلاف درهم (٥) . ثم يخرج ذات السلطان قطية من أقطاع أولئك الجند ويُضيفها إلى الخاص (٦) ، كما أقطع جزءًا من قطية للأمير تمرتاش بن جوبان إلى أن ينحل له إقطاع يناسبه (٧) .

ومما سبق نلاحظ هذا الاهتمام المنقطع النظير بتلك المنطقة الحيوية ، ولعل ذلك لا يرجع إلى موقعها الهام بالنسبة لمصر فحسب ، بل لما تحكمت فيه من الداخل والخارج إلى ومن مصر كما سبق توضيحه ، إذ كانت مركز تفتيش وتحصيل أموال من التجار ، فيتم التحقق من الشخصيات الداخلة إلى مصر من التجار الواصلين فى البر من الشام والعراق وما ولاهما ، وقد جعلت (قطية) لأخذ الموجات ، وحفظ الطرقات ، وأمرها

---

(١) ابن قاضى شهبة : نفس المصدر والجزء ص ٢٩٨ ، ٣٢٥ ، ٣٨٠ .

(٢) الصيرفى : نزهة النفوس والأبدان ص ٣٢٣ ، ٣٤١ .

(٣) ابن إياس : نفس المصدر ص ٧١٩ .

(٤) المقريزى : السلوك جـ ٢ ق ٢ ص ٥١٦ .

(٥) المصدر السابق جـ ٢ ق ١ ص ١٥٦ . انظر : ابن تغرى بردى : النجوم الزاهرة جـ ٩ ص ٥٣ .

(٦) المقريزى : السلوك جـ ٢ ق ١ ص ١٦٣ .

(٧) ابن تغرى بردى : المنهل الصافى والمستوفى بعد الوافى جـ ٤ تحقيق محمد محمد أمين ، القاهرة ١٩٨٦ ص ١٤٠ .

مهم ، ومنها يطالع بكل صادر ووارد » [١] ، ومن يسمح له باجتياز تلك المنطقة يمنح براءة (جواز) يحملها بعد إجتيازه [٢] ، ومنعاً للتهرب كان يتم ختم وتسوية الرمل حول قطية ليلا حتى يتمكنوا فى الصباح من التعرف على من يمر عليه بدون إذن جمركى [٣] ، وكان من يحاول التهرب ليلاً من المرور بهذه المنطقة الجمركية كان الجهاز القائم على عملية التفتيش – وكان يرأسه أمير برتبة طبلخاناه – يستعين ببعض العربان لتتبع أثر الهاربين والقبض عليهم ومعاقبتهم [٤] . وهذا لا يمنع من أنه حدثت بعض الاستثناءات لبعض العابرين بقطيه ، فيذكر ابن بطوطه أنه أثناء عبوره لها فى شعبان ٧٢٦ هـ / يوليه ١٣٢٥ م أن متولى الجمرك فيها كان عز الدين استادار أقمارى ويساعده عبد الجليل المعروف بالوقّاف ، وقد أجاز لابن بطوطة ومن معه من المغاربة المرور بدون اعتراض ، لأن متولى الجمرك مغربى الأصل [٥] ، بالإضافة إلى ذلك فإنه كانت هناك بعض المُسامَحات تُمنح للتجار من نواب الشام « بقدر معين يحصل الوقوف عنده » [٦] . وأيّامّا كان الأمر – إذا كانت هذه الحالات نادرة الحدوث – فإنها تدل على وجود استثناء جمركى لذوى المعرفة .

على أى حال ، فإنه قُدرت قيمة ما يتحصل عليه من التجار فى قطية بقيمة العُشر مما يحملون [٧] ، وإنْ ذكر البعض أن هذه القيمة تراوحت بين خمسة وعشرة فى المائة [٨] . وكانت هذه النسبة عادة تُحَصَّل كأموال ، ولم تحصل عينى [٩] ، إلا فى حالات نادرة عندما يكون الوارد قُماشًا أو غيره فتُؤْخَذُ النسبة من نوعه [١٠] . وكان دَخْل منطقة جمارك قطية من المال فى اليوم الواحد مايقرب من ألف دينار من الذهب [١١] .

---

(١) القلقشندى : صبح الأعشى جـ ٣ ص ٤٠١ ، ص ٤٦٦ .
(٢) ابن دقماق : الانتصار بواسطة عقد الأمصار جـ ٤ ص ٥٣ .
(٣) القلقشندى : صبح الأعشى جـ ١٤ ص ٣٧٨ .
(٤) ابن بطوطة : نفس المصدر جـ ١ ص ١١٢ – ١١٣ .
وانظر جاستون فيت : المواصلات فى مصر ترجمة / محمد وهبى ، القاهرة ١٩٣٧ م ص ٤٨ .
(٥) ابن بطوطة : نفس المصدر جـ ١ ص ١١٣ .
(٦) القلقشندى : صبح الأعشى جـ ١٣ ص ٤٩ ، ٤٠ .
(٧) المقريزى : السلوك جـ ٣ ق ١ هامش ص ٣٠٣ .
(٨) ايرامارفين لابيدوس : نفس المرجع ص ٥١ .
(٩) الصولى : نزهة النفوس والأبدان ص ١٠٧ .
(١٠) القلقشندى : صبح الأعشى جـ ٣ ص ٤٦٦ .
(١١) ابن بطوطة : نفس المصدر جـ ١ ص ١١٣ . وانظر ايرامارفين لابيدوس : نفس المرجع ، ص ٥١ .

فإنه فى السبت ١٧ ربيع الآخرة ٨٧٥ هـ / أكتوبر ١٤٧٠ م صدر أمر سلطانى بإبطال مكس قطية ، وأبلغ الناس بذلك [١] ، والسؤال الذى يطرح نفسه الآن هو : هل كان هذا المسلك نتيجة ثراء الخزانة السلطانية وعدم حاجتها إلى أموال ، أو أن السلطنة رغبت فى تنشيط الحركة التجارية البرية بين مصر والشام شطرى السلطنة المملوكية ؟ يبدو أن تلك الفترة – سلطنة قايتباى – كانت تُعد من أزهى فترات الدولة المملوكية ، وعليه فقد صدرت تلك الأوامر السابقة الذكر .

على أى حال إذا كان هذا هو دخل قطية اليومى ، فهل أثر ذلك على معيشة أهلها فى الوقت الذى غدت نقطة هامة وبارزة فى الطريق بين مصر والشام ، بدءًا من الفرما ثم قطية ثم الوارده فالعريش ثم رفح [٢] ؟ .

تذكر بعض المصادر أن بها سُكَّانًا ونخيلاً [٣] ، وبيوتهم صرائف من جريد النخل [٤] ، وأكثر طعامهم من السمك ، لقربهم من البحر [٥] ، والماء عندهم غير طيبة ، وشربهم من ركية عندهم جائفة ملحة ، وبها أسواق للخبز ، ولم تصل درجة عمل « الخبز » إلى الجودة ، لأنه وجدت به رمال أثناء تناوله فى الأكل « فلا يكاد يبالغ فى مضغة » . ويضيف بعض الجغرافيين أن هذه الملامح الطبيعية والبشرية للموضع فيها من الدقة والشمول مع الإيجاز ما لا يمكن معه أن نضيف كثيرًا عن خصائص المكان بمقياس العصر [٦] ، وعلى ما يبدو أن حياة السكان لم تتأثر بما عاد على قطية من الأموال الجمركية ، فربما قصر ذلك المال على الوالى والموظفين القائمين على أعمال الجمركة دون غيرهم .

غير أن قطية توفر بها ماتوفر فى أى منطقة أخرى مثل الجامع والمارستان [٧] . وعلى مايبدو أن الجامع قديم النشأة أما المارستان فيرجع نشأته إلى عصر سلاطين

---

(١) المصدر السابق ص ٢١٧ ، ٢٢٠ . وأيضًا ابن إياس : نفس المصدر جـ ٣ ص ٥٤ .

(٢) عباس عمار : نفس المرجع ص ٤٤ .

(٣) ابن دقماق : الانتصار بواسطة عقد الأمصار ، ص ٥٢ .

(٤) ابن عبد الحق : مراصد الاطلاع ص ٤٣٥ . وانظر عبد العال الشامى : مدن مصر وقراها عند ياقوت الحموى ص ٢٠ .

(٥) ابن حوقل : كتاب صورة الأرض ص ١٤٤ .

(٦) عبد العال الشامى : نفس المرجع ص ٢٠ .

(٧) المقريزى : السلوك جـ ٣ ق ١ هامش ص ٣٠٢ ، وانظر : البيان والإعراب هامش ص ٦١ .

المماليك [١] ، كما توفر بقطية بعض الدكاكين ليشترى منها المسافر مايحتاج إليه [٢] .

وقد كان غالب سكان قطية من العربان الذين ينتمون إلى قبائل وبطون وأفخاذ مختلفة ، فمنهم قبيلة « ثعلبة » [٣] ، التى جاءت إلى تلك المنطقة أثناء دخول صلاح الدين الأيوبى مصر [٤] ، كما وجدت أيضًا بطن « بنو بياضة والأخارسة (الأحادسه) [٥] . وعربان العايد وهلبا سويد ، وهم بطن من بطون زيد بن حرام ابن جذام » [٦] .

وقام كل جماعة من هؤلاء العربان بمهمة فى قطية ، فكان على قبيلة العايد حراسة وخفر البدرية [٧] ، وبعضهم اهتم بحراسة ميناء الطينة [٨] ، ومنهم من ساعد الموظفين القائمين على جمرك قطية وتَتَبُّع التجار والهاربين من أخذ النسبة المقررة عليهم [٩] . وفى كل الأحوال كان العربان جميعًا يستقبلون كبار الأمراء عند عبورهم قطية ، مثلما حدث عند مرور الأمير « يشبك » فى جُمادى الأولى سنة ٨٠٧ هـ / نوفمبر ١٤٠٤ م ، إذ أقام له العربان التقادم ورحبوا به [١٠] . ولم يقتصر دور العربان على الحراسة والترحاب بل تعدى إلى مساعدة سلاطين المماليك فى القضاء على الثائرين عليها ، وليس أدل على ذلك من هجوم عربان ميناء الطينة على الأمير مقبل الحسامى الدوادار الكبير ، وذلك فى المحرم ٨٢٤ هـ / يناير ١٤٢١ م ، وحاربوه ونهبوا خيوله وأثقاله وماكان معه ومع أتباعه من المماليك ، وطاردوه حتى فر على غراب من ميناء الطينة إلى الشام [١١] .

---

(١) ابن دقماق : نفس المصدر ص ٥٢ .

(٢) عبد العال الشامى : نفس المرجع ص ٥٨ .

(٣) القلقشندى : قلائد الجمان فى التعريف بقبائل عرب الزمان ، تحقيق ابراهيم الأبيارى ، بيروت ١٩٨٢ هامش ص ٨٦ .

(٤) القلقشندى : نهاية الأرب فى معرفة أنساب العرب ، تحقيق إبراهيم الأبيارى ، بيروت ١٩٨٠ ، ص ١٩٥ .

(٥) العمرى : مسالك الأبصار فى ممالك الأمصار ، تحقيق دوروثياكرا فولسكى ، بيروت ١٩٨٥ ص ١٧٨ .

(٦) المقريزى : السلوك جـ ٣ ق ٣ ص ١١٣٨ .

(٧) البدريه : هى الطريق الفوقانية بالبرية ، عرضها ثمانية أيام تسلكها التجار والمشورين عن الحقوق السلطانية الموجبة بقطية . انظر الدوادارى : الدر الفاخر فى سيرة الملك الناصر ص ١١٤ .

(٨) ابن تغرى بردى : النجوم الزاهرة جـ ١٤ ص ٢٧٢ .

(٩) ابن بطوطة : نفس المصدر ، ص ١١٣ .

(١٠) المقريزى : السلوك جـ ٣ ق ٣ ص ١١٣٨ . وانظر : ابن إياس : نفس المصدر جـ ١ ق ٢ ص ٧٠٠ .

(١١) ابن تغرى بردى : النجوم الزاهرة جـ ١٤ ص ١٧٠ — ١٧١ .

غير أن هذا لا يعنى أن العربان كانوا على طول الخط فى جانب السلطنة المملوكية ، بل كانوا دائمًا مصدر إزعاج واضطرابات ومثيرى فتن كلما بدا لهم ضعف السلطنة فى مصر ، ولم يكن ذلك فى قطية فحسب ، بل فى كل الأقاليم بالسلطنة التى وُجد بها عربان ، وبالتالى ما إن يشعر العربان بضعف السلطنة حتى ينقلب دورهم من المساعدة إلى الهجوم على الأمراء والتجار . وتصور بعض المصادر ذلك فى حوادث شوال ٨٧٦ هـ / مارس ١٤٧١ م « ومن قطية إلى القاهرة لا يقدر واحد يُمَشِّى أقل من مائتى جمل أو أكثر خوفًا من العربان وفسادهم » [(١)] وعند هزيمة المماليك أمام العثمانيين فى مرج دابق ٩٢٢ هـ / ١٥١٧ م وأثناء رجوع جموع المماليك من الشام هجم العربان عليهم « وجرى على العسكر من العربان ما لا جرى عليهم من عسكر ابن عثمان ، ووقع لهم ذلك بين قطية والصالحية » [(٢)] ، ثم زادت هجمات العربان بعد ذلك على قطية ، كما حدث فى ٩ ذى الحجة ٩٢٦ هـ / نوفمبر ١٥١٩ م ، وفى المحرم ٩٢٧ هـ / ديسمبر ١٥٢٠ م [(٣)] . أى بعد زوال السيادة المملوكية من مصر والشام .

وإذا تركنا آثار العربان السلبية على قطية ، فإننا نجدها قد لاقت مثل غيرها من المناطق كثيرًا من التخريب والدمار ، سواء من جراء الهجمات المعادية للسلطنة أو الأمراض التى انتشرت فى هذه العصور ، فإبَّان حركة يلبغا الناصرى ضد السلطنة المملوكية وتقدمه إلى مصر ، لم يستطع ابن الطشلاقى والى قطية الصمود فى وجه يلبغا الناصرى ، وأرسل حريمه إلى القاهرة فى جمادى الأولى ٧٩١ هـ / مارس ١٣٨٩ م ، وعندما وصل يلبغا الناصرى إلى قطية استولى عليها وتقدم إلى القاهرة [(٤)] . وفى رمضان ٨٠٩ هـ / فبراير ١٤٠٦ م قدم الأمير أزدمر من الشام ونزل قطية وخربها وعاد إلى غزة [(٥)] . علاوة على ذلك فإنه أثناء هجوم الأمير شيخ ونوروز على مصر فى رمضان ٨١٣ هـ / ١٤١٠ – ١٤١١ م تقدما إلى قطية واستوليا على مافيها ،

---

(١) الصيرفى : أنباء الهصر بأبناء العصر ص ٤١٩ .

(٢) ابن إياس : نفس المصدر جـ ٥ ص ٨٢ .

(٣) المصدر السابق والجزء ص ٣٧٢ ، ٣٧٨ – ٣٧٩ .

(٤) ابن الفرات : نفس المصدر مجلد ٩ جـ ١ ص ٧٤ .

(٥) المقريزى : السلوك جـ ٤ ق ١ القاهرة ١٩٧٢ ص ٤١ . وانظر · ابن إياس : نفس المصدر جـ ١ ق ٢ ص ٧٦٨ .

ولم يستطع الأمير فخر الدين عبد الغنى ابن أبى الفرج والى قطية مواجهة تلك الجموع المهاجمة ، فعندئذ التجأ إلى الطينة ليقى نفسه شر هذه الجحافل التى لا طاقة له بها [١] . علاوة على ذلك فإن الأمير عيسى بن بقر خرب قطية فى ذى القعدة ٨٧٥ هـ / أبريل - مايو ١٤٧٠ م فأمر السلطان بالقبض عليه وضربه [٢] .

هذا عن الهجمات المعادية على قطية ، أما عن الأمراض بها ، فإنها عانت من الأوبئة ، إذ انتشر بها الطاعون فى جُمادى الآخرة ٧٤٩ هـ / سبتمبر ١٣٤٨ م ، ومات أكثر أهلها « وصارت جثثهم تحت النخيل وعلى الحوانيت » ، ولم يبق إلا عدد قليل ، بما فيهم الوالى الذى طلب من السلطنة الاستعفاء من وظيفته خوفًا من الموت ، وقد قال الصلاح خليل بن أيبك الصفدى :

قد قلت للطاعون وهو بغـزة   قد جال من قطيا إلى بيروت
أخليت أرض الشام من سكانها   وحكمت ياطاعون بالطاغوت [٣]

وقد انتشر الطاعون مرة أخرى بقطية فى جمادى الآخرة ٩٠٣ هـ / فبراير ١٤٩٨ م ، ولم تقلّ خطورته على أهالى قطية من المرة السابقة [٤] .

وخلاصة القول : إن قطية قامت بدور مهم عند الطريق البرى الشرقى لمصر فى العصور الوسطى ، فهى لم تقف عند دورها كمنطقة جمركية تشكل جزءًا فى ميزانية السلطنة المملوكية فحسب ، بل كنقطة حراسة وحاجز بين مصر والشام . ويذكر البعض أن قطية قبل شق قناة السويس كانت تابعة لمديرية الشرقية ، أما الآن فأُلحقت بالعريش ، ومازال العربان يسكنونها [٥] ، ولم يبق منها إلا أطلالها فى الطريق بين القنطرة والعريش على مسافة خمسة وأربعين كيلومترًا فى الشمال الشرقي من القنطرة [٦] .

---

(١) المقريزى : السلوك جـ ٤ ق ١ ص ١٥٢ .
(٢) الصيرفى : أنباء الهصر بأبناء العصر ص ٢٢٠ .
(٣) المقريزى : السلوك جـ ٢ ق ٣ ص ٧٧٥ ، ٧٨٨ .
(٤) ابن إياس : نفس المصدر جـ ٣ ص ٣٨٦ .
(٥) نعوم بك شقير : تاريخ سيناء القديم والحديث ، القاهرة ١٩١٦ م ، ص ١٧٤ .
(٦) محمد رمزى : القاموس الجغرافى ق ١ ص ٣٥٠ .

ومن معالمها الأثرية قلعة مبنية بالحجر المنحوت ، وبئر رممه إبراهيم باشا أثناء حملته على سوريا ، ثم رممه عباس باشا فى القرن الحالى ، وبها عدة أكوام أثرية أهمها تل لكنيسة بها آثار رومانية وبيزنطية وعربية ، وشاهدى قبر عليهما كتابات كوفية فى مبنى مشيد فوق قبر أحد الأولياء ويسمى المزين ، وعلى مسافة من قطية هناك منطقة أثرية أخرى تعرف باسم « قصر غيط » عثر فيها على كنيسة ومعبد نبطى يرجع إلى القرن الأول الميلادى [١] » .

• • •

(١) انظر : أحمد رمضان أحمد : شبه جزيرة سيناء فى العصور الوسطى ص ١٤٣ - ١٤٤ .

مصادر ومراجع البحث

أولا - المصادر :

- ابن إياس : (محمد بن أحمد بن إياس) ت ٩٣٠ هـ / ١٥٢٤ م .
  - بدائع الزهور فى وقائع الدهور خمسة أجزاء ، تحقيق محمد مصطفى - القاهرة ٨٢ - ١٩٨٥ م .
- ابن بطوطة : (محمد بن عبد الله اللواتى) ت ٧٧٩ هـ / ١٣٧٧ م
  - تحفة النظار فى غرائب الأمصار وعجائب الأسفار جـ ١ باريس ١٩٨٨ م .
- ابن تغرى بردى : (يوسف بن تغرى بردى الأتابكى جمال الدين أبو المحاسن) ت ٨٧٤ هـ / ١٤٧٠ م
  - المنهل الصافى والمستوفى بعد الوافى جـ ٣ تحقيق / نبيل عبد العزيز - القاهرة ١٩٨٥ م .
  - النجوم الزاهرة فى ملوك مصر والقاهرة ، الأجزاء من السابع حتى السادس عشر . القاهرة ٣٨ - ١٩٧١ م .
- ابن الجيعان : (الشيخ الإمام شرف الدين يحيى بن المقر بن الجيعان) ت ٨٨٥ هـ / ١٤٨٠ م
  - التحفة السنية بأسماء البلاد المصرية القاهرة ١٨٩٨ م
- ابن حوقل النصيبى :
  - صورة الأرض ، القسم الأول الطبعة الثانية ليدن ١٩٦٧ م .
- ابن خرداذبة :
  - المسالك والممالك ليدن ١٣٠٦ هـ .
- ابن دقماق : (إبراهيم بن محمد بن أيد العلائى) ت ٨٠٩ هـ/ ١٤٠٦ - ١٤٠٧ م
  - الانتصار بواسطة عقد الأمصار جـ ٤ الطبعة الأولى بولاق ١٣٠٩ هـ .
- الدوادارى : (أبو بكر عبد الله بن أيبك الدوادارى) ت ٧٣٣ هـ / ١٣٣١ م
  - الدر المطلوب فى أخبار بنى أيوب ، تحقيق سعيد عاشور ، القاهرة ١٩٧٢ م .
  - الدرة الزكية فى أخبار الدولة التركية ، تحقيق أولرخ هارمان القاهرة ١٩٧١ م .
  - الدر الفاخر فى سيرة الملك الناصر ، تحقيق هانس رويمر القاهرة ١٩٦٠ م .

– السبكى : (تاج الدين عبد الوهاب) ت ٧٧١ هـ / ٦٩ – ١٣٧٠ م
– معيد النعم ومبيد النقم ، بيروت ١٩٨٦ م .
– السيوطى : (جلال الدين عبد الرحمٰن) ت ٩١١ هـ / ١٥٠٥ – ١٥٠٦ م
– حسن المحاضرة فى تاريخ مصر والقاهرة ، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم . جزءان ٦٧ – ١٩٦٨ م .
– ابن شاهين : (غرس الدين خليل بن شاهين الظاهرى) ت ٨٧٢ هـ / ١٤٦٨ م
– زبدة كشف الممالك وبيان الطرق والمسالك تحقيق بولس راويس ، باريس ١٨٩٤ م .
– الشجاعى : (شمس الدين)
– تاريخ الملك الناصر محمد بن قلاوون الصالحى وأولاده ، تحقيق برباره شيفر ، ق ١ فسبادن ١٩٧٨ .
– ابن الصيرفى : (على بن داود الجوهرى الصيرفى) ت ٨٧٩ هـ / ٧٤ – ١٤٧٥ م
– أنباء المصر بأبناء العصر ، تحقيق حسن حبشى ، القاهرة ١٩٧٠ م .
– نزهة النفوس والأبدان فى تواريخ الزمان ، تحقيق حسن حبشى جـ ١ القاهرة ١٩٧٠ م .
– ابن عبد الحق : (صفى الدين عبد المؤمن بن عبد الحق)
– مراصد الاطلاع على أسماء الأمكنة والبقاع جـ ٢ ليدن ١٨٥٢ م .
– ابن عبد الظاهر : (محيى الدين) ت ٦٩٢ هـ / ١٢٩٢ م
– تشريف الأيام والعصور فى سيرة الملك المنصور .تحقيق مراد كامل ومحمد النجار الطبعة الأولى ١٩٦١ م .
– العمرى : (ابن فضل الله العمرى شهاب الدين أبى بكر) ت ٧٤٩ هـ / ١٣٤٩ م
– مسالك الأبصار فى مسالك الأمصار ، تحقيق / دوروثياكرا فولسكى بيروت ١٩٨٥ م .
– العينى : (بدر الدين محمود) ت ٨٥٥ هـ / ١٤٥١ م
– عقد الجمان فى تاريخ أهل الزمان ، (١) تحقيق محمد محمد أمين القاهرة ١٩٨٧ م
– أبو الفدا : (الملك المؤيد عماد الدين إسماعيل بن الملك الأفضل بن أيوب صاحب حماة) ت ٧٣٢ هـ / ١٣٣١ م
– تقويم البلدان . باريس ١٨٤٠ م .
– المختصر فى أخبار البشر جـ ٣ بيروت (د . ت) .

- ابن الفرات : (ناصر الدين محمد بن عبد الرحيم بن الفرات) ت ٨٠٧ هـ / ١٤٠٥ م
- تاريخ ابن الفرات ، مجلد ٩ جـ ١ تحقيق قسطنطين زريق ، بيروت ١٩٣٦ م ، ومجلد ٩ جـ ٢ تحقيق قسطنطين زريق ونجلاء عز الدين ، بيروت ١٩٣٨ م .
- ابن قاضى شهبة : (تقى الدين أبو بكر بن أحمد بن قاضى شهبة) ت ٨٥١ هـ / ١٤٤٨ م ،
- تاريخ ابن قاضى شهبه مجلد ١ جـ ٣ تحقيق عدنان درويش (د.ت)
- القلقشندى : (الشيخ أبو العباس أحمد) ت ٨٢١ هـ / ١٤١٨ م ،
- صبح الأعشى فى صناعة الإنشا ، نسخة مصورة عن الطبعة الأميرية .
- قلائد الجمان فى التعريف بقبائل عرب الزمان ، تحقيق إبراهيم الأبيارى بيروت ١٩٨٢ م .
- نهاية الأرب فى معرفة أنساب العرب ، تحقيق إبراهيم الأبيارى - بيروت ١٩٨٠ م .
- الكتبى : (محمد بن شاكر) ت ٧٦٤ هـ / ١٣٦٢ - ١٣٦٣ م ،
- عيون التواريخ جـ ١ ، تحقيق نبيلة داود فيصل السامر ، العراق ١٩٨٤ م .
- المقريزى : (تقى الدين أحمد بن على) ت ٨٤٥ هـ / ١٤٤٢ م
- البيان والإعراب عمّا بأرض مصر من الأعراب تحقيق عبد المجيد عابدين ، الطبعة الأولى القاهرة ١٩٦١ م .
- السلوك لمعرفة دول الملوك ، طبعة دار الكتب .
- شذرات العقود فى ذكر النقود .
- ابن الوردى : (زين الدين عمر) ت ٧٥٠ هـ / ١٣٤٩ - ١٣٥٠ م
- تتمة المختصر فى أخبار البشر جـ ٢ مصر ١٢٨٥ هـ .
- ناصر خسرو : (علوى) ،
- سفر نامه ، ترجمة يحيى الخشاب ، القاهرة ١٩٤٥ م .
- ياقوت الحموى : (أبو عبد الله ياقوت الحموى الرومى البغدادى) ت ٦٢٦ هـ / ١٢٢٩ م ،
- معجم البلدان طهران ١٩٦٥ م .

ثانيا – المراجع :

– أحمد رمضان أحمد :

– شبه جزيرة سيناء فى العصور الوسطى . القاهرة ١٩٧٧ م .

– ألفرد . ج . بتلر :

– فتح العرب لمصر ، ترجمة محمد فريد أبو حديد . القاهرة ١٩٣٣ م .

– ايرا مارفين لابيدوس :

– مدن الشام فى العصر المملوكى ، ترجمة سهيل زكار . دمشق ١٩٨٥ م .

– جاستون فيت :

– المواصلات فى مصر ترجمة محمد وهبى ، مقال فى كتاب مصر الإسلامية ، تأليف زكى حسن وآخرين ، القاهرة ١٩٣٧ م .

– سعد بن محمد بن حذيفة الغامدى :

– الملك الناصر يوسف والمغول ،
مقال بمجلة آداب الإسكندرية ، المجلد ٣٤ لسنة ١٩٨٦ م .

– سعيد عاشور :

– العصر المماليكى فى مصر والشام ، القاهرة ١٩٧٦ م .

– قبرص والحروب الصليبية القاهرة ١٩٥٧ م .

– عباس عمار :

– المدخل الشرقى لمصر ، مقال بمجلة الجمعية الجغرافية جـ ١ ، القاهرة ١٩٤٥ م

– عبد العال عبد المنعم الشامى :

– مدن مصر وقراها عند ياقوت الحموى ، الطبعة الأولى ، الكويت ١٩٨١ م .

– عبد المنعم ماجد :

– الأطلس التاريخى للعالم الإسلامى فى العصور الوسطى ، القاهرة ١٩٦٧ م .

– محمد رمزى :

– القاموس الجغرافى للبلاد المصرية ، القسم الأول ، القاهرة ٥٣ – ١٩٥٤ م .

– نعوم بك شقير :

– تاريخ سيناء القديم والحديث وجغرافيتها ، القاهرة ١٩١٦ م .

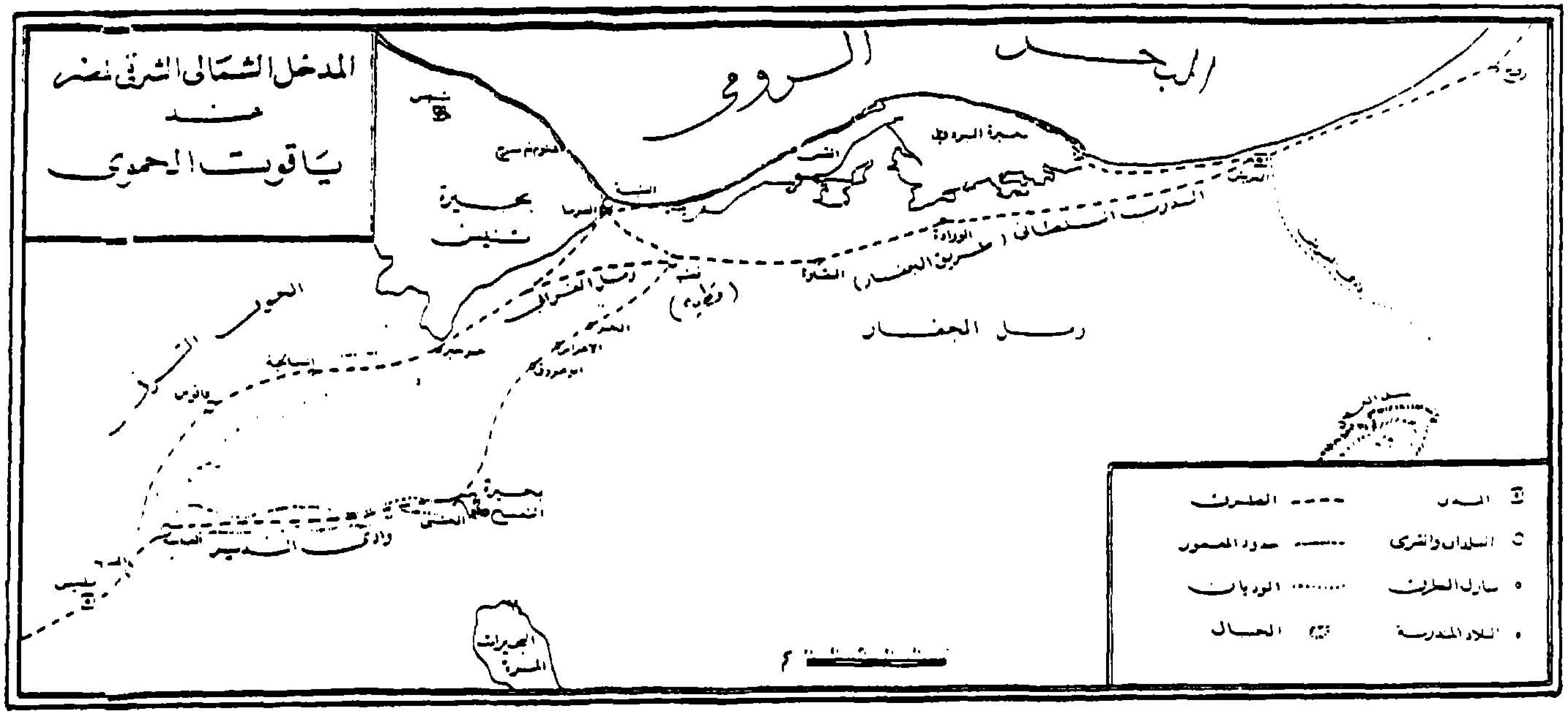

انظر عبدالعال الشامي : مدن مصر وقراها عند ياقوت الحموي ، الكويت ١٩٨١م

حملات مانويل كومنين على بلاد المجر
(١١٥١ - ١١٦٧ م)
فى ضوء كتابات حنا كناموس

دكتورة
ليلى عبد الجواد إسماعيل
أستاذ تاريخ العصور الوسطى المساعد
كلية الآداب - جامعة القاهرة

حملات مانويل كومنين على بلاد المجر
(١١٥١ - ١١٦٧ م)
فى ضوء كتابات حنا كناموس

لعبت المجر دورًا هامًا فى سياسات الإمبراطورية البيزنطية خلال فترة حكم الإمبراطور مانويل كومنين (١١٤٣ - ١١٨٠ م) ويرجع ذلك إلى أن مانويل كومنين كان من أم مجرية ، وهى الأميرة بيروسكا Piruska - ابنة الملك المجرى لادسلاس الأول Ladislas I (١٠٧٧ - ١٠٩٥ م) - التى تزوجت من أبيه حنا كومنين (١١١٨ - ١١٤٣ م) وأصبحت بحكم هذا الزواج إمبراطورة بيزنطية ، وسُميت باسم الإمبراطورة إيرين Irene [١] .

كذلك ورث مانويل عن أبيه حنا علاقات مضطربة مع المجر ، فعلى الرغم من أن المجر كانت تمد بيزنطة فى بعض الأحايين بالقوات المساعدة ، فإنها كانت لا تتورع عن خوض حرب ضدها إذا ما حاولت حكومتها التدخل فى شئونها الداخلية ، وسعت إلى مساعدة المتمردين عليها ومثيرى الشغب والفوضى بداخلها ، وجعلت من القسطنطينية عاصمتها ملجأ وملاذًا لهم [٢] .

ويُضاف إلى ما سبق أن « مانويل » وضع نُصب عينيه هدفاً رئيسيًا أخذ يسعى نحو تحقيقه ، ألا وهو : محاولة إحياء إمبراطورية جستنيان ، واستعادة ماكان لبيزنطة من سيادة على الغرب ، ورأى مانويل فى المجر بحكم موقعها الاستراتيجى قاعدة ذات قيمة كبيرة فى خططه الإمبراطورية فى وسط أوروبا ، وخاصة . وأن الإمبراطورية الألمانية - وعلى رأسها فردريك بربروسا Frederick Barbarossa - كانت تشكل عقبة كئودًا فى سبيل تحقيق ماكان يصبو إليه مانويل ، لذلك كان عليه أن يسعى جاهدًا لإدخال المجر فى دائرة النفوذ البيزنطى ، ليضمن بذلك نجاح مشروعه الخاص بإحياء الإمبراطورية من ناحية ، ولاستعادة السيادة البيزنطية على البلقان ، والتى انتزعها المجريون من ناحية أخرى [٣] .

---

(١) Obelensky, The Byzantine Commonwealth Eastern Europe, 500-1453, Oxford - London 1971, p. 213.

(٢) obelensky, The Byzantine Commonwealth, pp. 213-14

(٣) Evin Pamlenyi, Histoire d- Hongrie des Origines a'nos Jours, Trans. Par Laszlo Podor, p. 70.

وحاول مانويل كومنين تحقيق ذلك عن طريق الحملات العسكرية ، فشن العديد منها على بلاد المجر خلال مايقرب من ستة عشر عاماً تبدأ من عام ١١٥١ م وتنتهى بعام ١١٦٧ م .

ويفصل المؤرخ البيزنطى حنا كناموس Cinnamus [١] لهذه الحملات تفصيلاً مستفيضًا ، ويعد تاريخه المصدر الرئيسى لها ، فكناموس عاصَرَ الإمبراطور مانويل كومنين وصاحَبَه فى العديد من هذه الحملات ، كما عمل كسكرتير خاص له ، لذلك يحتل تاريخه درجة كبيرة من الأهمية بالنسبة لعصر مانويل بصفة عامة ، وحملاته على بلاد المجر بصفة خاصة .

وسوف نحاول فى هذا البحث تقسيم هذه الحملات تقسيمًا زمنيًّا حتى يتسنى لنا إبراز أسباب هذه الحملات ونتائجها فى صورة واضحة ، وخاصة أن تاريخها وحوادثها متداخلة ومعقدة .

* * *

أولًا – حملات مانويل كومنين على المجر (١١٥١ – ١١٥٦ م) :

شكل المجريون خطرًا بالغاً لبيزنطة منذ أن أقاموا على ساحل دالماشيا ، فقد ترتب على ذلك حدوث نوع من التقارب بينهم وبين الصرب ، وسرعان ماتوطدت أواصر هذا التقارب بزواج أميرة صربية من أمير مجرىّ ، وتشكل حليف جديد من المجر والصرب ضد بيزنطة فى الشمال الغربى . لذلك بدأت بيزنطة تنظر بعدم الارتياح وبعين القلق لهذا التقارب [٢] .

وسرعان مانضجت ثمار هذا الحلف عندما هاجم الإمبراطور مانويل الصرب فى عام ١١٥٠ م ، وأسرع الصربيون إلى طلب العون والمساعدة من حلفائهم المجريين ،

---

(١) لمزيد من التفاصيل عن حنا كناموس ومؤلفه انظر محمود سعيد عمران : السياسة الشرقية للإمبراطورية البيزنطية فى عهد الإمبراطور مانويل الأول (١١٤٣ – ١١٨٠ م) الإسكندرية ١٩٨٥ ، ص ١٢ – ١٦ وانظر أيضًا : Kinnamos, Deeds of John and Manuel Comnenus, Tran. by Charles Brand, New York 1976, pp. 2-3.

(٢) Vasiliev, Histoire de l'Empire Byzantin, T. II, Paris 1932, p. 52.

ولبّت المجر النداء على الفور ، وأسرع ملكها جيزا الثانى Geza II (١١٤١ - ١١٦٢ م) بإرسال القوات المجرية لمساعدة الصرب والوقوف إلى جوارها فى حربها ضد بيزنطة [١] .

وخرج الإمبراطور مانويل لمنازلة القوات المجرية القادمة لنجدة الصرب ، ونجح فى التصدى لإحدى الفرق المجرية وهزمها ، فولت الفرار ، وطاردها البيزنطيون حتى نهر تارا Tara [٢] . أما عن بقية الجيش المجرى الذى كان يتألف - كما يذكر كناموس - من قوة لا تحصى من الفرسان المجريين ، وكذلك عدد من الخاليس Chalis [٣] فقد نجح فى الانضمام إلى الصرب ، ووقف على أهبة الاستعداد لقتال البيزنطيين [٤] .

واصطدم خلال المعركة قائد الجيش المجرى - ويدعى باخينوس Bacchinus ويصفه كناموس [٥] بالشجاعة وطول القامة - بالقائد البيزنطى كانتاكوزين Cantacuzanus وعجز الأخير عن مواجهة القائد المجرى والتصدى له . وعندئذ أرسل الإمبراطور إلى قائده كانتاكوزين فرقة من ثلاثمائة رجل لمساندته ، ثم خرج بنفسه لقتال القائد المجرى ونجح فى أسره (خريف عام ١١٥٠ م) [٦] .

ولم يغفر الإمبراطور مانويل للمجريين تحالفهم وانضمامهم إلى الصرب فى حربهم ضده ، واتخذ من هذا التحالف مبررًا - كما يذكر كناموس - ليشن عليهم أولى حملاته ، غير أنه لم يُفَاجِئْهُم بالحرب ، بل أرسل إليهم خطابًا يحذرهم فيه من هجومه المرتقب ، ويظهر لهم من خلاله سوء مسلكهم نحوه ، ونظرًا لأن لهجة الخطاب كانت ممزوجة

---

(١) Cinnamus, Historiarum, in Corpus Scriptorum Historiae Byzantinae, Bonnae 1836, p. 103.

وانظر الترجمة الإنجليزية p.82

(٢) Cinnamus, Historiarum, pp. 103-104.

وانظر الترجمة الإنجليزية 85 - 84 .pp .

(٣) الخاليس وهم الخوارزمية المسلمين الذين كانوا يعيشون فى بلاد المجر . ولمزيد من التفاصيل عنهم والدور الذى لعبوه فى بلاد المجر . انظر : ليلى عبد الجواد : « المسلمون فى بلاد المجر فى العصور الوسطى » . مقال منشور بمجلة المؤرخ المصرى ، العدد السابع ١٩٩١ م ، ص ٥٦ - ٥٩ ، ٦٨ - ٧٠ .

(٤) وانظر الترجمة الإنجليزية p.86 Cinnamus, Historiarum, p. 107.,

(٥) والترجمة الإنجليزية p.88 Cinnamus, Historarum, p. 112.,

(٦) والترجمة الإنجليزية p.89 Cinnamus, p. 112.

وانظر أيضًا : Lebeau, Histoire du Bas-Empire, T.16,pp.133-34

بروح التهديد والوعيد فقد فضل جيزا الثانى ملك المجر الحرب على أن يفتح باب المفاوضات من أجل الصلح والسلام (١) .

عندئذ استغل الإمبراطور مانويل فرصة غياب جيزا الثانى عن بلاده وانشغاله فى حرب مع الروس وخرج بحملته الأولى متجهًا نحو نهر الدانوب (فى خريف عام ١١٥١ م) لمهاجمة المجر . ويروى كناموس تفاصيل هذه الحملة فيذكر أن الإمبراطور بعد أن نجح فى عبور نهر استروس Istros أى نهر الدانوب تقدم فى بلاد المجر ، وقام بنهب كل ما صادفه فى طريقه بدون شفقة أو رحمة – كما جاء على لسان كناموس نفسه (٢) – حتى وصل إلى قلعة زوجمين Zeugminus (٣) وهى من القلاع المجرية الحصينة ذات الأسوار العالية ، فعجز عن الاستيلاء عليها ، وترك عندها صهره ثيودور باتاتزيس Theodore Batatzes على رأس قسم من الجيش ، فى حين تابع الإمبراطور تقدمه مع باق الجيش داخل المجر عبر القرى التى تقع بين نهرى الدانوب والساف Save (٤) .

وخرج الجيش المجرى للتصدى للبيزنطيين والدفاع عن بلاده . ويذكر كناموس أنه نظرًا لقلة هذا الجيش فإنه لم يستطع المخاطرة بقتال البيزنطيين واضطر للاستسلام ، واستمر الإمبراطور فى تخريبه وتدميره للمدن المجرية ، وأسَرَ أعدادًا كبيرة من المجريين نساءً ورجالًا ، وأطفالًا وشيوخًا ، ويبالغ كناموس فيذكر أن الجزيرة التى يكونها نهر الدانوب والساف قد خلت من سكانها تمامًا ، إذ وقعوا جميعًا فى الأسر (٥) . ثم يعلق كناموس على هذا الانتصار الذى حققه مانويل بقوله : « إن هذا شيء يستحق أن يُسَجَّلَ بين أعظم أعمال الرومان (أى البيزنطيين) » (٦) .

---

(١) Cinnamus, Historiarum, p. 133. وانظر الترجمة الإنجليزية p.90

(٢) Cinnamus, Historiarum. p. 113-114., وانظر الترجمة pp. 90-91

(٣) شيدها المجريون فى عام ١١٢٤ م ، وتقع بالقرب من مدينة سرمم Sirmium بين نهر الدانوب والساف وعلى بعد ثلاثة أميال شمال غرب بلجراد . انظر : Lebeau, Histoire du Bas-Empire, T. 16 p.14.,

وانظر أيضًا : Kinnamos, trans, by Charles Brand, p. 235, note 11.

(٤) Cinnamus, Historiarum, p. 114; Lebeau, Histoire du Bas-Empire, T. 16, p. 135.

(٥) Cinnamus, Historiarum, p. 114.,

(٦) Ibid.

ويتابع كناموس روايته فيذكر أن الإمبراطور عاد بعد ذلك إلى قلعة زوجمين zeugminus التى كان يحاصرها قائده باتاتزيس والتى يَئِسَ أهلها من حضور الملك جيزا الثانى لمساعدتهم ، فآثروا تسليم قلعتهم عندما رأوا استعدادات البيزنطيين لمهاجمة أسوارها ، ولكن بشرط أن ينسحب منها البيزنطيون ويُؤمنوهم على أنفسهم ، وعندما رُفِضَتْ شُروطُهم تقدموا خاضعين للإمبراطور وقد عَمهم الخزى وسلموا أنفسهم له ، وأمر الإمبراطور بعدم التعرض لهم أو قتل أىٍّ منهم ، ثم أباح لجنوده الاستيلاء على ماتحويه القلعة من مُؤَنٍ وأسلحة (١) .

وأسرع الإمبراطور بعد ذلك بعبور نهر « الساف » بما معه من أسرى ، فى الوقت الذى كان جيزا الثانى قد فرغ فيه من حروبه مع الروس وخرج منها منتصرًا ، وسار مسرعًا على رأس جيش كبير لقتال البيزنطيين ، وعندما علم مانويل بمقدمه أمر بنقل ميدان القتال وآلات الحرب وجميع الأسرى إلى الشاطىء الآخر لنهر « الساف » ، كما أمر قائد الأسطول بأن يُبقى على جميع السفن والقوارب على هذه الضفة . أما هو فقرر الخروج على رأس كوكبة من فرسانه لمواجهة جيزا الثانى بأقصى سرعة (٢) .

وبينما كان يستعد الإمبراطور للرحيل علم بتقدم جيش جيزا الثانى وعلى رأسه عمه بولوسيس Bolosis فهب مانويل للقائه ، ولكن فاجأه الليل وهو فى الطريق إليه . وفى الصباح علم بولوسيس باقتراب الإمبراطور ، فرحل بكامل قوته بعد أن اختلق بعض الأعذار الواهية – كما يذكر كناموس – ومنها أنه تلقى أمرًا من الملك جيزا الثانى بالذهاب إلى مدينة برانزوبوس Branizobus (٣) ليصبح فى وضع يمكنه من مهاجمة البيزنطيين ، ومع ذلك فقد لحق به الإمبراطور وعبر الساف وعسكر أمامه ، لدرجة لم يستطع الخروج معها من معسكره عند برانزوبوس (٤) .

وأرسل الإمبراطور فى الوقت نفسه جيشًا آخر على رأسه أحد المجريين ، ويدعى

---

(١) وانظر الترجمة الانجليزية pp. 91-92 Cinnamus, Historiarum, pp. 114-115.,
وانظر أيضاً : Lebeau, Histoire du Bas-Empire, T.16, p. 135

(٢) وانظر أيضًا الترجمة الإنجليزية p.92. Cinnamus, Historiarum, p. 115.,

(٣) وهى مدينة برانيكوفا Branicova وعنها انظر : Dolger, Regesten Der kaiser Urkunden Des Ostromischen Reiches vor 565-1453, Vol. I, Berlin 1924, p. 71.

(٤) وانظر الترجمة الإنجليزية p.93. Cinnamus, Historiarum, p. 117.,

بوريس Boris (١) ليعيث فسادًا بالمنطقة التى يحيط بها نهر يسمى Temises – المتفرع من الدانوب – وكانت هذه المنطقة – كما يذكر كناموس تعج بأعداد كبيرة من السكان وبكل شىء له قيمة . ووصل بوريس Boris بسهولة إلى هذه المنطقة وبصحبته الجيش البيزنطى ، وقام بتخريب المنطقة تمامًا بعد أن اشتبك مع ثلاث فرق مجرية ، ونجح فى هزيمتها (٢) .

وقام جيزا الثانى – وكان على الشاطىء الآخر للدانوب – بمطاردة بوريس من الخلف وهو فى طريق عودته ، ولكن بدون جدوى ، إذ نجح بوريس فى عبور الدانوب أثناء الليل على ضوء المشاعل التى أرسلها إليه الإمبراطور مانويل من معسكره ، وعاد بوريس إلى المعسكر البيزنطى محملًا بالأسلاب والغنائم بدون أن ينال منه جيزا الثانى (٣) .

وعزم مانويل – بعد هذا النجاح الذى حققه جيش بوريس – على عبور الدانوب ثانية لمنازلة الملك جيزا الثانى الذى كان يعسكر على الضفة الأخرى للنهر ، ويروى كناموس أن جيزا عندما سمع بذلك تجنب لقاء الإمبراطور خوفا منه وخشية أن ينهزم على يديه ويورط القوة المجرية الباقية ويوردها مورد الدمار ، وأرسل سفارة إلى الإمبراطور تطلب منه عقد الصلح وتناقش معه شروط السلام . ووافق مانويل على عقد هدنة حتى نهاية عام ١١٥١ م ، وعاد إلى بيزنطة بعد ذلك ، حيث احتفل بانتصاره هناك (٤) ، وعلى هذا النحو يسدل الستار على أولى حملات مانويل على بلاد المجر .

ولم تكد فترة الهدنة تنتهى حتى خرج جيزا الثانى لقتال البيزنطيين (عام ١١٥٢ م) وكان سبب ذلك – كما يروى كناموس – استياؤه مما حل به من هزائم

---

(١) بوريس : هو ابن الملك المجرى كولومان (١٠٩٥ – ١١١٤ م) وابن عم الملك جيزا ، حاول أن يرتقى عرش المجر فى نهاية حكم استفن الثانى (١١١٤ – ١١٣١ م) ولكنه فشل واضطر للهرب إلى القسطنطينية ، فرحب به حنا كومنين وأنزله منزلة التكريم ، وزوجه من إحدى قريباته . وعندما توفى حنا احتضن ابنه مانويل بوريس ، وقدم له المساعدات لاستعادة عرشه ، وكثيرًا ما كان يخرج على رأسه الجيوش البيزنطية من أجل تحقيق هذا الهدف . لمزيد من التفاصيل انظر : Lebeau, Histoire du Bas-Empire, T. 16, pp. 136-37.

(٢) Cinnamus, Historiarum, pp. 117-18., وانظر الترجمة الإنجليزية pp.93-94.

(٣) Cinnamus, Historiarum, pp. 118., وانظر الترجمة الإنجليزية p. 94.

(٤) Cinnamus, Historiarum, p. 118., وانظر أيضًا الترجمة الإنجليزية p.94.

على أيديهم . ويتابع كناموس فيذكر أن الإمبراطور لم يكن ليصبر على هذه الإهانة ، لذلك شرع بعد حملته الثانية ضد المجر ، وخرج على رأسها بأقصى سرعة إلى الدانوب حيث أقام معسكره أمام المعسكر المجرى المقام على الضفة الأخرى للنهر (١) . وتردد الإمبراطور فى الاشتباك مع المجريين فى أول الأمر ، وذلك لتأخر وصول السفن البيزنطية ، ولكن ما إن وصل بعضها بعد عدة أيام حتى خاف ملك المجر – كما يروى كناموس – من أن يُصاب بهزيمة أخرى ، لذلك سارع بالتفاوض ثانية مع الإمبراطور ، وأرسل رسله من أجل طلب السلام ، وتم عقد معاهدة بين الطرفين (٢) تقرر فيها أن يحتفظ مانويل بألفين من الأسرى المجريين ويسلم الباق ، واتخذت الترتيبات اللازمة لإطلاق سراح هؤلاء الأسرى بالفعل ، ولقاء ذلك تعهد ملك المجر أن يعيش صديقًا للبيزنطيين على مر الأيام . وبعد أن تم توقيع اتفاقية الصلح هذه انسحب الجيش البيزنطى عائدًا إلى بلاده (٣) .

ولكن لايجب أن نأخذ رواية حنا كناموس عن القتال الذى دار بين بيزنطة والمجر فى الفترة (١١٥١ – ١١٥٢ م) على أنها رواية مسلم بها ، وخاصة أن هناك رواية أخرى معاصرة تذكر حوادث الصراع المجرى البيزنطى خلال تلك الفترة ، وهى رواية الرحالة أبى حامد الأندلسى الغرناطى الذى زار بلاد المجر فى عام ٥٤٥ هـ / ١١٥٠ م وأقام بها ثلاث سنوات (٥٤٥ – ٥٤٨ هـ / ١١٥٠ – ١١٥٣ م) وهى السنوات التى دار خلالها القتال بين بيزنطة والمجر ، وجاء فى روايته : « أن ملك باشقرد (أى المجر) كل وقت يخرب بلاد الروم ... وهزم لملك الروم اثنى عشر عسكرًا . ويذكر فى موضع آخر : « وجاء صاحب القسطنطينية طالبًا للصلح ، وبذل أموالاً كثيرة وأسارى ... كثيرة » (٤) .

---

(١) وانظر الترجمة .p.96 Cinnamus, p. 121.,

(٢) اختلف الباحثون حول تاريخ توقيع هذه المدنة فيرى دولجر أنها وقعت فى عام (١١٥٢ م) ، فى حين يرى روبرت برونتج Robert Browning أنها وقعت فى العام التالى (١١٥٣ م) ، ويبدو أن هذا التاريخ الأخير هو الأكثر احتمالا .

انظر : Dolger, Regesten, Vol. I, p. 69

Browning, « A new Source on Byzantine-Hungarian relations, in the twelfth Century» In Studies Byzantine Hist. Literature and Education, London, 1977, p. 179.

(٣) وانظر الترجمة الإنجليزية .p.95 Cinnamus, Historiarum, pp. 119-120.,

(٤) أبو حامد الأندلسى ، المعرب عن بعض عجائب المغرب ، نشر دوبلر ، نص بالعربية مع ترجمة وتعليق بالأسبانية ، مدريد ١٩٥٣ م ، ص ٣١

وبمقارنة رواية كناموس مع رواية أبي حامد يتضح أنّ هناك اختلافًا بين الروايتين ، كما أن هناك نقطة اتصال بينهما . أما عن وجه الاختلاف فيظهر فيما تذكره الرواية البيزنطية من أن ملك المجر كان يتراجع دائمًا ويسعى لطلب الصلح ، فى حين جاء فى الرواية العربية أن ملك المجر كل وقت يخرب بلاد الروم ، وهزم للبيزنطيين اثني عشر عسكرًا ، وأن الإمبراطور هو الذى جاء بنفسه لطلب الصلح وبذل الأموال والأسرى .

أما عن نقطة الاتصال بين الروايتين البينزنطية والعربية فتظهر فى أن كُلًّ واحدة منهما تذكر أنه تم توقيع اتفاقية للصلح وإطلاق سراح الأسرى ، وهذا يدفعنا إلى أن نتساءل : ما الذى يدفع الإمبراطور مانويل لقبول الصلح وإطلاق سراح الأسرى المجريين والعودة إلى بلاده إلا أن يكون المجريون قد حققوا انتصارًا بالفعل دفعه إلى قبول الصلح وعقد معاهدة للسلام ، والموافقة على إطلاق سراح ألفين من الأسرى المجريين .

ولم يمض وقت طويل على توقيع اتفاقية الصلح بين الطرفين (١١٥٢ – ١١٥٣ م) حتى تجددت العداوات بينهما من جديد ، ويرجع سبب ذلك هذه المرة إلى أن أندرونيقوس كومنين Andronicus Comnenus [(١)] – ابن عم الإمبراطور مانويل – عرض على المجريين أن يتنازل لهم عن مدينتى بارانكس Barancs ونيش Nis ، وكان حاكمًا لهما ، لقاء مساعدتهم له فى الاستيلاء على العرش الإمبراطورى ، ورحب ملك المجر جيزا الثانى كل الترحيب بهذا العرض ، وهاجم مدينة برانزبوس Branizobus التى كانت تحت السيطرة البيزنطية عندئذ [(٢)] .

وعلم مانويل بأخبار المؤامرة التى يدبرها أندرونيق مع المجر ، فقام باعتقال أندرونيق ووضعه تحت الحراسة فى أحد القصور ، وأعلن الحرب على جيزا الثانى ، واتجه على رأس حملته الثالثة [(٣)] إلى الدانوب لإنقاذ سكان مدينة برانزوبوس والدفاع

---

(١) هو الذى سيصبح فيما بعد إمبراطورًا باسم اندرونيق الأول (١١٨٣ – ١١٨٥ م) .

(٢) Nicetas Choniates, Historia, in Corpus Scriptorum Historiae-Byzantinae, Bonnae 1835, p. 133.

وانظر أيضًا :

Moravcsik, «Pour alliance Byzantino-Hongroise» Dans Byzantion T. 8 (1933) p. 558.

(٣) يجب ملاحظة أن ترقيم هذه الحملات من وضع الباحثة ، وأنه لم يرد فى المصادر .

عنها ، وقبل أن يصل إليها حاول أن يثبت روح الطمأنينة فى نفوس أهلها فأرسل إليهم خطابًا يخبرهم فيه أنه قادم لمساعدتهم ، وأمر أحد جنوده بأن يرمى بهذا الخطاب إلى أهل المدينة بواسطة سهم ، غير أن السهم ومعه الخطاب وقع فى أيدى المجريين ، وعندئذ أسرعوا بحرق آلاتهم ورفعوا الحصار عن مدينة برانزوبوس ، واتجهوا نحو الدانوب حتى يصبح النهر حداً فاصلاً بينهم وبين الإمبراطور ، وعندما علم الإمبراطور بأنهم رفعوا الحصار عن المدينة قرر ألّا يتعقبهم (أواخر خريف عام ١١٥٥ م) (١) .

وتآمر المجريون مرة أخرى على بيزنطة ، إذ تحالفوا ضدها مع أمير بوسينا Bosins – وهى منطقة صربية – الذى عرض مساعدتهم فى قتال البيزنطيين ، وعندما علم الإمبراطور بذلك أرسل إليهم فرقة من خيرة فرسانه ، وعلى رأسهم القائد « باسل زينزيلوس Basilus Zinzilus » . ويذكر كناموس أن باسِلاً اشتبك مع الجيش المجرى ، وكانت الغلبة فى أول الأمر لصالحه ، إذ هاجم مقدمة الجيش المجرى فولت هاربة ، ثم هاجم القلب فارتد المجريون وولوا مدبرين فى ارتباك وفوضى ، ويتابع كناموس روايته فيذكر أن المجريين عندما علموا بأن الإمبراطور لم يخرج بصحبة هذا الجيش حتى دبت فيهم الشجاعة وهاجموا البيزنطيين ، وحولوا هزيمتهم إلى نصر مبين ، ومزقوا قوات باسل شر ممزق ، وسقط عدد كبير منهم صرعى فى ميدان القتال ، فى حين فر باسل نجاة بنفسه (٢) . وحاول كناموس أن يقلل من قيمة هذا الانتصار الذى حققه المجريون على جيش باسل ، كما حاول أن يلتمس العذر لبنى جلدته فذكر : « أنهم كانوا أقل عددًا ولذلك حلت بهم الهزيمة » (٣) .

وعندما وصل تقرير إلى الإمبراطور بما وقع لجيش باسل شعر بقلق بالغ ، وقرر الخروج بنفسه لمطاردة الجيش المجرى وتعقبه ، غير أن سادة بيزنطة لم يوافقوه على ذلك ، فرد عليهم بقوله : « إنه لمن العار أيها السادة أن أنسحب أمام الشدائد » (٤) على أن الإمبراطور مالبث أن تخلى عن قراره ، خاصة عندما علم بابتعاد القوة المجرية كثيرًا . ويذكر نيقتاس Nicetas أنه تم توقيع معاهدة سلام أخرى مع جيزا الثانى ملك

---

(١) انظر : Nicetas, Historia, p. 133.

(٢) Cinnamus, Historiarum, p. 132, Nicates, Historia, p.134

(٣) Cinnamus, p. 132.

(٤) Cinnamus, Historiarum, p. 133. وانظر الترجمة الإنجليزية p. 105.

المجر (١١٥٥ م) تضمنت شروطًا مناسبة للطرفين ، وتنازل المجريون بمقتضاها للبيزنطيين عن المنطقة المعروفة باسم Paeones (١) .

وفى ربيع العام التالى (١١٥٦ م) قام الإمبراطور مانويل بإعداد حملة جديدة لمهاجمة المجر ، ولا يذكر كناموس الأسباب التى دعت الإمبراطور لإعدادها هذه المرة سوى أنه قال : « إن الإمبراطور كانت لديه رغبة جارفة فى أن يتغلغل داخل أرجاء هذا البلد » (٢) . هذا فى حين يذكر أوتوفريزنغ (٣) Otto of Freising أن الإمبراطور البيزنطى كان قد أرسل جيشًا مع بوريس (٤) Boris لمهاجمة المجر ، وتعرض هذا الجيش لخسارة فادحة على أيديهم ، وقتل المجريون موريس نفسه . ويبدو أن الرغبة فى الانتقام لهذا الأمير وللضرر الذى حل بالبيزنطيين على أيدى المجريين هى التى دفعت الإمبراطور إلى إعداد هذه الحملة التى يمكن أن نطلق عليها الحملة الرابعة .

خرج الإمبراطور على رأس جيشه لمهاجمة المجر(١١٥٦ م) وضرب معسكره على شاطىء الدانوب ، كما ألقت السفن – التى خرجت بصحبته من بيزنطة – مراسيها هناك فى انتظار أوامره . ويذكر كناموس أن جيزا الثانى بدأ يحس عندئذ بحرج موقفه وبما سيحل ببلاده من دمار وتخريب ، لذلك أرسل سفارة إلى الإمبراطور فى (سبتمبر ١١٥٦ م) وعلى رأسها رجل مرموق من رجالات بلاطه ، وعرضت هذه السفارة على الإمبراطور رد الأسرى والغنائم والأسلحة والخيول إلى جانب اجابة الإمبراطور إلى كل مايريد ، غير أن الإمبراطور رفض هذا العرض فى بادىء الأمر ثم عاد وقبله ، وتم عقد معاهدة صلح جديدة مع جيزا الثانى ، بنودها على النحو التالى :

١ – الاعتراف بخط الدانوب – الساف كحد فاصل بين بيزنطة والمجر .

٢ – إعادة الأسرى البيزنطيين الذين وقعوا فى أيدى المجريين فى المعركة السابقة .

٣ – رد الأسلحة والجياد والثيران للبيزنطيين وغيرها من الغنائم التى وقعت فى أيدى المجريين ، مع تعويضهم عما فقدوه منها بحيوانات بديلة (٥) .

---

(١) Nicetas, Historia, p. 134.

(٢) Cinnamus, Historiarum, p. 133. وانظر الترجمة p. 105.

(٣) Otto of Freising, The deeds of Frederich Barbarossa, trans. by Charles Christopher, New York 1953, p. 168.

(٤) عن بوريس انظر ما سبق ص ٧٨ ، هامش ١ .

(٥) Cinnamus, Historiarum, p. 134. وانظر الترجمة الإنجليزية p. 105.

وانظر أيضًا : Lebeau, Histoire du Bas-Empire, pp. 149-50

وعلى هذا النحو تبدو هذه المعاهدة فى صورة أكبر من المعاهدتين السابقتين اللتين تم عقدهما مع جيزا الثانى فى عامى (١١٥٢ - ١١٥٥ م) .

وظلت هذه الاتفاقية سارية المفعول ، وتوقف القتال بين الجانبين ابتداء من ١١٥٦ م وحتى وفاة جيزا الثانى فى بدايات عام ١١٦٢ م .

ولعل السبب فى ذلك يرجع إلى انشغال بيزنطة والمجر فى ذلك الحين بالصراع بين البابوية ، ممثلة فى شخص الباب الكسندر الثالث Alexander III ، والإمبراطورية فى شخص فردريك بربروسا ، والذى نشب فى عام ١١٥٩ م (١) . هذا فضلاً عن انشغال مانويل خلال تلك الفترة بالشرق وقضاياه (٢) .

ثانيا - هجمات مانويل على بلاد المجر (١١٦٢ - ١١٦٣ م) :

شهدت بلاد المجر على إثر وفاة جيزا الثانى فى عام ١١٦٢ م صراعات مريرة حول العرش ، أتاحت هذه الصراعات الفرصة كاملة لمانويل لأن يتدخل فى شئون المجر تدخلاً فعليًا ، تمهيدًا لوضعها تحت السيادة البيزنطية ، ثم اتخاذها قاعدة لبسط سلطان بيزنطة على الغرب كله . وكان على مانويل أن يعمل جاهدًا من أجل استمرار هذه الصراعات وذلك عن طريق تشجيعه لأدعياء العرش والمطالبين به ، واستخدامهم كأداة فى تحقيق غاياته وآماله .

ويروى كناموس تفاصيل الصراع الذى دار حول العرش المجرى بعد وفاة جيزا الثانى ، فيذكر أنه كان لجيزا شقيقان ، الأكبر يدعى لادسلاس Vladislaus والثاني يدعى استفن Stephanus ، كما ترى ولدين ، الأول يُدعى استفن ، على اسم عمه ، والثانى يدعى بيلا Bela ، وكان القانون المجرى يقضى بأن يتولى العرش الأخ الأكبر ، ومن ثم كان من المفروض أن يصبح لادسلاس شقيق جيزا الأكبر خليفة له ، ولكن جيزا يدافع من عاطفة الأبوة تغاضى عن قانون البلاد ، وأوصى بأن يخلفه على العرش ابنه الأكبر استفن ، وبذر بذلك بذور الفتنة بين أخويه وابنيه (٣) .

---

(١) لمزيد من التفاصيل حول هذا الصراع . انظر : سعيد عاشور ، أوربا العصور الوسطى ، جـ ١ ص ٣٧٩ وما يليها : Pamlenyi, Histoire de Hongrie, pp. 70-71.

(٢) لمزيد من التفاصيل انظر : محمود سعيد عمران ، السياسة الشرقية للإمبراطورية البيزنطية فى عهد مانويل كومنين (١١٤٣ - ١١٨٠ م) ص ٢١٧ - ٢٧٧ .

(٣) وانظر الترجمة الإنجليزية pp. 154. Cinnamus, Historiarum, pp. 202-203,

ارتقى استفن ابن جيزا الثانى الأكبر العرش طبقًا للإجراءات التى اتخذها أبوه قبل وفاته ، وبأصوات الأمة المجرية كذلك ، وأصبح ملكًا على المجر باسم (استفن الثالث Stephan III) وكان حينئذ فى الرابعة عشرة من عمره ، وعندئذ لجأ لادسلاس واستفن إخوة جيزا إلى بلاط الإمبراطور البيزنطى مانويل الذى رحب بهما ، ووجد فى مقدمهما فرصة مواتية للتدخل فى شئون المجر ، وسمح لهما بالإقامة فى بلاده ، وشرع يوثق الروابط معهما ، فزوج استفن من ماريا ابنة أخيه إسحاق ، وأمل استفن أن يصل إلى العرش عن طريق هذه الزيجة ، أما لادسلاس فقد رفض مصاهرة البيت الإمبراطورى ، لأنه كان مقتنعًا تمامًا أنها لن تجر عليه سوى كراهية المجريين (١) .

كما أرسل مانويل رسله على الفور إلى بلاد المجر من أجل أن يوجه النصح والإرشاد لأهلها ، ويظهر بمظهر المدافع عن حقوق أخوة جيزا الثانى فى العرش ، غير أن المجريين كما يذكر ليبو Lebeau لم يكن لديهم أى رغبة فى الخضوع للادسلاس ، ولا لأخيه استفن ، لارتباطهما مع الإمبراطور البيزنطى بروابط قوية ، كما تصور المجريون أنهم إنْ قبلوا الخضوع لهذين الأميرين أو لأحدهما فهذا يعنى أن تصبح المجر إقليمًا تابعًا لبيزنطة ، ويصبح المجريون أتباعًا خاضعين لها (٢) . لذلك رد المجريون على سفارة الإمبراطور بأن أرسلوا إليه رسلًا يخبرونه بأن لهم ملكًا اختاروه بمحض إرادتهم ، وبأصوات الأمة وتأييدها ، وأنه الوحيد الذى يقبلونه سيدًا عليهم (٣) .

عندئذ رأى مانويل أنه لا سبيل سوى استخدام القوة ، فسار على رأس قواته نحو الدانوب ، وبعد عبوره تقدمت القوات البيزنطية فى المجر ، وعلى رأسها القائد الكسيوس كونتوستافنوس Alexius Contostephanus مصطحبًا معه الأميرين : لادسلاس واستفن ، ونجحت القوات البيزنطية فى استمالة سادة قلعة شرم Charm

---

- وانظر أيضًا : Nicetas, Historia, p. 165, Lebeau, Hist du Bas-Empire, T.16, p. 200-201.

(١) Cinnamus, p. 203, Nicetas, p. 165, Lebeau, Hist. duBas-Empire, T.16, p. 201, Denis Sinor, Hist. of Hongary, p.53.

(٢) Lebeau, Hist. du Bas-Empire, T. 16, P. 201.

(٣) Nicetas, Historia, pp. 166.

المجرية بالمال ، وقوى بذلك مركزها [١] . وخشى المجريون من اقتراب الإمبراطور كما يذكر كناموس ، واضطر ملكهم استفن الثالث أن يتنازل عن منصبه لعمه الأكبر لادسلاس ، كما منح عمه الثانى استفن لقب Wrum ويعنى عند المجريين ولى عهد السلطة الملكية ، و لم يكن هذا اللقبُ يمنح إلا لمن يرث العرش [٢] .

وارتقى لادسلاس العرش باسم لادسلاس الثانى بمساعدة القوات البيزنطية ، ولكنه لم ينعم به طويلا ، فلم تمضى ستة أشهر على توليه الحكم حتى وافته المنية عام (١١٦٢ م) وخلفه أخوه استفن باسم استفن الرابع Stphen IV ، غير أن شعبه لم يكن راضيًا عنه ، لذلك قام المجريون بثورة ضده وعزلوه من منصبه ، وأعادوا استفن الثالث إلى العرش مرة أخرى ، فطلب استفن الرابع مساعدة مانويل ، فأرسل إليه قسمًا من جيشه على رأسه ابن أخيه الكسيوس كونتوستيفانوس (ربيع عام ١١٦٢ م) ولكن فى الوقت الذى وصل فيه هذا الجيش كان استفن قد تصالح مع المجريين ، و لم يعد بذلك فى حاجة إلى مساعدة الإمبراطور وعونه ، لذلك عاد الجيش البيزنطى إلى قواعده [٣] .

ولكن عاد المجريون وأشعلوا نار الثورة ثانية ضد استفن الرابع ، فلجأ إلى إحدى المدن التابعة لبيزنطة قرب الدانوب ، وخرج الإمبراطور مانويل بنفسه لاستقباله ، وقدم له ما يحتاج إليه من أموال مع فرقة من الجند على رأسها القائد الكسيوس كونتوستيفانوس لمساعدته فى استرداد العرش [٤] . ثم لحق مانويل بهم حيث أقام معسكره عند Dese وهناك أقبلت إليه - كما يذكر كناموس - رُسل استفن الثالث ليعرضوا عليه مقترحات السلام ، غير أن الإمبراطور رفض المقترحات التى تقدموا بها ، وأمرهم بالخروج من المعسكر فى الحال والعودة من حيث أتوا ، ثم غادر الإمبراطور معسكره عند Dese وتابع سيره حتى وصل إلى مدينة بلجراد Belegrada فى نفس

---

(١) Nicetas, Historia, pp. 166-167.

(٢) Cinnamus, Historiarum, p. 203, Nicetas Historia, p. 167, Lebeau, Histoire du Bas-Empire, T. 16, p. 202.

(٣) Cinnamus, Historiarum, pp. 211-212. وانظر الترجمة الانجليزية pp. 160-61

(٤) Cinnamus, Historiarum, p. 212., p.161 وانظر الترجمة
وانظر أيضًا : Lebeau, Histoire, T.116. p. 205.

الوقت الذى فشل فيه القائد البيزنطى الكسيوس فى كسب المجريين عن طريق المال ، كما لم تُجْدِ التوسلات معهم لإعادة استفن الرابع إلى العرش ، وذلك لكراهيتهم الشديدة له ، ورغبتهم فى إعادة استفن الثالث ابن جيزا . ولذلك أصبح مستحيلا على مانويل أن يعيد للعرش أميرًا مغضوبًا عليه ، مكروهًا من شعبه [١] .

وسرعان ما أدرك مانويل أن قضية استفن الرابع قضية خاسرة وميئوس منها ، وأن الوقوف إلى جواره ومساعدته وتأييد مطلبه لاستخدامه كأداة فى سياسته تجاه المجر لن يكون عونًا له فى تحقيق أهدافه ، كذلك أدرك مانويل أن محاولاته العسكرية التى قام بها ضد المجر لم تنجح أيضًا فى تحقيق ما أراد من إخضاع المجر للسيادة البيزنطية ، لذلك بدأ يبحث عن وسيلة أخرى غير مساندة المطالبين بالعرش ، وغير الهجمات العسكرية لتحقيق أغراضه .

وبدأ مانويل يرسم خطة جديدة للاندماج الكامل مع المجر ، ولتنفيذ هذه الخطة أرسل كما يذكر كناموس سفارة بيزنطية على رأسها جورج باليولوجوس George Paleologus [٢] إلى بلاط المجر فى صيف (عام ١١٦٣ م) للتفاوض مع المجريين وبحث أمر زواج الأمير بيلا Bela – الابن الثانى لجيزا الثانى – من ابنته ماريا Maria وتوصلت السفارة البيزنطية مع المجريين إلى الاتفاق على :

١ – أن يتعهد مانويل بأن يزوج ابنته ماريا من الأمير بيلا ويجعله وريثًا للعرش البيزنطى ، وخاصة أن مانويل لم ينجب طفلًا ذكرًا يخلفه على العرش .

٢ – أن تتنازل المجر للأمير بيلا عن حصته فى ميراث أبيه ، وتتمثل فى أمارتى : دالماشيا ، وكرواتيا Dalmato - Croate [٣] وذلك حتى يضمن مانويل السيطرة على البلقان :

---

(١) Lebeau, Histoire وانظر : Cinnamus, Historiarum, pp. 213-14, p. 162.
T. 16, pp. 206-207.

(٢) وكان قائدًا للحرس الإمبراطورى وترقى لرتبة الـ Sebastie
انظر : Cinnamus, p. 215.

(٣) وانظر الترجمة الإنجليزية p. 163. Cinnamus, Historiarum, p. 215.,
وانظر أيضًا :
Moravcsik, «Hungary and Byzantium in the middle Ages» in Cam. Med. Hist. Vol. IV, Part I (1966), p. 582, Moravcsik, Pour alliance, pp. 556-56, Lebeau, Histoire, p. 207.

وبعد أن تم هذا الاتفاق عاد الوفد البيزنطى مصطحبًا معه الأمير المجرى بيلا – ولم تكن سنه قد تجاوزت الثالثة أو الرابعة عشرة – إلى البلاط البيزنطى ، وهناك حصل بيلا على اسم آخر وهو الكسيوس Alexius كما حصل على لقب الديسبوت despote ، ويعنى السيد (١) . وتمت خطبته بعد قليل للأميرة ماريا فى كنيسة البلاشيران بالقسطنطينية وسط مظاهر الفرح والسرور ، فى حفل حضره لفيف من كبار الشخصيات البيزنطية ، وفى مقدمتهم Theodoros Styppeiotes ، ومالبث الإمبراطور أن أعلن كل من بيلا وماريا ورثة للعرش البيزنطى (٢) .

ولقى قرار الإمبراطور هذا ترحيبًا فى كافة الأوساط البيزنطية ، ولم يلق معارضة سوى من ابن عمه اندرونيقوس Andronicus وعدد من البيزنطيين ، كان من دواعى اعتراضه أن الإمبراطور ترك جميع البيزنطيين وولى رجلاً غريبًا ، وقد عبر عن ذلك بقوله : « إنه لا يليق لا بابنة الإمبراطور ، ولا بمملكة الروم ، أن يتولاها رجل غريب » (٣) . ومن المعروف أن أندرونيقوس كان ممن يتطلعون إلى العرش الإمبراطورى ، وسبق أن قام بمحاولات لانتزاعه من يد مانويل (٤) .

ولم يعر مانويل غضب أندرونيقوس ومعارضته اهتمامًا ، إذ كانت لديه دوافع وأسباب قوية تدعوه إلى الارتباط بالأمير المجرى بيلا بالذات دون غيره من رجالات بيزنطة ، فقد تطلع مانويل إلى اتخاذ بيلا أداة مستقبلية فى سياسته تجاه المجر ، والتى تهدف إلى وضع الأخيرة تحت السيادة البيزنطية ، تمهيدًا لتحقيق هدفه الرئيسى ، وهو

---

(١) Cinnamus, p. 215, Moravcsik, pour alliance, pp. 556-57

وعن منصب الديسبوت انظر : Ostrogrosky, History of the Byzantine State. London 1957, p. 344.

(٢) Cinnamus, Historiarum, p. 215, Niceras, Historia, pp. 167, 179, Moravcsik, pour alliance, p. 557.

ومن الجدير بالذكر أن الكسيوس – بيلا أصبح بعد ذلك عضوًا فى الكنيسة الشرقية اليونانية البيزنطية ، وحضر مجمعًا بصحبة صهره مانويل فى عام ١١٦٦ م . انظر :

Patrologiae Graecae, T. 140, Col. 25

(٣) Nicetas, Historia, pp. 179-180.

(٤) انظر ماسبق ص ٧

إحياء الإمبراطورية الرومانية القديمة ، هذا فضلاً عن أن الأمير المجرى بيلا كان وريثًا للعرش من ناحية ، وورث عن أبيه كُلًّا من دالماشيا وكرواتيا ، وهذا يعنى أنه يمكن أن تتحقق عن طريقه السيادة الكاملة لبيزنطة على البلقان ، كما كان يمكن أن يتحقق فى شخصه الاتحاد بين بيزنطة والمجر التى تقع فى منتصف الأقاليم الغربية (١) .

ثالثا - حملات مانويل على بلاد المجر (١١٦٤ - ١١٦٥ م) :

أمضى الأمير المجرى الشاب بيلا مايقرب من عشر سنوات فى بلاط بيزنطة ، واستغل مانويل فترة وجوده هذه فى بلاطه ، وبدأ يشن حملات من جديد على بلاد المجر ، واتخذت حملاته هذه المرة ستارًا جديدًا هو الدفاع عن حقوق بيلا - الكسيوس وعن مصالحه ، إذ قام أخوه استفن الثالث ملك المجر بالاستيلاء على البلاد التى سبق وتنازل عنها لأخيه بيلا باعتبارها حصته فى ميراث أبيه ، ومن ثم لم يحافظ استفن على الاتفاق الذى سبق وعقده مع البلاط البيزنطى (٢) .

ولذلك سعى مانويل إلى الاستمرار فى مساعدة استفن الرابع الذى عاد ثانية إلى المجر بعد أن جمع عددًا من القوات من أجل المطالبة بالعرش ، كما خرج بنفسه إلى الدانوب وعسكر فى مواجهة Titelion (٣) عازمًا على استعادة ميراث صهره الأمير بيلا (٤) . ويروى كناموس أن الإمبراطور عبر بعد ذلك نهر الساف ، ولم يستطع استفن الثالث - الجالس على عرش المجر - الاشتباك معه بقوة تعادل قوته ، لذلك سار استفن بما لديه من جند حاضرين وعبر الدانوب ، ووصل إلى مكان قصى فى بلاد المجر ، ومن هناك بدأ يجمع أعدادًا من القوات الحليفة ويستعد لملاقاة البيزنطيين فى الجولة القادمة (٥) .

---

(١) Moravcsik, pour alliance, p. 557.
Brehier, Le monde Byzantin, p. 334.

(٢) Cinnamus, Historiarum, p. 217, Moravcsik, pour alliance, p. 557, Moravcsik, Hungary and Byzantium, p. 582.

(٣) وهى Titel وتقع على نهر تيسا Tisza .

(٤) Lebeau, Histoire, T.16, وانظر الترجمة الإنجليزية Cinnamus, Historiarum, p. 217, p. 164. p. 210

(٥) وانظر الترجمة الإنجليزية p.167. Cinnamus, Historiarum, p. 221,

أما عن المجريين فيذكر كناموس أنهم أحسوا بالخوف وهرعوا يفتحون أبواب مدنهم للإمبراطور ، وخرج عامتهم وقساوستهم يرتدون عباءات صوفية ويحملون الكتاب المقدس فى أيديهم للترحيب بالإمبراطور الذى تابع تقدمه حتى وصل إلى مدينة Possega على منتصف نهر الساف ، وهناك رحب به أسقفها وأهلها ، وقدموا له مفاتيح مدينتهم (١) . ثم اقترب الإمبراطور من الدانوب ، ووصل إلى مكان يسمى Petricum (٢) وعسكر هناك وكتب من معسكره للملك استفن الثالث موضحًا له الأسباب التى دفعته إلى المجىء إلى بلاده هذه المرة ، وتتلخص فى رغبته فى إعادة ميراث بيلا ، ودرء الخطر عن عمه استفن الرابع الذى تربطه بالإمبراطور صلة المصاهرة ، ووعد الإمبراطور استفن الثالث بإنهاء حالة الحرب إذا ماقبل إعادة ميراث أخيه بيلا وكف عن مناصبة عمه العداء (٣) .

وانتظارًا لوصول رد استفن الثالث عَبَر الإمبراطور الدانوب ، وضرب معسكره عند مدينة Pagtzium (٤) وواكب ذلك وصول أعداد من القوات الحليفة لمساعدة استفن الثالث فى حربه ضد الإمبراطور ، وكان على رأس هذه القوات لاديسلاس Vladislaus ملك بوهيميا ، وعندما علم الإمبراطور مانويل بوصول تلك الجموع واستعدادات استفن للمعركة ، استدعى أحد البيزنطيين العارفين بلغة أهل بوهيميا ، وأمره بالتنكر - كما يذكر كناموس - والذهاب إلى معسكر الأعداء لمقابلة الملك لاديسلاس سرًا على وجه الخصوص ، ليشرح له حقيقة الموقف ، وأنه ليس من العدالة فى شىء مساندة ملك المجر الذى اغتصب العرش واستولى على ميراث أخيه بيلا وحنث فى وعوده وتعهداته للإمبراطور (١١٦٤ م) (٥) .

وأجاب لاديسلاس ملك بوهيميا موضحًا أنه لم يأت لحرب الإمبراطور ، وإنما جاء من أجل الدفاع عن استفن الذى أضر به عمه وهاجمه ثانية محاولاً أن يستعيد

---

(١) Ibid.

(٢) وهى الآن بطرس فارادين Peter Varadin وتقع على نهر الدانوب .
انظر : Lebeau, Histoire, T. 16, p. 210.

(٣) Cinnamus, Historiarum, p. 218., وانظر الترجمة الإنجليزية P.165.

(٤) وهى عاصمة إقليم سيرم Sirm الواقع بين الدانوب والساف .

(٥) Cinnamus, Historiarum, p. 222., وانظر الترجمة الإنجليزية p. 168.

بالقوة المنصب الذى خسره بسوء حكمه ، ومن ثم فالعرش من الناحية الشرعية من حق استفن الثالث ، أما بالنسبة لعمه فإنه لن يستطيع حكم المجريين مرة ثانية . أما فيما يتعلق بميراث بيلا فقد ذكر لاديسلاس أن استفن مستعد تمامًا لأن يسلمه لأخيه على الفور ، كما أنه يتعهد بأن يصحح الأخطاء التى ارتكبها فى حق الإمبراطور (١) .

سر الإمبراطور مانويل عند سماعه رد لاديسلاس ملك بوهيميا ، وجعله وسيطًا للصلح مع استفن الثالث ، وتم عقد معاهدة فى عام ١١٦٤ م بين الطرفين تنص على :

– أن يعيد استفن الثالث إلى أخيه بيلا حصته من ميراث أبيه ، وتتمثل فى دالماشيا وكرواتيا .

– أن تعترف بيزنطة باستفن الثالث ملكًا على المجر ، وأن توقف مساعدتها لاستفن الرابع وتدعوه لترك السلاح ، وأن يبذل الإمبراطور قصارى جهده من أجل إقناعه بالتخلى عن المطالبة بالعرش (٢) .

قَبِلَ الإمبراطور بنود المعاهدة السابقة ، ووضعت الحرب أوزارها ، وقبل أن يغادر الإمبراطور مانويل بلاد المجر نصح استفن الرابع (العم) بضرورة مغادرة المجر ، بعد أن اتضح له بالتجربة أن أهل المجر لا يحبونه ، ولن يرضوا حكمه ، غير أن استفن لم يستمع لنصحه ، ولذلك يمم الإمبراطور وجهه شطر القسطنطينية ، تاركاً أحد قادته – وهو نيقفوروس كالوفيس Nicephorus Chaluphes – وبصحبته جيش لمرافقة استفن الرابع ، والاهتمام بما يجرى من أمور (٣) .

وعندما أحس استفن الثالث بإصرار عمه على البقاء فى المجر خرج على وجه السرعة لقتاله ، وعندئذ نصح كالوفيس العم بضرورة الانسحاب إلى سيرم Sirmium التى كانت تتبع الإمبراطورية – وهناك سوف يجد الأمن والأمان ، غير أنه رفض ذلك بإصرار ، وصمم على البقاء فى المجر ، لذلك لجأ كالوفيس إلى الحيلة ليجبره على مغادرتها ، فادعى أن الإمبراطور أرسل إليه سفارة ، وأنه سوف يتجه بكامل قوته نحو

---

(١) وانظر الترجمة الإنجليزية p.169. Cinnamus, Historiarum, pp. 223-24.,

(٢) Cinnamus, pp. 224-25, Moravcsik, Hungary and Byzantium p. 582, Dolger, Regesten, 1455, p. 77.

(٣) وانظر الترجمة الإنجليزية p.170. Cinnamus, Historiarum, pp. 225-26.,

الدانوب لمقابلتها ، وعندئذ اضطر استفن الرابع للحاق به ، ومع ذلك فقد تعقبه المجريون حتى الأراضى الإمبراطورية ، وكاد يقع أسيرًا فى أيديهم (١) .

وما إن علم الإمبراطور بأن استفن الرابع لجأ إلى سيرم Sirmium وأن المجريين – وعلى رأسهم استفن الثالث من ورائه – حتى أرسل كوكبة من رجاله وعلى رأسها ميخائيل جابراس Michael Gabras – زوج ابنة أخيه أوداكيا Eudocie من أجل الدفاع عن سيرم ، مدخل بلاده من ناحية الشمال ، والحفاظ على أمن وسلامة استفن الرابع (٢) .

وقبل أن تصل القوة البيزنطية إلى سيرم كان استفن الثالث قد نجح فى الاستيلاء عليها واستعادتها ثانية من أيدى البيزنطيين ، وما إن علم مانويل بذلك حتى كتب إليه رسالة (فى ربيع عام ١١٦٥ م) (٣) يطلب منه فيها الانسحاب الفورى من سيرم وإلا فسوف يخرج على رأس جميع قواته لقتاله ، كما ذكره فى هذه الرسالة بما أصاب بلاده من تخريب وتدمير ، وماتعرض له المجريون من سفك للدماء واستشهاد نتيجة الحروب التى خاضها أبوه جيزا الثانى مع البيزنطيين (٤) .

ولم يعر استفن الثالث رسالة مانويل وتهديداته اهتمامًا ، ودخل فى مفاوضات مع أحد الأمراء الروس ، وهو الأمير هيروسلاوس Hieroslaus الذى عرض عليه الزواج من ابنته وأرسل إليه عددًا كبيرًا من الفرسان ، مما ساعده على التقدم فى الأراضى البيزنطية ، وضرب الحصار على زيوجمين (٥) .

واستشاط الإمبراطور مانويل غضبًا ، وراح يعقد بدوره سلسلة من التحالفات مع العديد من الأمراء ، وبدأ أولا بالأمراء الروس ، فأرسل فى عام (١١٦٥ م) أحد أقاربه – ويدعى مانويل أيضًا – إلى بلاط الأمير الروسى بريميسلاوس Primislaus وطلب منه قوة تسانده فى حربه مع المجر ، وجاء على لسان كناموس أن

---

(١) Cinnamus, Historiarum, pp. 225-26., p.170.

(٢) Ibid.

(٣) Dolger, Regesten, 1482, pp. 77-78.

(٤) Cinnamus, Historiarum, p. 231., وانظر الترجمة الإنجليزية p.174.

(٥) عن زيوجمين انظر ماسبق ص ٣ ، هامش ٧ .

الإمبراطور أخذ يحرض الأمير الروسي ويحثه على مساعدته ضد المجر ، مستخدمًا كافة الحيل والوسائل ، حتى قبل هذا الأمير أن يقدم للبيزنطيين يد العون والمساعدة (١) . كما عقد مانويل تحالفًا مع فردريك بربروسا ، واتفقا معًا على شن حرب على « استفن » الثالث ملك المجر ، وانضم إلى تحالفهما « هنرى » دوق النمسا Autriche (٢) كذلك وعد الأمير عز الدين Azzeddin أمير الصرب الإمبراطور بأن يقدم له عددًا من القوات المساعدة طبقًا لمعاهدة وقعها معه (٣) . ورحب البنادقة أيضًا بإمداد البيزنطيين بأسطول يتألف من مائة سفينة حربية للقتال البحرى (٤) .

وفى الوقت الذى كان مانويل يعقد فيه هذه السلسلة من التحالفات أرسل جيشًا يعتد به لمساعدة مدينة زيوجمين على مواجهة حصار « استفن » الثالث ، وتولى قيادة هذا الجيش كل من ميخائيل جابراس Michael Gabras وجوزيف برينيوس Josephe ، Bryennius وكان بصحبتهما عدد من خيرة العسكريين البيزنطيين من بينهم يوحنا أنجيليوس ويوحنا إيزيس Ises . وكذلك شحن مانويل سفنًا عديدة بالجُند والمُؤن وأمر بأن تبحر فى الدانوب لإمداد أهل زيوجمين بما يحتاجون إليه من ضروريات حتى يصل هو نفسه على رأس جيشه (٥) .

وأضاع المجريون وقتًا طويلا حول أسوار زيوجمين وصلت خلاله السفن البيزنطية ورست قرب ضفتى الدانوب ، ونجحت فى تقديم الكثير من المؤن للبيزنطيين بالداخل ، كما نقلت الجرحى وزودت المدينة بآخرين أصحاء على نحو ما يذكر كناموس (٦) . وقام المجريون المحاصرون للمدينة بجمع سفنهم فى محاولة منهم لاعتراض السفن البيزنطية وإغراقها ، غير أن محاولاتهم باءت بالفشل ، ويرجع كناموس سبب هذا الفشل إلى أن السفن المجرية كانت أقل سرعة من السفن البيزنطية ، كما أن اتساعها لم يكن

---

(١) لمزيد من التفاصيل انظر : Cinnamus, Historiarum, pp. 235-36.

(٢) Cinnamus, Historiarum, p. 231.

(٣) Lebeau, Histoire, T. 16, pp. 217-18.

(٤) Cinnamus, Historiarum, p. 237.

(٥) Cinnamus, Historiarum, p. 238.

(٦) Cinnamus, Historiarum, p. 238.

معقولا ، ويُضاف إلى ذلك أنها لم تصنع بمهارة ، مما ساعد السفن البيزنطية على التصدى لها واعتراض طريقها فى النهر ، حتى اضطرتها للتقهقر والانسحاب إلى الضفة الأخرى (١) .

ولم يعد أمام المجريين من وسيلة سوى التخلص من « استفن » الرابع حليف مانويل والمرابط داخل زيوجمين ، والتى لجأ إليها بعد سقوط سيرم فى أيدى المجريين من أتباع ابن أخيه ، وذلك بأن رشوا بالمال بعض مَنْ كانوا يخدمونه من المجريين ، فدبر هؤلاء مؤامرة لقتله ، ونجحت المؤامرة ، وتم إلقاء جثته أمام أبواب المدينة ، وتُركت لوقت طويل دون مواراتها التراب ، وترتب على ذلك أن نجح المجريون من أتباع استفن الثالث فى الاستيلاء على مدينة زيوجمين (أبريل ١١٦٥ م) (٢) .

وعندما علم مانويل باستيلاء المجريين على زيوجمين اتجه نحو الدانوب عندما أوشك شهر يونيه ١١٦٥ م على الانتهاء ، وبعد عبوره النهر أخذ يستعد لحصار مدينة زيوجمين ، ويرى كناموس (٣) تفاصيل هذا الحصار فيذكر أن البيزنطيين شيدوا برجًا خشبيًّا قصدوا تحريكه نحو المدينة لدخولها من فوق الأسوار ، ومنازلة المجريين من الشرفات يدًا بيد ، وكان الإمبراطور أول من حاول ارتقاء هذا البرج الخشبى وتسلق أسوار المدينة ومنازلة المجريين ، ولكن منعه القادة الذين كانوا بصحبته من أن يفعل ذلك .

وقاوم المجريون الحصار بشدة برغم الضغوط التى تعرضوا لها داخل المدينة من قبل الجند البيزنطيين ، وذلك لأنه كان يحدوهم الأمل فى أن جيشًا مجريًّا قادم لمساعدتهم ، وأكد ذلك ما أعلنه رجال الاستطلاع البيزنطى عن اقتراب جيش ضخم على رأسه استفن ملك المجر ، ويضم بين جنباته عددًا كبيرًا من قوات الكومان والروس وغيرهم .

عقد الإمبراطور مجلس الحرب لبحث كيفية مواجهة الجيش المجرى القادم ،

---

(١) Cinnamus, Historiarum, p. 239., وانظر الترجمة الانجليزية p. 180.

(٢) Cinnamus, Historiarum, pp. 239-40., وانظر الترجمة الإنجليزية p. 180.

(٣) Cinnamus, Historiarum, pp. 241-42., وانظر أيضا الترجمة الإنجليزية pp. 182-83.

وانقسم الحاضرون فريقين ، رأى أحدهما ضرورة الرحيل وأن يضربوا معسكرهم على نهر الساف ومن هناك يمكنهم مواجهة الجيش المجرى بدون أن ينالهم أى ضرر ، فى حين رأى الفريق الآخر أنه يجب رفع الحصار عن المدينة والذهاب لقتال العدو المرتقب بكل قواتهم . غير أن الإمبراطور لم يوافق على رأى أيٍّ من الفريقين ، ووصف الرأى الأول بالجُبن والثانى بالحماقة (١) ، لأنهم إذا مارفعوا الحصار عن المدينة فسوف يتيحون للمجريين المحاصرين فرصة للحصول على حاجتهم من المؤن والرجال ، ولذلك رأى الإمبراطور أنه من الأفضل أن يظل قسمٌ من الجيش محاصرًا للمدينة ، فى حين يذهب القسم الثانى لقتال الجيش المجرى القادم ، وأخذ الجميع برأى الامبراطور وبدءوا يستعدون للتحرك (٢) .

وعندما تأخر وصول الجيش المجرى ولم تصل إليهم بشأنه أخبار أكيدة قاموا بمحاولة أخرى لاقتحام المدينة ، ويذكر كناموس أن المجريين المحاصرين دافعوا عن أنفسهم بالأحجار والسهام وكل ماطالته أيديهم ، وبرغم ذلك فقد نجح الجيش البيزنطى فى نقب الأسوار ثم فى هدمها ، وعندما شعر المجريون بحرج موقفهم أرسلوا إلى الإمبراطور يعرضون عليه الاستسلام وتسليم المدينة شريطة أن يرحل بدون أن يلحق بهم أية أضرار . غير أن الإمبراطور قبل ذلك بشرط أن يخرج القائد جريجور Gregorius وبقية القادة المجريين الآخرين وفى أعناقهم الأغلال حُفاة عُراة الرءوس — وهذا دليل خضوعهم — ولكن لم يقبل المجريون شرط الإمبراطور ، ولذلك عاود البيزنطيون الهجوم على المدينة مرة أخرى (٣) .

وتمكن القائد البيزنطى أندرونيق دوقاس Andronic Ducas من اقتحام المدينة والاستيلاء عليها فى هذا الهجوم الأخير ، واضطر جريجورى وأتباعه وسائر القادة المجريين للخضوع والاستسلام ، وانطلق البيزنطيون بداخلها يمارسون أعمال السلب والنهب (٤) .

---

(١) Cinnamus, Historiarum, p.243., وانظر أيضا الترجمة الإنجليزية p. 183.

(٢) Cinnamus, Historiarum, p. 244., وانظر أيضا الترجمة p. 183.

(٣) Cinnamus, Historiarum, p. 245., وانظر أيضا الترجمة p. 184.

(٤) Ibid.

ولم يصدق « استفن » الثالث ملك المجر أن مدينة زيوجمين قد سقطت بسهولة فى أيدى البيزنطيين ، إذ كان واثقًا من أمن المدينة ، معتمداً على حصانتها ، ولكن عندما أيقن بضياعها أرسل إلى الإمبراطور مانويل يطلب الصلح ، ورحب الإمبراطور بعقد الصلح من أجل عدم إراقة الدم المسيحى - كما يذكر كناموس - ولكن بشرط أن يقسم المجريون له يمين الولاء ، قبل المجريون شرط الإمبراطور ، وتم عقد الصلح ، ورحل مانويل عائدًا إلى بيزنطة ، حيث أقام قداسًا كنسيًّا للشكر (١) .

رابعًا - حملة مانويل الأخيرة على بلاد المجر (١١٦٦ - ١١٦٧ م)

ولم يطق « استفن » الثالث صبرًا على ضياع مدينة زيوجمين Zeugmin التى تعد مدخل بلاده من ناحية الجنوب ، لذلك راح يجمع قواته من أجل استردادها ، وأرسل على رأس هذه القوات قائدًا كبيرًا يدعى ديونيسيوس Dionysius (١١٦٦ م) وجهز الإمبراطور مانويل بدوره اثنين من خيرة قادته وهما :

ميخائيل جابراس Michael Gabras وميخائيل براناس Michael Branas للتصدى لديونيسيوس ، والحيلولة دون وقوع زيوجمين فى يده ، غير أن ديونيسيوس تمكن من مفاجأة الجيش البيزنطى الذى وصل متعبًا وفى حالة سيئة وهزمه ، وفر قادته جابراس وبراناس هاربين ، واستطاع المجريون - وعلى رأسهم ديونيسيوس - استعادة زيوجمين ثانية ودون خسارة كبيرة . ويروى كناموس أن ديونيسيوس أراد أن يضخم من انتصاره ، فجمع حثث القتلى ووضعها فى مقبرة عظيمة ووضع عليها كميات هائلة من التراب ، ظنًّا منه أن المذبحة سوف تُقاس بكم التراب وحجمه (٢) . كما يرجع كناموس سبب هزيمة الجيش البيزنطى إلى أنه لم يكن هناك ثمة تعاون بين القائدين : جابراس وبراناس ، وأن كليهما كان يعمل منفصلاً عن الآخر ، ومن ثم لم يؤديا واجبهما على النحو الأكمل (٣) .

---

(١) لمزيد من التفاصيل انظر : Cinnamus, Historiarum, pp. 248-49.
وانظر أيضا الترجمة الإنجليزية .pp. 185-86

(٢) وانظر الترجمة الإنجليزية .pp. 193-94 Cinnamus, Historiarum, pp. 259-59.,

(٣) وانظر الترجمة الإنجليزية .p. 194 Cinnamus, Historiarum, p. 259.,

Chaluphes بذلك جمع رجاله واستعد للقاء المجريين والتصدى لهم ، ويذكر كناموس أنه أثناء تقدمه انسل اتباعه من حوله الواحد تلو الآخر ، وتسببوا بذلك فى وقوعه أسيرًا بسهولة فى أيدى المجريين (١) .

وكان الهجوم المجرى على دالماشيا وأسر حاكمها تشالوف من أهم الأسباب التى دعت الإمبراطور مانويل لأن يخرج على رأس حملته الأخيرة على بلاد المجر ، فما إن حل ربيع عام ١١٦٧ م حتى خرج مانويل على رأس قوات كبيرة ، وبعد أن أمضى فترة عيد الفصح (أبريل ١١٦٧ م) فى سلمبريا Selymbrial اتجه نحو فيليبوليس Philippopollis وهناك استقبل سفارة من ملك المجر ، ويذكر كناموس أنها جاءت تطلب عقد الهدنة وتأجيل الحرب ، غير أن الإمبراطور لم يقبل طلبها ورد السفراء المجريين خائبين ، وأرسل معهم أحد البيزنطيين ليطلب إطلاق سراح تشالوف حاكم دالماشيا ، وإلا فإنه سيذهب بنفسه لإطلاق سراحه (٢) .

ولم يهتم استفن الثالث ملك المجر بتهديدات مانويل ، وأرسل قائده ديونيسيوس على رأس جيش نحو سيرم Sormium لاستعادتها كما استعاد زيوجمين من قبل ، وعندئذ قرر الإمبراطور أن يضع نهاية فاصلة لحربه مع المجر ، فأرسل القوات البيزنطية وعلى رأسها قائد عام وهو ابن أخيه اندرونيقوس الملقب بكونتوستيفانوس Andronicus Contestephanus فى (٨ يوليو ١١٦٧ م) (٣) لمهاجمة المجر . وبعد أن عبر كونتوستيفانوس الساف واقترب من المعسكر المجرى عند سيرم ، أمر أحد رجاله بالقبض على جندى من معسكر الأعداء ، ونجح الرجل فى أداء مهمته وأتى بالجندى المجرى ، وَاطلَّعَ هذا الجندى – كما يذكر كناموس – القائد البيزنطى على أعداء القوات المجرية التى جاءت إلى مدينة سيرم وعلى خططهم ، فذكر له أن بينهم سبعة وثلاثين قائدًا ، وأن ديونيسيوس هو صاحب السلطة العليا بينهم ، وأبلغه أيضًا أن عدد جيشهم يُقَدَّرُ بأربعة عشر ألف رجل من الفرسان المسلحين والرماة والمشاة الخفيفة ، وهم على قَدْرٍ من الشجاعة ، ولن يستطع البيزنطيون مقاومة هجمتهم الأولى (٤) .

---

(١) Cinnamus, Historiarum, p. 263., وانظر أيضاً الترجمة الانجليزية .p. 197

Dolger, Regesten, Vol. I. 1472, p. 80.

(٢) وانظر أيضا الترجمة الإنجليزية .p. 199 Cinnamus, Historiarum, p. 265.,

(٣) Dolger, Regesten, Vol. I, 1473, p. 80.

(٤) وانظر الترجمة الإنجليزية .p. 202 Cinnamus, Historiarum, p. 270.,

عندئذ شرع كونتوستيفانوس فى تنظيم جيشه استعدادًا لقتال ديونيسيوس ، ويروى كناموس أن القائد البيزنطى صَفَّ جيشه ، فجعل فى المقدمة الكومان ومعظم القوة التركية مع قلة من الفرسان الذين يقاتلون بالرمح ، ويلى المقدمة عدد من الكتائب البيزنطية يقودها عدد من القادة ، منهم كوكوبيسليوس Cocobsilius وفيلوكالس Philocales تاتيكيوس Taticius وسار خلفهم المشاة يختلطون بالرماة وكتيبة مسلحة من الأتراك . أما الجناحان فقد وَلَّى كونتوستيفانوس قيادة الجناح الأيسر لجوزيف برينيوس Iosephus Bryennius وجورج براناس Georgius Branus وأخيه ديمتريوس ، وولّى قيادة الجناح الأيمن لأندرونيقوس لامباردس Lampardas Andronicus ومعه نخبة من البيزنطيين والألمان ، وكذلك الأتراك ، ووقف القائد العام كونتوستيفانوس فى مؤخرة الجيش ، واصطف حوله كثير من الرجال مع قوة من المرتزقة الإيطاليين ، وخلفه الصرب يحملون الرماح والتروس العريضة [١] .

وصف القائد المجرى ديونيسيوس جيشه - كما يذكر كناموس أيضًا - بالطريقة المعتادة ، وكان من عاداتهم أن تحفل الكتيبة الأولى فى الجيش بالصفوة من رجالاته [٢] .

ودار القتال ، وأمر القائد البيزنطى كونتوستيفانوس كتائب المقدمة أن تضرب المجريين بالسهام ، غير أن الجيش المجرى نجح فى التصدى لهم ، وولت مقدمة الجيش البيزنطى هاربة بأقصى سرعة ومتجهة نحو نهر الساف . ثم حمل المجريون حملة شعواء على الجناح الأيسر للجيش البيزنطى فلم يبق منه - كما جاء على لسان كناموس - سوى كتيبتين فقط ، فى حين انسحبت باقى الكتائب ، وتشتت شمل قادة هذا الجناح ، وراح أحدهم - وهو ديمتريوس - يقاتل المجريين فى يأس ، إذ لم يبق معه سوى ثمانين رجلاً ، وكانت النتيجة أن جُرِح ووقع فى الأَسْر ، وسِيقَ إلى المعسكر المجرى ، أما شقيقه جورج فكانت تنقصه هذه الشجاعة ، ففر فزعًا من تفوق العدو [٣] .

---

(١) وانظر الترجمة الإنجليزية .p. 203 Cinnamus, Historiarum, p. 271.,

(٢) وانظر الترجمة الإنجليزية .p. 203 Cinnamus, Historiarum, p. 272.,

(٣) وانظر أيضا الترجمة الإنجليزية .p. 204 Cinnamus, Historiarum, p. 272.,

أما عن الجناح الأيمن وعلى رأسه لامبارداس فقد أفلح فى شن هجمات على المجريين جعلت الرعب يدب فى قلوبهم ، وفكر القائد المجرى ديونيسيوس فى القيام بمحاولة للالتفاف حول القائد العام كونتوستيفانوس ، وعندما شعر لا مبارداس بذلك عزم على الاشتباك مع ديونيسيوس ، ويروى كناموس أنهما اصطدما معاً ، وسمعت ضجة كبيرة وقعقعة فى كل مكان ، حيث اصطدمت الرماح بالأرواح فراحت تتهاوى على الأرض (١) .

وخشية أن ينهزم لامبارداس فقد تحرك كونتوستيفانوس واندفع نحو المجريين فى هجوم عنيف أسفر عن مذبحة رهيبة حلت بهم ، كما أسفر عن سقوط راية المجريين فى أيدى القوات البيزنطية ، ونظرًا لضخامتها فقد نقلت على ظهر عربة ، كذلك استولى البيزنطيون على جواد القائد المجرى ديونيسيوس وعلى سلاحه كاملا ، فى حين فر هو بصعوبة بالغة ، وبطريقة يذكر كناموس أنه لا يستطيع روايتها (٢) .

ويذكر كناموس أيضًا أنه تم أسر خمسة من القادة المجريين ، وحوالى ثمانمائة جندى ، فضلاً عن عدد من الشخصيات الهامة والضباط ذوى المراكز المرموقة ، وكان من الطبيعى أن يشيد كناموس فى ختام حديثه عن هذا القتال ببطولات القادة البيزنطيين ، وعلى رأسهم كونتوستيفانوس وأندرونيقوس لامبارداس (٣) . وهكذا انتهت الحملة البيزنطية الأخيرة على بلاد المجر بانتصار حاسم للجيوش البيزنطية وهزيمة القائد المجرى ديونيسيوس هزيمة ساحقة .

ولدينا خطبة (٤) على درجة كبيرة من الأهمية – ألقاها ميخائيل بطريرك القسطنطينية (١١٧٠ – ١١٧٨ م) فى القصر الإمبراطورى بمناسبة ترسيمه بطريركاً

---

(١) Cinnamus, Historiarum, p. 273.,
وانظر الترجمة الإنجليزية .p. 204

(٢) Cinnamus, Historiarum, p. 275.,
وانظر الترجمة الإنجليزية .p. 205

(٣) Ibid.

(٤) عن هذه الخطبة انظر :
Browining, «A new source on Byzantine Hungarian relations in the twelfth Century» in Studies on Byzantine Hist. Literature and Education, London, 1977, pp. 173-186.

للقسطنطينية فى يناير من عام ١١٧٠ م – وعرض ميخائيل فى خطبته لانتصار البيزنطيين على المجريين فى عام ١١٦٧ م ، وتمدنا هذه الخطبة بمعلومات هامة عن هذه الحملة ، وبصفة خاصة فيما يتعلق بالاتفاق الذى وقع على أثرها بين البيزنطيين والمجريين ، ولم يذكره كناموس على الإطلاق .

وجاء فى خطبة ميخائيل بطريرك القسطنطينية أن نبلاء المجر اجتمعوا لطلب الصلح وعقد معاهدة سلام مع بيزنطة ، وأعلنوا عن هزيمتهم الكاملة على أيديها . أما عن بنود هذه الاتفاقية (١) فقد وردت فى خطبة ميخائيل على النحو التالى :

أولاً : الاعتراف من جانب المجر بكل من سيرم **Sirmium** دالماشيا **Dalmatia** وكرواتيا **Croatia** وبوسنيا **Bosnia** أراضٍ بيزنطية .

ثانيًا : أن تخضع كنيسة التاج المقدس **Holy Crown** فى المجر ومطرانيتها لبطريركية القسطنطينية ، مما يوضح أن الكنيسة المجرية لم تكن تتبع بطريرك القسطنطينية من قبل هذا من ناحية ، ومن ناحية أخرى يؤكد هذا البند رغبة بيزنطة فى أن يكون لها نوع من السيادة الدينية على المجر .

ثالثاً : أن تدفع المجر جزية للإمبراطورية وتصبح تابعة لها ، وأن يقسم لها الأساقفة والأمراء ورجال الدين والنبلاء والجنود والضباط المجريين ، بالإضافة إلى عامة الناس فى المجر يمين الولاء .

رابعا : أن تأخذ بيزنطة أحد عشر نبيلاً مجريًا كرهائن حتى يتم تنفيذ بنود هذه الاتفاقية .

وعلى هذا النحو أتت الضربة الأخيرة التى وجهها مانويل ضد المجر أُكلها ، إذ أسفرت عن خضوع المجر الكامل للإمبراطورية البيزنطية ، فضلاً عن استعادة السيادة البيزنطية على البلقان ، وهكذا تكون حملات مانويل العسكرية على بلاد المجر قد حققت الأهداف المرجوة من ورائها .

* * *

---

(١) Browning, A new source on Byzantine-Hungatian relations pp. 180-81, 186.

قائمة المصادر والمراجع

أولا - المصادر والمراجع الأجنبية :

- Brehier, L. : Le Monde Byzantine
  Vie et Mort de Byzance, Paris 1946.
- Browning, R. «A new source on Byzantine-Hungarian relations in the twelfth century» In Studies on Byzantine History, Literature and Education, London 1977.
- Cinnamus, I., Historiarun, In Corpus Scriptorum Historiae Byzantinae, Bannae 1836.
- Kinnamos, J, Deeds of John and Manuel Comnenus, Trans. by Charles Brand, New York 1976.
- Dolger, G.m Regesten Der kaiserurkunden Des Ostromischen Reiches Von 565-1453, Vol. I, Munchen und Berlin 1924.
- Lebeau, Histoire du Bas-Empire, T. 16, Paris 1834.
- Moravcsik, «Hungary and Byzantium in the Middle Ages» In Cambridge Medieval History, Vol IV, Part I (1966), pp. 569-572.
- «Pour alliance Byzatino-Hongroise, Seconde moité du XII Siécle « Dans Byzantion T. 8, (1933) pp. 555-568.
- Nicetas, Ch., Historia, In Corpus Scriptorum Historiae Byzantinae, Bonne 1835.
- Obelensky, The Byzantine Commonwealth Eastern Europe 500-1453, Oxford - London 1971.
- Ostrogrosky, History of the Byzantine State, London 1957.
- Otto of Freising, The deeds of Frederich Barbaros, Trans, by Charles Christopher Mierow, New York 1953.
- Pamlenyi, Evin, Histoire de Hongrie, Trans. par Làzló Pôdoř, Budapest 1974.
- Vasiliev, Histoire de l'Empire Byzantin, T. II, Paris 1932.

* * *

ثانياً – المصادر والمراجع العربية :

– أبو حامد الأندلسى الغرناطى : المعرب عن بعض عجائب المغرب ، نشر دوبلر ، نص بالعربية مع ترجمة وتعليق بالأسبانية ، مدريد ١٩٥٣ .

– سعيد عبد الفتاح عاشور ، أوربا العصور الوسطى ، الجزء الأول ، القاهرة ، ١٩٨١ م .

– ليلى عبد الجواد إسماعيل : « المسلمون فى بلاد المجر فى العصور الوسطى » بحث منشور بمجلة المؤرخ المصرى ، العدد السابع ، يوليو ، ١٩٩١ ، ص ٣٩ – ٨٠ .

– محمود سعيد عمران : السياسة الشرقية للإمبراطورية البيزنطية فى عهد الإمبراطور مانويل الأول (١١٤٣ – ١١٨٠ م) ، الإسكندرية ١٩٨٥ م .

* * *

عمائر القاهرة الدينية فى العصر العثمانى
٩٢٣ - ١٢١٣ هـ / ١٥١٧ - ١٧٩٨ م
« دراسة تحليلية مقارنة للتخطيط وأصوله المعمارية »

دكتور
محمد حمزة إسماعيل الحداد
المدرس بكلية الآثار - جامعة القاهرة

عمائر القاهرة الدينية فى العصر العثمانى (*)
٩٢٣ - ١٢١٣ هـ / ١٥١٧ - ١٧٩٨ م

استطاع السلطان العثمانى سليم الأول فى المحرم سنة ٩٢٣ هـ / يناير ١٥١٧ م ، أن يقضى على السلطنة المملوكية ، وبذلك فقدت مصر استقلالها ، وهبطت مكانتها من دولة مستقلة كاملة السيادة إلى ولاية عثمانية ، أى أنها أصبحت تابعة بعد أن كانت متبوعة ، كذلك خسرت مصر زعامة العالم الإسلامى بعد أن انتقل مركز الخلافة من القاهرة إلى استانبول .

ولن نتعرض هنا لدراسة خصائص الحكم العثمانى وأحوال المجتمع المصرى فى ذلك العصر [1] إلا بالقدر الذى يساعدنا فى رسم صورة واضحة المعالم لحركة البناء والتعمير التى شهدتها مدينه القاهرة من جهة ، وفى معرفة العوامل المختلفة التى كانت وراء احتفاظ العمارة المصرية الإسلامية بطرازها المحلى الموروث من جهة أخرى – ذلك الطراز الذى شُيدت على أساسه غالبية العمائر التى لا تزال باقية بالقاهرة حتى الآن ، فضلاً عن غيرها من المدن والقرى المصرية فى الوجهين القبلى والبحرى .

وإذا استعرضنا العمائر الأثرية الباقية بمدينة القاهرة التى شُيدت إبَّان العصر العثمانى ، والتى لا تزال تحتفظ بمعالمها الأصلية إلى حد كبير ، أمكننا تقسيمها

(*) هذا البحث ماهو إلا الجزء الأول من بحث كبير عن « العمارة الإسلامية فى القاهرة إبان العصر العثمانى » كان قد ألقى ضمن محاضرات الموسم الثقافى ١٩٩١/٩٠ م للجمعية المصرية للدراسات التاريخية ، وذلك يوم الأحد الموافق ١٩٩١/٢/٢٤ م ، وبمشيئة الله تعالى سوف تنشر بقية أجزاء هذا البحث على مراحل متتالية .

(١) عن خصائص الحكم العثمانى وأحوال المجتمع المصرى فى ذلك العصر انظر :

حسن عثمان : تاريخ مصر فى العهد العثمانى – ضمن كتاب المجمل فى التاريخ المصرى – الطبعة الأولى ، القاهرة ١٩٤٢ م ، ص ٢٤٧ – ٢٨٤ .

وتوفيق الطويل : التصوف فى مصر إبان العصر العثمانى ، الطبعة الأولى ١٩٤٦ م ، ص ١٩ – ٣٢ .

وعبد العزيز الشناوى : دور الأزهر فى الحفاظ على الطابع العربى لمصر إبان الحكم العثمانى ، ضمن أبحاث الندوة الدولية لتاريخ القاهرة ، الجزء الثانى ، القاهرة ١٩٧١ م ، ص ٦٦٧ – ٦٧٨ .

وعبد الرحيم عبد الرحمن : الحياة الاجتماعية فى مدينة القاهرة إبان العصر العثمانى ، مستخرج من مجلة كلية الدراسات الإنسانية ، جامعة الأزهر العدد الرابع ١٩٨٦ م ، ص ٢٣١ – ٢٦٧ .

وليلى عبد اللطيف : المجتمع المصرى فى العصر العثمانى ، الطبعة الأولى ، القاهرة ١٩٨٧ م ، ص ١٥ – ٢٤٢ .

إلى ما يلى [١] :

١ – الجوامع : يبلغ عدد الجوامع التى لا تزال باقيه بحالتها الأصلية نحو خمسة وثلاثين جامعًا ، منها تسعة وعشرون جامعًا بُنيت وفق الطراز المصرى الإسلامى الموروث ، وستة جوامعُ بُنيت وفق الطراز العثمانى الوافد .

٢ – الزوايا : يبلغ عدد الزوايا التى لا تزال باقية بحالتها الأصلية نحو ست زوايا بُنيت وفق الطراز المصرى المحلى .

٣ – المدارس : لم يتبق منها سوى مدرستين بُنيتا وفق الطراز العثمانى الوافد .

٤ – القباب والمدافن : يبلغ عدد القباب والمدافن الباقية – المعروفه حتى الآن – نحو ست وخمسين قُبة ومدفنًا منها ست وثلاثون بنيت وفق الطراز المصرى المحلى ، وعشرون قبة ومدفنًا بُنيت وفق الطراز العثمانى الوافد .

٥ – الأسبلة : يبلغ عدد الأسبلة الباقية – المعروفة حتى الآن – نحو ثمانين سبيلا ، منها ثلاثة وسبعون سبيلا بُنيت وفق الطراز المصرى المحلى ، وسبعة أسبلة بنيت وفق الطراز العثمانى الوافد .

٦ – أحواض سقى الدواب : يبلغ عدد الأحواض الباقية – المعروفه حتى الآن – نحو ثلاثة أحواضُ بُنيت وفق الطراز المصرى المحلى .

٧ – مكاتب الأيتام : يبلغ عدد المكاتب الباقية – المعروفه حتى الآن – نحو ثمانية وخمسين مكتبًا ، منها خمسون مكتبًا تعلو خمسين سبيلاً من أسبلة الطراز المصرى المحلى ، وسبعة مكاتب تعلو أسبلة الطراز العثمانى الوافد ، ومكتب واحد مستقل لا يعلو شيئًا ، وهو المكتب الملحق بجامع سليمان باشا المعروف بجامع سارية الجبل بالقلعة ، وقد بُنى وفق الطراز العثمانى الوافد .

٨ – الحمامات : يبلغ عدد الحمامات الباقية ، المعروفه حتى الآن ، نحو ثمانى حمامات بُنيت وفق الطراز المصرى المحلى .

---

(١) اعتمدت فى إعداد هذه الإحصائية المفصلة على ماهو مسجل بفهرس الآثار الإسلامية بمدينة القاهرة ، وما أمكن إضافته – حتى الآن – إلى قائمة هذا الفهرس من خلال الزيارات الميدانية المتعددة للعمائر الأثرية المنتشرة فى شتى أرجاء القاهرة ، فضلاً عن بعض الدراسات الأثرية الحديثة .

ونضيف على ما تقدم فنذكر أن بعض العمائر المسجلة بالفهرس قد هُدِمَت أو جُددت تمامًا ، والبعض الآخر لم يتبق منه سوى مئذنة أو بوابة أو واجهة ، فى حين أنه لا تزال توجد بالقاهرة عمائر أخرى عديدة ينبغى أن تسجل وتدخل فى عداد الآثار الإسلامية لما لها من قيمة تاريخية وأثرية ، ومعظمها يرجع إلى العصر العثمانى وعصر محمد على وأسرته ، ولذلك يجب وضع فهرس آخر جديد يعالج أوجه النقص والقصور فى الفهرس القديم .

٩ - الدور والمنازل : يبلغ عدد الدور والمنازل الباقية - كلها أو بعضها ، والمعروفة حتى الآن - نحو واحد وثلاثين دارًا ومنزلاً بُنيت وفق الطراز المصرى المحلى .

١٠ - الوكالات : يبلغ عدد الوكالات الباقية - كلها أو بعضها ، والمعروفة حتى الآن - نحو ست عشرة وكالة بنيت وفق الطراز المصرى المحلى .

نخلص مما تقدم إلى أن عدد العمائر الباقية بمدينة القاهرة ، والتى ترجع إلى العصر العثمانى ، يصل إلى مائتين وخمسة وتسعين أثرًا ، منها مائتان واثنان وخمسون أثرًا بنيت وفق الطراز المصرى المحلى الموروث ، وثلاثة وأربعون أثرًا بنيت وفق الطراز العثمانى الوافد ، وعلى ذلك تكون الآثار المشيدة وفق ذلك الطراز الوافد بنسبة تقرب من ٦٠ر١٤٪ [١] .

هذا وقد كان استمرار الطراز المصرى المحلى إبَّان العصر العثمانى نتاج عدة عوامل تضافرت معًا فى الإبقاء على ذلك الطراز ، وقد انبثقت بعض هذه العوامل من خلال ما يمكن أن يُطلق عليه اسم فلسفة الحكم العثمانى ، فقد ساهمت سياسة العثمانيين - وهى الخاصة بإبقاء الأوضاع على ماهى عليه - فى محافظة المجتمع المصرى على طابعه العربى الإسلامى وسماته الرئيسية وتقاليده وأعرافه ومعتقداته المختلفة [٢] ، وهذا يعنى أن العثمانيين لم يفرضوا ذوقًا أو طرازًا معماريًا خاصًا بهم ، ومِنْ ثَمَّ احتفظت العمارة المصرية الإسلامية بطابعها المحلى الموروث .

---

(١) ذكرتُ فى بحث سابق أن عدد العمائر الباقية بمدينة القاهرة التى ترجع إلى العصر العثمانى يصل إلى مائتين وعشرين أثرًا ، منها مائة وتسعة وثمانون أثرًا بنيت وفق الطراز المصرى المحلى الموروث ، وواحد وثلاثون أثرًا بنيت وفق الطراز العثمانى الوافد ، وعلى ذلك تكون الآثار المشيدة وفق ذلك الطراز الوافد بنسبة ١ر١٤٪ .

انظر : محمد حمزة إسماعيل الحداد : الطراز المصرى لعمائر القاهرة الدينية خلال العصر العثمانى - رسالة دكتوراه غير منشورة - جامعة القاهرة ١٩٩٠ م - ص ٢١ - ٢٢ .

وعلى ذلك نكون قد أضفنا فى هذا البحث إلى الإحصائية القديمة نحو خمسة وسبعين أثرًا منها ثمانية وخمسون مكتبًا للأيتام ، وسبع قباب ، وخمسة حمامات ، وزاوية واحدة ، وأربعة أسبلة .

ونأمل فى الأبحاث المقبلة - بمشيئة الله تعالى - إضافة المزيد إلى تلك الإحصائية الجديدة ، وذلك بعد أن نقوم بمسح أثرى شامل لمدينة القاهرة بشوارعها وحواريها وأزقتها ودروبها وعطفها ، فضلا عن القرافة .

(٢) عبد العزيز الشناوى : المرجع السابق ، ص ٦٦٧ - ٦٦٨ .

محمد أنيس : الدولة العثمانية والشرق العربى ، القاهرة ١٩٨٥ م ، ص ١٤٢ .

ليلى عبد اللطيف : المرجع السابق ، ص ١٠ .

وتتصل بعض العوامل الأخرى بطبيعة الطراز المصرى والعمق الحضارى الكبير لذلك الطراز الذى ارتبط فى نشأته بعوامل البيئة المحلية وتطور فى خلال ستة قرون – فيما بين العصرين الفاطمى والمملوكى – تطورًا كبيرًا ، حتى اكتسب شخصيته المستقلة وطابعه المميز ، وأصبح ذلك الطراز جزءًا لا يتجزأ من الحياة المصرية العامة [١] ، ومن ثم كان من الصعب على الطراز العثمانى الوافد أن يتغلب ويتفوق على ذلك الطراز الموروث ، ولا سيما أن طبيعة ذلك الطراز الوافد لا تتناسب مع طبيعة البيئة المصرية .

كذلك كان لطوائف الحرف المتعلقة بالبناء وفنونه أثر كبير فى استمرار الطراز المحلى ، حيث لم تتخل تلك الطوائف عن مصريتها وطابعها المعمارى الموروث الذى حافظت عليه فى ضوء ما سمحت به ظروف العصر وإمكانياته .

هذا وقد حكم مصر خلال القرون الثلاثة نحو مائة وتسعة وعشرين واليًا ، منهم ستة وعشرون واليًا حكموا خلال القرن ١٠ هـ / ١٦ م وثمانية وأربعون واليًا حكموا خلال القرن ١١ هـ / ١٧ م ، وخمسة وخمسون واليًا حكموا خلال القرن ١٢ هـ / ١٨ م [٢] .

وقد كان لاختلاف مدة حكم هؤلاء الولاة ومدى نفوذهم أثر كبير فى حركة البناء والتعمير التى شهدتها مدينة القاهرة إبّان العصر العثمانى ، فبينما اتسمت الفترة الأولى من الحكم العثمانى ، وهى الممتدة من بدايته حتى أواخر القرن ١٦ م ، بطول فترة حكم هؤلاء الولاة وبقوة نفوذهم وعظم مكانتهم ، مما أتاح لهم الفرصة لإقامة العمائر المختلفة ، ووقف الأوقاف الكثيرة المغلة عليها ، وهذا هو ما تؤكده الوثائق المختلفة والعمائر الباقية التى ترجع إلى هذه الفترة ، حيث أمر ببنائها الباشوات العثمانيون ، ومنهم سليمان باشا ، وخسرو باشا ، وداود باشا ، ومحمود باشا المقتول ، وسنان باشا ، ومسيح باشا ، وحسن باشا ، وغيرهم .

---

(١) عن نشأة الطراز المصرى الإسلامى فى العمارة الإسلامية ومراحل تطوره المختلفة انظر :
محمد حمزه إسماعيل الحداد : المرجع السابق ، ص ٢ – ١٩ .

(٢) عن أسماء هؤلاء الولاة ومدة حكم كل منهم انظر :
ليلى عبد اللطيف : الإدارة فى مصر فى العصر العثمانى ، مطبعة جامعة عين شمس ، ١٩٧٨ م ، الملحق رقم ١ ، ص ٤٣١ – ٤٣٦ .

أما الفترة الثانية ، وهى الممتدة من أواخر القرن ١٦ م حتى أواخر القرن ١٨ م ، فقد اتسمت بقصر فترة حكم الولاة ، ولم يدم حكم أطولهم مدة عن خمسة أعوام ، فضلًا عن ضعف نفوذهم وقلة هيبتهم ، ومن ثم انصرف غالبيتهم عن البناء والتعمير (١) ، وهذا هو ما تؤكده غالبية العمائر الباقية التى ترجع إلى هذه الفترة ، حيث أمر بينائها كبار الأمراء ، وهو الأمر الذى يعكس مدى ما تمتع به هؤلاء الأمراء من قوة ونفوذ وسيطرة على مقاليد الأمور فى مصر ، ومن ثم حرصوا على بناء العمائر المتنوعة الأغراض ، ما بين دينية ومدنية وجنائزية ، ووقف الأوقاف المُغِلَّة عليها ، ومن بين هؤلاء الأمراء نذكر كُلًّا من يوسف الحين ، وعلى بيك أمير اللواء ، ومحمد بيك تغرى بردى ، ومحمد كتخدا مستحفظان ، وذو الفقار بك ، ورضوان بيك ، ومصطفى جوربجى ميرزه ، وعثمان كتخدا ، وأحمد كتخدا الخربوطلى ، وعبد الرحمن كتخدا ، ويوسف جوربجى ، وعثمان أغا ، وعلى أغا كتخدا الجاويشيه ، فضلا عن على بيك الكبير ، ومحمد بيك أبو الذهب ، وغيرهم .

ويضيق بنا المقام لو أردنا أن نتناول بالتفصيل كل مميزات العمارة الإسلامية فى القاهرة العثمانية ، ولذلك سوف نكتفى فى هذا البحث بدراسة العمائر الدينية ، من حيث طرازها المعمارى وتخطيطها فحسب ، مع تتبع أصول هذا الطراز وذلك التخطيط ، سواء فى مصر أو تركيا ، ومقارنة ذلك ببعض العمائر الدينية المعاصرة فى البلاد العربية .

١ - الجوامع : نستطيع أن نميز بين طرازين شاع استخدامهما فى تخطيط جوامع القاهرة فى العصر العثمانى ، أولهما - وهو الأغلب : الطراز المصرى المحلى الموروث . وثانيهما : الطراز العثمانى الوافد .

ونستعرض فيما يلى المميزات العامة والخصائص الرئيسية لكل طراز منهما على حدة . الطراز الأول : الجوامع المصممة وفق الطراز المصرى المحلى :

---

(١) يستثنى من هؤلاء بعض الباشوات الذين أمروا بإنشاء - أو تجديد أو إضافة - بعض العمائر ، ومنهم محمد باشا الشريف ، وعلى باشا السلحدار ، وحسن باشا ، ومحمد باشا الصوفى ، وبيرم باشا ، ومحمد باشا أبو النور ، وإبراهيم باشا ، وحمزة باشا - من ولاة القرن ١١ هـ / ١٧ م ، وأحمد باشا ، وإسماعيل باشا ، وقرة محمد باشا ، وعلى باشا الإزمرلى ، وعبد الله باشا الكبورلى ، ومحمد باشا عزت - من ولاة القرن ١٢ هـ / ١٨ م .

وهو الطراز السائد والأغلب خلال العصر العثمانى ، حيث يقدر عدد الجوامع الباقية المصممة وفق ذلك الطراز نحو تسعة وعشرين جامعًا ، كما سبق القول .

ويمكن أن نحصر تخطيطات هذه الجوامع فى ثلاثة أنواع رئيسية ، وذلك على النحو التالى :

النوع الأول : التخطيط ذو الأروقة حول صحن أو درقاعة [١] .

النوع الثانى : التخطيط ذو الأروقة دون الصحن أو الدرقاعة .

النوع الثالث : التخطيط ذو الإيوانات حول صحن أو درقاعة .

ونستعرض فيما يلى كل نوع من هذه الأنواع على حدة ، وذلك على النحو التالى :

النوع الأول : التخطيط ذو الأورقة حول صحن أو درقاعة :

يتكون هذا النوع من التخطيط من صحن أو درقاعة وسطى مُغطاة يحيط بها أربعة أروقه ، أكبرها وأعمقها رواق القبلة ، ويتكون من مساحة مستطيلة تشتمل على بائكتين أو ثلاث بائكات تسير موازية لجدار القبلة ، أما الأروقة الثلاثة الأخرى فيشتمل كل رواق منها على بائكة واحدة .

---

(١) المعروف ، حتى الآن ، بين جمهرة الآثاريين أن الصحن هو الفناء المكشوف ، والدرقاعة هى الفناء المُغطى ، إلا أنه يتضح – من خلال ما ورد فى المصادر التاريخية ووثائق الوقف المختلفة ومقارنة ذلك بالعمائر الباقية – أنه لم يكن هناك فرق كبير بين كل من المصطلحين ، فبعض الأفنية المكشوفة الكبيرة أُطلق عليها فى الوثائق والمصادر مصطلح الدرقاعة ، كما هو الحال فى كل من قلاوون ، والسلطان حسن ، وبرقوق ، وبرسباى ، والمؤيد شيخ ، وغيرها . وفى المقابل أطلق على بعض الأفنية المغطاة مصطلح « الصحن » كما هو الحال فى كثير من عمائر العصرين : المملوكى والعثمانى . كذلك أطلق على بعض المجازات أو الاستطراقات الأرضية المستطيلة مصطلح الدرقاعة أيضًا كما هو الحال فى خانقاة برسباى بالقرافه (صحراء المماليك) ومدرسة جانم البهلوان بالسروجيه ، وجامع المحموديه بميدان صلاح الدين أسفل القلعه وغير ذلك .

المقريزى : المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار المعروف بالخطط المقريزية . ط ٢ . القاهرة ١٩٨٧ . جـ ٢ ، ص ٣١٦ . محمد سيف النصر : مدرسة المنصور قلاوون : دراسة جديدة فى ضوء وثيقة جديدة . (مجلة كلية الآداب – جامعة صنعاء – العدد الأول – ١٩٨٤ م) .

وثائق وقف كل من : برقوق (رقم ٥١ محفظة ٨ بدار الوثائق القومية (محكمة) ، برسباى (أوقاف : ٨٨) ، المؤيد شيخ (أوقاف ٩٣٨) ... وغير ذلك .

وقد اتبع هذا التخطيط فى كل من جامع الأمير مصطفى جوربجى ميرزه (ببولاق) ١١١٠ هـ / ١٦٩٨ م ، وجامع الأمير عثمان كتخدا المعروف بجامع الكيخيا (بالأوبرا) ١١٤٧ هـ / ١٧٣٤ م ، وجامع الفكهانى (العقادين) ١١٤٨ هـ / ١٧٣٥ م وجامع السادات الوفائية (بالتونسى) ١١٩١ - ١١٩٩ هـ / ١٧٧٧ - ١٧٨٤ م (شكلا ١ - ٢) .

وعند تأصيل هذا النوع من التخطيط نجد أنه يمثل التخطيط التقليدى الشائع للمساجد الجامعة فى العمارة الإسلامية التى اتخذت تخطيط مسجد الرسول ﷺ نموذجًا رئيسيًا لها ، وترجع أقدم الأمثلة الباقية لهذا التخطيط فى مصر إلى العصر الطولونى ، كما هو الحال فى جامع أحمد بن طولون ٢٦٥ هـ / ٨٧٨ م ، ثم اتبع فى تخطيط جوامع القاهرة الفاطمية ، وفى العصر المملوكى انتشر انتشارًا كبيرًا ، كما هو الحال فى كل من جامع الظاهر بيبرس ، وجامع الناصر محمد بالقلعة ، وجامع الماس الحاجب ، وجامع الطنبغا الماردانى ، وجامع آق سنقر الناصرى ، المعروف بالجامع الأزرق ، من عصر المماليك البحرية .

وكل من جامع المؤيد شيخ ، وجامع القاضى يحيى ببولاق ، وجامعه الآخر بالحبانية ، وجامع لاجين السيفى وجامع الونائى ، وجامع ابن برد بك ، وجامع سلطان شاه من عصر المماليك الجراكسة أو البرجية .

وإذا كانت الجوامع السابقة تكاد تتفق مع بعضها فى التخطيط العام وفى المميزات الرئيسية فإنها تختلف فيما بينها من حيث التفاصيل ، فلكل جامع منها سمات مستقلة قائمة بذاتها .

هذا ولم يقتصر هذا التخطيط على الجوامع فحسب ، بل صُممت على أساسه بعض المدارس أيضًا ، ومن أمثلتها الباقية المدرسة الأقبغاوية (بالأزهر) ٧٤٠ هـ / ١٣٣٩ م ، ومن الملاحظ أن صحن المدرسه الأقبغاوية مغطى مثل صحون الجوامع العثمانية المصممة وفق هذا التخطيط ، والسابق الإشارة إليها ، أما بقية الجوامع الأخرى المشار إليها فالصحن فيها مكشوف [(١)] . (شكل ٣) .

---

(١) محمد حمزة : المرجع السابق ، ص ٦٨٤ - ٦٨٦ .

النوع الثانى : التخطيط ذو الأروقة دون الصحن أو الدرقاعة :

يتكون هذا النوع من التخطيط من مساحة مستطيلة أو مربعة تُقسم إلى أروقة بواسطة عدد من البائكات تسير موازية لجدار القبلة ، أو عموديه على ذلك الجدار .

ويُعد هذا التخطيط أكثر أنواع التخطيطات شيوعًا وانتشارًا خلال العصر العثمانى ، حيث يبلغ عدد الجوامع الباقية المصممة وفق ذلك التخطيط نحو سبعة عشر جامعًا .

ويمكن أن نحصر نماذج هذا التخطيط فى ثلاثة أنماط ، وذلك على النحو التالى :

النمط الأول : وهو عبارة عن مساحة مستطيلة قُسمت إلى أربعة أروقة بواسطة ثلاث بائكات تسير موازية لجدار القبلة ، كما هو الحال فى كل من جامع محرم أفندى ، المعروف بجامع الكردى (بسويقة اللالا) ١١٣٦ هـ / ١٧٢٣ م ، وجامع العريان (بباب البحر) (شكل ٤) ١١٧١ – ١١٧٣ هـ / ١٧٥٧ – ١٧٥٩ م .

النمط الثانى : وهو عبارة عن مساحة مستطيلة قُسمت إلى ثلاثة أروقة بواسطة بائكتين موازيتين لجدار القبلة ، ونشاهد هذا النمط فى أحد عشر جامعًا هى كل من : جامع مراد باشا ٩٧٦ – ٩٧٩ هـ / ١٥٦٨ – ١٥٧١ م ، وجامع مسيح باشا ٩٨٣ هـ / ١٥٧٥ م ، وجامع مرزوق الأحمدى ١٠٤٣ هـ / ١٦٣٣ م ، وجامع الشيخ مطهر ١١٥٨ هـ / ١٧٤٥ م ، وجامع الغريب ١١٦٨ هـ / ١٧٥٤ م ، وجامع الشيخ رمضان ١١٧٥ هـ / ١٧٦١ م ، وجامع يوسف جوربجى ١١٧٧ هـ / ١٧٦٣ م ، وجامع البيومى ١١٨٠ هـ / ١٧٦٦ م ، وجامع العربى قبل ١١٨٣ هـ / ١٧٦٩ م ، وجامع محمود محرم ١٢٠٧ هـ / ١٧٩٢ م ، وجامع جنبلاط ١٢١٢ هـ / ١٧٩٧ م (أشكال ٤ – ٧) .

أما جامع آلتى برمق قبل ١٠٣٣ هـ / ١٦٢٣ م فهو وان كان ينتمى فى تخطيطه إلى هذا النمط إلا أن عقود بائكتيه تتجه عمودية على جدار القبلة ، وليست موازيه لهذا الجدار ، كما هو الحال فى النماذج السابقة الإشارة إليها .

/ ١٥٥٥ م ، وجامع سوكلو محمد فى قادرجا باستانبول ٩٨٠ هـ / ١٥٧٢ م ، وجامع عتيق الوالدة فى اسكدار (١) .

ومن نماذج الجوامع العثمانية التى تبرز فيها دخلة المحراب نذكر كُلًّا من : جامع داود باشا ، وجامع باب العزب ، وجامع لاله لى فى استانبول (٢) ، غير أنه يلاحظ أن دخلة المحراب فى هذه النماذج مغطاة بنصف قبة ، فى حين أنها مغطاة بقبة كاملة فى جامع الملكة صفية ، كما سبق القول .

النوع الثانى : التخطيط على هيئة مربع تعلوه قبة (الجامع القبة) :

يتكون هذا النوع من التخطيط فى جوهره من مساحة مربعة تعلوها قبة ، ونستطيع أن نحصر نماذج هذا التخطيط فى نمطين رئيسيين ، وذلك على النحو التالى :

النمط الأول : وهو عبارة عن مساحة وسطى مربعة تحيط بها – من الداخل – أربع دخلات صغيرة ، أعمقها وأهمها دخلة المحراب (الدخلة الجنوبية الشرقية) وتشرف هذه الدخلات الأربع على المساحة الوسطى المربعة من خلال أربعة عقود مدببة تحصر فيما بينها – أى فى كوشاتها – منطقة انتقال القبة التى تغطى المساحة الوسطى المربعة ، وهى عبارة عن أربعة مثلثات كروية – ، بواقع مثلث فى كل ركن من الأركان .

ويتقدم الجامع من الجهة الشمالية الشرقية زيادة من رواق واحد عبارة عن مساحة مستطيلة مسقوفة بسقف خشبى تلاشت أجزاء كثيرة منه الآن ، ويوجد بصدر هذا الرواق محراب صغير ، ومن الواضح أن الغرض من وجود هذه الزيادة هو استخدامها فى الصلاة فى حالة ضيق الجامع بالمصلين .

---

(١) آصلان آبا : المرجع السابق ، ص ١٨٢ ، ٢٠١ .
هدايت تيمور : المرجع السابق ، ص ٢١١ – ٢١٢ .
على المليجى : المرجع السابق ، ص ٢٤٦ ، ٢٧٣ .
Goodwin, Op. Cit. pp. 244 - 245. 245 Fig. 93. 234.

(٢) Ibid. PP. 115, 296, 389, Fig, 107, 274, 406.

ويتجلى هذا التخطيط بوضوح فى نموذج وحيد باق ، وهو جامع أحمد كتخدا العزب (خلف باب العزب بالقلعة) ١١٠٩ هـ / ١٦٩٧ م [١] (شكل ١٨) .

وعند تأصيل هذا التخطيط نجد أنه عُرف فى العمارة العثمانية ، ولكن مع الأختلاف فى بعض التفاصيل ، ومن أمثلة ذلك جامع أورخان غازى فى بيلاجك ، ويرجع تاريخه إلى النصف الثانى من القرن ٨ هـ / ١٤ م [٢] .

وتجدر الإشارة إلى أن هذا التخطيط قد عُرِفَ فى مصر فى نفس هذه الفترة وما بعدها ، ولا سيما فى بعض قباب المدافن ، ومن أمثلتها الباقية قبة مدفن الأمير صرغتمش الملحقة بمدرسته (بالصليبة) ٧٥٧ هـ / ١٣٥٦ م ، وهى تتكون من مساحة وسطى مربعة ، تحيط بها من الدخل أربع دخلات معقودة بعقد مدبب ، يتوسط الدخلة الجنوبية الشرقية منها المحراب ، أما الدخلة الجنوبية الغربية فبصدرها شباك يشرف على الشارع ، يقابله بصدر الدخلة الشمالية الشرقية باب الدخول للقبة من الإيوان الشمالى الغربى للمدرسة ، وتؤدى الدخلة الشمالية الغربية إلى رواق بارز عن سمت جدار الواجهة ، ويسقف هذا الرواق قباب ضحلة مقامة على مثلثات كروية ، ويشرف هذا الرواق على الشارع من خلال ثلاثة شبابيك فى الصدر ، وشباكين فى الجانبين بواقع شباك بكل جانب (شكل ١٩) .

وإذا كان هذا التخطيط يتفق مع تخطيط جامع أورخان فى بيلاجك من جهة فإنه من جهة أخرى يذكرنا بالتخطيط المعروف بطراز بروسه الأول ، والذى يتميز بوجود رواق أو سقيفة مغطاة بالقباب أو الأقبية ، أو بالاثنين معًا ، وتتقدم هذه السقيفة ، أو هذا الرواق ، الجامع ، كما هو الحال فى كل من جامع حاجى أوزبك

---

(١) يعتقد (البروفيسور كازانوفا) أن هذا الجامع أقيم مكان جامع آخر أقدم منه ، ويؤيد ذلك (الأستاذ حسن عبد الوهاب) فيذكر أن هذا الجامع أقيم على بقايا مصلى وسبيل السلطان المملوكى المؤيد شيخ .

كازانوفا (بول) : تاريخ ووصف قلعة القاهرة ، ترجمة وتقديم د. أحمد دراج ، مراجعة د. جمال محرز ، القاهرة ١٩٧٤ م ، ص ١٨٥ .

حسن عبد الوهاب : جامع السلطان حسن وما حوله ، المكتبة الثقافية ، العدد ٥٦ ، أول مارس ١٩٦٢ م ، ص ٧٤ .

(٢) Goodwin, Op. Cit, PP. 18-19, Fig, 7. ، آصلان آبا : المرجع السابق ، ص ١٧٠ ، على المليجى : المرجع السابق ، ص ٢٢٤ .

(فى أزنيق) ٧٣٤ هـ / ١٣٣٣ م ، وجامع علاء الدين بك (فى بروسه) ٧٣٦ هـ / ١٣٣٥ م ، وغير ذلك من أمثلة سنشير إليها فيما بعد [١] .

ويشبه تخطيط قبة مدفن الأمير إينال اليوسفى الملحقة بمدرسته (بالخيامية) ٧٩٤ – ٧٩٥ هـ / ١٣٩١ – ١٣٩٢ م ، ولكن مع بعض الاختلاف فى التفاصيل ، تخطيط قبة الأمير صرغتمش من حيث وجود المساحة الوسطى المربعة ، والدخلات الأربع المعقودة التى تحيط بها ، غير أن قبة إينال اليوسفى لا تحتوى على الرواق البارز المسقوف الذى يتقدم مربع القبة من الجهة الشمالية الغربية [٢] .

وقد استمر هذا التخطيط فى بعض قباب العصر العثمانى ، ومن أمثلتها الباقية قبة الشيخ على الروبى بالفيوم ١١٢٠ هـ / ١٧١٧ م وهى تتكون من مساحة وسطى مربعة تحيط بها من الداخل أربع دخلات ، تشرف كل منها على المساحة الوسطى المربعة بائكة ذات عقدين مدببين [٣] .

النمط الثانى : وهو عبارة عن مساحة مربعة تعلوها قبة ضخمة (مشايخى) [٤] ويحيط بهذه المساحة المربعة من الخارج من ثلاث جهات – عدا جهة القبلة – ثلاث زيادات عبارة عن أروقة مغطاة بقباب ضحلة مقامة على مثلثات كروية .

ويتجلى هذا التخطيط بوضوح فى نموذجين هما : جامع سنان باشا [٥]

---

(١) انظر ص ١٢٦ – ١٢٧ من هذا البحث .

(٢) محمد حمزة إسماعيل الحداد : قرافة القاهرة فى عصر سلاطين المماليك ، رساله ماجستير غير منشورة ، جامعة القاهرة ١٩٨٦ م ، ص ٣٣٢ – ٣٣٥ .

(٣) سعاد ماهر : محافظات الجمهورية العربية المتحدة وآثارها الباقية فى العصر الإسلامى القاهرة ١٩٦٦ م ، ص ٧٤ .

(٤) أطلقت الوثائق هذا المصطلح على بعض القباب ، ومنها قبة جامع محمد بك أبو الدهب ، وقبه المشهد الحسينى ، وقبتا الكردى والخوّاص بالحسينية عندما قام بتجديدهما الأمير عبد الرحمن كتخدا .

حجتا الأمير عبد الرحمن كتخدا (أوقاف رقم ٤٦ ، ٩٤٤) ، حجة الأمير محمد بك أبو الدهب (أوقاف رقم ٩٠٠) .

(٥) يعد سنان باشا من أشهر وزراء آل عثمان بصفة عامة ، وولاة مصر العثمانية بصفة خاصة ، وقد تولى حكم مصر على فترتين : الأولى فيما بين ٩٧٥ – ٩٧٦ هـ / ١٥٦٧ – ١٥٦٨ م وقد توجه بعدها إلى فتح بلاد اليمن ، وبعد أن تم له الفتح رجع إلى باشوية مصر للمرة الثانية ، وكان ذلك فيما بين ٩٧٩ – ٩٨١ هـ / ١٥٧١ – ١٥٧٣ م ، وتولى بعد ذلك نيابة الشام ثم الصدارة العظمى ، وكان سنان باشا مغرمًا بالإنشاء والتعمير ، ووقف =

(بيولاق) (شكل ٢٠) ٩٧٩ هـ / ١٥٧١ م ، وجامع محمد بك أبو الدهب [(١)] (تجاه الجامع الأزهر) ١١٨٨ هـ / ١٧٧٤ م (شكل ٢١) .

وعند تأصيل هذا النوع من التخطيط نجد أن جوهره ، وهو المربع الذى تعلوه القبة قد عُرف فى العمارة السلجوقية ، ويتقدم هذا المربع سقيفة أو رواق ، وتحتفظ قونية بعدد من الأمثلة الباقية ، ومنها مسجد طاش ٦١٢ هـ / ١٢١٥ م ، ومسجد بشارة بك ٦١٣ هـ / ١٢١٦ م ، ومسجد أردمشاه ٦١٧ هـ / ١٢٢٠ م ، ومسجد قره طاى الصغير ٦٤٦ هـ / ١٢٤٨ م ، ومسجد صر جالى ، ويرجع إلى النصف الثانى من القرن ٧ هـ / ١٣ م [(٢)] .

= الأوقاف الكثيرة المُغلّة على عمائره المختلفة ، ومنها المساجد ، والربط ، والتكايا ، والحمامات ، والوكالات ، حتى قيل إنه لم ينشىء أحد من وزراء آل عثمان خيرات مثله ، سواء فى مصر أو الشام أو تركيا ، وغير ذلك من الثغور والبنادر ، وكانت وفاته فى سنة ١٠٠٤ هـ / ١٥٩٥ م .

انظر : النهروانى (قطب الدين محمد بن أحمد) : ت ٩٩٠ هـ / ١٥٨٢ م .

البرق اليمانى فى الفتح العثمانى ، تحقيق حمد الجاسر ، الطبعة الأولى الرياض ١٩٦٧ م ، ص ٤٥٥ ، ٤٥٩ – ٤٦٠ .

المحبى (محمد) :

خلاصة الأثر فى أعيان القرن الحادى عشر ، جـ ٢ ، مصر ١٢٨٤ هـ /١٨٦٧ م ص ٢١٤ – ٢١٦ .

الإسحاق : أخبار الأول ، ص ١٥١ – ١٥٢ .

ابن الوكيل : تحفه الأحباب ، ص ١٥٨ .

ابن عبد الغنى : أوضح الإشارات ، ص ١١٦ – ١١٨ .

(١) هو الأمير محمد بك أبو الدهب ، كان مولًى من موالى الأمير على بك الكبير ، وعندما استعان أهل غزة بالأمير على بك الكبير ضد والى دمشق عثمان باشا ، فما كان من على بك إلا أن جهز الأمير محمد بك أبو الدهب للركوب على الوزير العثمانى والانتقام منه ووصل أبو الدهب بعساكره إلى دمشق يوم الأثنين ١٩ صفر ١١٨٥ هـ / ١٧٧١ م ، وتطورت الأحداث بعد ذلك ، وانقلبت الآية ، فخرج أبو الدهب على مولاه على بك وقتله ، واستقل بالأمر فى مصر إلى أن مات مسمومًا ودُفن بالمدفن الذى أعد بجامعه تجاه الجامع الأزهر ، وقد عرف هذا الجامع واشتهر باسم المدرسة المحمدية ، وكانت به مكتبة من أعظم المكتبات فى العصر العثمانى ، ويذكر (الجبرتى) أن هذا الجامع قد بنى على أرنيك جامع السنانية ببولاق ، وهذا قول حق ، ولكن مع بعض الاختلاف فى التفاصيل .

المرادى (السيد محمد خليل أفندى المرادى مفتى دمشق) :

سلك الدرر فى أعيان القرن الثانى عشر ، المجلد الأول ، بولاق ١٣٠١ هـ / ١٨٨٣ م ، ص ٥٤ – ٥٧ .

الجبرتى (عبد الرحمن) :

عجائب الآثار فى التراجم والأخبار ، جـ ١ ، طبعة دار الجيل ، بيروت ، بدون تاريخ ، ص ٤٨٠ – ٤٨٥ .

(٢) آصلان آبا : المرجع السابق ، ص ٩٠ – ٩١ ، تخطيط رقم ١٨ – ١٩ .

واستمر هذا النوع من التخطيط فى العمارة العثمانية ، وقد اشتهر وعرف باسم طراز بروسه الأول ، على الرغم من أنه قد ساد وانتشر فى العديد من المدن ، سواء قبل فتح القسطنطينية ٨٥٧ هـ / ١٤٥٣ م أو بعده ، ومن بين أمثلته الباقية نذكر كُلًّا من : جامع حاجى أوز بك بأزنيق ٧٣٤ هـ / ١٣٣٣ م ، وجامع علاء الدين بك فى بروسه ٧٣٦ هـ / ١٣٣٥ م ، وجامع فيروز أغا باستانبول ٨٩٦ هـ / ١٤٩١ م ، وجامع إبراهيم باشا باستانبول ٩٥٩ هـ / ١٥٥١ م وجامع على باشا فى توقات ٩٨٠ ه / ١٥٧٣ م ، وجامع Kursunlu فى قيصرية ٩٩٤ هـ / ١٥٨٥ م ، وغير ذلك من الأمثلة [١] .

وقد عُرف هذا النوع من التخطيط فى العمارة المصرية الإسلامية قبل العصر العثمانى بوقت طويل ، ولكنه استُخدم فى بادىء الأمر فى تخطيط المشاهد والقباب المدافن ، كما هو الحال فى كل من مشهد السيدة رقية ٥٢٧ هـ / ١١٣٢ م ، وقبه فاطمة خاتون ٦٨٢ – ٦٨٣ هـ / ١٢٨٣ – ١٢٨٤ م ، وقبة الأشرف خليل ٦٨٧ هـ / ١٢٨٨ م ، وقبة بيبرس الجاشنكير ٧٠٦ – ٧٠٩ هـ / ١٣٠٦ – ١٣٠٩ م ، ويسقف الرواق الذى يتقدم مربع هذه القباب أسقف خشبية ، وقد اندثر سقف رواق كل من قُبتى فاطمة خاتون والأشرف خليل [٢] ، وتنتمى إلى هذا النوع من التخطيط أيضًا قبة مدفن صرغتمش السابق الإشارة إليها ، إلا أن الرواق الذى يتقدمها مسقف بقباب ضحلة مقامة على مثلثات كروية .

وحدث بعد ذلك أن استُخدم هذا النوع فى تخطيط بعض الزوايا والخانقاوات ، كما يتضح من خلال ما ورد فى المصادر التاريخية ووثائق الوقف ، فضلاً عن العمائر الباقية حتى الآن .

ومن بين هذه الأمثلة نذكر كُلًّا من : الزاوية المعروفة بقبة النصر (مندرسة) وخانقاه الأمير كافور الزمام بالقرافة ، والتى أُطلق عليها فى الوثيقة اسم القبة الخانقاه ، وزاوية الأحمدية الرفاعية المعروفة بقبه معبد الرفاعى ، وهى تشبه كُلًّا من قبة الفداوية ، وقبة قصر القبة ، وزاوية الدمرداش بالعباسية [٣] .

---

(١) Gabriel (A.), Monuments Turcs d'A natolie, Tome Premier, Paris, 1931, P.56. Fig, 34.

Goodwin, Op. Cit, PP. 17-18, 167, 244, 34, 316. Fig, 2,4,161, 233,309, 312.

Kuran (A.), The Mosque in Early Ottowan Architecture, chicago, 1968. pp 30 - 47.

(٢) محمد حمزة : قرافه القاهرة ، ص ٣٢١ ، ٣٣١ – ٣٣٢ .

(٣) انظر ص ١٣٩ – من هذا البحث .

ومن الملاحظ خلو هذه النماذج من وجود الرواق أو السقيفه التى تتقدمها ، ولكن نظرًا للتشابه الكبير ، سواء فى التخطيط المعمارى أو فى بعض التفاصيل ، ومن أهمها مناطق انتقال القباب ، بين هذه النماذج المملوكية وبين كل من جامعى سنان باشا وأبى الدهب ، فإنه يمكن القول بأن تخطيط كل من هذين الجامعين ماهو إلا تطوير محلى لكيان معمارى وفد على مصر خلال العصر المملوكى ، كما يتضح من الأمثلة المشار إليها ، ويتمثل هذا التطوير فى إضافة ثلاثة أروقة تحيط بالجامع من ثلاث جهات ، عدا جهة القبلة ، ويسقف هذه الأروقة قباب ضحلة مقامة على مثلثات كروية (١) .

ومن المعروف أن جذور هذا الطراز - سواء فى العمارة السلجوقية أو فى العمارة العثمانية - تحتوى على رواق واحد فقط ، وهو السقيفة التى تتقدم الجامع ، والتى تغطى بالقباب أو بالأقبية ، أو بالاثنين معًا ، أما الأروقة الثلاثة التى تحيط بالجامع فلم تظهر فى الجوامع التى تنتمى إلى هذا الطراز فى العمارة العثمانية إلا فى القرن ١١ هـ / ١٧ م ، ويتمثل ذلك فى نموذج وحيد باق حتى الآن ، وهو الجامع الخزفى فى اسكدار ١٠٥٠ هـ / ١٦٤٠ م (٢) ، أى بعد جامع سنان باشا ببولاق بما يقرب من ثلاثة أرباع القرن إلّا قليلاً .

كذلك تجدر الإشارة إلى أن هذه الأروقة الثلاثة لم تظهر أيضًا فى الجوامع التى شُيدت فى بعض البلاد العربية خلال العصر العثمانى وفق طراز بروسّة الأول ، سواء بنمطه البسيط أو بنمطه المتطور ، ومن ذلك جامع خسرو باشا ضمن مجمعه بحلب ٩٤٣ - ٩٤٤ هـ / ١٥٣٦ - ١٥٣٧ م الذى يتقدم بيت الصلاة فيه رواق واحد يشرف على الفناء من خلال بائكة ذات خمسة عقود ، ويسقف هذا الرواق خمس قباب صغيرة (٣) .

ومن ذلك أيضًا نذكر كُلًّا من جامع درويش باشا ٩٧٩ - ٩٨٢ هـ / ١٥٧١ - ١٥٧٤ م وجامع سنان باشا بدمشق (٤) ٩٩٥ - ٩٩٩ هـ / ١٥٨٦ -

---

(١) محمد مصطفى نجيب : العمارة فى العصر العثمانى ، ص ٢٦٢ - ٢٦٣ ، هدايت تيمور : جامع الملكة صفية ، ص ٢٠٦ - ٢٠٨ .

(٢) Pauty, Op, Cit. P. 15, Fig, 17.

هدايت تيمور : المرجع السابق ، ص ٢٠٨ .

(٣) Goodwin, Op. Cit. P. 202, Fig. 191.

(٤) يتكون تخطيط بيت الصلاة فى كل من هذين الجامعين من مساحة مستطيلة قُسمت بواسطة بائكتين =

١٥٩٠ م ، ويتقدم بيتَ الصلاة فى كل منهما رواقٌ مغطى بخمس قباب فى جامع درويش باشا ، وبسبع قباب فى جامع سنان باشا ، ويشرف هذا الرواق على الفناء ببائكه ذات خمسة عقود فى الجامع الأول ، وذات سبعة عقود فى الجامع الثانى (١) .

ومن الملاحظ خلو الأضلاع الثلاثة الأخرى للصحن فى هذين الجامعين من الأروقة والبائكات ، وهو ما يذكرنا بنموذج مشابه ، وهو جامع محمد باشا ضمن مجمعه بازميت ٩٨٧ هـ / ١٥٧٩ م (٢) .

وفى بغداد تقابلنا ثلاثة نماذج يتكون بيت الصلاة فيها من مساحة مستطيلة ، قُسمت بواسطة بائكتين إلى ثلاثة أروقة ، أوسطها أوسعها وأهمها ، وتعلوه قبة كبيرة ، فى حين يغطى كُلًّا من الرواقين الجانبيين سِتُّ قباب ، بواقع ثلاث بكل رواق ، أوسطها أكبرها ، ويتقدم الجامع رواق أو سقيفه مغطاة بقبابٍ تُماثل قبابَ كُلًّا من الرواقين الجانبيين ، وهذه النماذج الثلاثة هى كل من : جامع مراد باشا ٩٧٤ - ٩٨٢ هـ / ١٥٦٦ - ١٥٧٤ م ، وجامع الأحمدية ١٢١٠ هـ / ١٧٩٥ م ، وجامع داود باشا المعروف بجامع الحيدرخانه ١٢٤٢ هـ / ١٨٢٦ م (٣) .

ويذكرنا تخطيط هذه الجوامع - مع بعض الاختلاف فى التفاصيل - بتخطيط بعض الجوامع العثمانية التى تنتمى إلى هذا الطراز ، ومن أمثلتها فى استانبول كل من : جامع مهرماه ، وجامع زال محمود باشا ، وجامع رستم باشا ، إلا أنه تغطى كُلًّا من

= إلى ثلاثة أروقة أوسطها أوسعها وأهمها ، وتعلوه قبة ضخمة ، وتتكون كل بائكة من ثلاثة عقود تسير عمودية على جدار القبلة ، ويغطى الرواقين الجانبيين فى جامع درويش باشا ست قباب ، بواقع ثلاث قباب بكل رواق ، ويتفق تخطيط كل من هذين الجامعين - مع بعض الاختلاف فى التفاصيل - مع تخطيط بعض الجوامع العثمانية ، مثل رستم باشا ، وجامع مهرماه ، وجامع زال محمد باشا باستانبول ، وغير ذلك .

(١) Sauvaget (J.) les Monuments Historiques de Damas. Beyrouth, 1932. PP. 83-86.

ربيع خليفه : أثر الفن والعمارة العثمانية على مصر والبلاد العربية ضمن كتاب دراسات فى الأدب والتاريخ التركى المصرى ، القاهرة ١٩٨٩ م ص ١٧٦ - ١٧٧ .

(٢) Goodwin, Op. Cit, PP. 301-302, Fig, 289.

(٣) عيسى سلمان (وآخرون) : العمارات العربية الإسلامية فى العراق ، جـ ١ ، بغداد ١٩٨٢ م ، ص ٢٣٥ - ٢٤٢ ، ٢٥٢ - ٢٦٥ ، مخطط رقم ١٧ - ١٩ .

اعتماد يوسف القصيرى : مساجد بغداد فى العهد العثمانى ، رسالة دكتوراه ، غير منشورة : جامعة القاهرة ١٩٨١ م ، ص ٤٨ ، ٣٤٥ - ٣٤٦ ، ٥٢٤ - ٥٢٨ .

الرواقين الجانبيين فى هذا الجامع الأخير أقبيةٌ متقاطعة ولكن ليس قباب كما هو الحال فى النماذج السابقة [١] .

كذلك تحتفظ بغداد بنموذج فريد لمسجد ذى قبة واحدة تحيط به من الخارج من ثلاث جهات – عدا جهة القبلة – ثلاثة أروقة ، وهو المسجد الملحق بمشهد الشيخ عبد القادر الجيلانى ، وقد أمر بإنشائهما السلطان سليمان القانونى ٩٤١ هـ / ١٥٣٤ م ، إلا أن هذه الأروقة الثلاثة لا ترجع إلى عصر الإنشاء السابق الإشارة إليه ، وإنما ترجع إلى سنة ١٠٨٥ هـ / ١٦٦٤ م، وقد أمر بإضافتها وتجديد كل من المسجد والمشهد الوزير حسين باشا السلحدار [٢] .

ومن بين العمائر الأثرية باليمن التى صُممت وفق هذا الطراز ، وتخلو من وجود الأروقة الثلاثة أيضًا ، نذكر المدرسة البكرية بصنعاء ١٠٠٥ هـ / ٥٩٦ م ، والتى يتقدم بيت الصلاة (البنية) فيها رواق أو سقيفة مغطاة بثلاث قباب صغيرة ، ويشرف هذا الرواق على الفناء المكشوف (الصرح أو الحرم) من خلال بائكة ذات ثلاثة عقود ، ومن هذه العمائر أيضًا نذكر كلًّا من مسجد المرادية ٩٨٤ هـ / ١٥٧٦ م ، ومسجد طلحة ١٠٢٩ هـ / ١٦١٩ م ، والملاحظ أن الرواق أو السقيفة التى تتقدم بيت الصلاة فى هذا الجامع الأخير لا تقع على محور المحراب كما هو العادة ، وإنما تقع إلى الغرب من بيت الصلاة ، وتشرف على الفناء الغربى ببائكة ذات عقدين ، ويغطى هذه السقيفة أربع قباب صغيرة [٣] .

النوع الثالث : التخطيط ذو الأروقة المغطاة بقباب (الجامع ذو القباب المتعددة) :

يتكون هذا النوع من التخطيط من مساحة مستطيلة أو مربعة تُقسم إلى أروقة بواسطة عدد من البائكات ، يختلف من جامع لآخر ، وتتكون هذه البائكات من أعمدة أو دعامات تنطلق من فوقها عقود تتجه عمودية على جدار القبلة ، وأخرى تتجه موازية لذلك الجدار ، مما ينتج عنه مجموعة من المربعات الصغيرة ، يعلو كل مربع منها قبة ، وقد تكون جميع هذه القباب المتعددة متساوية وربما لا تكون كذلك .

---

(١) Goodwin, Op. Cit, PP. 250, 253, 258. Fig, 240, 242, 246.

(٢) عيسى سلمان : المرجع السابق ، جـ ٢ ، ص ١٢٦ – ١٣٢ ، مخطط رقم ١٧ .

(٣) ربيع خليفة : مساجد مدينة صنعاء فى فترة الوجود العثمانى الأول ، القاهرة ١٩٨٩ م ، ص ٤٧ – ٤٨ ، ٥٦ – ٥٨ ، ٩٥ – ٩٩ (شكلا ١ – ٢) .

ويتجلى هذا التخطيط بوضوح ، مع بعض الاختلافات الطفيفة ، فى نموذج وحيد باق بالقاهرة العثمانية ، وهو جامع عابدى بك (بمصر القديمة) ١٠٧١ هـ / ١٦٦٠ م .

ويتكون تخطيط هذا الجامع من مساحة مربعة تقريباً ، قُسمت بواسطة بائكتين إلى ثلاثة أروقة ، تتكون كل بائكة من عمودين مستديرين ينطلق من فوقهما اثنا عشر عقدًا مدبباً ، بواقع ستة عقود تتجه عمودية على جدار القبلة ، ومثلها تتجه موازية لذلك الجدار ، وقد نتج عن ذلك تسعة مربعات صغيرة ، يعلو المربع الأوسط منها ، فيما بين الأعمدة الأربعة منورٌ ، فى حين يعلو باقى المربعات قبابٌ ، وجميع هذه القباب متساوية ومُقامة على مثلثات كروية ، باستثناء القبة التى تعلو المربع أمام المحراب ، فهى أكثر القباب ارتفاعًا ، كما أنها مقامة على حطات من المقرنصات المتصاعدة .

والواقع أن هذا النوع من التخطيط يذكرنا بالتخطيط غير التقليدى للمساجد فى العمارة الإسلامية ، وهو التخطيط الذى اصطلحنا على تسميته بالتخطيط ذى الأروقة دون الصحن أو الدرقاعة ، وقد انتشر هذا التخطيط فى العديد من الأقطار الإسلامية منذ العصور الإسلامية الأولى ، وقد استخدم فى تسقيف هذا النوع من التخطيط إمّا القباب أو الأقبية ، أو الاثنين معًا ، وإمّا الأسقف الخشبية .

أمّا عن استخدام القباب العديدة فى التغطية ، فقد عرف هذا الاستخدام قبل العصر الإسلامى ، كما هو الحال فى العديد من العمائر الرومانية والبيزنطية فى القسطنطينية ، وروما ، ورافنا ، وبلاد الشام ، وليبيا ، وغير ذلك .

وقد استمر هذا الاستخدام خلال العصر الإسلامى ، ومن أمثلته الباقية التى تنتمى إلى هذا النوع من التخطيط مسجد بلخ ، ويؤرخ بالنصف الأول من القرن ٣ هـ / ٩ م ، وهو مقسم إلى ثلاثة أروقة تغطيها تسع قباب صغيرة متساوية (١) .

وقد انتشر هذا النوع من التخطيط فى العمارة العثمانية وهو الطراز المعروف باسم طراز بروسه الثانى ، والذى ظل مُستخدمًا حتى نهاية القرن ١١ هـ / ١٧ م ، ومن بين أمثلته الباقية نذكر كلًّا من : الجامع الكبير فى بروسّه (أو لو جامع) ١٣٩٦ – ١٤٠٠ م والجامع القديم (أو العتيق) فى أدرنة (اسكى جامع) ١٤٠٣ –

---

(١) Galombek (L.), Abbasid Mosque At Ballsh. Oriental Art, Xv/3, 1969, pp. 173-189.
Grabar (O.). The formation of Islamic Art, Yale University Press, third printing, 1978. P. 127. Fig. 39.

١٤١٤ م ، ويتقدم هذا الجامع رواق أو سقيفة تغطيها قبة فى الوسط ، تكتنفها من جانبيها أربعة أقبية متقاطعة ، بواقع قبوين من كل جانب .

ومنها جامع عتيق على باشا فى زنجرلى قويو باستانبول ١٤٩٧ م ، وجامع بيالى باشا فى استانبول ١٥٧٣ م ، ويمتاز هذا الجامع بوجود رواق يحيط به من ثلاث جهات ، عدا جهة القبلة ، وقد استخدم فى تغطية كل من الرواقين الجانبيين أقبية متقاطعة ، كما يلاحظ أن بيت الصلاة فى هذا الجامع مُغطًّى بست قباب متساوية ، فضلًا عن الأقبية المتقاطعة فى الجانبين [١] .

بقى أن نشير إلى أن مصر قد عرفت هذا النوع من التخطيط قبل العصر العثمانى بوقت طويل ، وترجع أقدم أمثلته الباقية إلى العصر الإخشيدى ، ويتمثل ذلك فى مشهد آل طباطبا (بعين الصيرة) ٣٣٤ هـ / ٩٤٥ م ، واستمر هذا النوع من التخطيط خلال العصر الفاطمى ، ومن أمثلته الباقية مشهد السبعة والسبعين وليًّا بأسوان ، وكذلك كان تخطيط المشهد القبلى بالشلال بأسوان (أشكال ٢٢ - ٢٤) [٢] - قبل اندثاره - وجامع الفيلة الذى كان مغطى بتسع قباب كما يذكر المقريزى فى خططه [٣] .

كذلك غُطيت كثير من الكنائس القبطية التى بُنيت خلال العصر الفاطمى بالقباب العديدة ، وقد استمر ذلك شائعًا حتى نهاية العصر العثمانى ، سواء فى بعض كنائس مصر القديمة أو كنائس الأديرة بالوجه القبلى [٤] .

---

(١) آصلان آبا : المرجع السابق ، ص ١٧٤ ، ١٨٠ ، ١٩٣ .

Goodwin, Op. Cit, PP. 54, 56, 277. Fig, 49, 50,264, Kuran, op. cit, pp. 151-159.

(٢) انظر ص ١١٣ من هذا البحث .

(٣) كان هذا الجامع يقع بالرصد (اصطبل عنتر حاليًا وما يجاوره) وقد أمر بإنشائه الأفضل شاهنشاه ابن بدر الجمالى فى سنة ٤٧٨ هـ / ١٠٨٥ م ، وقيل له جامع الفيلة « لأن فى قبلته تسع قباب فى أعلاه ذات قناطر ، إذا رآها الإنسان من بعيد شبهها بمدرعين على فيلة ، كالتى كانت تعمل فى المواكب أيام الأعياد وعليها السرير وفوقها المدرعون أيام الخلفاء .. » .

المقريزى : الخطط ، جـ ٢ ، ص ٢٨٩ .

(٤) مصطفى شيحة : دراسه للعمائر القبطية بصعيد مصر فى العصر الفاطمى « محافظة قنا » رسالة دكتوراه ، جامعة القاهرة ١٩٧٩ م ، ص ٢٦٧ ، دراسات فى العمارة والفنون القبطية ، القاهرة ١٩٨٨ م ، ص ١٧٥ .

ويُستفاد من خلال ما رواه (الجبرتى) فى حوادث ١٢١٥ هـ / ١٨٠٠ م أن المدرسة الجنبلاطية بباب النصر ربما كانت تنتمى إلى هذا النوع من التخطيط ، حيث يقول : « ومما هدمه الفرنسيون جامع الجنبلاطية بباب النصر ، وما كان به من القباب العظام المعقودة من الحجر المنحوت ، المربعة الأركان ، الشبيهة بالأهرام ، والمنارة العظيمة ذات الهلالين »[1] .

ومن أهم البلاد العربية التى انتشر فيها هذا النوع من التخطيط وتلك التغطية انتشارًا كبيرًا ليبيا ، وتحتفظ مدينه طرابلس بنماذج عديدة نذكر من بينها كُلًّا من : جامع محمود ، ومسجد الدباغ ، ومسجد الصقلانى ، وكل منها مغطى بأربع قباب ، وجامع الدروج ، ومسجد السراى الحمراء ، وكل منهما مغطى بتسع قباب ، وجامع شائب العين محمد باشا ١١١٠ هـ / ١٦٩٨ م ، وهو مغطى بست عشرة قبة ، وجامع مصطفى قورجى ١٢٤٩ - ١٢٥٠ هـ / ١٨٣٣ - ١٨٣٤ م ، وهو مغطى بست عشرة قبة أيضًا ، وجامع أحمد باشا القره مانلى ١١٥٠ - ١١٥١ هـ / ١٧٣٧ - ١٧٣٨ م ، وهو مغطى بخمس وعشرين قبة[2] .

أما جامع درغوت باشا والى طرابلس فيما بين ٩٦٤ - ٩٧١ هـ / ١٥٥٦ - ١٥٦٣ م ، فيعد من أهم الجوامع بتلك المدينة ، ويتميز بيت الصلاة فيه بتخطيطه على هيئة (حرف T) ويغطى بيت الصلاة اثنتان وثلاثون قبة[3] ، ويكاد يكون هو النموذج الوحيد ، المعروف لدينا حتى الآن ، الذى صُمم على هيئة (حرف T) وغُطى بهذا العدد الكبير من القباب المتساوية .

وفى العراق يقابلنا هذا النوع من التخطيط وتلك التغطية فى بعض العمائر ، سواء التى بُنيت قبل العصر العثمانى أو التى بنيت خلال ذلك العصر ، ومنها كل من : جامع الخفافين ، وجامع قمرية ، وكل منهما مغطى بست قباب ، وجامع العاقولى ،

---

(١) الجبرتى : عجائب الآثار ، جـ ٢ (طبعة دار الجيل) ص ٤٣٢ .

(٢) ميسانا (غاسبرى) : المعمار الإسلامى فى ليبيا ، ترجمه على الصادق حسنين ، طرابلس ١٩٧٣ م ، ص ١٨٤ - ٢٠٢ .

مسعود رمضان شقلوف (وآخرون) : موسوعه الآثار الإسلامية فى ليبيا ، جـ ١ ، طرابلس ١٩٨٠ م ص ٦٣ - ٨٠ ، ٩٢ - ١١٢ .

(٣) المرجع نفسه : ص ٦٠ - ٦٢ .

وهو مغطى بعشر قباب ، ومسجد « ذو الكفل » بمحافظة بابل ، وهو مغطى بثلاث عشرة قبة صغيرة [١] .

الزوايا : مفردها : زاوية وتعنى لغويًا ركن البناء ، لأنها جمعت بين قطرين منه ، وضمت ناحيتين [٢] . ومن ثم أطلق هذا اللفظ فى البداية على الحلقات العلمية بالجوامع الكبرى ، ومنها زوايا العلم بجامع عمرو بن العاص ، كزاوية الإمام الشافعى ، والزاوية المجدية ، والزواية الصاحبية وغيرها ، وقد أوقفت على هذه الزوايا بعض الأوقاف مما كان له أثره الكبير فى استمرارها فى أداء رسالتها العلمية [٣] . وتطورت الزوايا بعد ذلك لتصبح منشآت مستقلة ، لكل منها مصلى أو مسجد وأماكن للإقامة ، بالإضافة إلى الملحقات ، وكانت مسكنًا للصلحاء من الشيوخ ممن يشتهر أمرهم ، حيث يتجمع حولهم تلاميذهم ومريدوهم ، وهم غالبًا من الفقراء ، بالإضافة إلى العابرين وأبناء السبيل ، وكان شيخ الزاوية يتولى الوعظ والإرشاد لمن يتردد على الزاوية أو يقيم فيها .

وكانت بعض الزوايا تنشأ لأفراد من الصلحاء وتحمل أسماء ساكنيها أو منشئيها ، ومن أمثلة ذلك زاوية الشيخ خضر ، وزاوية ابن منظور ، وزاوية الحلاوى ، وزاوية نصر ، وزاوية الشريف مهدى ، وزاويه الركراكى ، وزاوية الجعبرى ، وزاوية المغربل ، وزاوية القصرى ، وزاوية الجاكى ، وزاوية الإيناسى ، وزاوية إبراهيم الصائغ ، وغير ذلك [٤] .

كذلك كانت هناك زوايا تخصص لطوائف معينة من الأغراب الذين كانوا يفدون إلى القاهرة كالأحباش ، والأعاجم ، وغيرهم ، ومن أمثلة ذلك زاوية الشيخ تقى الدين

---

(١) كاظم الجنابى : مسجد قمرية ، تخطيطه وعمرانه ، مجله سومر ، المجلد ٢٨ ، بغداد ١٩٧٢ م ، ص ١٨٧ - ١٩٢ .
عيسى سلمان : المرجع السابق ، جـ ١ ، ص ١٩٢ ، ٢٠٦ ، ٢٤٩ ، جـ ٢ ، ص ١٢١ .

(٢) إبراهيم مصطفى (وآخرون) : المعجم الوسيط ، جـ ١ القاهرة ١٩٦٠ م ، ص ٤١٠ ، دائرة المعارف الإسلامية المعربة : ماده زاوية .

(٣) المقريزى : الخطط ، جـ ٢ ، ص ٢٥٥ - ٢٥٦ .
محمد محمد أمين : الأوقاف والحياة الاجتماعية فى مصر ، جـ ١ ، القاهرة ١٩٨٠ م ، ص ٢٦٠ - ٢٦١ .

(٤) المقريزى : المصدر السابق ، ص ٤٣٠ - ٤٣٥ ،
توفيق الطويل : التصوف فى مصر إبان العصر العثمانى ، ص ٤٢ - ٤٣ .

رجب بن أشيرك التى أمر بإنشائها السلطان حسام الدين لاجين ٦٩٧ هـ / ١٢٩٧ م ، ووقفها على الفقراء أهل الطريق الأعاجم المنقطعين .

ومنها الزاوية المعروفة بقبة النصر ، وكان يسكنها فقراء الأعاجم أيضًا ، ومن هذه الزوايا فى العصر العثمانى زاوية حسن الرومى ، وقد خصصت لطائفة العجم ، واشترط الواقف أن يستقروا فيها على الدوام ، وإذا أراد أحد هؤلاء الأعاجم أن يخرج لطلب العلم على مشايخ الأزهر ، سُمِحَ له بذلك ، بحيث لا تفوته صلاة الظهر بالزاوية ، وكان الواقف قد أوقف هذه الزاوية مسجدًا لله تعالى تُقام فيه الصلوات الخمس المعهودة [(١)] .

وقد استخدمت بعض الزوايا كمسجد تُؤدَّى فيه الصلوات الخمس المفروضة ، ومنها زاوية الخدام التى كانت منزلا للخدام الأحباش ، وأصبحت مسجدًا له إمام ومؤذن وقومه ، ومنها أيضًا زاوية البراشمة التى كانت توجد بخط المصنع بالقلعة ، وغير ذلك [(٢)] .

ومن المعروف أن مساجد الصلوات الخمس كانت كثيرة ، سواء فى مصر [(٣)] أو فى القاهرة ، ويؤكد ذلك ما ذكره « القلقشندى » بقوله : « وأما مساجد الخمس فكانت على العدد الذى لا يُحصَى لكثرتها ، وخطط القضاعى شاهدة بذلك » .

ويضيف « القلقشندى » فيقول : « وأما مساجد الصلوات الخمس – بالقاهرة – فأكثر من أنْ تُحصَى وأعز من أن تستقصى ، بكل خططها مسجد أو مساجد ، لكل منها إمام راتب ومصلون » [(٤)] .

وقد انتشر هذا النوع من الزوايا التى تؤدى فيها الصلوات الخمس خلال العصر العثمانى ، ويؤكد ذلك ما ذكره « جومار » بقوله : « إن المساجد الصغيرة أو المصليات

---

(١) محمد حمزة : المرجع السابق ، ص ١٤٠ ، ١٤٦ .

(٢) دولت عبد الله : معاهد تزكية النفوس فى مصر فى العصر الأيوبى والمملوكى ، القاهرة ١٩٨٠ م ، ص ٥٦ – ٥٧ .

(٣) المراد بها : مصر القديمة أو الفسطاط .

(٤) القلقشندى (أبو العباس أحمد بن على) : صبح الأعشى فى صناعه الإنشاء ، جـ ٣ ، ص ٣٤٢ ، ٣٦٥ .

يُطلق عليها فى العموم اسم زاوية ، عددها ضخم جدًا ، حوالى مائة وستين ، كل هذه المبانى المخصصة للعبادة يتردد عليها كل يوم أهالى القاهرة بحماس وورع »[١] .

ومثل هذه الزوايا كانت لا تحتوى على منبر ولا مئذنة ، ومن ثم كان المؤذن يؤذن على بابها أو من شرفة تعلو مدخلها الرئيسى ، ولا يزال لفظ الزاوية يُطلق حتى الآن على المساجد الصغيرة أو المصليات فى جميع أنحاء مصر .

هذا ولم يتبق من الزوايا العديدة التى بُنيت فى القاهرة إبَّان العصر العثمانى سوى ست زوايا لا تزال محتفظة بمعالمها الأصلية إلى حد كبير ، وقد أوقفت هذه الزوايا الست كمساجد للصلوات الخمس المفروضة ، وهذه الزوايا هى : زاوية الشيخ حسن الرومى ٩٢٩ هـ / ١٥٢٣ م ، وزاوية الشيخ سعود ٩٣٥ هـ / ١٥٢٨ م ، وزاوية الشيخ ضرغام أوائل القرن ١٠ هـ / ١٦ م ، وزاوية الشيخ مرشد قبل ٩٤٠ هـ / ١٥٣٣ م ، وزاوية رضوان بيك (بالقربية) ١٠٣٧ هـ / ١٦٢٧ م ، وزاوية الأمير عبد الرحمن كتخدا (بالخيامية) ١١٦٨ - ١١٧٥ هـ / ١٧٥٤ - ١٧٦١ م .

ويستثنى من هذه الزوايا الست ، زاوية الشيخ حسن الرومى ، التى خُصصت - فضلًا عن كونها مسجدًا للصلوات الخمس - لطائفة العجم كما سبق القول ، ومن ثم تُعد هذه الزاوية استمرارًا لسلسلة الزوايا التى أُقيمت بالقاهرة خلال العصر المملوكى ، وخصصت لطائفة الأعاجم ، وقد سبقت الإشارة إلى بعض نماذج من تلك الزوايا .

أما عن تخطيط هذه الزوايا فهو لم يخرج عن النظام التخطيطى المألوف فى العمائر الدينية الأخرى ، سواء فى العصر المملوكى أو العصر العثمانى ، ويمكن أن نحصر تخطيطات تلك الزوايا الباقية فى ثلاثة أنواع رئيسية ، وذلك على النحو التالى :

النوع الأول : التخطيط ذو الأروقة دون الصحن أو الدرقاعة :

ونشاهد هذا التخطيط فى زاويتين فقط ، هما : زاوية حسن الرومى ٩٢٩ هـ / ١٥٢٣ م ، وزاوية رضوان بيك ١٠٣٧ هـ / ١٦٢٧ م (شكلا ٢٥ - ٢٦) .

---

(١) جومار (آدم فرنسوا) : وصف مدينة القاهرة وقلعة الجبل ، ترجمة أيمن فؤاد سيد ، القاهرة ١٩٨٨ م ، ص ١٩٣ .

وبالنسبة لتخطيط الزاوية الأولى ، فهى عبارة عن مساحة مستطيلة ٩٫٧٠ × ٩٫٢٢ م قُسمت بواسطة بائكة واحدة إلى رواقين موازيين لجدار القبلة ، وتتكون هذه البائكة من ثلاثة عقود نصف دائرية أوسطها أوسعها ، وترتكز هذه العقود على عمودين مستديرين من الجرانيت الوردى فى الوسط ، وعلى دعامتين بارزتين على كل من جدارى الضلعين الجانبيين ، هذا ويسقف كل رواق من رواق الزاوية قبة ضحلة فى الوسط ، يحيط بها من الجانبين قبوان طَوليّان نصف أسطوانيين ، وقد استطاع المعمار أن يقيم هاتين القبتين عن طريق بناء عقود عمودية على جدار القبلة ، وأخرى موازية لها ، وتحصر هذه العقود فيما بينها منطقة انتقال هاتين القبتين ، وهى عبارة عن أربعة مثلثات كروية ، بواقع مثلث فى كل ركن من الأركان الأربعة .

ويذكر بعض العلماء أن تخطيط هذه الزاوية يعد أحد الأنماط المعمارية الجديدة التى أدخلها العثمانيون فى العمارة المصرية ، وقد أطلق على هذا التخطيط اسم النمط الأناضولى . ويضيف فيذكر أن هذا التخطيط أصله بيزنطى ، ويتكون بيت الصلاة فيه من مستطيل مُغطّى فى أغلب الأحيان بقبتين متتاليتين موضوعتين على محور المحراب ، وتبرز نهاية المستطيل حيث توجد حنية المحراب فى خارج المنشأة ، ويوجد على جانبى بيت الصلاة مجنبتان تغطيهما قباب صغيرة ، وأحيانًا لا تغطى ، وأخيرًا يمتد بطول الواجهة رواق خارجى مغطى بقباب صغيرة (١) .

ومن الواضح أن هذا الوصف لا ينطبق على تخطيط زاوية حسن الرومى ، وإنما ينطبق على تخطيط آخر ، هو المعروف باسم طراز بروسه الثالث ، وقد سبقت الإشارة إليه .

وواقع الأمر أن تخطيط زاوية حسن الرومى متأثر بشكل مباشر بتخطيط مصلى المؤمنى (مسجد الغورى بأول شارع السيدة عائشة) ٩٠٩ هـ / ١٥٠٣ م ، القريب من هذه الزاوية ، ويتكون إيوان القبلة فى هذا المصلى من مساحة مستطيلة ١١٫٢٠ × ٨٫٩٠ م ، وقد قسمت هذه المساحة بواسطة بائكتين إلى رواقين ، بكل رواق منهما ثلاثة مربعات ، يغطى مربعات الرواق الأول – مما يلى جدار القبلة ، ثلاث

---

(١) Hautecoeur et Wiet, Op. Cit, p. 342.

ومن درس هذه الزاوية أيضًا على أنها من الطراز العثمانى الوافد الدكتور على المليجى فى رسالته للدكتوراه المشار إليها سابقًا ، ص ٣٠٢ – ٣٠٧ .

قبابٍ ضحلة مقامة على مثلثات كروية ، بواقع قبة فى الوسط تعلو المحراب وقُبتين جانبيتين ، أما مربعات الرواق الثانى فيغطى المربعَ الأوسط منهما على محور قبة المحراب قبةٌ ضحلة مقامة على مثلثات كروية ، فى حين يغطى المربعين الجانبيين من هذا الرواق أقْبِيَةٌ مروحيةٌ ، بواقع قبو مروحىّ لكل مربع .

ونضيف على ذلك فنذكر أن أسلوب التسقيف أو التغطية بقبة فى الوسط تكتنفها الأقبية – سواء كانت نصف أسطوانية أو متقاطعة أو مروحية من جانبيها – قد عرف فى مصر ، فى ضوء الأدلة الأثرية المتوفرة حتى الآن ، منذ العصر الفاطمى ، ويوجد أقدم مثل باق لهذا النوع من الأسقف فى مشهد الجيوشى ٤٧٨ هـ / ١٠٨٥ م ، حيث يسقف الرواق الأول فى بيت الصلاة مما يلى جدار القبلة ، قبه فى الوسط تعلو المحراب ، وهى مقامة على أربع حنايا ركنية كبيرة فى حين يسقف كُلَّ مربع من المربعين الجانبين قَبْوٌ متقاطع .

ومن الأمثلة التالية نذكر جامع الأمير « أق سنقر » الناصرى (الجامع الأزرق) ٧٤٧ – ٧٤٨ هـ / ١٣٤٦ – ١٣٤٧ م ، وينفرد هذا الجامع بين جوامع القاهرة بأن أروقته كلها كانت مسقوفة بأقبية متقاطعة ، ويستثنى من ذلك المربع الذى يتقدم المحراب (برواق القبلة) حيث تعلوه قبة مقامه على أربع حنايا ركنية كبيرة ، وتكتنف هذه القبة من جانبيها بطبيعة الحال الأقبية المتقاطعة .

ونذكر أيضًا إيوان القبلة بمدرسه الأمير قانيباى الرماح ٩٠٨ هـ / ١٥٠٢ م بالقلعة والقريبة أيضًا من مصلى المؤمنى ، وزاوية حسن الرومى ، ويسقف هذا الإيوان قبة ضحلة فى الوسط مقامة على أربعة مثلثات كروية ، ويكتنف هذه القبة من جانبيها قبوان نصف أسطوانيين .

أما عن مصدر هذا النوع من الأسقف فالراجح أنه بلاد الشام ، حيث شاع هذا النوع من التسقيف فى العديد من المدن ، وبخاصه مدينة حلب [١] .

أما بالنسبه لتخطيط زاوية رضوان بيك فهى عبارة عن مساحة مستطيلة ١٠٫٨٠ × ٧٫٨٠ م ، وقد قسمت هذه المساحة بواسطة بائكة واحدة إلى رواقين موازيين

---

(١) عبد القادر الريحاوى : العمارة العربية الإسلامية ، خصائصها وآثارها فى سورية ، دمشق ١٩٧٩ م ، ص ١٦٣ ، ١٨٢ – ١٨٣ .

لجدار القبلة ، وتتكون هذه الباتكة من كَمَرٍ خشبى يرتكز على عمود مستدير من الحجر الصوان ، تعلوه دعامة مستطيلة فى الوسط ، وعلى دعامتين بارزتين ملتصقتين بكل من جدارى الضلعين الجانبيين ، وهما الضلع الجنوبى الغربى والضلع الشمالى الشرقى المقابل له .

ومن الجوامع التى اتبعت هذا التخطيط كُلٌّ من جامع سيدى عقبة ، وجامع ذى الفقار بيك ، وجامع الشواذلية ، وقد سبقت الإشارة إليها ، وإلى تأصيل هذا النوع من التخطيط فيما قبل العصر العثمانى .

النوع الثانى : التخطيط ذو الإيوانات حول صحن أو درقاعة :

ونشاهد هذا النوع من التخطيط فى زاويتين فقط هما : زاويه الشيخ مرشد قبل ٩٤٠ هـ / ١٥٣٣ م ، وزاوية الشيخ ضرغام فى أوائل القرن ١٠ هـ / ١٦ م .

ويتكون تخطيط زاوية الشيخ مرشد من درقاعة مغطاة يتقدمها إيوان رئيسى واحد ، هو إيوان القبلة ، ويشرف عليها بعقد مدبب حدوة الفرس .

أما زاوية الشيخ ضرغام فيتكون تخطيطها من درقاعة وسطى يحيط بها إيوانان رئيسيان ، هما إيوان القبلة والإيوان الشمالى الغربى المقابل له ، وإذا كان إيوان القبلة يشرف على الدرقاعة بعقد مدبب فإن الإيوان الشمالى الغربى يشرف عليها من خلال كردين خشبيين تمتد فيما بينهما من أعلى مَعْبَرة خشبية .

وقد أشرنا سابقًا إلى نماذج الجوامع التى اتبعت هذا النوع من التخطيط ، مع تتبع أصول هذا التخطيط وتأصيله فيما قبل العصر العثمانى .

النوع الثالث : التخطيط على هيئة مربع تعلوه قبة (الزاوية القبة) :

يتكون هذا النوع من التخطيط من مساحة مربعة تعلوها قبة مقامة على حطات من المقرنصات ، ونشاهد هذا التخطيط فى نموذج فريد باق من العصر العثمانى ، وهو زاوية الشيخ سعود ٩٣٥ هـ / ١٥٢٨ م [1] ، (شكل ٢٧) .

---

(١) عن الدراسة التفصيلية لهذه الزاوية انظر : محمد حمزة : المرجع السابق ، ص ١٥٤ – ١٦٢ .

وعند تأصيل هذا النوع من التخطيط نجد أنه قد عُرف خلال العصر المملوكى ، وصُممت به بعض العمائر الدينية ، وبخاصه الزوايا والخانقاوات ، كما يتضح من خلال ما ورد فى المصادر التاريخية والوثائق المختلفة ، ومن أمثله ذلك الزاوية المعروفة بقبة النصر ، وخانقاه الأمير كافور الزمام بالقرافة ، والتى أطلق عليها فى الوثيقة اسم القبة الخانقاه (١) .

أما عن الأمثلة الباقية فمنها زاوية الأحمدية الرفاعية المعروفة بقبة معبد الرفاعى (٢) ، (تجاه خانقاه السلطان برسباى بقرافة المماليك) وزاوية الدمرداش بالعباسية (٣) .

وبعد فقد تحدثنا عن خمس زوايا ولم يبق سوى الزاوية السادسة ، وهى زاوية الأمير عبد الرحمٰن كتخدا بالخيامية ١١٦٨ - ١١٧٥ هـ / ١٧٥٤ - ١٧٦١ م ، التى لا تنتمى إلى أى نوع من أنواع التخطيطات السابقة ، حيث أنها عبارة عن مساحة مستطيلة ٦٫٣٢ × ٥٫٦٥م ، يتوسط صدرها المحراب ، وتوجد على يمينه خزانة حائطية (كتبية) وتوجد بالضلع الشمالى الغربى تجاه المحراب ثلاث دخلات ، تحوى كُلّ دخلة منها شباكًا مستطيلاً ذا مصبعات خشبية يشرف على الشارع الرئيسى (شكل ٢٨) .

---

(١) محمد حمزه إسماعيل الحداد : قرافة القاهرة فى عصر سلاطين المماليك (رساله ماجستير ، غير منشورة ، جامعة القاهرة ١٩٨٦ م) ، ص ١٢٢ ، ١٦٦ .

(٢) أمر بإنشائها السلطان الأشرف برسباى تجاه الخانقاه الخاص به بقرافة المماليك ، وقد وقف هذه القبة وما هو من حقوقها « زاوية ومسجدًا لله تعالى تُقام فيها الصلوات ، ويُعتكف فيها على العبادات ، وموطنًا للفقراء الأحمدية الرفاعية » .

محمد عبد الستار عثمان : الآثار المعمارية للسلطان الأشرف برسباى بمدينة القاهرة (رسالة ماجستير ، غير منشورة ، جامعة القاهرة ١٩٧٧ م) ص ٧٤ ، ١٨٨ - ١٩٠ .

وقد جدد هذه القبة الأمير يشبك ، من مهدى ٨٨٣ هـ / ٤٧٨ م ، وهى تشبه قبة كل من قصر القبة وقبة الفداوية .

سامى عبد الحليم : الأمير يشبك ، من مهدى وأعماله المعمارية بالقاهرة (رسالة ماجستير غير منشورة ، جامعة القاهرة ١٩٦٩ م) ص ١٤٥ - ١٦٧ .

(٣) بُنيت هذه القبة كزاوية للشيخ شمس الدين المحمدى الدمرداش الذى جاء من تبريز إلى القاهرة خلال عصر السلطان المملوكى الأشرف قايتباى ، وهى تشبه قباب الأمير يشبك من مهدى .

Abouseif (D.B), An Unlisted Monument of the Fifteenth century the Dome of Zawiayat Al-Damirdas, Annales Islamologiques, Tome XVII, I.F.A.O., Le Caire, 1982. PP. 105-115.

ويسقف هذه الزاوية سقف خشبى ذو براطيم تحصر فيما بينها مساحات غائرة ، وقد كان هذا السقف مزخرفاً بزخارف ملونة ومذهبة لا تزال بقاياها ظاهرة ، ويجرى أسفل هذا السقف إزار خشبى ذو زخارف ملونة ومذهّبة ، إلا أنها بحالة سيئة للغاية .

ولهذه الزاوية واجهة رائعة تحمل طابع عمائر الأمير عبد الرحمن كتخدا المنتشره فى شتى أرجاء القاهرة ، ولعل أبرز ما يميز هذه الزاوية تلك الشرفة الحجرية البارزة التى تعلو مدخلها فى الطرف الشمالى من الواجهة ، ويتوصل إلى هذه الشرفة من خلال باب صغير معقود بعقد موتور ، والراجح أن هذه الشرفة كانت تقوم مقام المئذنة فى الإعلان للأذان ، وهى بذلك تعد طريقة مبتكرة لم تُشاهَد فى غيرها من العمائر الدينية التى لا تزال باقية بمدينة القاهرة [١] .

المدارس : إن المدرسة ككيان معمارى تعد طرازًا مستحدثًا فى العمارة الإسلامية ، فلم يكن يعرف قبل القرن ٤ هـ / ١٠ م ، ثم لم يلبث أن انتشر فى أقطار العالم الإسلامى ، واتخذ فى كل قطر منها طابعًا معماريًا خاصًا بها .

ومما لا شك فيه أن إنشاء المدارس كان بداية عهد جديد فى تطور العمارة الإسلامية ، وبخاصة العمارة الدينية من جهة ، وفى ازدهار الحركة العلمية فى أقطار العالم الإسلامى من جهة أخرى .

وإذا كانت المدارس قد وجدت طريقها إلى مصر فى أواخر العصر الفاطمى غير أنه لم يُقَدَّر لها الانتشار إلا فى العصر الأيوبى ، حيث بلغ عدد المدارس المعروفة حتى الآن ، والتى شُيدت خلال ذلك العصر ، نحو ست وعشرين مدرسة ، منها ثلاث وعشرون مدرسة بالقاهرة وظواهرها ، ومدرستان بالفيوم ، ومدرسة واحدة بالإسكندرية .

ولم ينته عصر إنشاء المدارس بانتهاء الدولة الأيوبية ٦٤٨ هـ / ١٢٥٠ م ، فقد ورثت الدولتان المملوكيتان اللتان تعاقبتا على حكم مصر فيما بين ٦٤٨ – ٩٢٣ م / ١٢٥٠ – ١٥١٧ م الاهتمام بإنشاء المدارس ورعاية الحركة العلمية التى ازدهرت بشكل منقطع النظير ، وليس أدل على ذلك من كثرة ما خَلّفه علماء ذلك العصر

---

(١) حسن عبد الوهاب : التأثيرات العثمانية ، ص ٥٢ ، كمال الدين سامح : العمارة الإسلامية فى مصر ، القاهرة ١٩٧٠ ، ص ٥٨ ، ٩٣ .

من تراث ضخم فى مختلف العلوم والفنون ، نُشر بعضه ، وما زال أكثره مخطوطًا لم ير النور بعد .

ويكفى للدلالة على كثرة إنشاء المدارس فى ذلك العصر أن نشير إلى ما ذكره ابن بطوطة فى رحلته من أن المدارس بمصر « لا يحيط أحد بحصرها لكثرتها » (١) .

ويضيف القلقشندى فيذكر أنه بُنى بمدينة القاهرة من المدارس « ما ملأ الأخطاط وشحنها » (٢) .

كذلك تفيض المصادر التاريخيه المختلفة ووثائق الوقف المملوكية بذكر العديد من المدارس التى شيدت خلال ذلك العصر .

ومهما يكن من أمر فإنه لم يتبق من مدارس القاهرة المملوكيه سوى اثنين وخمسين مدرسه منها ثمان عشره مدرسة من عصر المماليك البحرية وأربع وثلاثين مدرسة من عصر المماليك الجراكسه أو البرجيه (٣) .

وقد توقفت حركة إنشاء المدارس خلال العصر العثمانى بدرجة كبيرة ، فالمعروف من هذه المدارس حتى الآن ، نحو خمس مدارس ، لم يتبق منها سوى مدرستين ، هما : المدرسة السليمانية بالسروجية ٩٥٠ هـ / ١٥٤٣ م ، والمدرسة المحمودية (بشارع بورسعيد) ١١٦٤ هـ / ١٧٥٠ م .

أما المدارس الثلاث أخرى فقد اندثرت اثنتان منها ، وهما : مدرسة إسماعيل باشا الوزير (٤)

---

(١) ابن بطوطة (محمد بن عبد الله) ت ٧٧٩ هـ / ١٣٧٧ م

الرحلة (تحفه النظار فى غرائب الأمصار وعجائب الأسفار) بيروت ، بدون تاريخ ص ٣٣ .

(٢) القلقشندى (أبو العباس أحمد بن على) ت ٨٢١ هـ / ١٤١٨ م .

صبح الأعشى فى صناعة الإنشا ، جـ ٣ ، ص ٣٦٨ .

(٣) أفردت لهذه المدارس دراسة مستقلة مستفيضة قدمت إلى ندوة المدارس فى مصر الإسلامية ، والتى عُقدت بمقر الجمعية المصرية للدراسات التاريخية فيما بين ٢٢ – ٢٥ أبريل ١٩٩١ م ، وعنوان هذه الدراسة هو : « العلاقة بين النص التأسيسى والوظيفة والتخطيط المعمارى لمدارس القاهرة إبان العصر المملوكى » وقد ألقى هذا البحث مساء يوم الثلاثاء ٢٣ أبريل ١٩٩١ م . وقد نشرت هذه الندوة ضمن سلسلة تاريخ المصريين – العدد ٥١ – القاهرة ١٩٩٢ م .

(٤) كانت هذه المدرسة بجوار ديوان قايتباى بالقلعة الذى لا تزال بعض أجزائه باقية أسفل قصر الجوهرة ، وقد أمر بإنشائها إسماعيل باشا الوزير الذى تولى حكم مصر فيما بين ١١٠٧ – ١١٠٩ هـ / ١٦٩٥ – ١٦٩٧ م ، ورتَّب فيها عددًا من المدرسين والطلبة والقراء ، وخصص لهم جوامك وجرايات . =

(بالقلعة) ، ومدرسة الحاج مصطفى بن عبد الله (بسويقه العزى) [١] .

وبالنسبه للمدرسة الثالثة – وهى المدرسة السنانية [٢] بالصنادقية بالأزهر – فقد جُددت تمامًا ، وتعرف الآن بزاوية كوسه سنان .

على أن هذا لا يعنى أن الحركة العلمية والفكرية قد توقفت خلال العصر العثمانى ، فمن جهة استمرت مدارس القاهرة التى شُيدت قبل العصر العثمانى تؤدى رسالتها على خير وجه ، فضلًا عن العديد من الجوامع ، ومن أهمها الجامع الأزهر الذى صار بحق دعامة الحركة الفكرية والعلمية خلال ذلك العصر ، ومن جهة ثانية رُتبت الدروس المختلفة فى الجوامع والزوايا التى شُيدت فى العصر العثمانى بمدينة القاهرة ، ومن أمثلتها كل من جامع إسكندر باشا ((مندثر) وجامع ميرزه (ببولاق) وجامع الكردى (بسويقه اللالا) وجامع عثمان كتخدا المعروف بجامع الكيخيا ، وجامع الفكهانى ، وجامع الشيخ مطهر ، وجامع الغريب ، وجامع الشواذلية ، وجامع الحفنى (مندثر الآن) وجامع محمود محرم ، والمشهد الحسينى ، وجامع محمد بك أبو الدهب ، وغير ذلك [٣] .

- ابن الوكيل : تحفه الأحباب ، ص ٢١٦ – ٢١٧ .
ابن عبد الغنى : أوضح الإشارات ، ص ١٩٨ – ١٩٩ .
على باشا مبارك : الخطط التوفيقية ، جـ ٦ ، ص ٢ – ٣ .

(١) كانت هذه المدرسة تقع داخل درب الهنود بخط سويقة العزى ، ويتضح من خلال ماورد فى الوثيقة أنها كانت مصممة وفق الطراز العثمانى الوافد ، حيث كانت تشتمل على إيوان واحد ، وخلاوى الطلبه ، وحجرات للعاملين بها ، فضلا عن أنها تخلو من المئذنة والمنبر ، أى أنها كانت تشبه – مع بعض الاختلاف فى التفاصيل – كلًّا من المدرسة السليمانية (بالسروجية) السابقة لها ، والمدرسة المحمودية (بشارع بورسعيد) اللاحقة عليها .
موفت عيسى : الطراز العثمانى فى منشآت التعليم بالقاهرة ، ص ٢٧١ – ٢٨٠ .

(٢) أمر بإنشاء هذه المدرسة سنان باشا والى مصر ، السابق الإشارة إليه (حاشية ٥ ص ١٢٤ من هذا البحث) وقد قام بالتدريس بها عدد كبير من الشيوخ والعلماء ورد ذكرهم فى المصادر التاريخية .
ابن عبد الغنى : المصدر السابق ، ص ١١٨ .
الجبرتى : عجائب الآثار ، جـ ١ ، ص ٢٢٠ ، ٣٠٩ ، جـ ٢ ، ص ٤ ، ٢٦٣ ، جـ ٤ ، ص ١٦٠ .
على مبارك : المصدر السابق ، جـ ٢ ، ص ٢٤٥ .

(٣) حجة وقف مصطفى جوربجى ميرزه (أوقاف رقم ٥٣٥) ،
حجتا وقف عبد الرحمن كتخدا (أوقاف رقم ٩٤٠ – ٩٤١) ،
الجبرتى : المصدر السابق ، (ط دار الجيل) جـ ١ ص ٤٨٢ – ٤٨٤ ، ٥١٥ ، جـ ١ ص ٢٣٢ – ٢٣٣ ، ص ٤٨٢ – ٤٨٤ ، ٥١٥ ، جـ ٢ ، ص ١٦٢ ، ٢٧٨ .
محمد حمزة الحداد : الطراز المصرى ، ص ٣٠ ، ٣٧٤ .

ولم يقتصر الأمر على مدينة القاهرة فحسب ، وإنما امتد النشاط العلمى والدينى إلى المدن المصرية المختلفة ، سواء فى الوجه البحرى – مثل المحلة الكبرى ، وطنطا ، ودسوق ، والإسكندرية ، ودمياط ، ورشيد ، وفوه ، وغيرها – أو فى الوجه القبلى – مثل الفيوم ، وجرجا ، وطهطا ، وأسيوط ، وفرشوط ، وغير ذلك (١) .

وتزخر المصادر التاريخية المختلفة بإشارات كثيرة تلقى الضوء على جوانب النشاط الدينى والعلمى الذى شهدته مصر العثمانية ، وننوه فى هذا الصدد بأهمية كتب التراجم والطبقات (٢) من جهة ، وكتب الرحالة (٣) من جهة أخرى ، فضلاً عن الوثائق العديدة التى تعج بها دور المحفوظات المختلفة ، سواء فى القاهرة أو فى المدن المصرية الأخرى .

هذا وقد صُممت المدرستان الباقيتان بمدينة القاهرة ، وهما المدرسة السليمانية (بالسروجية) (شكل ٢٩) (٩٥٠ هـ / ١٥٤٣ م ، والمدرسة المحمودية (بشارع بورسعيد) ١١٦٤ هـ / ١٧٥٠ م ، (شكل ٣٠) وفق الطراز العثمانى الوافد ، سواء من حيث تخطيطهما المعمارى ، أو من حيث بعض عناصرهما المعمارية ، أو من حيث خلوهما من وجود المئذنة والمنبر ودكّة المُبَلِّغ أو المؤذن ، كما هو الحال فى معظم المدارس المصرية ، على أن هذا لا يعنى عدم وجود صبغة محلية خاصة فى كلتيهما .

---

(١) عبد الله عزباوى : الحركة الفكرية فى مصر فى القرن الثامن عشر ، رسالة دكتوراه غير منشورة ، جامعة عين شمس ، ١٩٧٦ م ، ص ٦ – ١٦ .

(٢) نذكر من بين هذه الكتب كلّاً من :

الغزى (نجم الدين) : الكواكب السائرة بأعيان المئة العاشرة ،

الشعرانى (عبد الوهاب) : الطبقات الكبرى ، والطبقات الصغرى ، والمفاخر والمآثر فى تراجم علماء القرن العاشر .

الحموى (مصطفى) : فوائد الارتحال ونتائج السفر فى أخبار القرن الحادى عشر (مخطوطة) ،

المحبى (محمد) : خلاصة الأثر فى أعيان القرن الحادى عشر .

ابن العماد : شذرات الذهب فى أخبار من ذهب .

الأرميونى : وفيات القرن الحادى عشر (مخطوطة) .

المناوى (عبد الرءوف) : الكواكب الدرية فى تراجم السادة الصوفية .

المرادى : سلك الدرر فى أعيان القرن الثانى عشر .

الجبرتى : عجائب الآثار فى التراجم والأخبار .

(٣) نخص بالذكر من بين هذه الكتب كلّاً من : رحلة العياشى ، ورحلة عبد الغنى النابلسى ، ورحلة الورثيلانى ، والرحّالة التركى أولياجلبى .

ويتكون تخطيط هاتين المدرستين فى جوهره من صحن أوسط مكشوف ، تحيط به أربعة أروقة مغطاة بقباب ضحلة ، بواقع رواق بكل جانب يشرف على الصحن من خلال بائكة ذات ثلاثة عقود نصف دائرية فى المدرسة السليمانية ، وخمسه عقود نصف دائرية فى المدرسة المحمودية ، ويُستثنى من ذلك عقود بائكة الرواق الجنوبى الشرقى فى هذه المدرسة الأخيرة ، حيث حلت واجهة المسجد محل عقدين من عقود هذه البائكة .

ويتوسط الرواق الجنوبى الشرقى فى المدرسة السليمانية إيوان القبلة ، أما فى المدرسة المحمودية فقد حَلَّ محل هذا الإيوان مسجدٌ صغير ، عبارة عن حجرة مسقوفه بسقف خشبى يتوسط صدرها المحراب ، ولهذا المسجد مدخل مستقل خاص به يتوسط الرواق الجنوبى الشرقى .

هذا وتشغل الأضلاع الداخلية للأروقة خلاوى الطلبة ، وهى عبارة عن حجرات صغيرة مربعة مُغَطَّاة بقباب ضحلة ، وبينما تشغل هذه الخلاوى الأضلاع الأربعة فى المدرسة السليمانية نجد أنها تشغل ثلاثة أضلاع فقط فى المدرسة المحمودية ، وهى كل من الضلع الجنوبى الغربى ، والضلع الشمالى الغربى ، والضلع الشمالى الشرقى .

وتجدر الإشارة إلى أن المدرسة السليمانية تتميز بوجود إيوان يتوسط الرواق الشمالى الغربى ، وهو يقابل إيوان القبلة ويماثله ، إلَّا أنه يُعد بمثابة عنصر اتصال وحركة بين داخل المدرسة وخارجها ، حيث أن أرضية هذا الإيوان ماهى إلا امتداد طبيعى لدركاه المدخل الرئيسى للمدرسة .

وعند تأصيل هذا الطراز المعمارى لمدارس القاهرة العثمانية نجد أنه قد عُرف فى العمارة العثمانية ، وانتشر فى العديد من المدن التركية ، مثل أزنيق ، وبروسة ، وأدرنة ، واستانبول ، وغيرها .

ونستطيع أن نحصر نماذج هذا الطراز فى ثلاثة أنماط ، وذلك على النحو التالى :

النمط الأول : وهو عبارة عن صحن أوسط تحيط به ثلاثة أروقة مغطاة بقباب ضحلة ، بواقع رواق بكل جانب يشرف على الصحن من خلال بائكة ، وتشغل الأضلاع الداخلية لهذه الأروقة خلاوى الطلبة ، وهى عبارة عن حجرات مربعة مغطاة

بقباب ضحلة ، وتشغل هذه الخلاوى ثلاثة أضلاع فقط ، ويحوى هذا النمط أيوانًا واحدًا مُغطًى بقبة ، إما أن يتوسط خلاوى الطلبة – كما هو الحال فى كل من مدرسة سليمان باشا بأزنيق ١٣٣٦ م ، ومدرسة إسحاق باشا فى أينه كول ١٤٨٢ م (١) – وإما أن يتوسط الإيوان الضلع الرابع للصحن ، وهو الضلع الذى يخلو من وجود الرواق الرابع وخلاوى الطلبة – كما هو الحال فى كل من مدرسة بايزيد الأول ضمن مجمعه فى بروسه ١٣٩٠ – ١٣٨٥ م ، والمدرسه الخضراء فى بروسه ١٤٢١ م ، وبعض مدارس السلطان محمد الفاتح بمجمعه باستانبول ١٤٦٢ – ١٤٧٠ م ، وبعض مدارس السلطان سليمان القانونى بمجمعه باستانبول ١٥٥٠ – ١٥٥٧ م ، وغير ذلك (٢) .

النمط الثانى : وهو عبارة عن صحن أوسط تحيط به أربعة أروقة ، بواقع رواق بكل جانب يشرف على الصحن من خلال بائكة ، وتمتد خلاوى الطلبة خلف رواقين فقط من هذه الأروقة ، أى أنها تشغل ضلعين من أضلاع الصحن ، ويشغل الإيوان الضلع الثالث للصحن ، أما الضلع الرابع والأخير فيحتوى على باب الدخول للمدرسة ، فضلًا عن عدة شبابيك ، ويتجلى هذا النمط بوضوح فى المدرسه السليمية ضمن مجمع السلطان سليم الثانى بأدرنه ١٥٦٩ – ١٥٧٤ م ، فضلاً عن دار القراء بنفس المجمع أيضًا (٣) .

النمط الثالث : وهو عبارة عن صحن أوسط تحيط به أربعة أروقة ، بواقع رواق بكل جانب يشرف على الصحن من خلال بائكة ، وتشغل خلاوى الطلبة الأضلاع الداخلية لهذه الأروقة الأربعة ، ويتوسط أحد هذه الأروقة إيوانٌ أو حجرة مربعة مغطاة بقبة ، ومن أمثلة ذلك كل من مدرسة السلطان بايزيد الثانى ضمن مجمعه بأدرنة ١٤٨٤ – ١٤٨٨ م ، وبعض مدارس السلطان سليمان القانونى بمجمعه باستانبول ١٥٥٠ – ١٥٥٧ م ، إلا أن الأروقه مغطاة بأقبية متقاطعة (٤) .

---

(١) Goodwin, Op. Cit. PP. 39, 116, Fig, 31, 108.

(٢) Ibid. PP. 47, 69, 128, 217, Fig. 42, 62, 119, 208.

(٣) Ibid. P. 262, Fig. 250.

(٤) Ibid. PP. 146, 217, Fig. 135, 208.

أما مدرسه سوكلو محمد باشا باستانبول ٩٧٩ هـ / ١٥٧١ م فهى وإن كانت تنتمى إلى مدارس النمط الأول ، وخاصة مدرسة إسحاق باشا ، إلا أنها تنفرد عن غيرها من المدارس العثمانية بميزة هامة ، وهى أنها مندمجة مع كيان الجامع ، يفصل بينهما فقط الفناء الأوسط المكشوف الذى يتوسطه الشاذروان ، والذى يمكن اعتباره - أى الفناء المكشوف - صحنًا للمدرسة وحرمًا للجامع فى ذات الوقت ، وتلتف حول هذا الصحن أربعة أروقه مغطاة بقباب ضحلة ، الرواق الجنوبى منها يُعد بمثابة سقيفه الجامع التى تتقدمه ، ويتوسطها باب الدخول إليه ، أما الأروقة الثلاثة الأخرى فتشغل أضلاعها الداخلية حجرات الطلبة ، ويبلغ عددها نحو ست عشرة خلوة مغطاة بقباب ضحلة ، ويتوسط خلاوى الرواق الشمالى إيوان أو حجرة مربعة مغطاة بقبة [١] .

كذلك فقد عُرِفَ هذا الطراز المعمارى فى بعض البلاد العربية ، نذكر من بينها سوريا ، ومن الأمثلة الباقية : التكية السليمانية [٢] بدمشق ٩٦٢ - ٩٦٧ هـ / ١٥٥٤ - ١٥٥٩ م ، والمدرسة السليمانية [٣] المجاورة للتكية المذكورة ، وتؤرخ بسنة ٩٧٤ هـ / ١٥٦٦ م .

---

(١) عن الدراسة التفصيلية لمجموعة سوكلو محمد باشا المعمارية باستانبول انظر :

Kuban (D.), An Ottoman building complex of the sixteenth century: the sokollu Mosque and its dependencies in Istanbul. Ars Orientalis, Vol. 7 University of Michigan, 1968. PP. 19-39.

(٢) أمر بإنشائها السلطان سليمان القانونى ، ويتكون تخطيطها من صحن أوسط مكشوف محاط بأروقة مسقوفة بالقباب ، ويقسمها المحور الممتد بين البابين الشرقى والغربى إلى قسمين : جنوبى ، ويحتوى على جامع يتوسط الضلع الجنوبى ، فى حين يحتوى كل من الضلعين الجانبين الشرقى والغربى على ست خلاوٍ ، بكل ضلع يتقدمها رواق مغطى بقباب يشرف على الصحن من خلال بائكة ، أما القسم الشمالى فيحتوى على مطبخ ومستودعات فى الوسط وقاعتين كبيرتين فى الطرفين الشرقى والغربى .

سليم عادل عبد الحق ، وخالد معاذ : مشاهد دمشق الأثرية ، دمشق ١٩٥٠ م ، ص ٦٧ ، ٦٨ .

عبد القادر الريحاوى : الأبنية الأثرية بدمشق ١ : التكية والمدرسة السليمانيتان بدمشق (الحوليات الأثرية السورية - مج ٧ - جـ ١ - ٢ - دمشق ١٩٥٧ م) ص ١٢٦ .

(٣) تقع هذهالمدرسة إلى الشرق من التكية ، وتبعد عنها بحوالى ١٥ م ، ويتكون تخطيطها من صحن أوسط مكشوف تحيط به أروقة مسقوفة بقباب ، تمتد خلفها خلاوى الطلبة ، ويتوسط الضلع الجنوبى مسجد ، عبارة عن حجرة مربعة مغطاة بقبة كبيرة .

الريحاوى : المرجع نفسه ، ص ١٢٧ - ١٢٨ .

ومن البلاد العربية الأخرى ليبيا ، وتحتفظ مدينة طرابلس بنموذج باق يرجع إلى العصر العثمانى الأول (٩٥٩ - ١١٢٣ هـ / ١٥٥١ - ١٧١١ م) وهو مدرسه عثمان باشا [١] ١٠٦٤ هـ / ١٦٥٣ م التى اتخذت أنموذجًا نُسج على منواله فى تخطيط المدارس اللاحقه ، مثل مدرسة أحمد باشا القرمانلى ١١٥٠ - ١١٥١ هـ / ١٧٣٧ - ١٧٣٨ م [٢] ، ومدرسة قورجى ١٢٤٩ - ١٢٥٠ هـ / ١٨٣٣ - ١٨٣٤ م [٣] .

* * *

---

(١) تعد من المدارس الشهيرة بطرابلس ، وقد أمر بإنشائها عثمان باشا الساقزلى ، والى طرابلس فيما بين ١٠٥٩ - ١٠٨٣ هـ / ١٦٤٩ - ١٦٧٢ م ، ويتكون تخطيط هذه المدرسة من صحن أوسط مكشوف تحيط به أربعة أروقة مقبية ، بواقع رواق بكل جانب ، يشرف على الصحن من خلال بائكة ذات ثلاثة عقود نصف دائرية ، وتوجد خلف هذه الأروقة خلاوى الطلبة ، وهى عباره عن حجرات صغيرة مقبية أيضًا ، ويلاحظ أن مسجد المدرسة لا يتوسط أحد الأروقه وحجرات الطلبة كما هو الحال فى النماذج المصرية والعثمانية ، وإنما يشغل ركن المدرسة ، وهو عبارة عن حجرة مربعة مغطاة بقبة ، ويلاصق المسجد مدفن المنشىء ، وهو مغطى بقبة تماثل قبه المسجد .

مسعود رمضان شقلوف : موسوعه الآثار الإسلامية فى ليبيا ، جـ ١ ، ص ٨١ - ٨٥ .

(٢) أمر بإنشاء هذه المدرسة أحمد باشا القرمانلى مؤسس القرمانلية التى أعقبت العصر العثمانى الأول ، وتقع ضمن مجموعة معمارية تضم جامعا ومدرسة وتربة ، وقد تحدثنا من قبل عن تخطيط الجامع ، أما المدرسة فيشبه تخطيطها مدرسة عثمان باشا مع بعض الاختلاف فى العناصر والتفاصيل .

ميسانا : المعمار الإسلامى فى ليبيا ، ص ١٨٤ - ١٩٤ .

مسعود رمضان : المرجع السابق ، ص ٩٨ - ١٠٧ .

(٣) أمر بإنشاء هذه المدرسة مصطفى قورجى ، الذى كان يشغل المنصب الأكبر فى البحرية ، وقد صار فيما بعد صهرًا ليوسف باشا القرمانلى ، وأحد ثقاته ، وتقع هذه المدرسة ضمن مجموعة معمارية تضم أيضًا جامعًا وتربة ، ويكاد يماثل تخطيط المدرسة مثيله فى مدرسة أحمد باشا القرمانلى .

ميسانا : المرجع السابق ، ص ١٩٤ - ٢٠٢ .

مسعود رمضان : المرجع السابق ، ص ١٠٨ - ١١٢ .

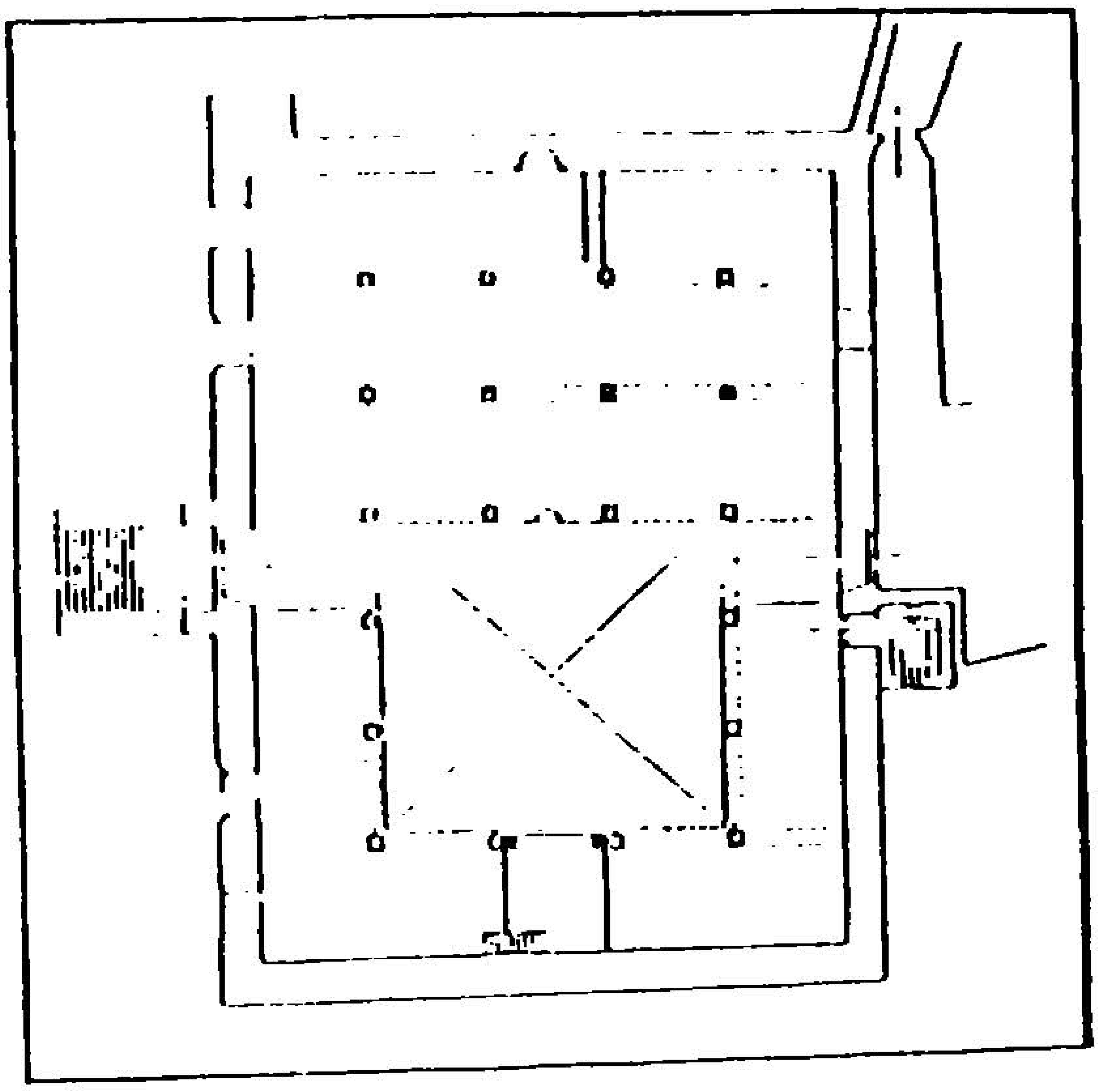

شكل (١) : المسقط الأفقى لجامع عثمان كتخدا (الكخيا)

(عن : حسن عبد الوهاب)

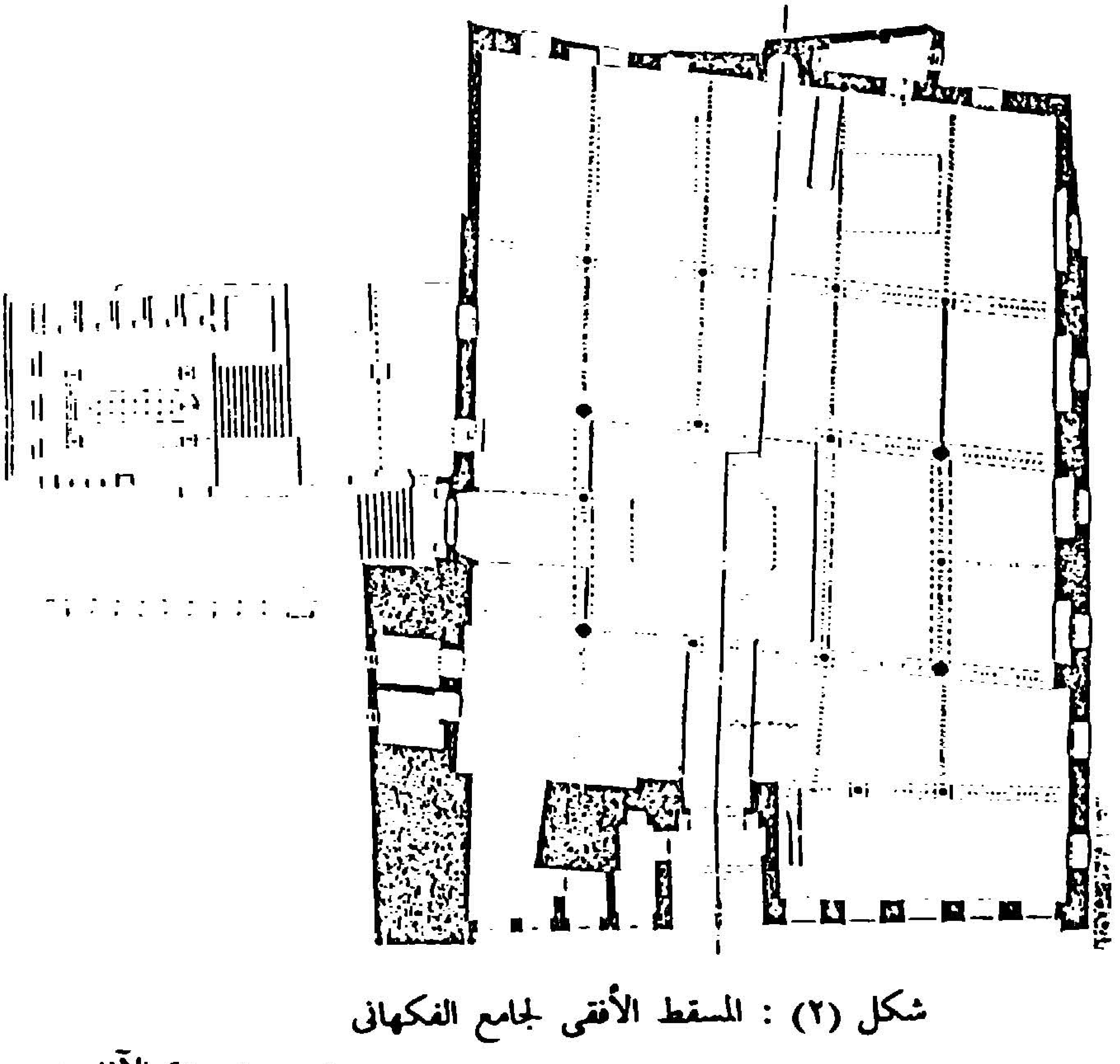

شكل (٢) : المسقط الأفقى لجامع الفكهانى

(عن : هيئة الآثار)

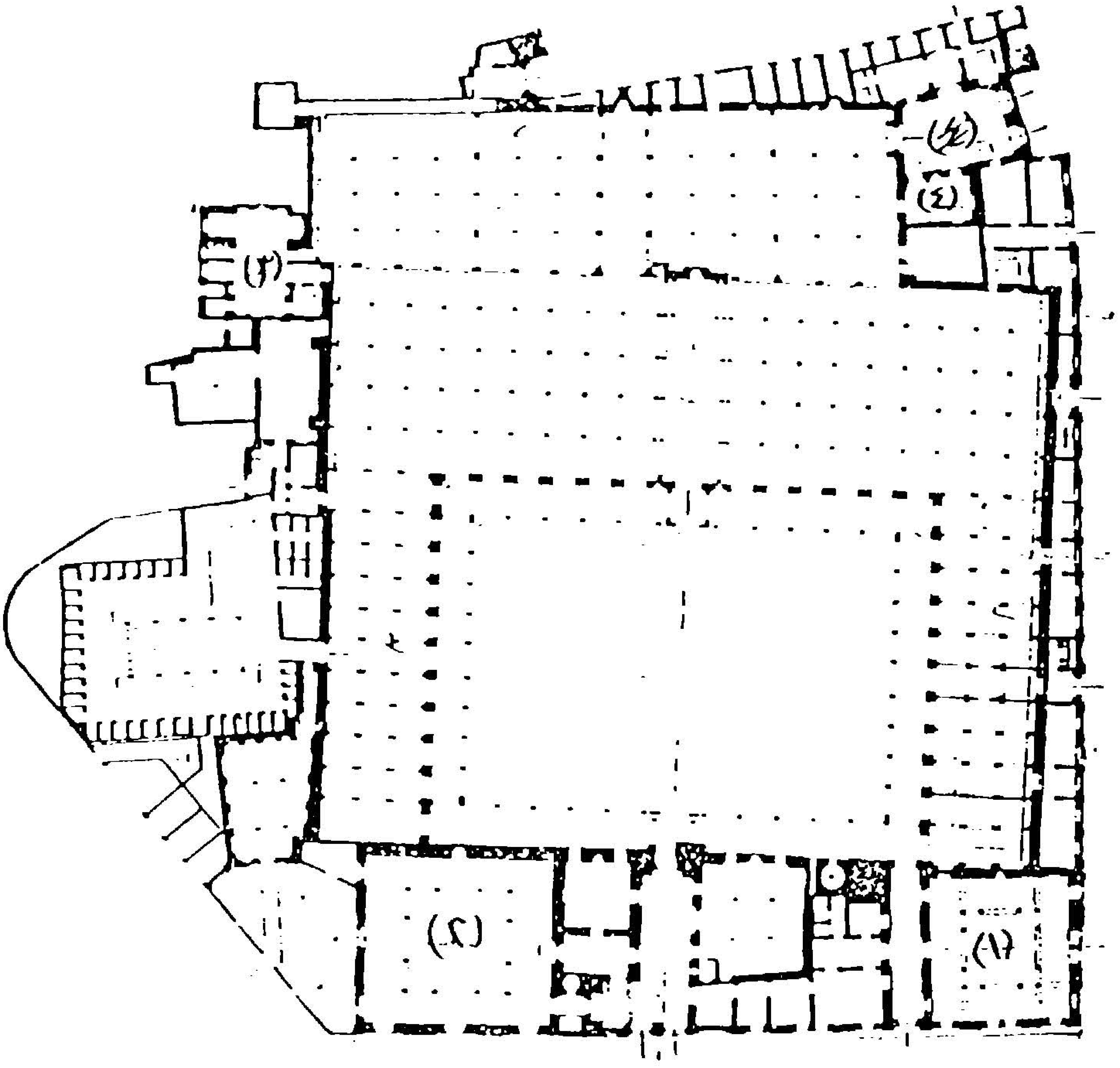

شكل (٣) : المسقط الأفقى لجامع الأزهر

١ – المسقط الأفقى للمدرسة الطيبرسية

٢ – المسقط الأفقى للمدرسة الأقبغاوية

٣ – المسقط الأفقى للمدرسة الجوهرية

٤ – المسقط الأفقى لمدفن الأمير عبد الرحمن كتخدا

(عن : حسن عبد الوهاب)

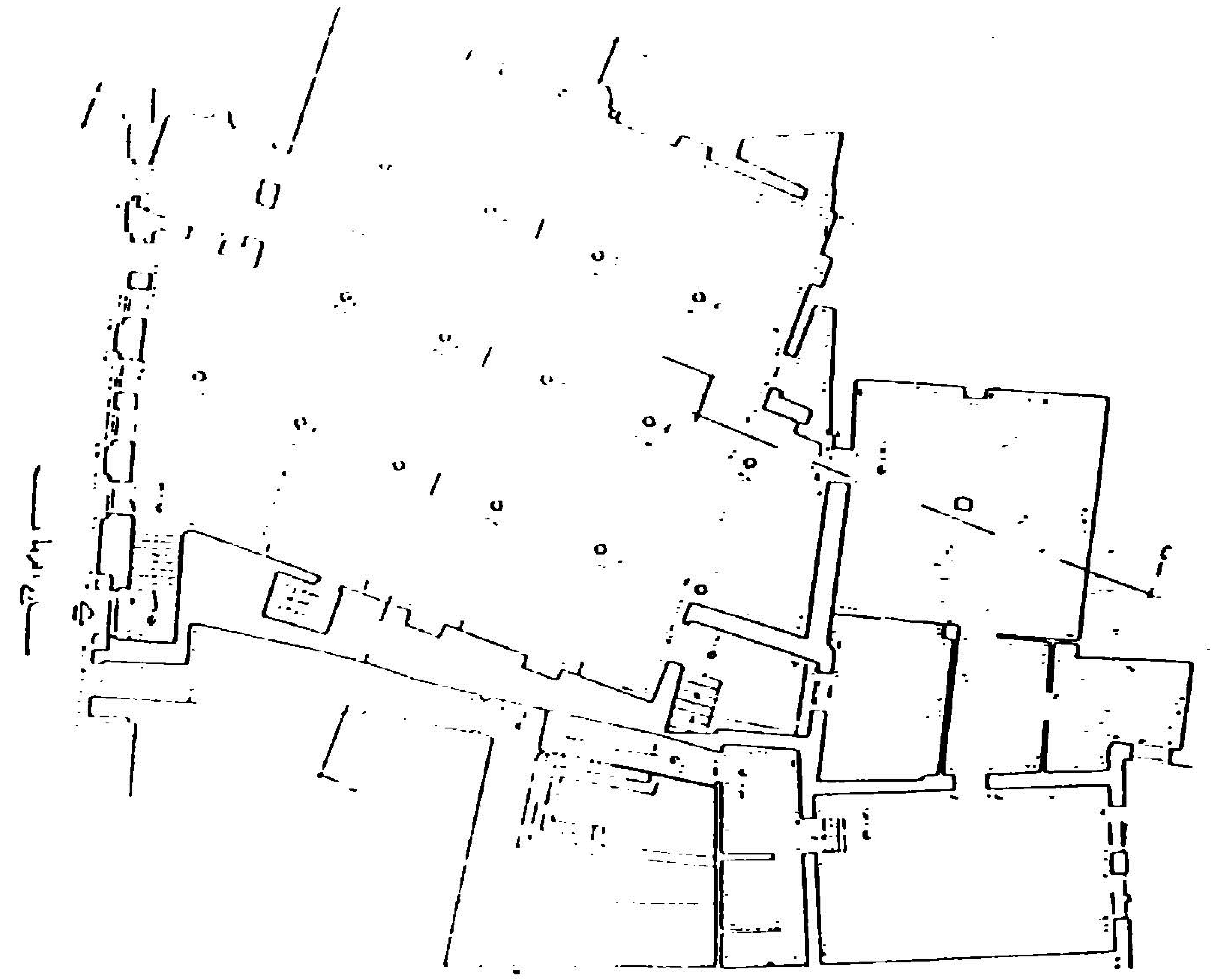

شكل (٤) : المسقط الأفقى لجامع العريان

(عن : هيئة الآثار)

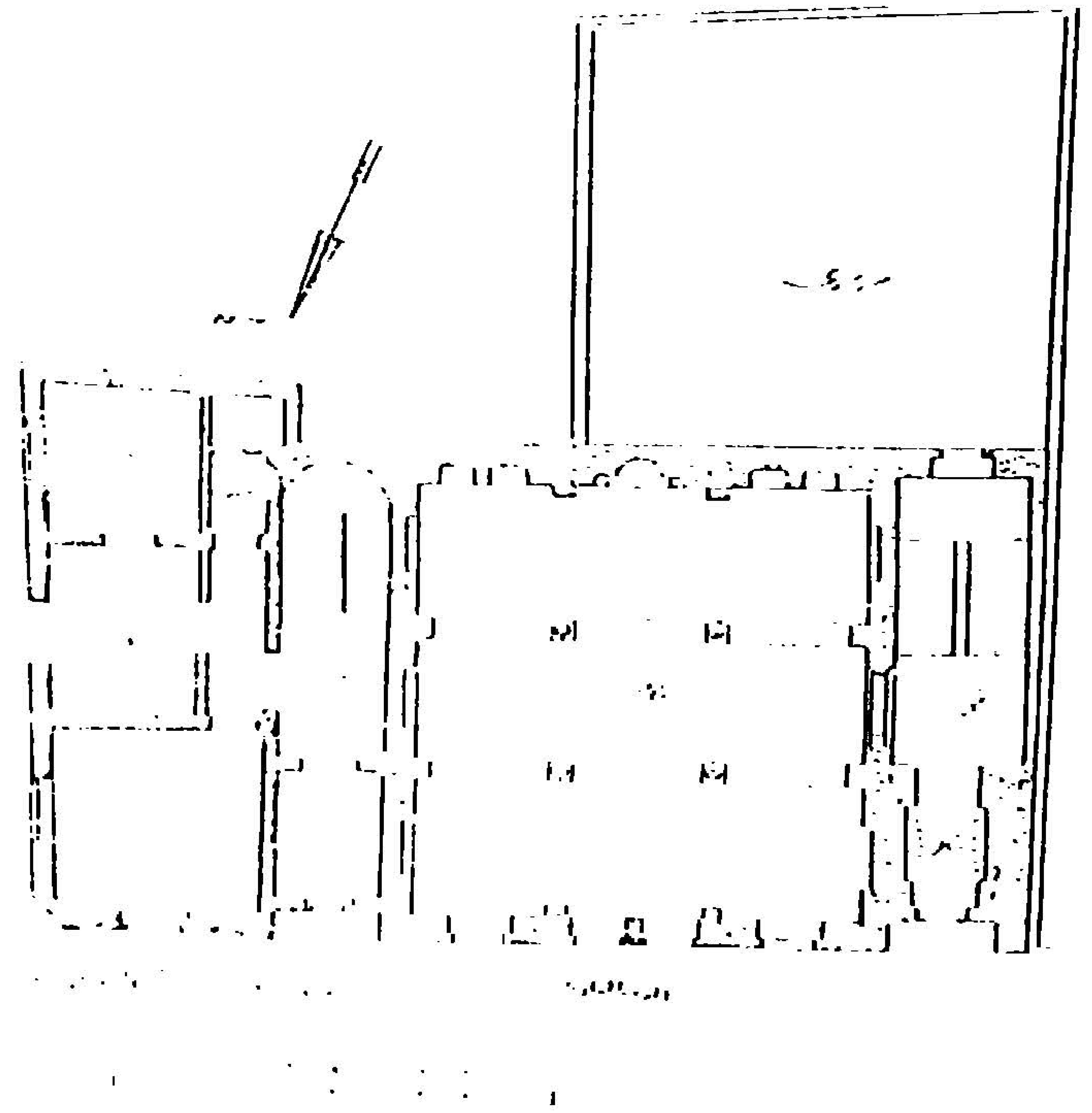

شكل (٥) : المسقط الأفقى لجامع مراد باشا

(عن : هيئة الآثار)

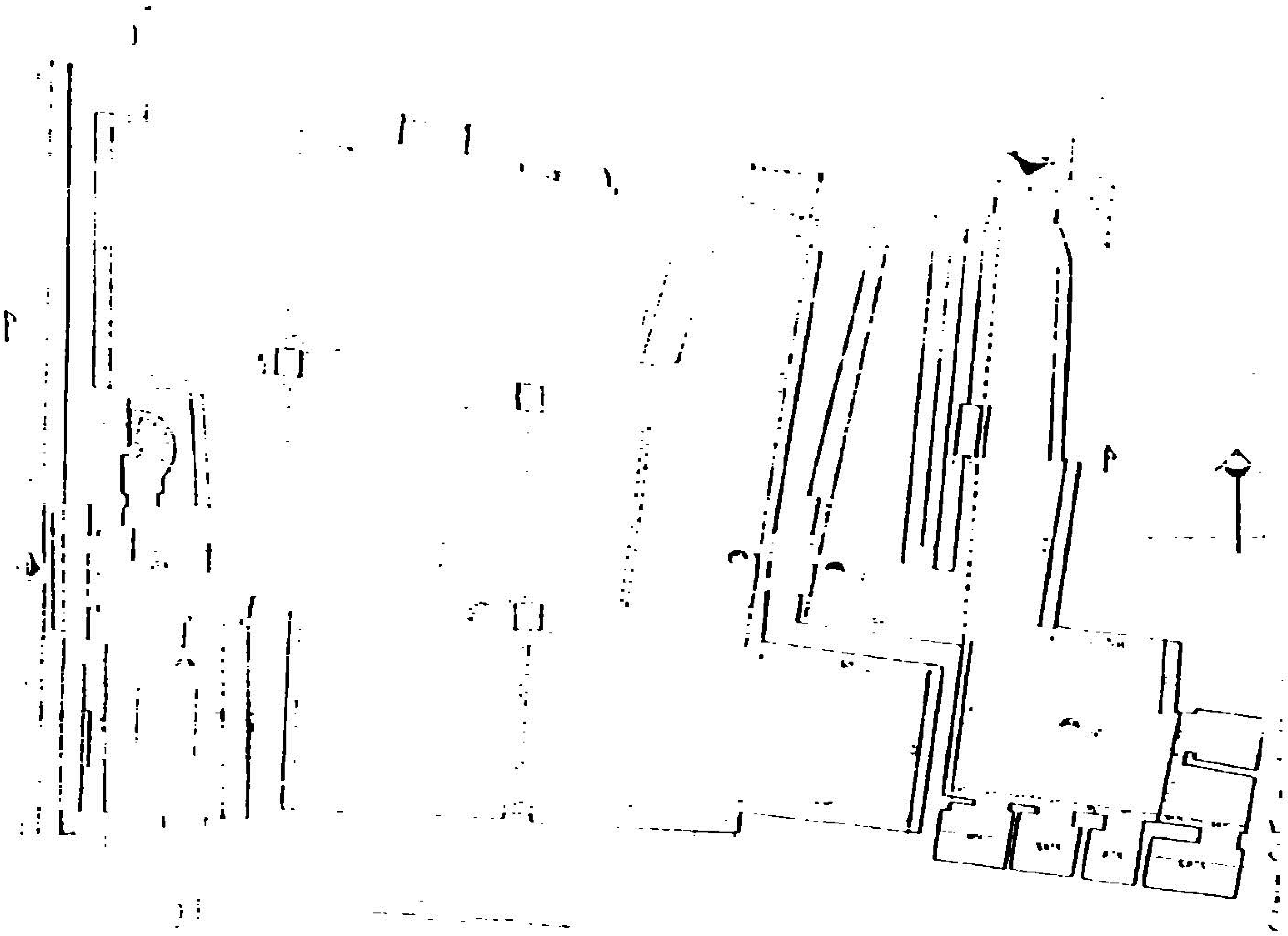

شكل (٦) : المسقط الأفقى لجامع الشيخ رمضان
(عن : هيئة الآثار)

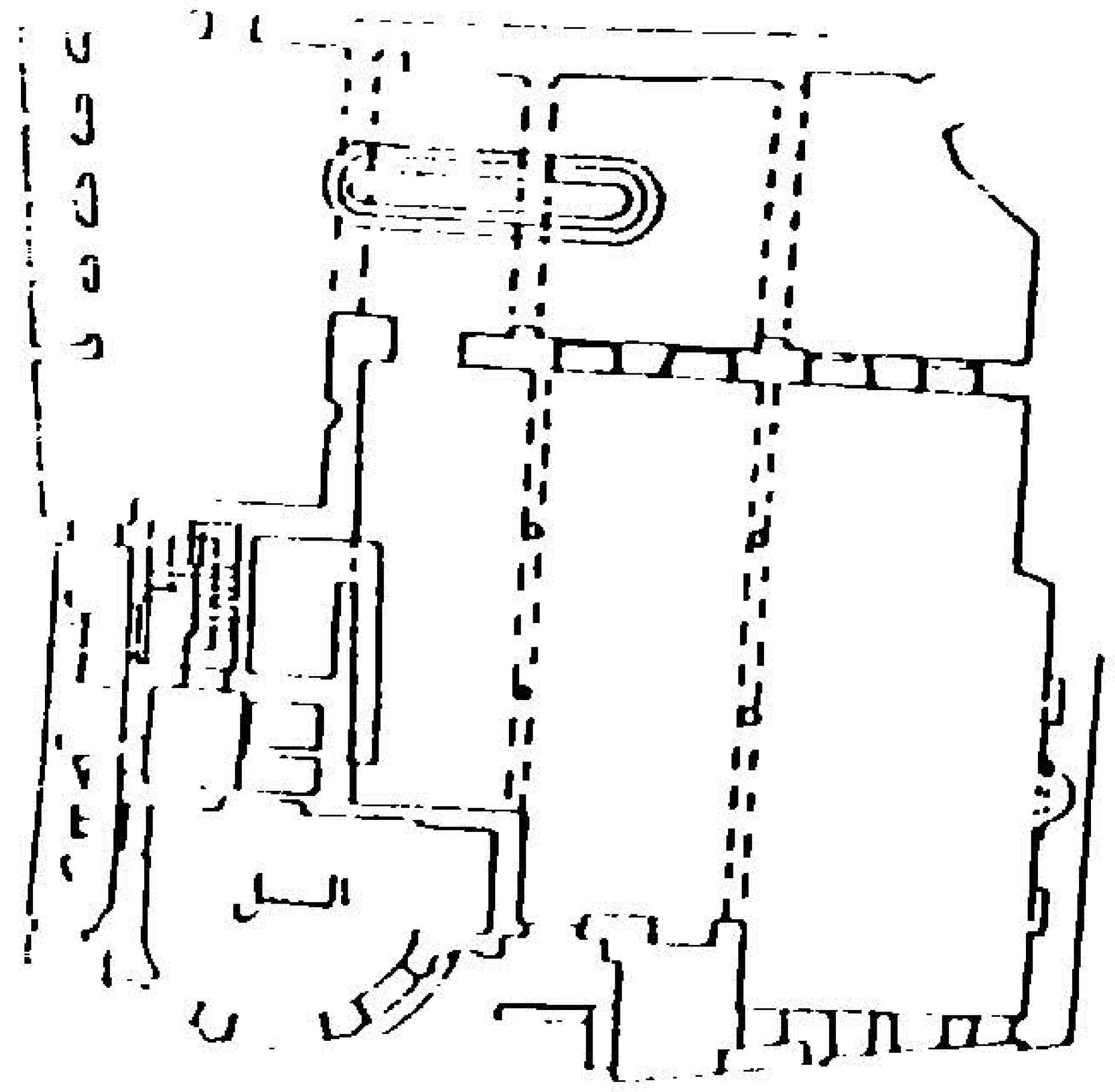

شكل (٧) : المسقط الأفقى لجامع جنبلاط
(عن : محمود الحسينى : الأسبلة العثمانية)

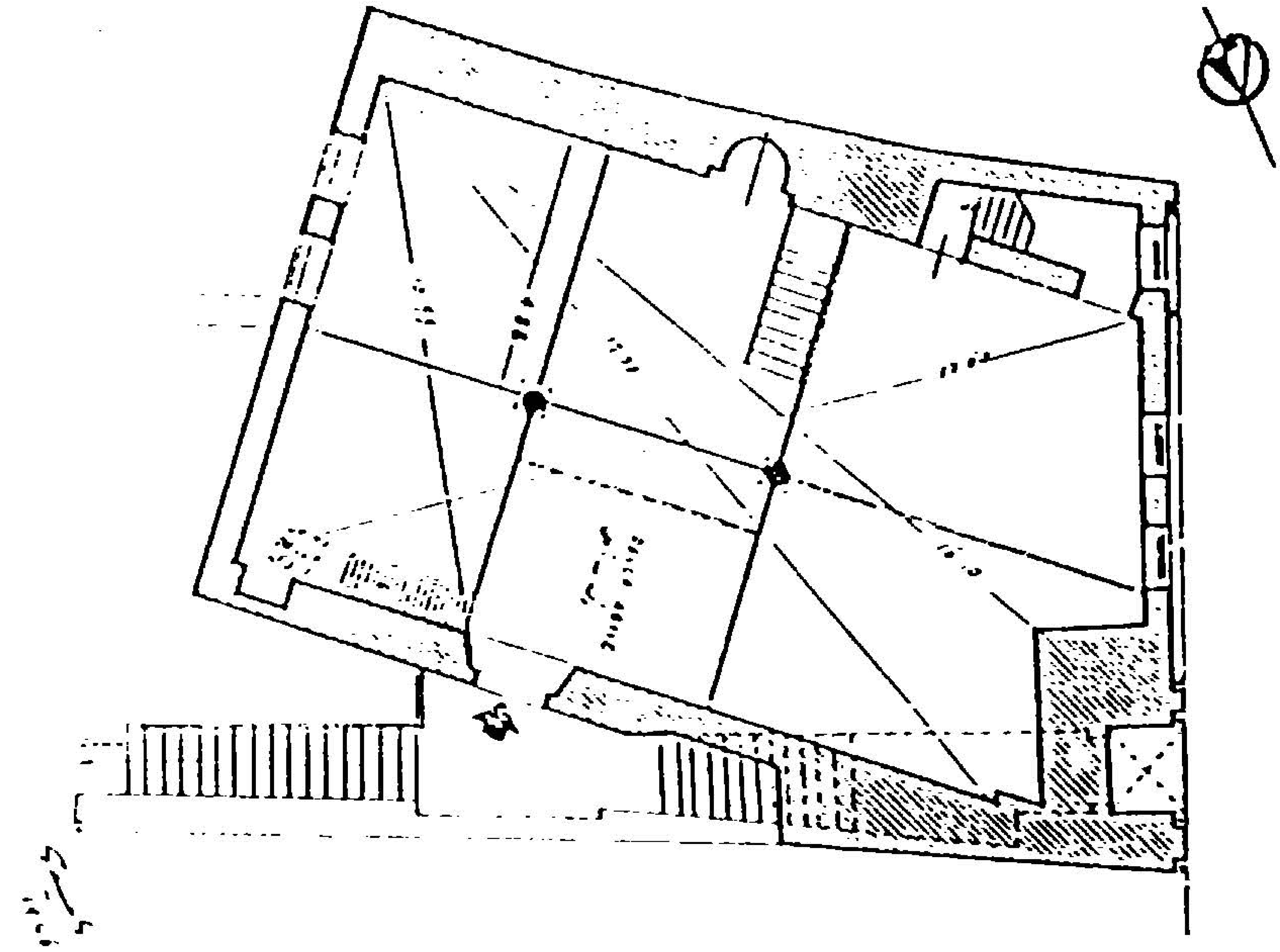

شكل (٨) : المسقط الأفقى لجامع الشواذلية

(عن : كمال الدين سامح)

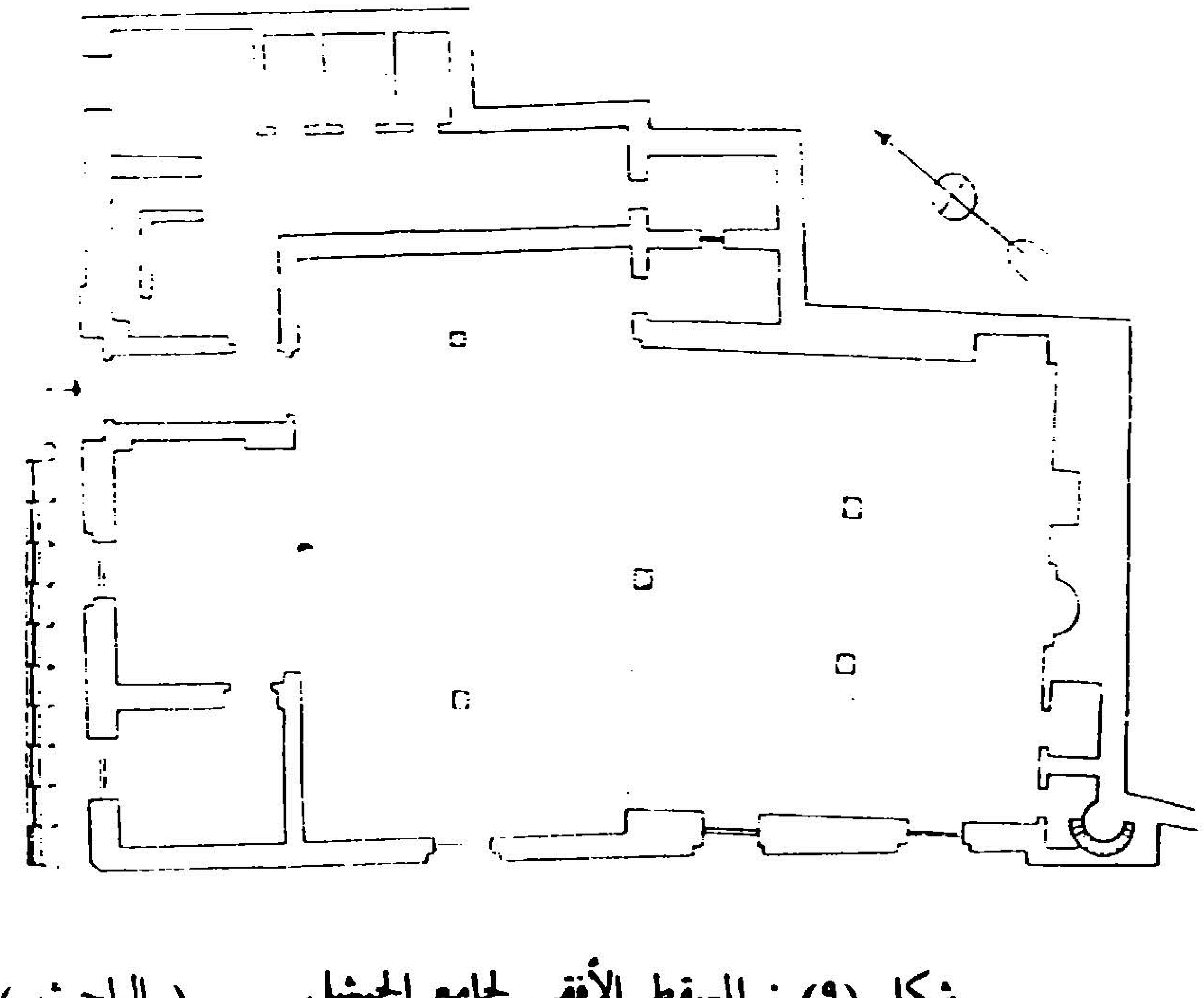

شكل (٩) : المسقط الأفقى لجامع الحبشلى (الباحث)

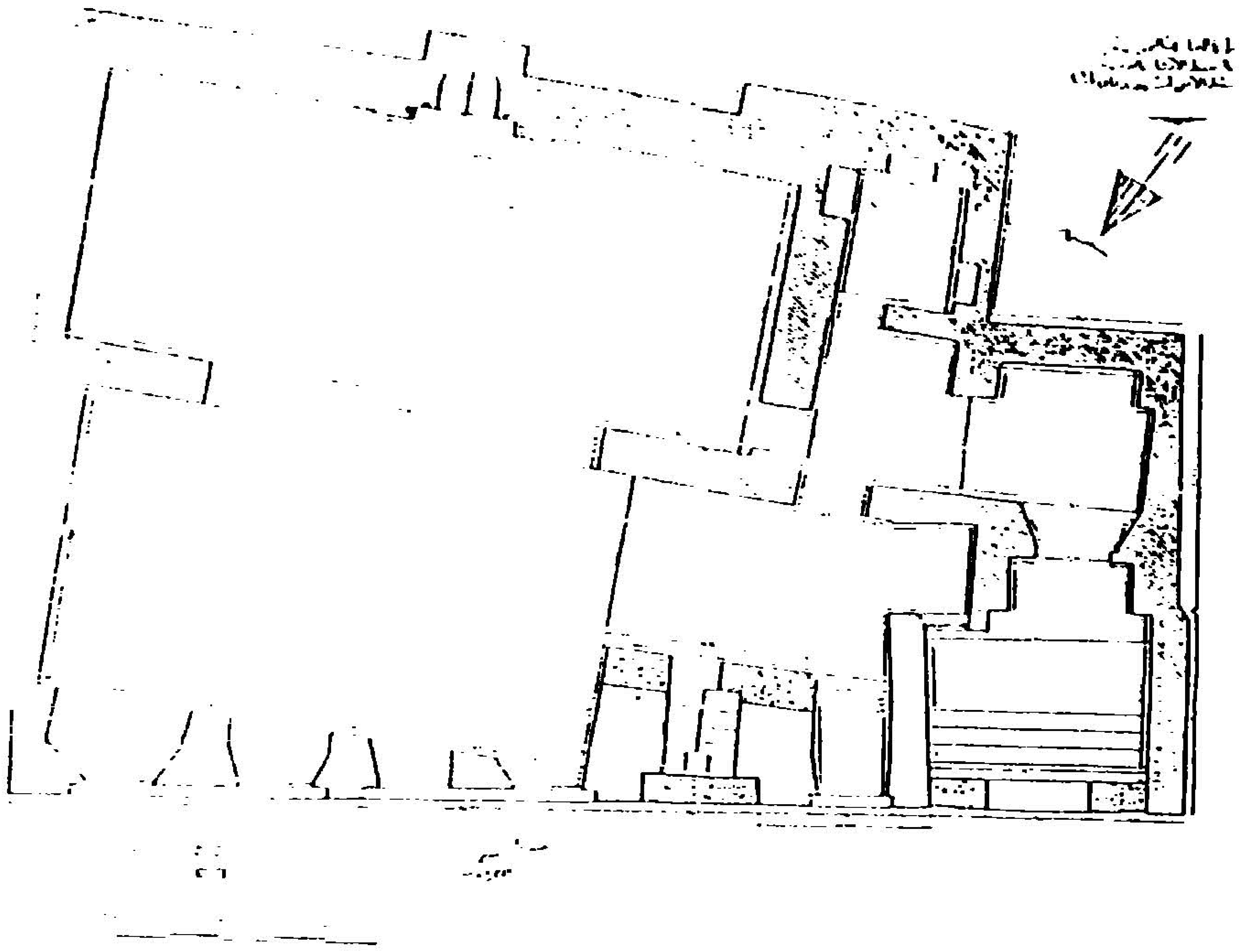

شكل (١٠) : المسقط الأفقى لجامع داود باشا

(عن : هيئة الآثار)

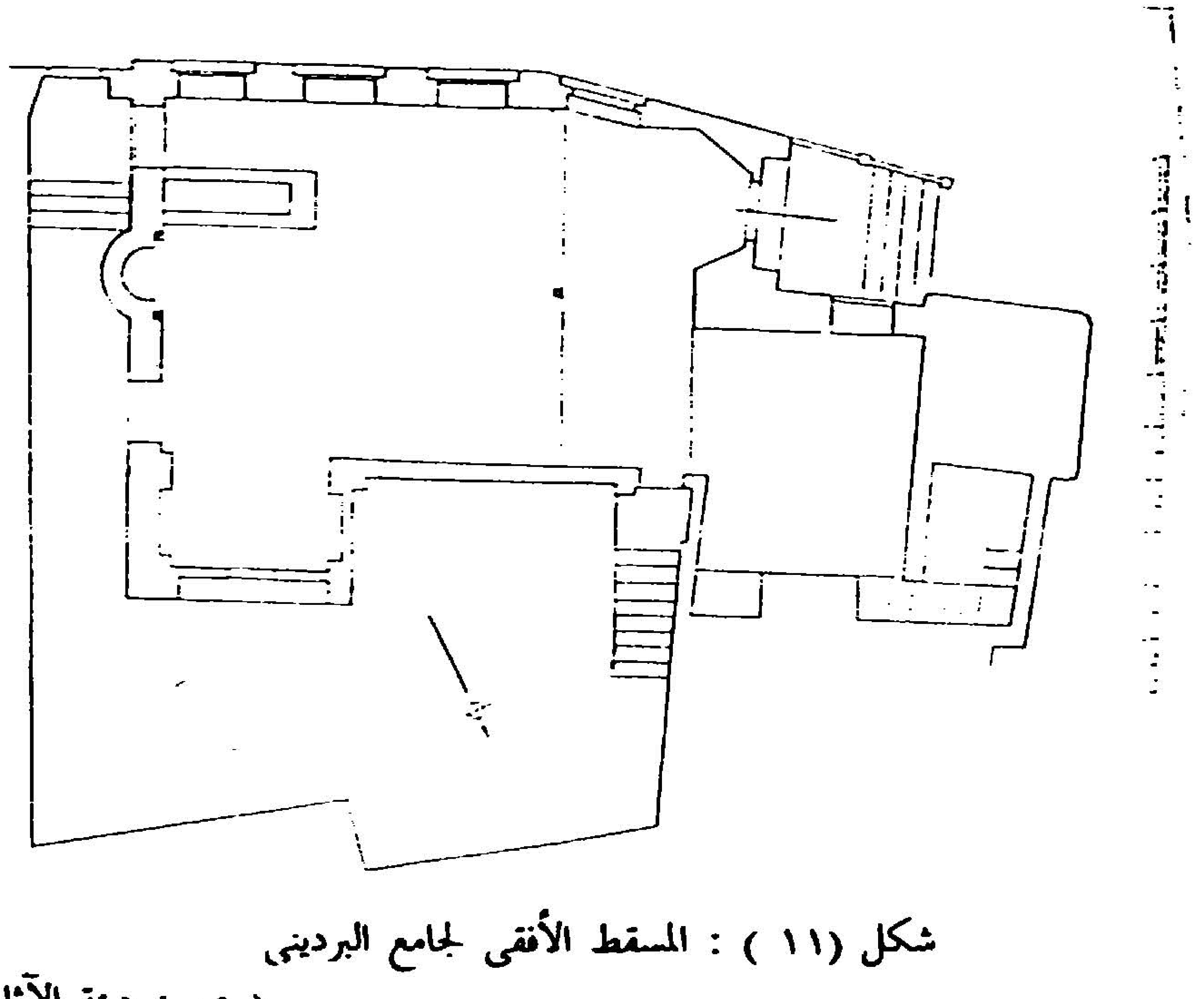

شكل (١١) : المسقط الأفقى لجامع البردينى

(عن : هيئة الآثار)

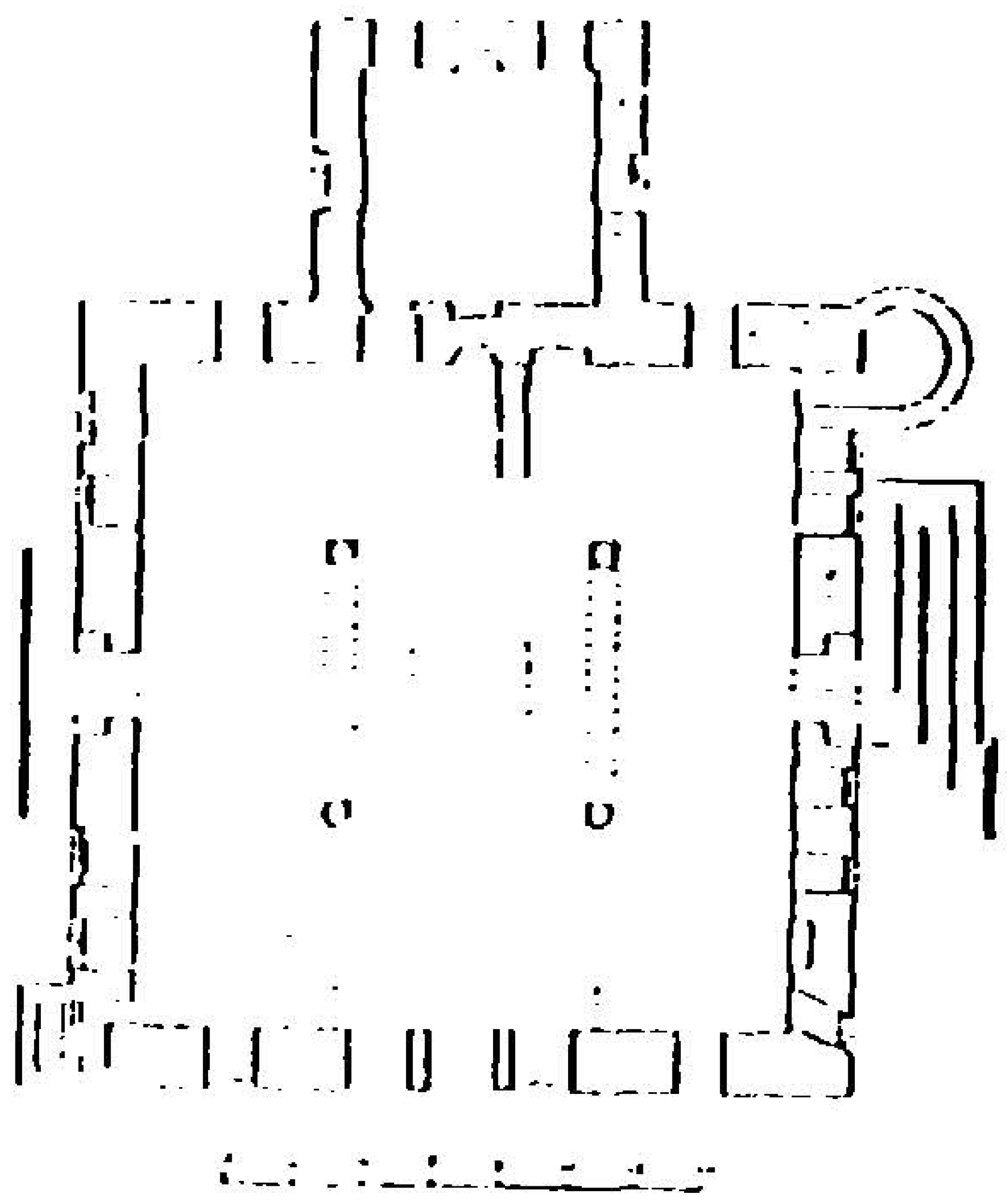

شكل (١٢) : المسقط الأفقى لجامع المحمودية
(عن : حسن عبد الوهاب)

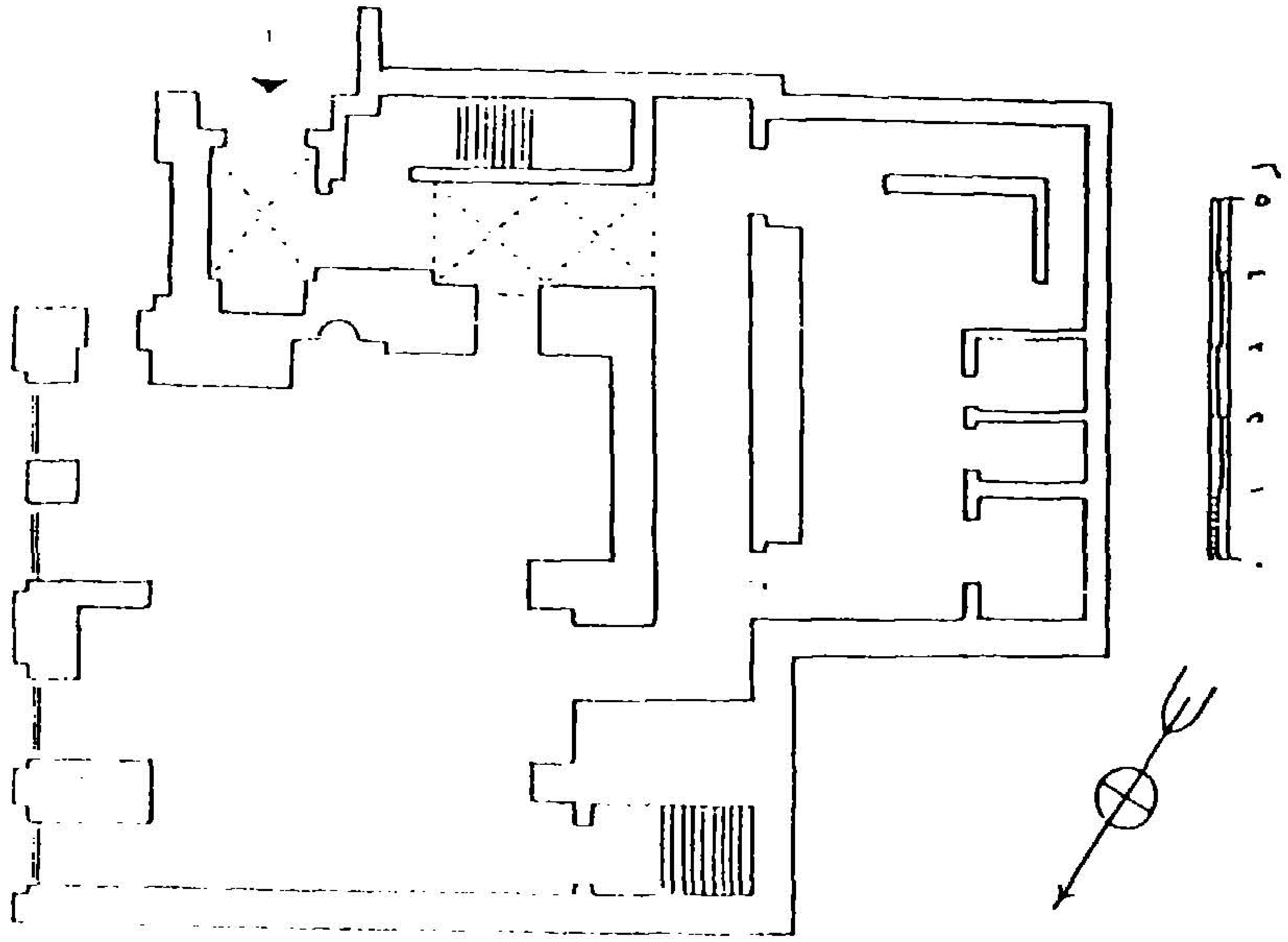

شكل (١٣) : المسقط الأفقى لجامع عبد اللطيف القرافى (الباحث)

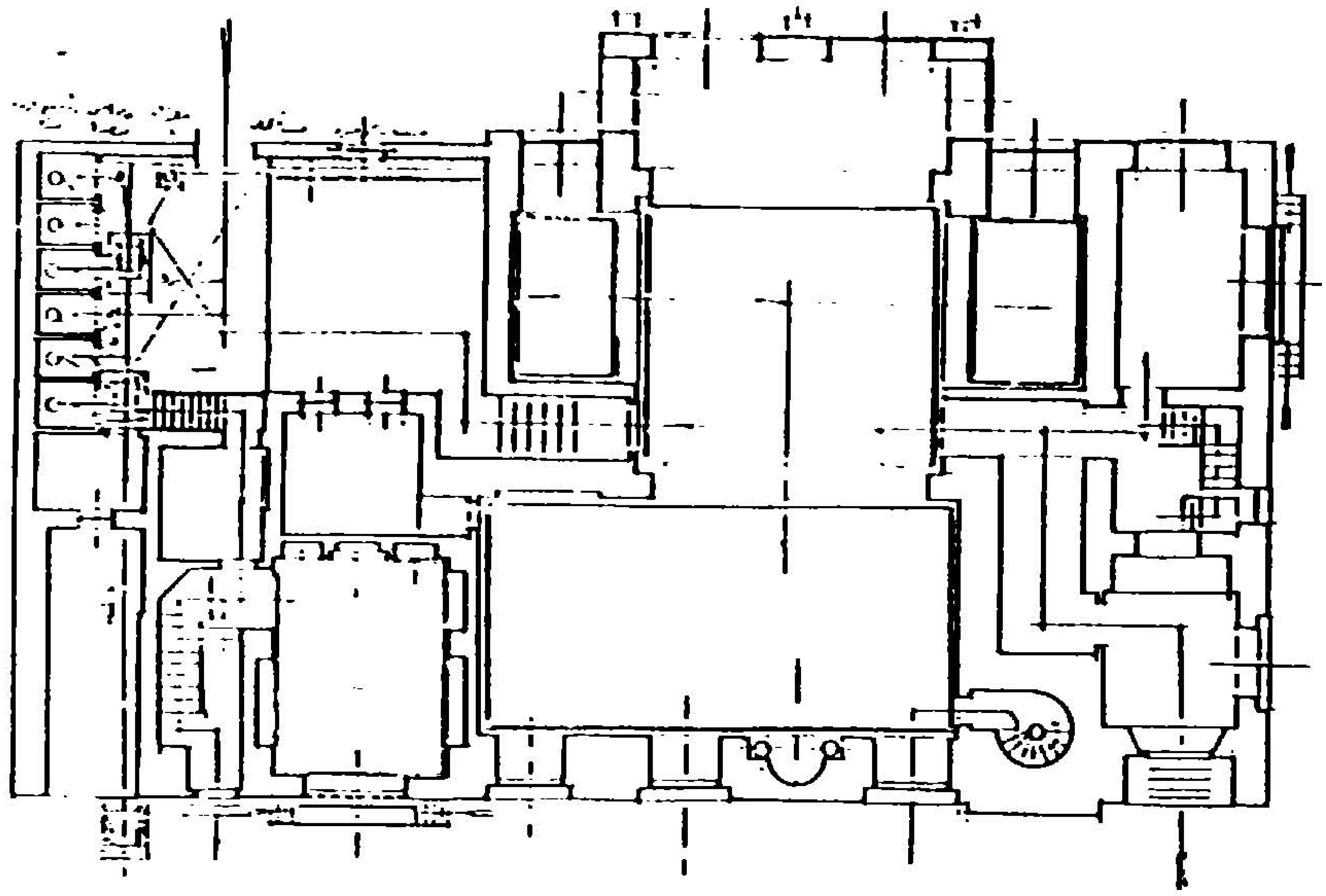

شكل (١٤) : المسقط الأفقى لجامع يوسف الحين
(عن : هيئة الآثار)

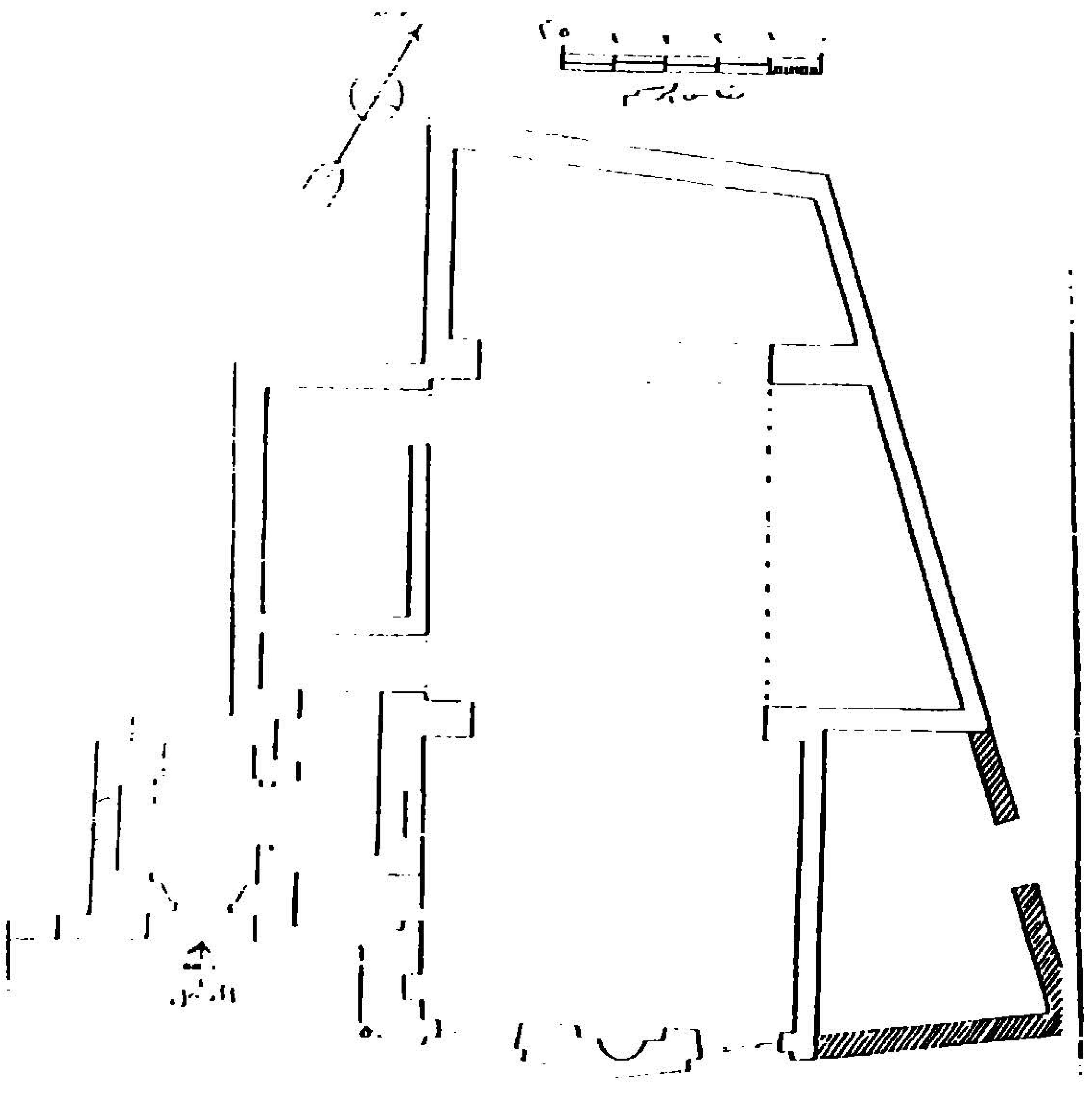

شكل (١٥) : المسقط الأفقى لجامع محب الدين أبو الطيب (الباحث)

شكل (١٦) : المسقط الأفقى

لجامع سليمان باشا (سارية الجبل)

(عن : كمال الدين سامح)

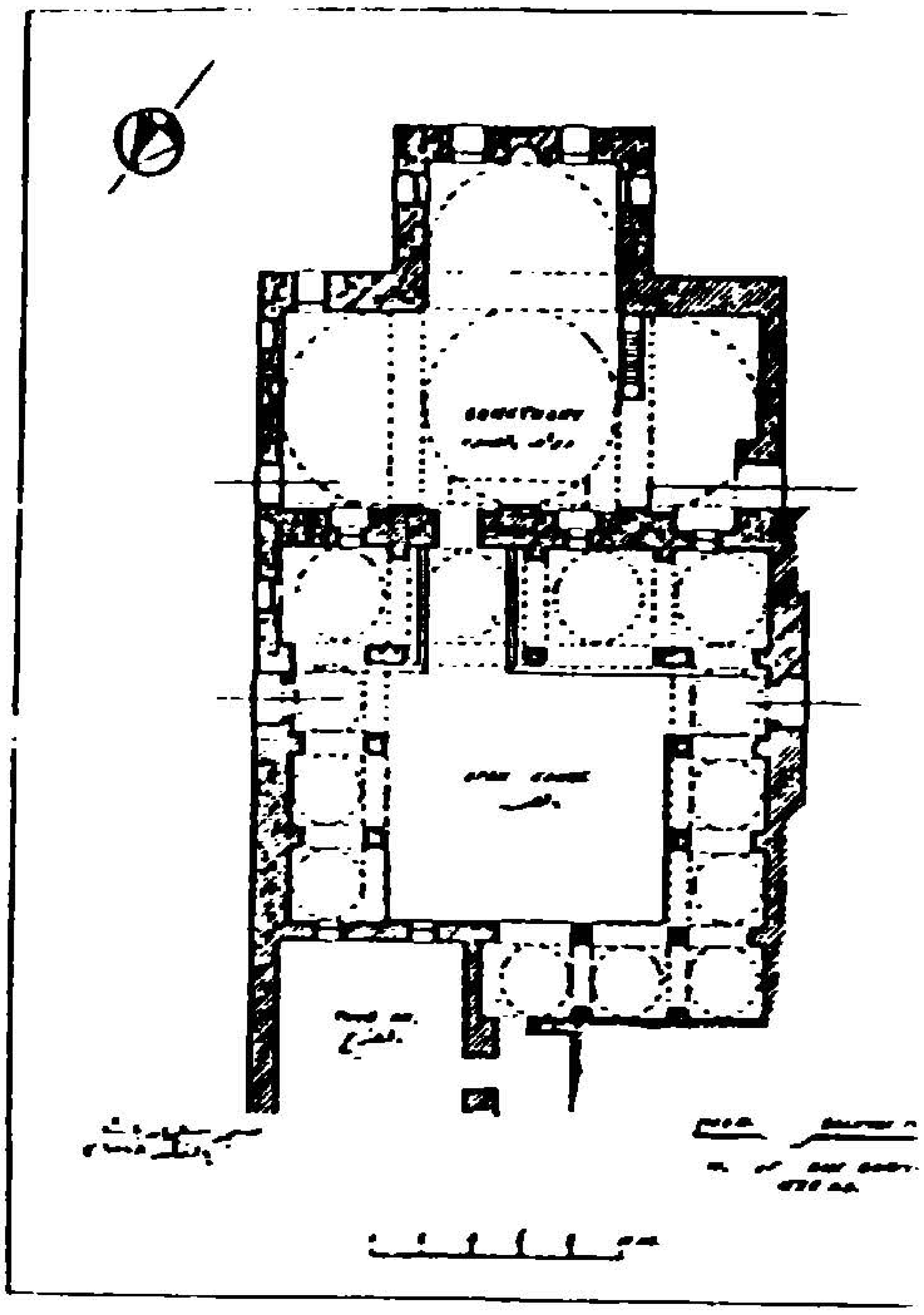

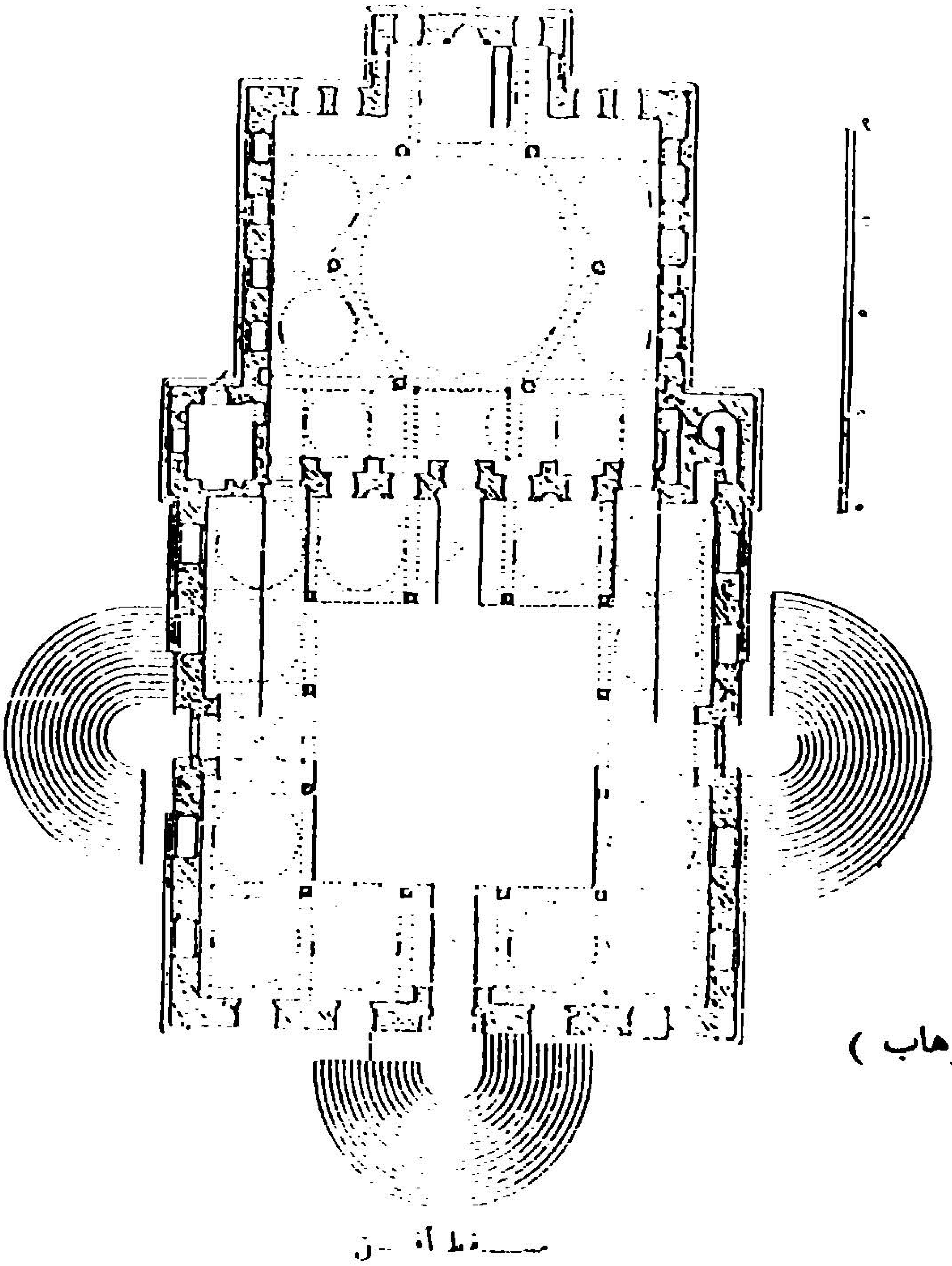

شكل (١٧)

: المسقط الأفقى

لجامع الملكة صفية

(عن : حسن عبد الوهاب)

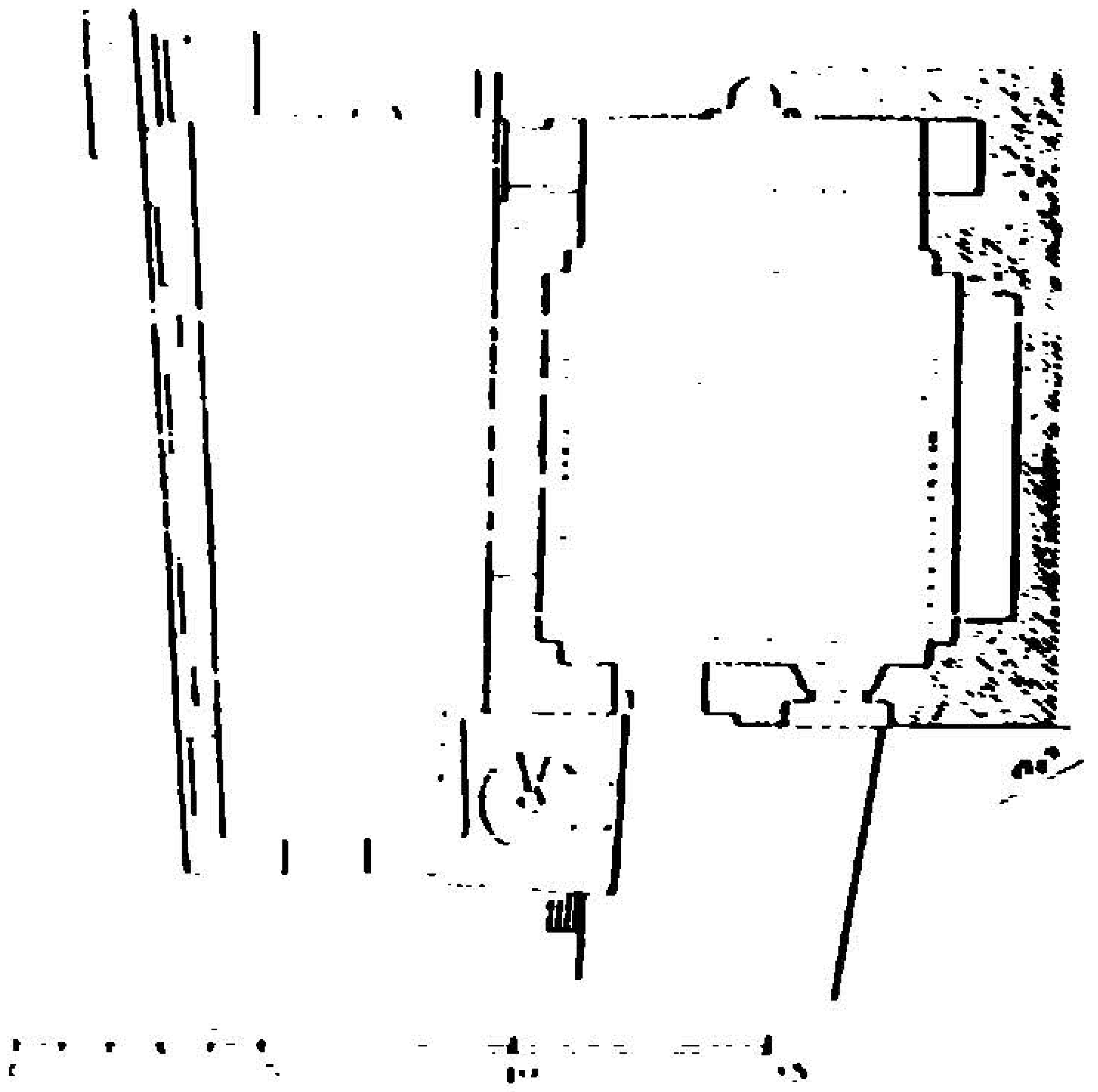

شكل (١٨) المسقط الأفقى لجامع أحمد كتخدا العزب

(عن : محاضر اللجنة)

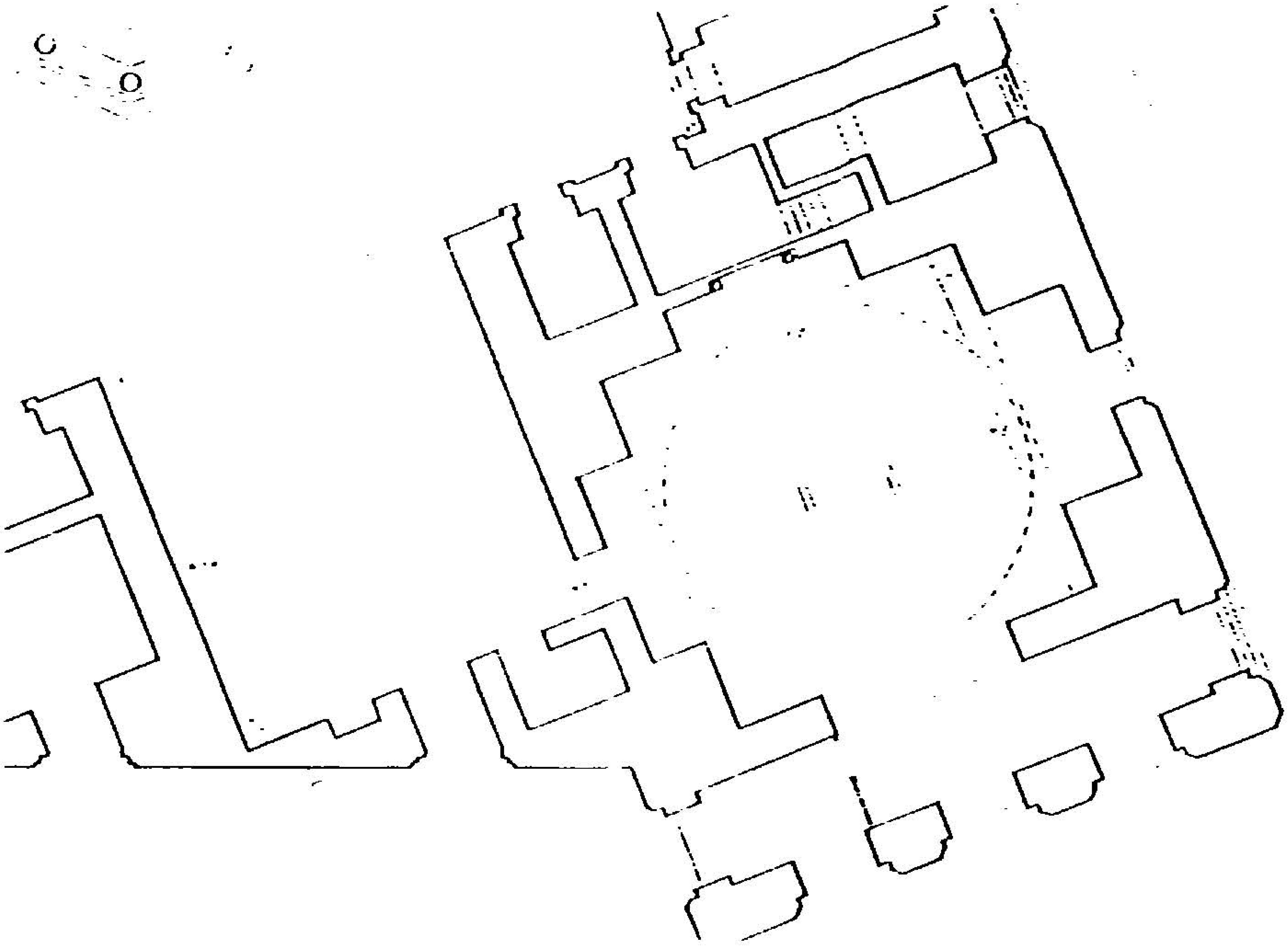

شكل (١٩) : المسقط الأفقى لقبة الأمير صرغتمش الملحقة بمدرسته

(عن : هيئة الآثار)

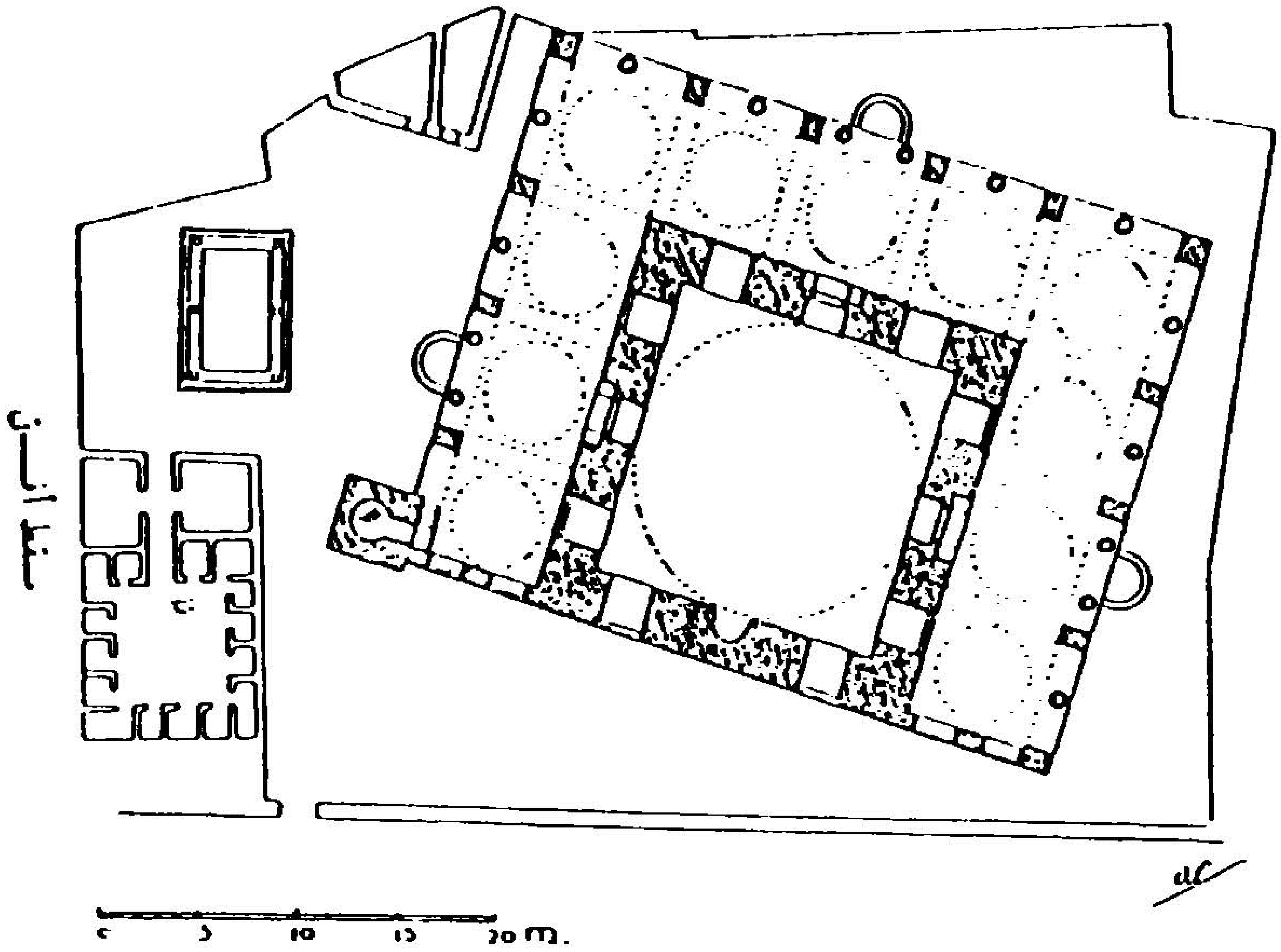

شكل (٢٠) : المسقط الأفقي لجامع سنان باشا
(عن : حسن عبد الوهاب)

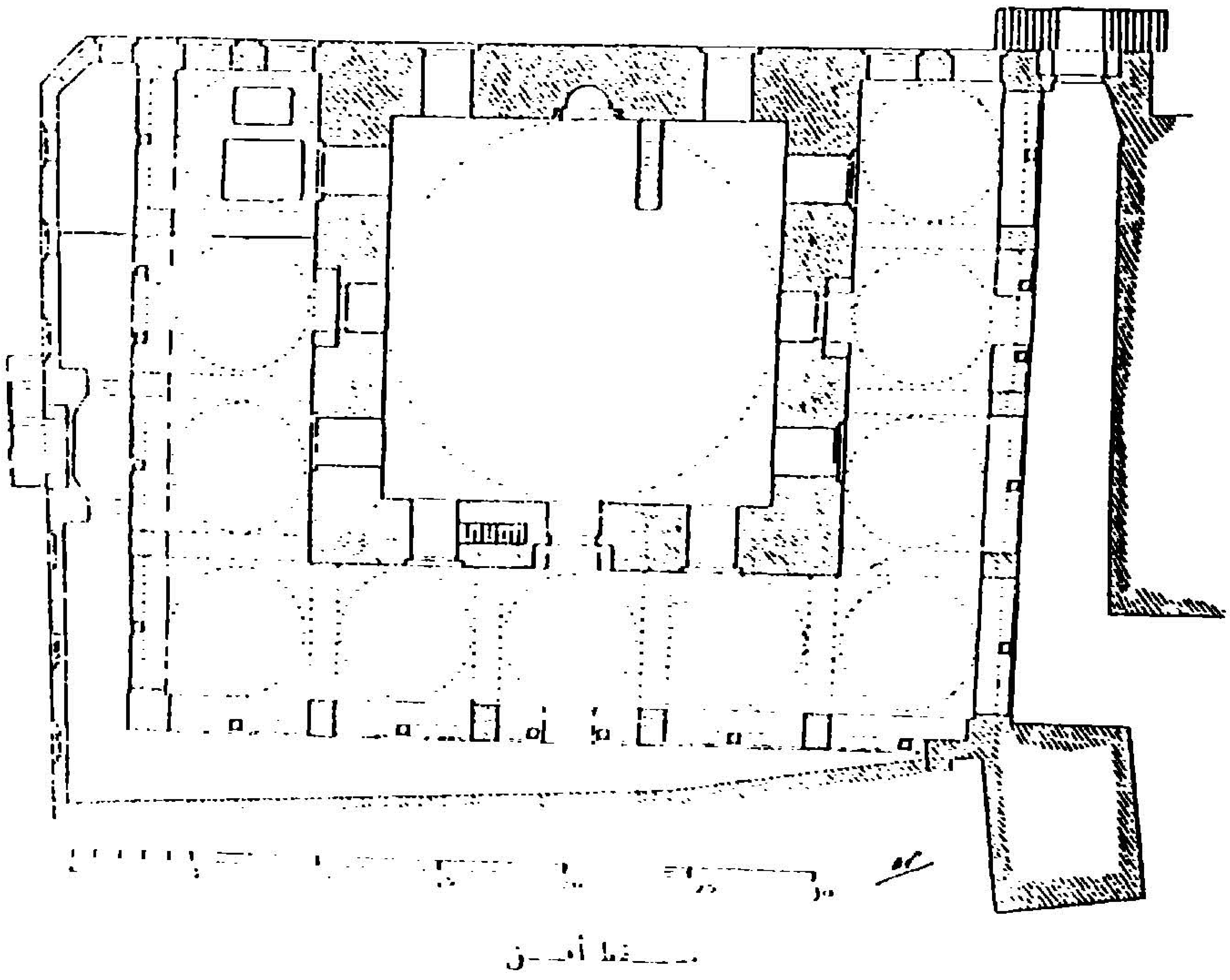

شكل (٢١) : المسقط الأفقي لجامع محمد أبو الدهب
(عن : حسن عبد الوهاب)

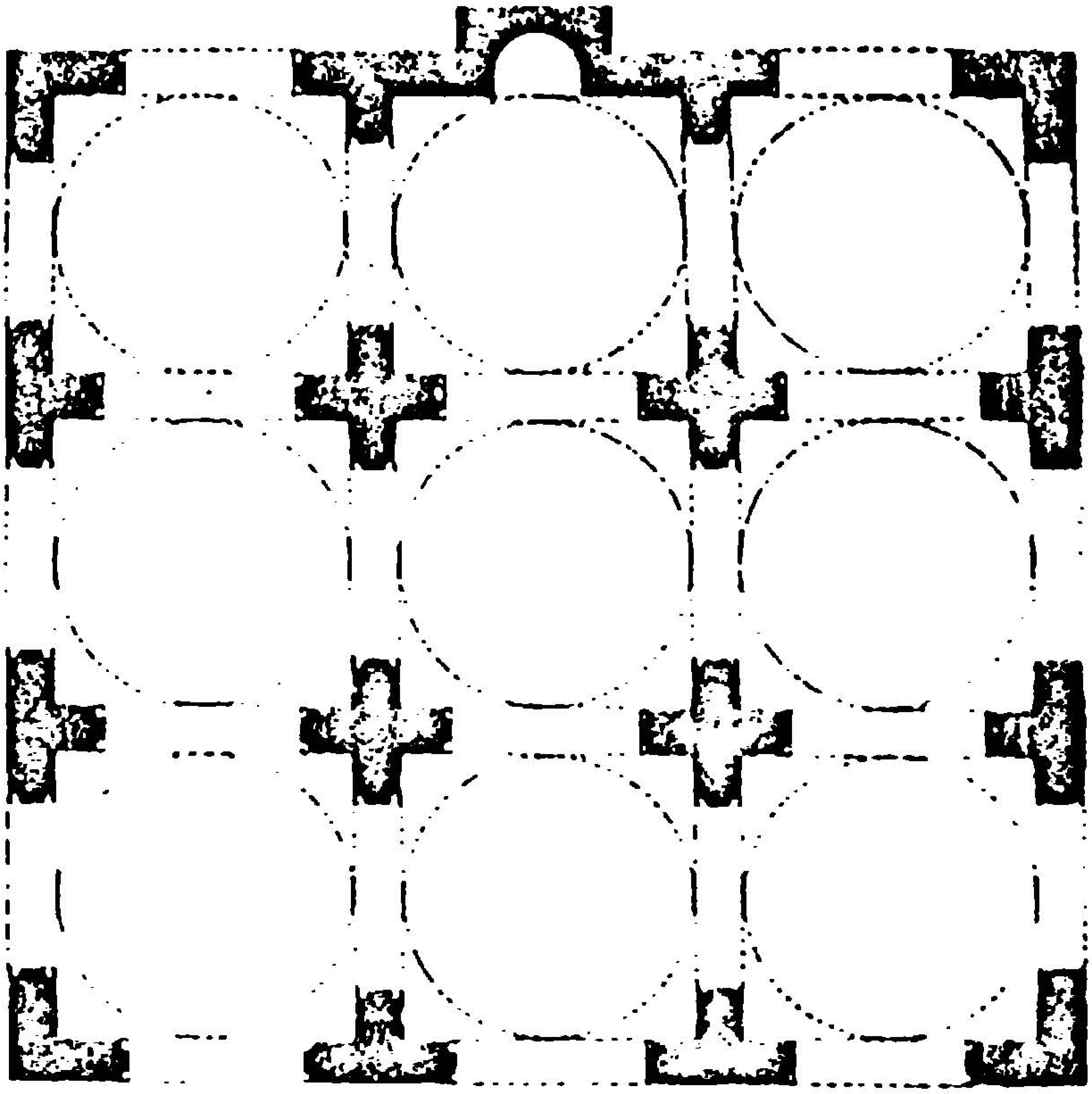

شكل (٢٢) : المسقط الأفقى لمشهد آل طباطبا

(عن : كريزويل)

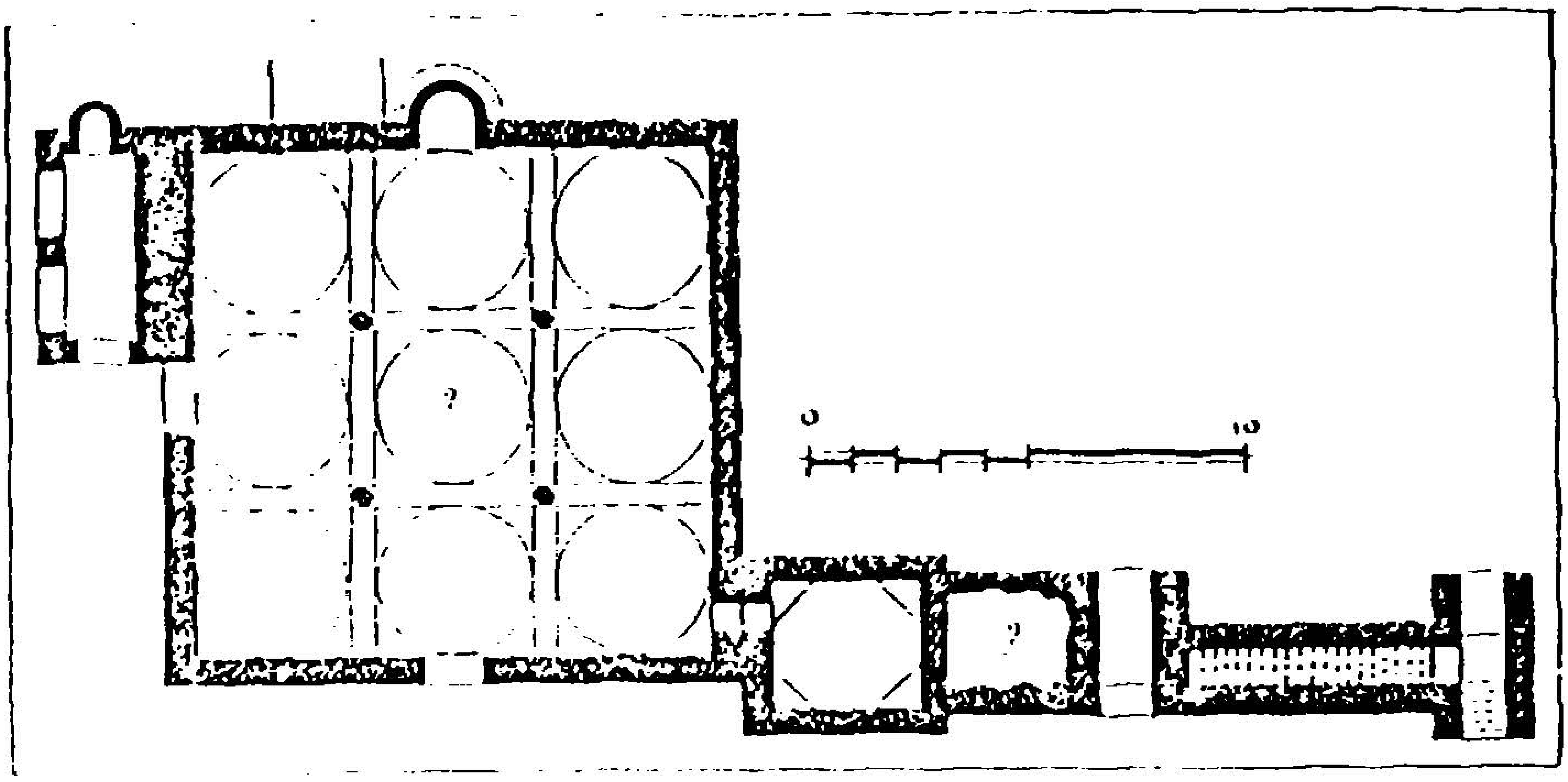

شكل (٢٣) : المسقط الأفقى لمشهد السبع وسبعين ولى بأسوان
(عن : مونريه ديفلارد)

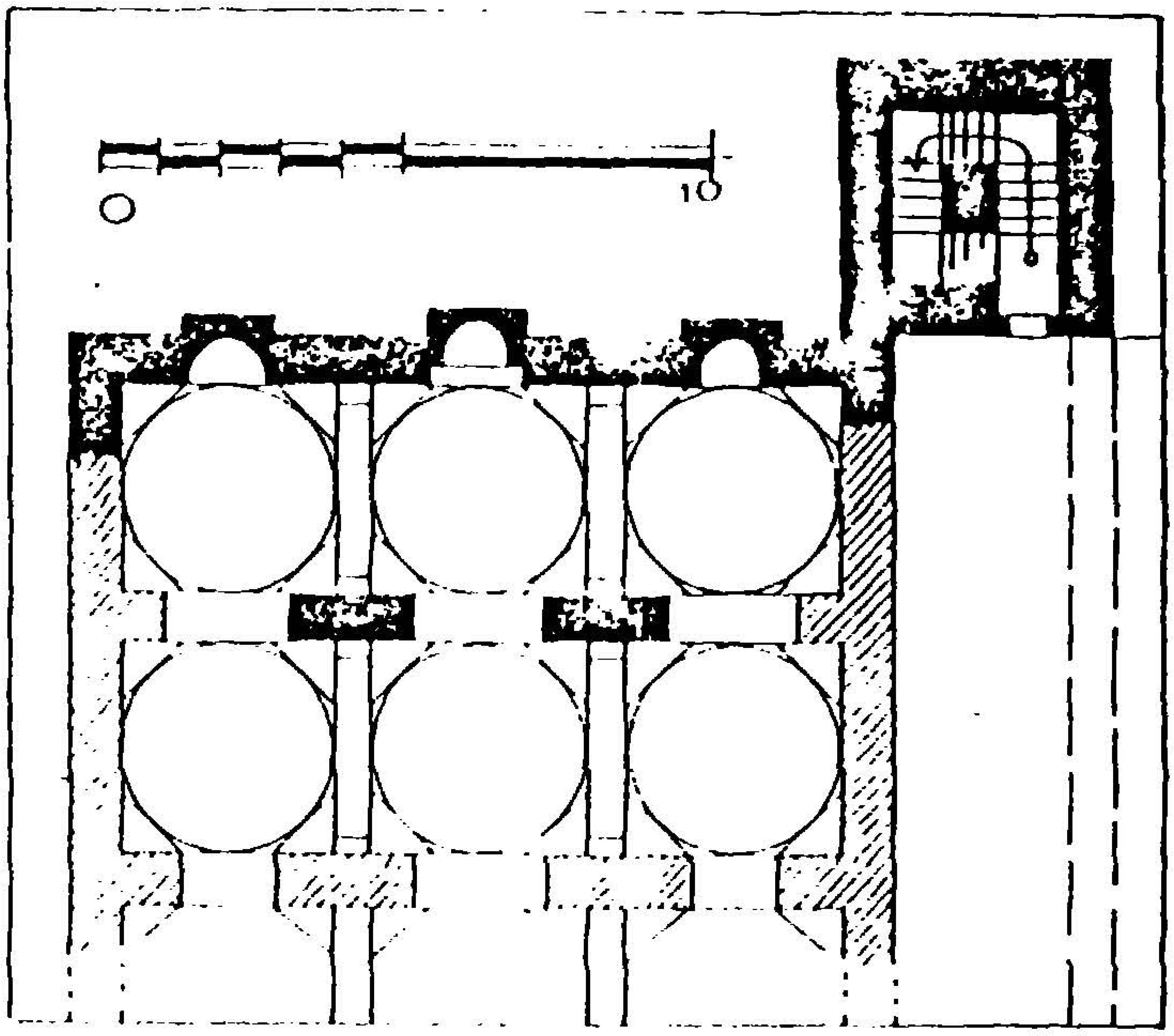

شكل (٢٤) : المسقط الأفقى للمشهد القبلى بالشلال بأسوان
(عن : مونريه ديفلارد)

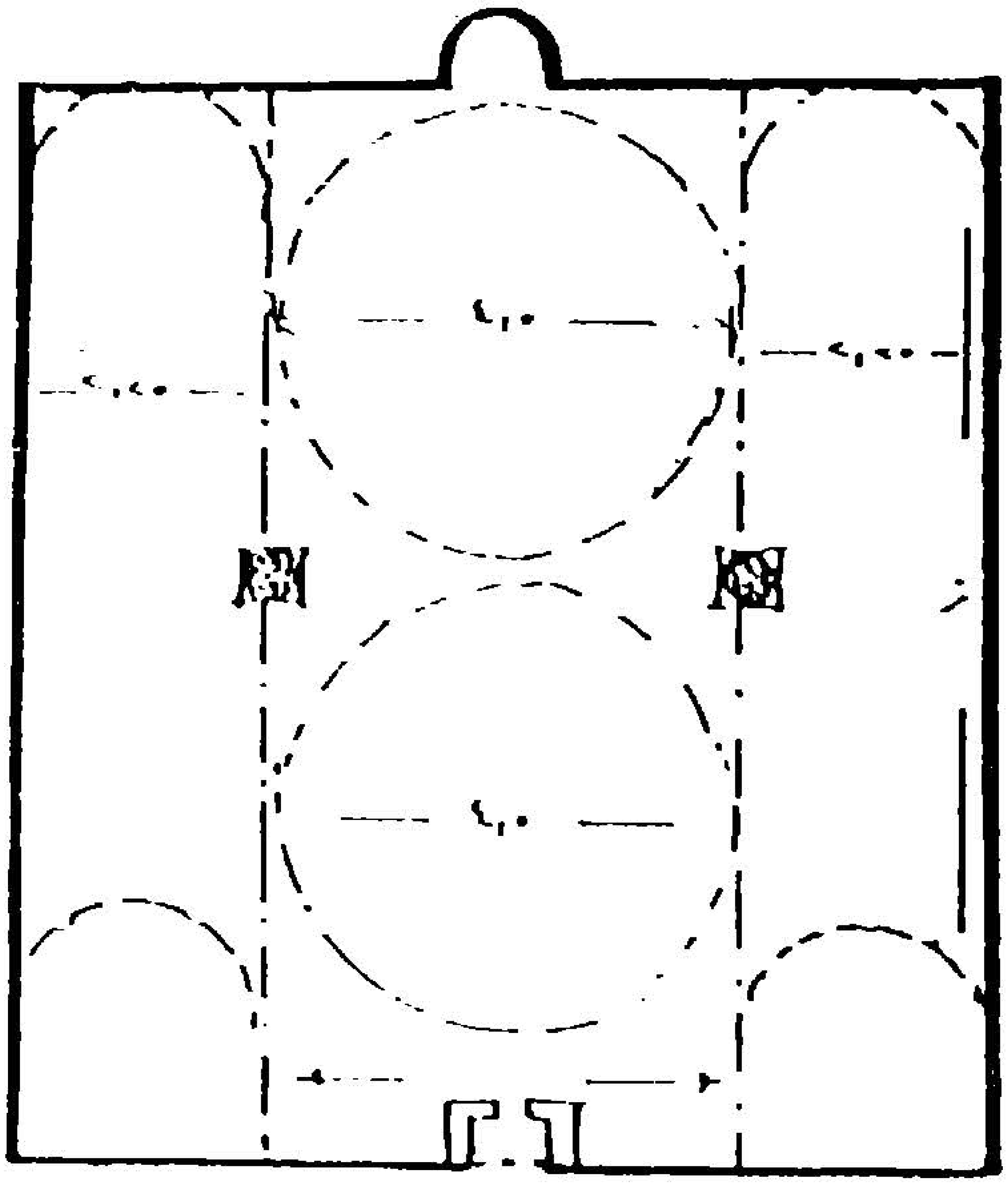

شكل (٢٥) : المسقط الأفقى لزاوية حسن الرومى

(عن : سعاد ماهر)

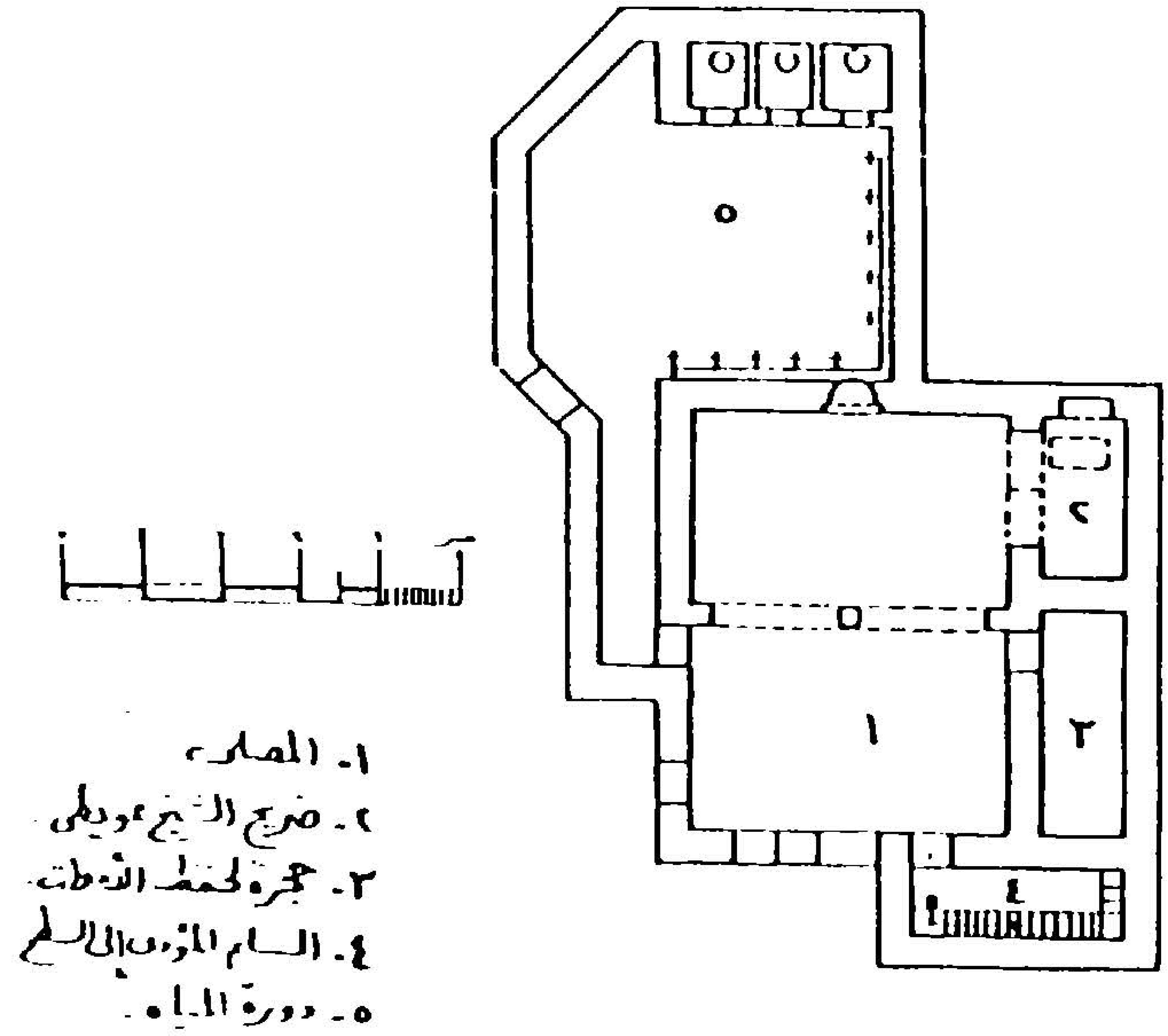

شكل (٢٦) : المسقط الأفقى لزاوية رضوان بك

(عن : جمال عبد الرءوف)

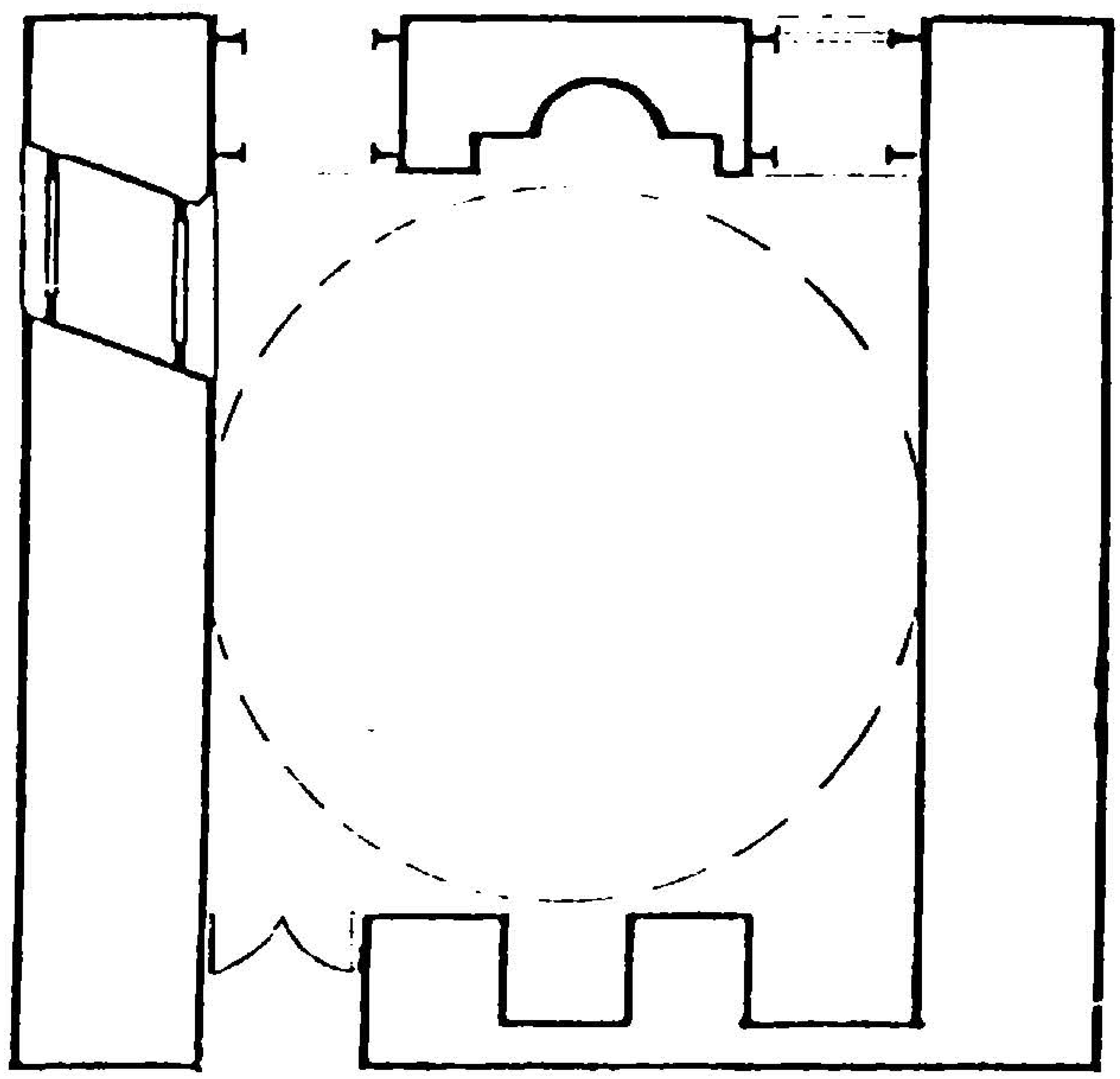

شكل (٢٧) : المسقط الأفقى لزاوية الشيخ سعود
(عن : حمزة عبد العزيز)

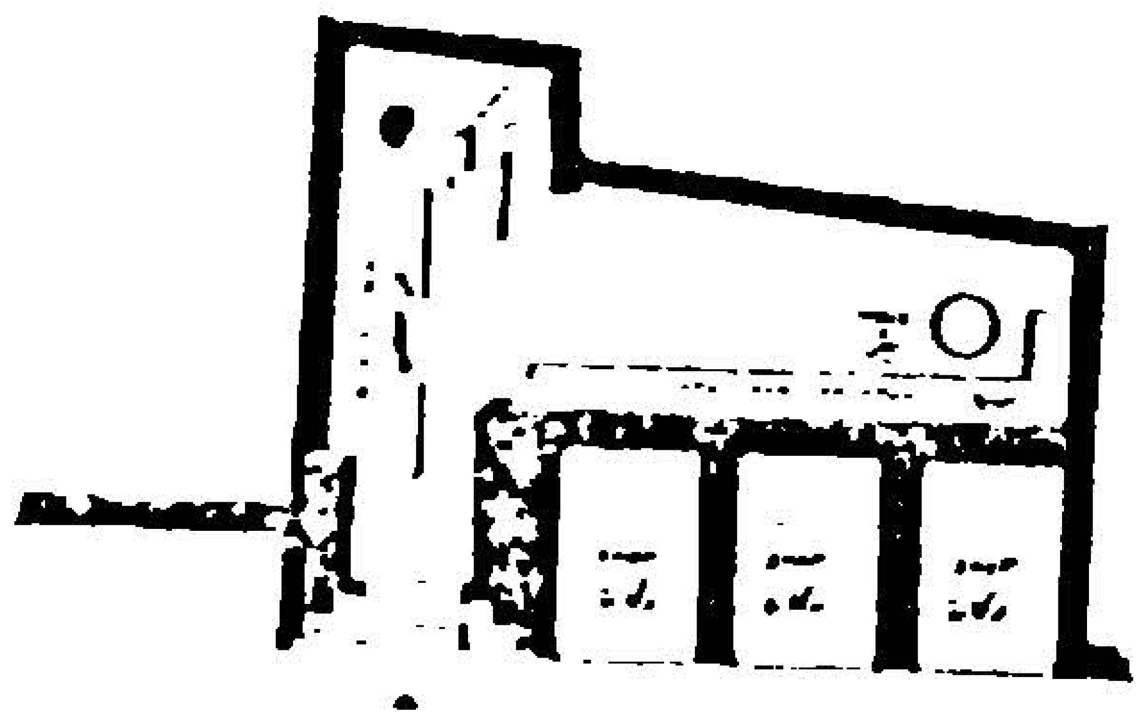

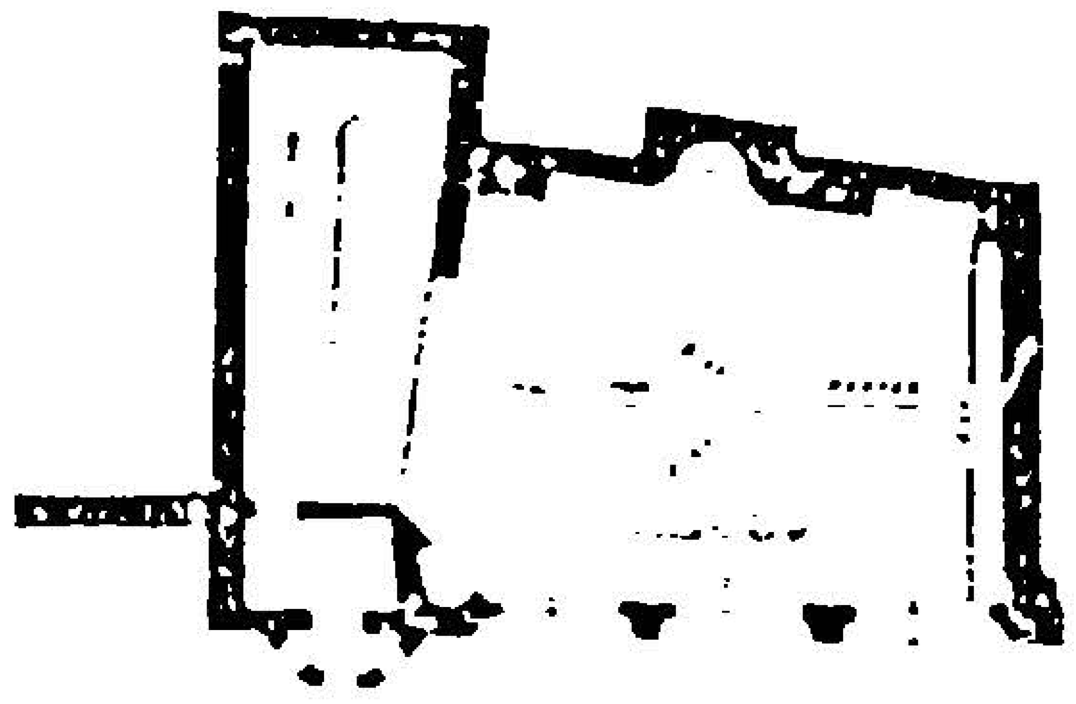

شكل (٢٨) : المسقط الأفقى لزاوية الأمير عبد الرحمن كتخدا
(ا) الدور الأرضى .
(ب) الدور العلوى (بيت الصلاة) .
(عن : كمال الدين سامح)

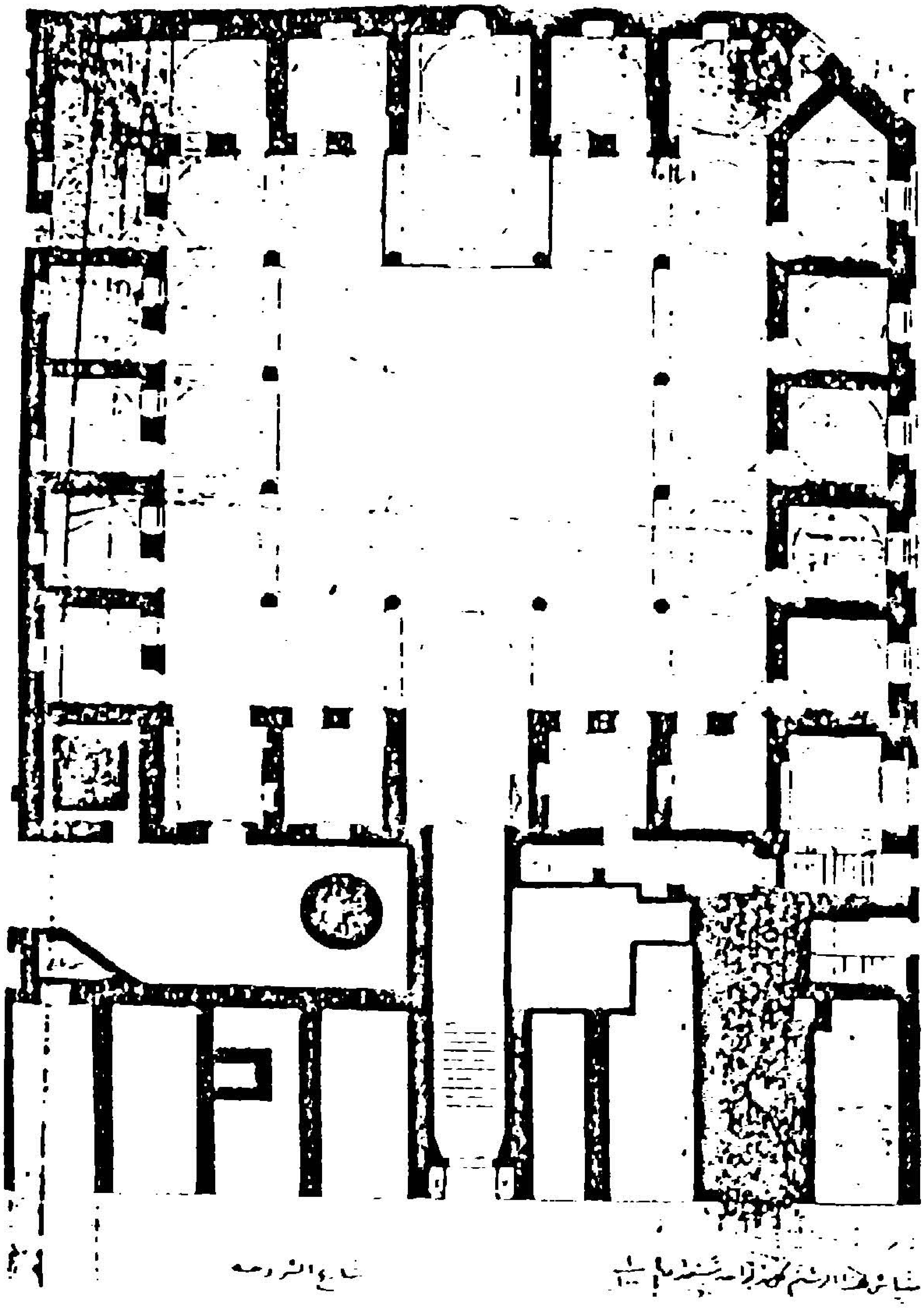

شكل (٢٩) : المسقط الأفقى للمدرسة السليمانية

(عن : هيئة الآثار)

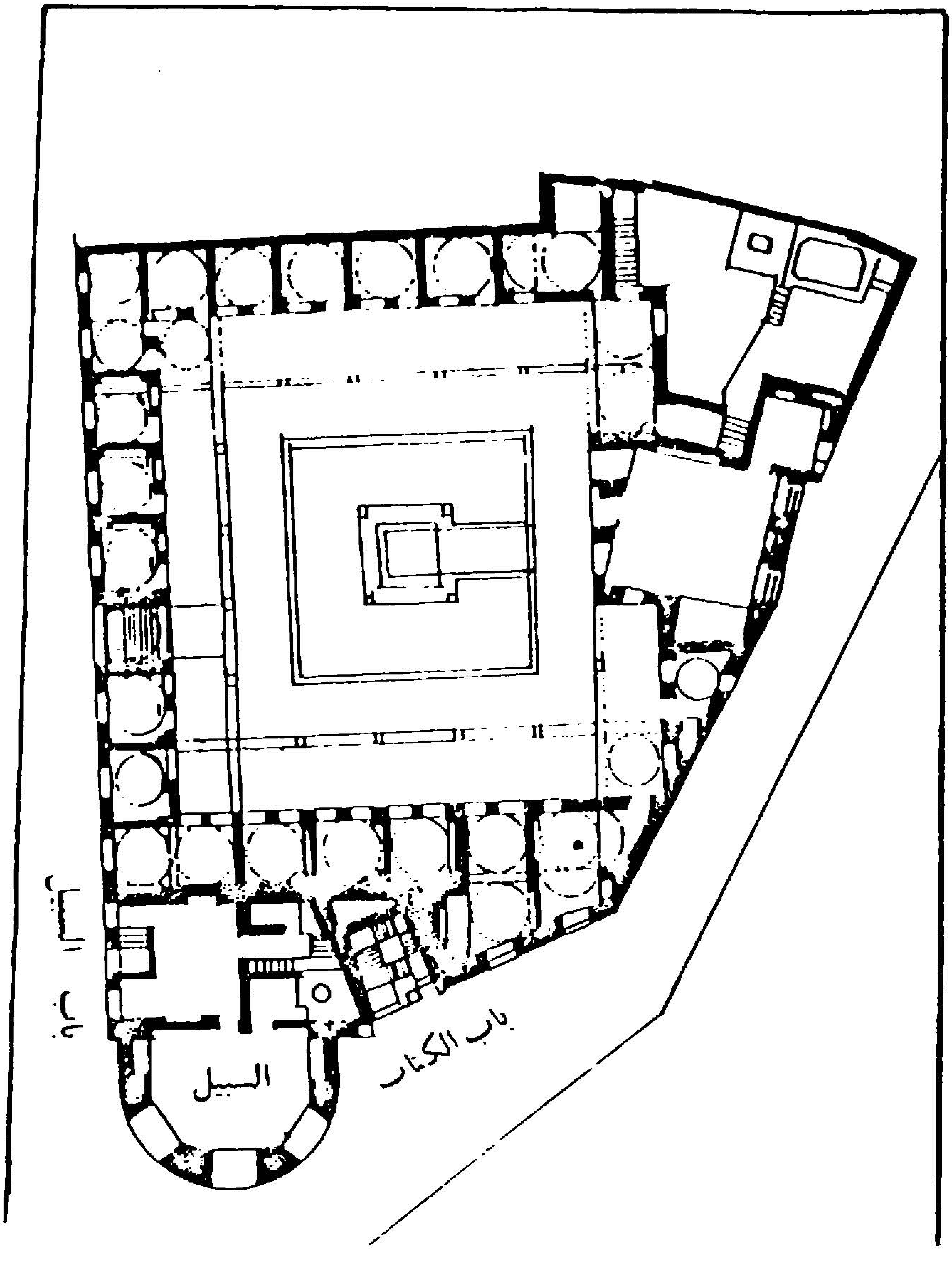

شكل (٣٠) : المسقط الأفقي للمدرسة المحمودية

(عن : محمود الحسيني)

المصالح الفرنسية فى ميناء دمياط
فى القرن الثامن عشر

دكتور
محمد عفيفى
مدرس التاريخ الحديث
بكلية الآداب ـ جامعة القاهرة

المصالح الفرنسية فى ميناء دمياط فى القرن الثامن عشر

دمياط مدينة من أهم وأقدم المدن الشهيرة فى تاريخ مصر على مر العصور ، وتقع دمياط على مقربة من مصب النيل الشرق فى البحر المتوسط ، وعلى قمة فرعه المعروف بفرع دمياط . ولقد لعب ميناء دمياط أدوارًا هامة فى تاريخ مصر فى العصور الإغريقية والرومانية والإسلامية ، وظلت دمياط تحمل عبء التجارة مع شرق البحر المتوسط ، وهى المنطقة التى درج على الإشارة إليها باليفانت [1] .

فى الواقع لم يلفت ميناء دمياط أنظار فرنسا طيلة القرنين : السادس عشر والسابع عشر ، ويرجع ذلك إلى تركز المصالح الفرنسية آنَ ذاك على التجارة الشرقية ، وهى بمثابة التجارة العالمية التى كانت محط صراع الدول الأوروبية فى ذلك الوقت ، ومع أن مصر كانت من أهم معابر التجارة الشرقية فإن ميناء دمياط لم يؤدى دوراً يذكر فى حركة انتقال التجارة الشرقية من الشرق إلى أوروبا ، فإذا حاولنا تتبع الطريق التقليدى لعبور التجارة الشرقية فى مصر متجهة إلى أوروبا سنجد أن هذا الطريق يبدأ بوصول السلع الشرقية عبر البحر الأحمر إلى ميناء مصر الشهير « السويس » ، ثم تنتقل السلع بعد ذلك عبر الطريق البرى وبالقوافل التجارية إلى القاهرة ، مركز التجارة الشرقية فى مصر فى العصر العثمانى ، ومن القاهرة إلى رشيد والإسكندرية حيث تجد طريقها إلى أوروبا .

من هنا كان من الطبيعى أن تتركز المصالح الفرنسية آن ذاك على المراكز التقليدية المصرية لعبور التجارة الشرقية ، أى السويس – القاهرة – رشيد والإسكندرية ، وبالنسبة للسويس لانكاد نعثر على تواجد فرنسى يذكر فى هذا الميناء طيلة العصر العثمانى ، على الرغم من أهمية ميناء السويس كمحطة أولى للتجارة الشرقية فى مصر ، وكميناء رئيسى ذى أهمية استراتيجية فى شمال البحر الأحمر .

وربما يرجع ذلك إلى السياسة التقليدية العثمانية بتحريم النشاط الأوروبى فى البحر الأحمر لأسباب دينية ، خشية هجوم السفن الأوروبية على الحرمين الشريفين ، ومع أهمية هذا العامل الدينى فإن هذا لا يمنع من وجود أهداف اقتصادية أخرى غير معلنة

---

(١) نقولا يوسف : تاريخ دمياط منذ أقدم العصور ، دمياط ١٩٥٩ .

كرغبة الدولة العثمانية فى احتكار التجارة الشرقية فى البحر الأحمر ، وإبعاد النفوذ الأوروبى الذى يدق أبواب البحر الأحمر الجنوبية عن التوغل فيه والسيطرة على طريق من أهم طرق التجارة الدولية ، لا سيما مع السيطرة الأوروبية على الملاحة والحركة التجارية فى المحيط الهندى بعد اكتشاف طريق رأس الرجاء الصالح (١) .

وعلى هذا تركز الوجود الفرنسى فى مصر فى القاهرة بإنشاء قنصلية فرنسية لرعاية الفرنسيين بصفة عامة والنشاط التجارى الفرنسى بصفة خاصة ، حيث كانت القاهرة مركزًا هامًا تصب فيه بضائع التجارة الشرقية ، ويتوافد عليها التجار الفرنسيون لعقد أهم الصفقات التجارية .

أضف إلى ذلك تعيين نائب قنصل فى رشيد وآخر فى الإسكندرية ، لمتابعة الحركة التجارية فى هذين الميناءين الهامين كمنفذين رئيسيين للتبادل التجارى بين مصر وأوروبا ، فضلاً عن رعاية نائب القنصل للجالية الفرنسية المحدودة فى المدينتين ، من هنا ترصد لنا الوثائق الفرنسية أعداد الفرنسيين المقيمين بالقاهرة ورشيد والإسكندرية ، وأيضًا أعداد الشركات التجارية الفرنسية فى هذه البيوت دون أية إشارة إلى استقرار رعايا فرنسيين فى دمياط ، أو إنشاء شركات تجارية بها (٢) .

ويتغير الأمر إلى حد كبير فى القرن الثامن عشر ، إذ تدخل دمياط دائرة الضوء فى المصالح الفرنسية ، حيث نجد العديد من الوثائق الفرنسية التى تتحدث عن أهمية دمياط بالنسبة للمصالح الفرنسية ، بل ويصل الأمر إلى تعيين نائب قنصل فرنسى فى دمياط فى فترات متعددة ومتقطعة من القرن الثامن عشر لرعاية المصالح الفرنسية بها ، فما هى المستجدات التى طرأت على وضع دمياط لتدفعها إلى دائرة المصالح الفرنسية آنَ ذاك ؟ .

---

(١) للمزيد من التفاصيل حول هذه النقطة انظر :

Raymond, A., commercants au Caire au XVIII* Siecle, Tome I Damos 1973.

(٢) - Archives Nationales. Affaires Etrangeres, B 3, 171, 1778 & B3, 290, 1775 - 1790.

سنرمز بعد ذلك إلى الأرشيف الوطنى بباريس بالحرفين A.N ، ثم لمجموعة الشئون الخارجية المحفوظة بالأرشيف بالحرفين A.E ثم بعد ذلك رمز ، ثم رقم الوحدة الأرشيفية ، فتاريخها .

أول هذه المستجدات الصراع الإنجليزى الفرنسى على طُرق التجارة الشرقية والوصول إلى الهند ، والتراجع النسبى لأهمية طريق رأس الرجاء الصالح عن الدور الذى لعبه فى التجارة الشرقية بين أوروبا وآسيا ، وظهور فكرة ربط البحرين الأحمر والمتوسط لإيجاد طريق قصير يربط مابين آسيا وأوروبا ، فضلاً عن رغبة فرنسا فى إيجاد أقصر الطرق إلى الوصول إلى الهند ، أكبر مستعمرات عدوتها التقليدية انجلترا .

من هنا لم يكن غريبًا أن يقترح « جاك سافارى » على الوزير الفرنسى « كليبر » فى عام ١٦٥٩ العمل على تمهيد الطريق البرى من أجل هذا المشروع الكبير ، واستئذان الباب العالى (الدولة العثمانية) فى حفر قناة السويس من البحر الأحمر إلى دمياط على البحر المتوسط [١] .

ولن نتحدث هنا عن مشروع توصيل البحرين ، وهو المشروع الذى طالما تَطرّق إليه كُلّ مَنْ تعرض إلى دراسة الجذور التاريخية لقناة السويس ، لاسيما أن مشاريع القناة وتوصيل البحرين ستبتعد بعد ذلك إلى حد كبير عن دمياط . وسنركز دراستنا هنا حول السبب الرئيسى الذى دفع دمياط إلى دائرة المصالح الفرنسية فى القرن الثامن عشر ، بعد طول انقطاع منذ عصر الحروب الصليبية وحملة لويس التاسع الشهيرة على دمياط والمنصورة .

والواقع أن عودة دمياط إلى دائرة المصالح الفرنسية يرجع إلى شهرة دمياط فى تجارة الأرز ، وأهمية الأرز فى التجارة الفرنسية فى القرن الثامن عشر ، من هنا ستوضح دراستنا أهمية الأرز كسلعة فى التجارة الدولية ، والصراع الدولى على هذه السلعة ، وأهمية ميناء دمياط فى تصدير الأرز ، ودور تجارة الأرز فى إيجاد مصالح خاصة لفرنسا فى ميناء دمياط تجعلها تتدخل أحيانًا بشدة للحفاظ على مصالحها الخاصة فى دمياط ، ثم أهمية الدور الذى يلعبه أصحاب المصالح من وراء تجارة الأرز فى دمياط ، وعلاقاتهم بالدبلوماسية الفرنسية فى مصر .

والمصدر المعاصر الوحيد الذى يحدثنا عن زراعة الأرز فى شمال الدلتا آنَ ذاك هو ماكتبه جيرار ، أحد علماء الحملة الفرنسية فى وصف مصر ، يذكر جيرار أن الأرز « لا يُزرع إلا فى الجزء الشمالى من الدلتا ، وهو الجزء الذى يقع بين البحيرات

---

(١) محمد رفعت رمضان : على بك الكبير ، القاهرة ١٩٥٠ ، ص ١١٦ .

التى تحيط بساحلها وبين خط مستقيم يقتسم الدلتا من الرحمانية على الفرع الغربى للنيل حتى المنصورة على الفرع الشرق لهذا النهر ، وهذه الأراضى مخصصة لزراعة هذا المحصول ، إذ قلما يهبط مستوى منسوب النيل هناك بالقرب من مصبه ، وفى موسم المياه الواطئة إلى أكثر من متر أو متر ونصف عن مستوى المنسوب العالى الذى يبلغه خلال فترة فيضانه ، بحيث يكون ميسوراً هناك بأفضل مما هو فى أى مكان آخر ، أن تعطى حقول الأرز نوبات الرى الدائمة التى تحتاج إليها » (١) .

من هنا اشتهرت دمياط بالنوعية الممتازة من الأرز الذى تقدمه للتجارة الخارجية ، وهو الأرز المعروف آن ذاك بالأرز المنزلاوى ، والذى يزداد الطلب عليه فى الأسواق الخارجية ، لجودته العالية وشهرته المعروفة (٢) .

وغنى عن البيان أهمية اشتداد الطلب من جانب المستهلك الأوروبى على السلع الشرقية ، ونشوء نمط استهلاكى أوروبى يسعى حثيثًا إلى السلع الشرقية . ولن نتحدث كثيراً عن الذوق الأوربى فى طلب الأرز كسلعة شرقية ، ولكننا سنقصر حديثنا هنا حول فرنسا وأهمية الأرز المصرى لها ، ولا أدل على هذه الأهمية مما تذكره الوثائق الفرنسية المعاصرة من أن الأرز المصرى المصدر من دمياط قد مثل نسبة لا بأس بها من الاحتياجات الغذائية الضرورية للجيش الفرنسى المرابط فى جنوب فرنسا (٣) . من هنا كان هَمُّ القناصل الفرنسيين الحرص على استمرار تصدير الأرز من دمياط إلى مرسيليا .

ومن ناحية أخرى كانت مصر آن ذاك ولاية عثمانية ، وبالتالى تنطبق عليها السياسات العامة التى اتبعتها الدولة العثمانية بتحريم تصدير الحبوب والمُؤَن الغذائية إلى الدول الأوروبية ، ويُرجع البعض ذلك إلى سياسة العداء بين الطرفين والحروب المستمرة مع بعضهم ، وأهمية الحبوب والمؤن بالنسبة للإمدادات الغذائية للجيوش ، أو إلى أسباب دينية برغبة الدولة العثمانية حرمان « الكفار » من خيرات المسلمين .

---

(١) انظر تفاصيل عن زراعة الأرز فى مصر : جيرار : الحياة الاقتصادية فى مصر فى القرن الثامن عشر ، وصف مصر ، الترجمة العربية ، جـ ٤ ، ص ٥٣ ، ٥٩ ، القاهرة د.ت .

(٢) Savary, Lettres sur l'Egypte, Tome I, p. 283.

(٣) N.A., A.E., Bl, 328, 1748.

وفى دراسته عن التجارة فى مصر فى القرن الثامن عشر لا يقلل ريمون من أهمية العامل الدينى التقليدى فى سياسة الدولة العثمانية فى تحريم تصدير الحبوب والأغذية إلى أوربا ، بحكم طبيعة العصر وسيادة المفاهيم الدينية حينئذٍ ، ولكنه يبرز أهمية عامل المصلحة الاقتصادية ، ويرى أن الدولة العثمانية قد لجأت إلى سياسة التحريم لأسباب ذاتية ، فبالنسبة لموضوع بحثنا أصبحت مصر هى المورد الأول للأرز للدولة العثمانية ، ومن هنا كان حرصُ الدولة العثمانية على احتكار تجارة الأرز عاملًا رئيسيًّا وراء سياسة تحريم تصديره .

ويؤيد ريمون مقولته بالأرقام ، فبالنسبة لميناء دمياط – محط دراستنا – كان يُصَدَّرُ منه سنويًّا – فى القرن الثامن عشر – فى المتوسط ٢٨٥٤٤ أردبًا تقريبًا ، لا يذهب منه إلى أوروبا سوى ثمانية آلاف أردب ، أما الباقى فيذهب إلى الدولة العثمانية بولاياتها الآسيوية والأوروبية ، أى أن ما يذهب إلى أوروبا من إجمالى الأرز المصدر من دمياط لا يتجاوز ٢٨٪ من إجمالى الأرز ، فى حين تصل نسبة تصدير الأرز إلى الدولة العثمانية ٧٢٪ من إجمالى الأرز المصدر من دمياط (١) .

وفى أواخر القرن الثامن عشر يقدر جيرار فى وصفه للتجارة بين مصر وفرنسا إجمالى صادرات مصر من الأرز إلى فرنسا بحوالى ٥ آلاف أردب سنويًّا ، أى أن فرنسا تستورد من مصر مايقدر نسبته بـ ١٧٫٥٪ من إجمالى الأرز المصدر للخارج ، وحوالى ٦٢٫٥٪ من إجمالى الأرز المصدر إلى أوروبا ، مما يوضح مدى أهمية الأرز المصرى بالنسبة للتجارة الفرنسية (٢) .

والمثال السابق يطرح علينا تساؤلاً غاية فى الأهمية ، وهو استمرار تصدير الأرز من دمياط إلى أوروبا وفرنسا خاصة ، برغم سياسة التحريم المعلنة من قِبَلِ الدولة العثمانية ، والإجابة عن هذا السؤال كما سنرى تبرز أهمية تقدم عامل المصلحة الاقتصادية على الاعتبارات الدينية التقليدية .

وتشير الوثائق الفرنسية إلى عظم المأزق الذى وقعت فيه الإدارة الإقليمية فى مصر ، فهى من ناحية مجبرة كإدارة تابعة للدولة العثمانية على قبول سياسة التحريم

---

(١) Raymond, Op. Cit., p. 186.

(٢) جيرار : المصدر السابق ، ص ٣١٠ .

ونلاحظ هنا مدى استخدام الدولة للرسوم الجمركية فى محاولة الحد من هذه التجارة ، إذ أن نسبة الرسوم الجمركية المفروضة على الأرز المصدر من دمياط إلى الدولة العثمانية تساوى ٢٣٪ من قيمة الرسوم المفروضة على الأرز المصدر إلى أوروبا ، أو بصورة أخرى ، فإن الرسوم المقررة على الأرز المصدر إلى أوروبا تساوى أكثر من أربعة أضعاف مثيله المصدر إلى الدولة العثمانية وولاياتها .

وإزاء دخول دمياط دائرة المصالح الفرنسية نتيجة أهمية تجارة الأرز من دمياط إلى فرنسا ، كان لابد أن يتبع ذلك مشاريع ومحاولات فرنسية لإقامة قنصلية فرعية فى دمياط ترعى شئون التجارة والتجار الفرنسيين والمصالح الفرنسية بصفة عامة ، وأول هذه المشاريع يعود إلى عام ١٦٦٤ حيث عهد القنصلان الفرنسى والإنجليزى فى القاهرة إلى Coppin الفرنسى بأن يتولى بصفة غير رسمية منصب نائب القنصل فى دمياط على أن يرعى مصالح كل من إنجلترا وفرنسا هناك ، لكن هذه المحاولة الأولية لإنشاء قنصلية فرعية لم يكتب لها النجاح (١) .

وفى رأينا أن فشل المحاولة الأولى لإنشاء قنصلية فرنسية فى دمياط يرجع إلى عدة عوامل لعل على رأسها إنشاء قنصلية مشتركة ترعى المصالح الفرنسية والإنجليزية برغم تعارض مصالح كلا البلدين ، أضف إلى ذلك أن هذه المحاولة المبكرة لم تنشأ نتيجة مصالح فرنسية حية كالتى نشاهدها فى القرن الثامن عشر ، فضلاً عن عدم الأعتراف الرسمى للإدارة الفرنسية بهذه القنصلية .

وعلى العكس من ذلك يشهد مطلع القرن الثامن عشر من جديد إعادة التفكير بصورة جدية لإنشاء قنصلية فرنسية فرعية فى دمياط ، ويتضح مدى أهمية المصالح الخاصة لفرنسا فى دمياط ، ونقصد بها تجارة الأرز ، فى السر وراء محاولة إنشاء القنصلية من جديد ، إذ يذكر القنصل الفرنسى فى القاهرة دومايه فى عام ١٧٠٠ أنه قد وصل إلى دمياط فى خلال شهرين أو ثلاثة أشهر من ١٠ سفن إلى ١٢ سفينة فرنسية نجحت فى أن تُشْحَنَ بالأرز إلى مرسيليا ، ولكن القباطنة الفرنسيين شكوا من عدم توافر حماية لهم فى دمياط ، وأنهم يدفعون رسومًا جمركية أعلى من المطلوب ، وبالتالى ضرورة

---

(١) Clement, Les Francais d'Egypte aux XVII^{e} et XVIII^{e} Siecles, p. 13.

إنشاء قنصلية فرنسية فى دمياط ، وقد دفعت هذه الضغوط دومايه إلى الإسراع بإقامة نائب قنصل مؤقت فى دمياط على أن يأتى الرد الرسمى على اقتراحه بإنشاء القنصلية من الوزير المختص فى فرنسا .

وبالفعل صدرت موافقة الوزير المختص فى فرنسا (البلاط الفرنسى) على تعيين نائب قنصل فى دمياط فى عام ١٧٠١ ، ولكن المشكلة أن الأمور قد اشتعلت فى دمياط بين الأهالى من جهة والفرنسيين والأجانب بصفة عامة من جهة أخرى ، وترى بعض المراجع الفرنسية أنه ما إن تم الاعتراف الرسمى بالقنصلية الفرنسية فى دمياط حتى هاج الأهالى فى دمياط معترضين على هذا الإجراء . ويصف لنا بعض الرحالة مظاهرة اعتراض قامت بها جماهير دمياط ضد الوجود الأجنبى فى دمياط ، وأتى على رأس هذه المظاهرة أحد المشايخ ومعه حوالى خمسين إلى ستين شيخًا ضريرًا ، والعشرات من الأطفال ، وواضح من هذا الوصف أنهم أساتذة وطلبة الكتاتيب الدينية فى دمياط ، ورفع هؤلاء المتظاهرون شعار عدم بقاء الفرنسيين فى دمياط .

ولكن من الملاحظ أن أحداث الشغب التى قاموا بها لم تقتصر على الفرنسيين فحسب ، وإنما امتدت إلى غيرهم ، فتم نهب الكنيسة اليونانية والعديد من المتاجر اليونانية ، وبعض المتاجر الفرنسية ، ونجا بيت القنصل من النهب والاعتداء لقيام بعض جنود الانكشارية بحراسته ، ونتيجة لهذه الفتنة اختفى الفرنسيون بعيدًا عن الأنظار لمدة ثلاثة أيام حتى هدأت الفتنة ، وعندها قرر الفرنسيون مغادرة دمياط بصفة نهائية (١) .

وواضح أن وراء هذه الفتنة عدة عوامل ، ربما يأتى العامل الدينى بصورة وجيهة فى المقدمة ، ورغبة أهالى دمياط فى إبعاد الأجانب أو غير المسلمين عن مدينتهم ، ولكن هذا العامل فى الحقيقة لا يمكن أن يكون العامل الرئيسى ، فربما يكون هو العامل الذى استخدم فى تهييج العامة ، ولكنه ليس الدافع وراء الأحداث ، ونرجح أن يكون العامل الاقتصادى هو الدافع وراء هذه الأحداث ، وأن المسألة فى الأصل تعارض المصالح بين جماعات المنتفعين من وراء تجارة الأرز ، كما سيأتى الحديث عنهم تفصيلا ، لأن النهب استهدف المتاجر والوكالات التجارية الأجنبية ، والفرنسية بصفة خاصة ، نتيجة

---

(١) Clement, Op. Cit., p. 121.

تزايد أهمية الدور الفرنسى فى تجارة الأرز ، لا سيما منذ إنشاء القنصلية المؤقتة فى دمياط .

وتذكر وثائق غرفة التجارة فى مرسيليا [١] اسم أكبر تاجر فرنسى فى تجارة الأرز فى دمياط آن ذاك وكيف نجح منفردًا - ولحسابه الخاص - فى خلال أربعة عشر شهرًا أن يشحن ٥٦ سفينة بالأرز من دمياط إلى مرسيليا . وفى تقديرنا أن هذا النشاط قد أثار حنق منافسيه من أهل البلد ومن الشوام ، لذلك كانت متاجر جونا (التاجر الفرنسى) فى مقدمة المتاجر التى نُهبت فى الفتنة السابقة ، مما اضطره إلى اغلاق تجارته فى دمياط ، ومحاولة حصوله على تعويضات عما أصابه من الجانب الفرنسى - وليس المصرى - الذى لم يكن يقدم تعويضات آن ذاك .

واستمر الوجود الفرنسى بلا قنصلية فى دمياط حتى عام ١٧٧٤ حينما أرسل القباطنة الفرنسيون رسالة إلى القنصل الفرنسى فى القاهرة يذكرون فيها أنه بإزاء ازدهار تجارة الأرز فى دمياط فإنهم يطالبون بتعيين نائب قنصل فى دمياط ليحمى القباطنة الفرنسيين من تعنت رجال الجمارك . ولم تنجح محاولات ضغط هؤلاء القباطنة إلا فى عام ١٧٧٦ ، حيث تم تعيين نائب قنصل فرنسى فى دمياط من جديد . لكن الوثائق الفرنسية تقرر أنه لم يكتب لهذه التجربة الجديدة الاستمرار طويلا ، إذ سرعان ماصدرت الأوامر فى عام ١٧٧٩ م بإلغاء قنصلية دمياط مرة أخرى [١] . فما هو السر وراء عدم نجاح أى محاولة لإقامة قنصلية فرنسية فى دمياط ، مع نمو المصالح الفرنسية بها ؟ .

من أهم معوقات الوجود الفرنسى فى دمياط الدولة العثمانية ذاتها ، فلقد أدى تحريم الدولة العثمانية لتصدير الأرز من مصر إلى أوروبا ، وإصرار بعض التجار الفرنسيين على مزاولة هذه التجارة المحرمة غالبًا ، والمكروهة أحيانًا ، إلى المزيد من سخط الدولة العثمانية وتدخلها بالاحتجاج لدى البلاط الفرنسى لمنع التجار الفرنسيين من مزاولة هذه التجارة ، وإزاء هذا الاحتجاج أصدر البلاط الفرنسى فى عام ١٧٣٠ مرسوماً ملكيًا لأولى الأمر أنه بناء على الأخبار التى وصلت إلى علم البلاط بذهاب بعض ربابنة

---

(١) C.C.M., J. 1703, Affaire Jocuna freres contre la chambre de commerce, 1701-1709.

(٢) A.N.A.E., B3, 30 & 52, 1779.

السفن الفرنسية إلى دمياط لممارسة تجارة الأرز ، مع علمهم بتحريم ممارسة هذه التجارة ، ومنع تصدير الأرز إلى ما أطلق عليه المرسوم (البلاد المسيحية) ، فإن هذا التصرف يعرض أبناء الأمة الفرنسية فى مصر للتجاوزات من قبل الإدارة العثمانية ، ويعرض مصالح أصحاب السفن الفرنسية فى مصر للخطر إذ ما أقدمت الإدارة العثمانية على مصادرة هذه السفن كما تقضى بذلك اللوائح العثمانية ، ويرى المرسوم الملكى الفرنسى أن هذه الأضرار المادية الجسيمة ستكون نتيجة طبيعية لإصرار ربابنة السفن الفرنسية على تصرفاتهم غير القانونية ، أى ممارسة تجارة الأرز فى دمياط ، وبالتالى عليهم وحدهم تحمل هذه الأضرار ، ولا تتحمل الإدارة الفرنسية تبعات ذلك .

وحتى تتحاشى الإدارة الفرنسية وقوع أى مشاكل مع الإدارة العثمانية فى دمياط من جراء سلوك الرعايا الفرنسيين ، أصدر البلاط الفرنسى تحذيرات موجهة إلى كل الموظفين والمسافرين والبحارة الفرنسيين المتجهين إلى دمياط بمنع استئجار مساكن خاصة فى دمياط طيلة مدة رسو السفن الفرنسية فى الميناء ، ومنعهم حتى من النزول من سفنهم إلى المدينة ، ويستثنى من هذا القرار ربابنة السفن الفرنسية ، إذ يمكنهم وحدهم النزول إلى الميناء والمدينة فى حالات الضرورة على أن يتناولوا الغذاء ، مع العودة للنوم على ظهر السفينة ، وليس فى المدينة ، على أن تكون العودة إلى السفينة قبل حلول الليل ، ويوقع على المخالفين لذلك غرامة نقدية قدرها ألف جنيه ، مع استثناء خاص للربابنة الفرنسيين الذين يمارسون تجارة الأرز لحساب الأتراك لا لحسابهم الخاص ، طالما سار الأمر كالمعتاد دون إثارة مشاكل [1] .

هكذا أدى استمرار بعض الفرنسيين فى تجارة الأرز المحرمة إلى احتجاج الدولة العثمانية ، وضرورة تدخل البلاط الفرنسى لوضع العديد من القيود حول نشاط الفرنسيين فى ميناء دمياط ، حفاظاً على المصالح الفرنسية العليا ، والعلاقات العثمانية الفرنسية .

ومن ناحية أخرى أدى تحريم تجارة الأرز والحاجة الماسة إلى استمرار هذه التجارة إلى ظهور أصحاب المصالح من وراء هذه التجارة ، ويأتى على رأس هؤلاء المسيحيون الشوام الذين سيطروا منذ منتصف القرن الثامن عشر على جمارك موانىء مصر ،

---

(١) C.C.M., J. 1648, Ordonnance 6 Octobre, 1730.

وأصبحت لهم اليد الطولى فى التجارة المصرية آنَ ذاك ، ومن أهم هذه العناصر الشامية ميخائيل فخر ، الذى استطاع بطرقه الخاصة أن يحصل على امتياز من الإدارة فى القاهرة باحتكار تجارة الأرز فى دمياط . ولقد أدى هذا الاحتكار إلى شَرَهِ ميخائيل فخر فى التعاملات التجارية ، حيث أصبحت هذه التجارة كالبقرة الحلوب له ، وتسجل الوثائق الفرنسية أنه منذ توليه تجارة الأرز فى دمياط أثار سخط الربابنة الفرنسيين بابتزازهم إلى الحد الذى دفعهم إلى تقديم الشكاوى إلى القنصل الفرنسى فى القاهرة .

ويأخذ هؤلاء الربابنة على ميخائيل فخر أنه بمقتضى احتكاره لتصدير الأرز أصبح الوسيط الأوحد بين الفرنسيين والتجار المحليين ، مما يضيف أعباء مالية جديدة على هذه التجارة ويضعهم تحت جشعه . أضف إلى ذلك لجوء ميخائيل فخر إلى الخداع فى نوعية الأرز عن طريق توريده لنوعيات أقل جودة من الأرز المتفق عليه ، وفضلاً عن الفارق فى الأسعار بين النوعية الجيدة والنوعية الأقل جودة من الأرز ، هذا الفارق الذى يذهب لصالح ميخائيل فخر بغير وجه حق ، تشير الوثائق الفرنسية إلى مدى خطورة هذا التصرف على مصلحة الدولة العليا ، نتيجة اعتماد الجيش الفرنسى المرابط فى جنوب فرنسا على هذا الأرز ، وبالتالى فإن أى تلاعب فى جودة هذا الأرز سينعكس بالسوء على صحة هؤلاء الجنود (١) .

ولا تعطى لنا الوثائق الفرنسية تفاصيلَ عن عملية التلاعب فى نوعيات الأرز وكيفية وقوع ربابنة السفن الفرنسية فى شباك هذا الخداع ، إلّا أن الرحالة « سافارى » يوضح لنا هذا الأمر إلى حد كبير ، فنتيجة الطبيعة الجغرافية لميناء دمياط والتقاء النيل بالبحر المتوسط ، لا تستطيع السفن الدخول إلى الميناء وإنما تنتظر فى البحر حتى تأتى القوارب المحلية – التى يمكنها الدخول من النيل إلى البحر – المحملة بالأرز ليتم شحن السفن الفرنسية بها . ويذكر « سافارى » أنه : « كثيرًا ماتم استبدال حمولة القوارب المحملة بالأرز من النوع الممتاز ، والتى ترحل ليلاً لتنقل حمولتها إلى السفن الكبيرة فى الميناء ، بحمولات أخرى من نوعية أقل فى الجودة ، ولطالما أشتكى قباطنة مرسيليا من جراء هذا الاحتيال ، ولكنهم لم يستطيعوا فعل شىء ، فهذا المجال من النقل قد غدا وسيلة للاحتيال » (٢) .

---

(١) A.N. A.E. Bl, 328, 1748.

(٢) Savary, Op. Cit., p. 284.

ولقد أثار هذا التصرف القنصل الفرنسى الذى عمل على اتخاذ كافة مافى وسعه من أجل تنحية ميخائيل فخر عن منصبه ، وعن احتكار تصدر الأرز فى دمياط . وقد أدرك هذا القنصل بفضل إقامته فى البلاد أسلوب الإدارة فى مصر آنَ ذاك ، ودور الثقات فى عملية صنع القرار ، من هنا يلجأ القنصل الفرنسى إلى أحد كبار « المشايخ » – لم تحدد الوثائق اسمه – للتدخل لدى الإدارة للموافقة على تنحية ميخائيل فخر ، مع السماح باستمرار تجارة الأرز بين دمياط ومرسيليا . ولا تذكر الوثيقة مصلحة هذا « الشيخ » من جراء تدخله لدى الإدارة ، أو حتى وجود مصالح خاصة بينه وبين القنصل الفرنسى ، وأن وصف القنصل الفرنسى هذا الشيخ قائلا : « إن له ميلاً واضحًا نحو مصالحنا » مما يعطينا انطباعات واضحة عن نمط الإدارة فى مصر ، وأهمية تجارة الأرز وأصحاب المصالح من ورائها ، وأهمية المصالح الفرنسية فى ميناء دمياط ، كما ستتضح بعد ذلك .

وهنا تبرز الوثائق الفرنسية أهمية الصراع بين أصحاب المصالح من وراء تجارة الأرز فى دمياط ، فعلى الجانب الأول يأتى ميخائيل فخر واحتكاره لتجارة الأرز ، وحرصه الشديد على بقاء الاحتكار فى يده ، مما يدفعه إلى شراء ذمم بعض المسئولين وأصحاب النفوذ ، سواء فى دمياط أو حتى فى القاهرة ، ويزداد الأمر حدة بانقسام الجانب الفرنسى على نفسه ، فبينما وقف القنصل الفرنسى والربابنة الفرنسيون فى وجه ميخائيل فخر وقف التجار الفرنسيون بجانبه وطالبوا ببقائه فى دمياط لارتباط مصالحهم الخاصة به من أجل ضمان استمرار تجارة الأرز المحرمة أصلاً ، فأمل هؤلاء التجار الفرنسيين هو استمرار التجارة ، بغض النظر عن مسألة ارتفاع أسعار تصدير الأرز ، أو حتى التلاعب فى نوعيته .

ويصف القنصل الفرنسى حدة الصراع على احتكار تجارة الأرز قائلاً : « لقد كان هدفى المطلق استبعاد ميخائيل فخر الذى يتمتع هنا بالكثير من الموالين ، حتى من بين تجارنا ، حتى بدا لى أنه ليس هناك أهمية لأصواتنا ، وأنه (أى : ميخائيل فخر) واثق تمامًا أنهم قادرون على إبقائه فى وظيفته رغمًا عنى أو عن الربابنة الفرنسيين وشكايتهم » (١) .

على أية حالٍ ، نجح فريق الضغط الفرنسى وأنصاره من الثقات المحليين في إبعاد

---

(١) A.N.A.E., BI 328.

ميخائيل فخر عن تجارة الأرز فى دمياط ، وكسب القنصل الفرنسى الجولة بنجاح عظيم ، ووصل القنصل فى نجاح مساعيه إلى أن سمحت له الإدارة فى القاهرة بحرية ترشيح من يراه القنصل صالحًا ليتولى التزام تجارة الأرز فى دمياط ، وسواء عاد ذلك إلى ثقل جماعة الضغط التى شكلها القنصل الفرنسى أو عظم هداياه ، أو إحساس الإدارة فى القاهرة بأهمية المصالح الفرنسية والمحلية فى استمرار تجارة الأرز فى دمياط ، فإن استبعاد ميخائيل فخر والسماح للقنصل الفرنسى بترشيح من يراه لالتزام الأرز فى دمياط يعد خير مثال على عظم المصالح الفرنسية فى دمياط آنَ ذاك ، ويشكل نصرًا مهمًا للدبلوماسية الفرنسية فى مصر .

وتتضح أهمية الضغوط الفرنسية عند ترشيح ملتزم جديد لتجارة الأرز فى دمياط ، وضرورة أن يتفق هذا الملتزم مع المصالح الفرنسية ، ففى البداية رشح القنصل الفرنسى والربابنة الفرنسيون مسيحيًا شاميًا آخر يدعى شمس موسى ، وكان السبب الرئيسى وراء دفع شمس موسى لدائرة الترشيح توافقه مع المصالح الفرنسية ، فعلى حد تعبير القنصل : « مكث شمس موسى فترة من الزمان فى مرسيليا ، كما أن له أخاً استقر هناك ، وأخًا ثالثًا يقطن فى باريس ، ولقد جعلته هذه الملابسات أكثر تهيؤًا وأهمية لخدمتنا » .

لكن هذا الترشيح لم يحظَ بالقبول من جانب التجار الفرنسيين نتيجة خلافات سابقة بينهم وبين شمس موسى حول تجارة أقمشة الجوخ الفرنسى ، وهو الأمر الذى لا تقدم عنه الوثائق تفصيلات كثيرة . على أية حال أدى هذا الأمر إلى اضطرار القنصل الفرنسى إلى سحب هذا الترشيح من أمام الإدارة فى القاهرة ، وسمحت الإدارة للقنصل من جديد بإعادة ترشيح من يراه لتولى التزام تجارة الأرز فى دمياط .

وهنا يظهر على الساحة تطور جديد ، إذ تلجأ أسرة « فخر » التى تم طرد عميدها ميخائيل فخر من التزام تجارة الأرز إلى إيجاد حل وسط مع القنصل الفرنسى يضمن لها استمرار بقاء التزام تجارة الأرز فى يدها ، ذلك الالتزام الذى هو أساس وجودها الاقتصادى ومكانتها الاجتماعية فى دمياط ، من هنا يستقر رأى أفراد الأسرة على ترشيح أحد أفرادها لتولى هذا الالتزام ، وهو الوجه الجديد « حنا فخر » ابن أخ الملتزم السابق ميخائيل فخر . ويصف القنصل الفرنسى « حنا فخر » قائلا : « هو شاب يبدو رزينًا جدًا ، وعلى درجة كبيرة من الذكاء ، كما أعطانى كل الضمانات

التى أريدها ، وأن يسلك مسلكًا أفضل من عمه »[١] ، ولا تعطى الوثيقة تفاصيل حول نوعية هذه الضمانات التى أعطاها « حنا فخر » للقنصل الفرنسى ، والتى بمقتضاها وافق القنصل الفرنسى على ترشيحه لالتزام تجارة الأرز فى دمياط ، إلا أنه من الواضح أنها فى مجملها تحترم المصالح الخاصة لفرنسا فى تجارة الأرز فى دمياط .

هكذا يتضح لنا أهمية الدور الذى يمكن أن تلعبه سلعة ما – كالأرز – فى التجارة الدولية آنَ ذاك ، ومدى تأثير تجارة الأرز على وضع دمياط ، ثم دور تجارة الأرز فى إيجاد مصالح خاصة لفرنسا فى دمياط تجعلها تتدخل أحيانًا بشدة للحفاظ على مصالحها الخاصة ، وأهمية الدور الذى لعبته الدبلوماسية الفرنسية فى الضغط على الإدارة المصرية ، وأصحاب المصالح من وراء تجارة الأرز ، والنجاح الذى حققته الدبلوماسية الفرنسية فى إجبار هذه القوى على الرضوخ للمصالح الفرنسية الخاصة .

* * *

(١) A.N.A.E., Bl, 328.

قائمة المصادر والمراجع

- أولًا - المصادر العربية :

دار الوثائق القومية ، سجلات محكمة دمياط ، سجل ٢٥٦

- ثانيًا - المصادر الفرنسية :

- Archives Nationales, Paris
  Affaires Etrangeres,
  Bl, 328, 1748.
  B3, 171, 1778.
  B3, 290, 1775-1790.
  B3, 30 & 52, 1779.
- Chambre de Commerce, Marseille
  - J. 1702, 1773.
  - J. 1703, 1701-1709.
  - J. 1648, 1730.

المراجع العربية :

- محمد رفعت رمضان : على بك الكبير ، القاهرة ١٩٥٠ .
- نقولا يوسف : تاريخ دمياط منذ أقدم العصور ، دمياط ١٩٥٩ .

المراجع الأجنبية :

- Clement, les français d'Egypte aux XVII^e et XVIII^e siecles, le Caire 1960.
- Raymond, Artisans et Commerçants au Caire au XVIII^e siècle, Tome I, Damas 1973.
- Savary, Lettres sur l'Egypte, Tome 1.

* * *

دولة اليعاربة بين الوحدة الوطنية والانتصارات الخارجية

مقدمة

تتناول هذه الدراسة عدة نقاط أساسية تشكل فى مجملها قضية متكاملة من خلال العلاقة بين الوحدة الوطنية والانتصارات الخارجية خلال عهد اليعاربة ١٦٢٤ – ١٧٤٤ ، ولما كانت دولة اليعاربة تشغل مساحة حضارية هامة في عمر التاريخ الإنساني عمومًا والتاريخ العربي على وجه الخصوص ، فإن ما كُتب عنها لا يتناسب بأي حال ودورها الكبير ، سواء فى طرد البرتغاليين وتعقبهم في كل البحار والمحيطات الشرقية ، أو في وضع الأسس القوية لمقومات الدولة الحديثة بكل ملامحها السياسية والاقتصادية والعسكرية .

لقد جاءت هذه الدراسة نتيجة لما استرعى انتباهي من علاقة وثيقة بين الحروب من أجل الوحدة ، والحروب من أجل التحرير ، حيث أدرك ناصر بن مرشد أن طرد البرتغاليين من عمان لن يتحقق إلا بقدر ما تحققه الألفة والتكاتف بين العمانيين جميعاً ، وهكذا خاض الرجل حربًا ضارية في جبهتين لا تقل إحداهما أهمية عن الأخرى .

ثم تستعرض هذه الدراسة تلك العلاقات الوثيقة بين الوحدة الوطنية والانتصارات الخارجية ، وهي استراتيجية ثابتة آمَنَ بها ناصر بن مرشد ، وعمّقها سلطان بن سيف من بعده ، مما نجم عنها نتائج إيجابية على كل المستويات : العسكرية ، والاقتصادية ، والدولية .

إنّ قضية التوازن الدولي في منطقة الخليج قد تحققت بفضل هذه الاستراتيجية ، ومن ثَمّ عادت عمان لتؤدى دورها الحضاري في حركة التاريخ الإنساني .

ثم تتناول هذه الدراسة الكثير من الجوانب التي عمقت هذه السياسة إلى أن عادت الحروب الأهلية لتطل برأسها من جديد في ظل عدد من الأئمة الذين غابت عنهم هذه الحقيقة الأساسية ، ودخلت البلاد مرحلة أخرى مع أوائل القرن الثامن عشر ، حيث عادت الحروب الأهلية لكي تبدد كل الأعمال الكبيرة التى حققها ناصر ابن مرشد وسلطان بن سيف وغيرهما .

وقد نالت الحروب الأهلية ، من هيبة الدولة ومكانتها ، وبدأت الأطماع الأجنبية تظهر سافرة الوجه في شكل غزو فارسي أوشك على أن يقضي على كل مظاهر الدولة الحديثة .

وفي غيبة التجربة التاريخية عادت الحرب أكثر شراسة وأشد عنفًا ، إلى أن تهيأ للبلاد أن يخرج من بين أبنائها من أعاد لها هيبتها ومكانتها ، حيث ظهر الإمام أحمد ابن سعيد البوسعيدي مع منتصف القرن الثامن عشر .

ولا أستطيع الادعاء بأنني قد استوفيت كل جوانب الموضوع ، وإنما حاولت أن أبرز قضية أساسية تمثل حقيقة مؤكدة من تاريخ الدولة وسياستها ، ولعل ذلك يكون مدخلاً عمليًا لكل أسباب النجاح الذي حققه اليعاربة ، ومن ثم لأسباب ضعف الدولة ونهايتها ، وهي رؤية اجتهدت فيها قدر المستطاع ، ومن اجتهد فأخطأ فله أجرٌ ، ومن أصاب فله أجران .

عمان عند مقدم البرتغاليين :

لعل من أهم التجارب التي نجمت عن حركة التاريخ أن التآلف والتجانس بين عناصر المجتمع (أيّ مجتمع) تعد المقوم الأول لبناء قوته ، وبقدر ما يتحقق هذا التآلف فإنه ينعكس على قوة المجتمع ، كان ذلك قديمًا ، وقبل أن تتكون الدول القومية الحديثة ، وظل بالضرورة باقيًا في كل عصر وفي كل مجتمع .

والمتتبع لتاريخ عمان يلمس هذه الحقيقة بشكل أكثر وضوحًا ، وخصوصًا مع اقتراب القرن الخامس عشر من الانتهاء ، حيث عانت عمان من الفوضى السياسية مع اقتراب نهاية عهد النباهنة ، تلك الدولة التي عمرت خمسة قرون ، لعل القرون الثلاثة الأولى تمثل فترة قوتها ، ومع اقتراب القرن الخامس عشر بدأت عوامل الضعف تعمل في كيانها كنتاج طبيعي لانقسام الدولة إلى ممالك وكيانات ضعيفة عجلت بنهايتها .

وتشير المصادر العمانية إلى أن تاريخ النباهنة لم يكن كله ضعفًا ، وإنما كانت هناك فترات قوة ، حيث حكم عمان بعض الحكام العظام ، لعل أشهرهم فلاح بن محسن [١] .

---

(١) ابن رزيق حميد بن محمد ... الفتح المبين في سيرة السادة البوسعيديين ، تحقيق عبد المنعم عامر ، ود/ محمد مرسي ، من مطبوعات وزارة التراث القومي والثقافة في سلطنة عمان ١٩٧٧ ، ص ٢٥٠ .

وفي فترات قوة الدولة وهيبتها بدت قضية الوحدة الوطنية أكثر وضوحًا في ظل حاكم يتميز بقدر كبير من الحسم والإقدام ، حيث استطاع أن يجمع شمل الوطن في ظل أهداف كبيرة بشكل عاد على البلاد بقدر كبير من الازدهار والقوة ، وهو أمر طبيعي ينطبق على كل التجارب الإنسانية ، حيث يتفرغ الناس لأعمالهم في ظل هيبة الدولة .

ويبدو أن قوة الدولة في عصر النباهنة بدأت تنهار ، ومن ثم بدأت تنهار هيبة حكامها حينما أسندت مناصب ولاة الأقاليم إلى من اشتد فسادهم ، حيث أُهدرت حقوق الناس وامتهنت كرامتهم ، وانهارت قيم العدل والحق ، ومن ثم سادت روح الأنانية ، ولعل أخطر ما أصيبت به دولة النباهنة هو تسرب روح اليأس إلى نفوس الناس ، حيث راحوا يتطلعون إلى التغيير ، مستشهدين بنماذج من الأئمة العظام ، وكلما تضاعفت وطأة الحكام على رعيتهم تضاعف السخط ، بسبب الدماء التي سُفكت ، والأموال التي أُخذت ، ولذا فقد أجمع المسلمون على اختيار أبي الحسن بن عامر الأزدي إمامًا ، ثم الإمام عمر بن الخطاب الخروصي ، وهو الذي حاز أموال النباهنة (١) .

ولكن شوكة النباهنة لم تكن قد انتهت بعد ، حيث خرج سليمان بن سليمان ابن مظفر النبهاني على الإمام عمر الخروصي ، ومن ثم دخلت عمان مرحلة أخرى من الحروب الأهلية الطاحنة ، إلى أن ظهر محمد بن إسماعيل الذي أجمع الناس على إمامته سنة ١٥٠٠ – ١٥٣٠ م مما أكسبه قدرًا كبيرًا من الشرعية ، مكنته من القضاء على سليمان النبهاني .

لم يكن القضاء على سليمان النبهاني كفيلاً بانهيار شوكة النباهنة تمامًا ، ومن ثم فلم تستقر الأوضاع ، بل تفاقمت الأحوال عمومًا ، وانقسم الناس وفقًا لنزعات قبلية ، وبعد مبايعة الإمام بركات بن محمد بن إسماعيل إمامًا ظهرت معارضة مصحوبة باضطرابات وانقسامات قبلية ضاعفت من تردي الأحوال بشكل عام .

ونتيجة لهذه الاضطرابات تحولت عمان إلى مجموعة من المقاطعات الصغيرة يحكمها أمراء وشيوخ ... واتسمت العلاقة بينهم جميعاً بقدر كبير من التوتر ... وفى

---

(١) سرحان بن سعيد الأزكوي ... تاريخ عمان ، المقتبس من كتاب كشف الغمة الجامع لأخبار الأمة ، تحقيق عبد المجيد القيسي ، مطبوعات وزارة التراث القومي والثقافة ، سلطنة عمان ١٩٨٠ ص ٧٥ – ٧٦ .

هذه الأثناء اتخذ البرتغاليون « هرمز » قاعدة عسكرية لهم في حين تبددت القوة العمانية بسبب الحروب الأهلية ... وفي الوقت الذي انشغل فيه العمانيون بسبب خلافاتهم عمل البرتغاليون على مضاعفة سيطرتهم على العديد من المواقع الاستراتيجية في الخليج العربي ، فاستولوا على صحار .

ويعتبر ذلك نقطة تحول خطيرة في تاريخ عمان ، حيث أصبح الساحل العماني كله تقريبًا تحت النفوذ البرتغالي وانصرف أهل عمان لخوض حروب محلية ضارية افتقدت في مجملها إلى الموضوعية ، ونجم عنها انصراف الناس عن عدوهم الحقيقي ، إضافة إلى تعطيل وسائل الحياة وتدهور الأوضاع الاقتصادية بدرجة لم تشهدها عمان طول تاريخها .

لقد سجل « البوكيرك » إعجابه الشديد بالازدهار الاقتصادي الذي كانت عليه المدن العمانية ، وخصوصًا « قلهات » وهي أول ميناء تصل إليه السفن البرتغالية ، حيث كانت تفيض بالخير الذي يأتي إليها من الداخل كما أضاف « البوكيرك » عن « قلهات » أنها ميناء عظيم للشحن البحري ، تأتي إليها السفن لتنقل التمور والخيول إلى الهند [١] .

أما عن مسقط فقد ذكر أنها مدينة كبيرة كثيفة السكان ، محاطة من الداخل بسلسلة من الجبال الشاهقة ، وهي تطل على البحر ، وميناؤها محمّي من جميع الجهات ، وهي المنطقة الحرة الرئيسية لمملكة هرمز ... كما ذكر « البوكيرك » عن صحار أنها مدينة جميلة ذات منازل أنيقة ، ولاحَظَ أن الأراضي الواسعة الممتدة وراءها مزروعة بالقمح والذرة والشعير ، كما أن تربية الماشية والخيول تكثر في تلك المزارع لوجود المراعي وكثافة الأشجار [٢] .

لقد تزامن انطباع « البوكيرك » عن المدن العمانية مع الحروب الأهلية الطاحنة ، غير أن هذا الوصف لا يتناسب والمكانة الزاهرة التي كانت عليها عمان طوال فترة العصور الوسطى ، حيث كانت تمر بها التجارة الآتية من شرق أفريقيا والصين وفارس ،

---

(١) ويلسون ، أرنولد ... تاريخ الخليج ، وزارة التراث القومي والثقافة ، سلطنة عمان ١٩٨١ ص ٩١ - ٩٩ .

(٢) د/ جمال زكريا قاسم ... الخليج العربي في عصر التوسع الأوروبي الأول ١٥٠٧ - ١٨٤٠ م القاهرة ١٩٨٥ ص ٦٥ - ٦٦ .

بالإضافة إلى الحاصلات المختلفة والتي جادت بها الأرض العمانية من نخيل وفواكه وقمح ، ناهيك عن مدنها ، وخصوصًا صحار ، التي أجمع الرحالة العرب والأجانب على أنها من أكثر مدن الإسلام عمارة ومالاً (١) .

وإذا كانت المشكلات الداخلية العمانية قد أدت إلى انصراف الناس عن الاهتمام بأمور معيشتهم ، مما نجم عنه تدهور ملحوظ في الحياة الاقتصادية ، فإن الغزو البرتغالي قد أجهز على البقية الباقية ، وعانت الموانىء العمانية من آثار ذلك التدهور ... وبما أن السواحل العمانية كانت أولى المناطق العربية وقوعًا تحت السيطرة البرتغالية ، فقد عمد « البوكيرك » وهو في طريقه إلى هرمز إلى حرق وتدمير كل السفن العمانية الراسية في الموانىء العمانية ، كقريات ومسقط وخورفكان ، وهكذا توافق الغزو البرتغالي مع فترة ضعف امتدت لتشمل الساحل والداخل ، مما سهل على الغزاة مهمتهم ، لذا فقد كان خليج عمان أول منطقة تشهد فظاعة الغزو البرتغالي وقسوته .

وعلى الرغم من ضراوة العمليات العسكرية البرتغالية فإنها لم تَخْلُ من مقاومة عمانية باسلة ، فبعد أن استولى « البوكيرك » على قريات توجه إلى مسقط فوجدها معززة بالرجال الذين جاءوا إليها من جميع الجهات بعد سماعهم بالتدمير الذي حل بقريات .

لقد كانت مسقط مزودة بوسائل دفاع قوي ، إلّا أن قوة الأسطول البرتغالي دفعت البعض إلى مناشدة « البوكيرك » عدم تعريض المدينة للتدمير ، إلا أن المدافع البرتغالية انطلقت لتدمير المدينة ، فى حين اشتغلت النيران في كل أحيائها ، بما في ذلك المساجد ، في الوقت الذي انطلق فيه الجنود البرتغاليون يأسرون ما يمكنهم أسره ، بما في ذلك النساء والشيوخ والأطفال (٢) .

واللافت للنظر أن كل القوى العربية والإسلامية كانت مستهدفة ، وعلى الرغم من ذلك فلم يحدث أي قدر من التنسيق لمواجهة العدو المشترك ، بل اتسمت العلاقات بين كل القوى العربية والإسلامية بقدر كبير من التصارع ، فها هم العثمانيون يواجهون الفُرس ويعلنون عليهم الحرب ، ويستبيحون عاصمتهم ، فى حين أن المماليك من قبل

---

(١) نقولا زيادة ... الجغرافيا والرحلات عند العرب ، ص ٢٢٥ - ٢٢٦ .

(٢) ويلسون أرنولد ... مرجع سبق ذكره ص ٦٨ .

قد راحوا ينسقون مع البنادقة في محاولة للتصدي للبرتغاليين ، أما بقية القوى العربية في الخليج - كالجبور والنباهنة ومملكة هرمز - فقد اتسمت علاقاتهم بقدر كبير من الصراع ، بل راح كل منهم يتطلع لمد نفوذه على حساب الآخر ، مما بدد قوة الجميع ، وحال دون تضامنهم .

وفي الوقت الذي اتجهت فيه الأنظار إلى العدو القادم من أوروبا فإن كل القوى العربية والإسلامية لم تتفاعل مع الموقف بما يتناسب وخطورته ، بل تبددت طاقات كل القوى في أتون مشاكل فرعية افتقرت في مجملها إلى الموضوعية ، ولم تظهر تكتلات عربية بهدف مواجهة العدو المشترك ، وإنما على العكس ، فقد وصل الأمر إلى أن البرتغاليين قد استعانوا ببعض القوى المحلية للقضاء على أقوى الكيانات السياسية في الخليج ، وهم الجبور (١) .

وهكذا كان وصول البرتغاليين إلى مياه الخليج بداية لحقبة تاريخية واكبتها حالة من التصدع على كل المستويات العمانية ، وانقسمت البلاد إلى كيانات ضعيفة ، وأصبح الساحل العماني من صور إلى مسقط ثم صحار وجلفار تحت السيطرة البرتغالية .

وبينما كان البرتغاليون يجهزون على كل القوى كانت عمان تشهد مولد عهد جديد وزعامة جديدة أرسى دعائمها ناصر بن مرشد بطريقة استوعبت كل القوى العمانية .

جهود الإمام ناصر بن مرشد في توحيد القبائل العمانية :

مع بداية القرن السابع عشر كانت هناك بعض المتغيرات التي حدثت في الخليج العربي لعل في مقدمتها ظهور شركة الهند الشرقية بما تملك من إمكانيات ونفوذ استطاعت أن تبدد قدرًا من سياسة الاحتكار التي فرضها البرتغاليون على الخليج العربي ، ثم دخلت الشركة كطرف أساسي في الصراع الدائر حينما تضامنت مع الشاه عباس في طرد البرتغاليين من هرمز عام ١٦٢٢ وفقاً لاتفاقية ميناب (٢) التي أبرمت بينهما .

---

(١) د/ جمال زكريا قاسم ... مرجع سبق ذكره ص ٨٠ .

(٢) ميناب : منطقة ذات أهمية تقع على الساحل الإيراني عند مدخل الخليج ، لوريمر دليل الخليج ، القسم الجغرافي ، ج ٤ ص ١٥٢٦ .

لقد كان طرد البرتغاليين من هرمز نقطة تَحَوُّل ، مما ضاعفت من مهمة العمانيين ، حيث استقر البرتغاليون على السواحل العمانية وضاعفوا من تحصيناتها ، وخصوصًا مسقط ، التي كانت تعد من أقوى معاقلهم القوية .

لعل من أهم المتغيرات التي حدثت في عام ١٦٢٤ ظهور ناصر بن مرشد كأول إمام للدولة اليعاربة ، واستطاع أن يستوعب كل أبعاد القضية ، وأن يدرك المتغيرات الجارية من حوله ، سواء على المستوى العماني أو على المستوى الخليجي بشكل عام ، ولذا فقد أدرك ثقل المهمة ، وقَدَّرَ كل أبعادها ، حيث اعتقد أن مواجهة البرتغال لا يمكن أن تكون حاسمة إلا إذا استند إلى جبهة وطنية متراصة ومتماسكة ، وهو أمر لا يمكن تحقيقه إلا إذا خاض حروبًا ضارية في سبيل توحيد كل القبائل العمانية .

وبما أن منطقة الرستاق هي التي شهدت بعث إمامة ناصر بن مرشد ، فقد كان عليه أن يبدأ بها ، ولهذا مضى ومعه جمع من أنصاره نحو قلعة الرستاق ، وكان المالك للرستاق ابن عمه مالك بن أبي العرب اليعربي ، وبعد حصار لم يدم طويلا فتحها الإمام (١) .

لقد أدرك الإمام ناصر أن العدو القابع على السواحل العمانية يضاعف من إمكانياته يومًا بعد يوم ، وأن أية محاولة لطرده مشكوك في نتائجها إذا لم يصل بالبلاد إلى حد معقول من الوحدة التي أصبحت هدفًا أساسيًا ، فلم يكن من المعقول أن يبادر بإعلان الحرب على البرتغاليين والبلاد مقسمة (٢) .

لقد أجمعت مصادر التراث العماني على أهمية الدور الذي قام به الشيخ خميس ابن سعيد الشقصي ، الذي كان موضع ثقة أهل الرستاق ، حيث ناصر الإمام في كل خطواته ، بَدْءًا من اختياره إمامًا (٣) ، وانتهاء بالجيوش التي قادها في سبيل تحقيق الوحدة ، ومن الصعب إغفال زعامات قبلية ودينية آمنت بقضية الوحدة . وتشير مصادر التراث العمانى أيضًا إلى أهمية الدور الذي قامت به قبيلة اليحِمد ، حيث ساندت الإمام ناصر بن مرشد ماديًا وبشريًا ، مما كان له أكبر الأثر في تأمين الحرب في بدايتها ،

---

(١) سرحان بن سعيد الأزكوي ... مصدر سبق ذكره ٩٨ – ٩٩ .. عائشة السيار ... دولة اليعاربة ص ٤٦ ، دار القدس – لبنان .

(٢) ابن رزيق ، مصدر سبق ذكره ص ٢٦٣ ، الأزكوي ، مصدر سبق ذكره ص ٩٩ .

(٣) كان ذلك فى سنة ١٠٣٤ هـ / ١٦٢٤ م .

والسيطرة على كل منطقة الرستاق ... لقد وضعت القيادة العسكرية المصالح العليا للبلاد فوق كل اعتبار ، لدرجة أن قرية (نخل) . كان مالكها سلطان بن أبي العرب (عم الإمام ناصر بن مرشد) وعلى الرغم من ذلك ، فقد كانت في مقدمة المناطق التي حاصرتها قوات الإمام إلى أن تم فتحها بعد عدة أيام ، وعين عبد الله بن سعيد الشقصي واليًا عليها (١) .

لقد تميزت الحروب في بدايتها بقدر من الحسم والإقدام الشديدين ، ممَّا ضاعف من إيمان الناس بقضية الوحدة ، حيث التفوا حول الإمام مؤمنين بدعوته ، وأصبحت المنافسة والسبق في معاضدة الإمام مَظْهَرَيْن جديرين بالتسجيل والملاحظة ، وكلما تحقق قدر من الوحدة تضاعف إيمان الناس بقضيتهم ، وتطلعوا إلى غد حتمًا سيتحقق فيه النصر على عدوهم .

ونظرًا لعدالة القضية التي تبناها الإمام ناصر وانتصاراته التي لفتت الأنظار ، فقد بادر أهل نزوى بدعوته إلى ملكها ، ولأهمية نزوى في مخططات الإمام فقد عجل بالسير إليها بنفسه ، إلا أنه – على ما يبدو – لم تكن الدعوة تمثل رغبة بعض أهلها ، الذين تصدوا لمقدم الإمام وبادروه بالحرب ، مما دفعه إلى العودة إلى الرستاق ، حيث جاءه وفد من سمائل برئاسة ملكها مانع من سنان العميري معلنًا ولاءه ومبايعته .

وبما أن نزوى كانت موضع تفكير أساسي في ذهن الإمام فقد توجه من سمائل إليها ، حيث كان لعامل المباغتة أكبر الأثر في إجماع أهلها على المبايعة .

واللافت للنظر حرص الإمام على عدم إراقة دماء المسلمين ، ولذا فقد كان يستخدم كل الإمكانات المتاحة من الإقناع والحجة ، وما كان يلجأ إلى الحرب إلا إذا حَتَّمَتْهَا الظروف ، وفرضتها المصلحة العامة لكافة المسلمين .

ما كان من الممكن أن تتحقق كل تلك الانتصارات الكبيرة إلا بمعاضدة كثير من القبائل التي ناصرت الإمام وهو يتأهب لفتح نزوى ، التي كان بعض أهلها يضمرون له الشر .

---

(١) حميد بن محمد بن رزيق ... مصدر سبق ذكره ص ٢٤٦ ، وجمال زكريا قاسم ... مرجع سبق ذكره ص ١٢٩ ، وعائشة السيار ... مرجع سبق ذكره ص ٤٩ .

وعلى الرغم من الوقوف على نواياهم فإن الإمام نهى عن قتلهم مقابل إخراجهم [١] من وطنهم في العقر ، إلا أنهم لَجَئُوا إلى مانع بن سنان في سمائل ، الذي سبق وأعطى عهدًا للإمام ، حيث ثبت أنه لم يكن صادقًا في عهده ، بل كان يتحين الفرصة للنيل من الدعوة وقائدها .

ونظرًا لثقل المهمة التي كان يقوم بها الإمام ناصر بن مرشد ، واستعدادًا لحروب قد تطول أكثر مما يتوقع ، لذا فقد كان يقيم في كل المناطق التي يدخلها حصنًا أو قلعة ، بعد أن يترك أحدًا من أتباعه لكي يواصل مهمته في ترسيخ مبادئه ومواصلة دعوته التي أخذت تنساب في كل أرجاء عمان .

لقد حققت هذه السياسة تعاظم نفوذ الإمام بالإضافة إلى عدالته التي كانت مضرب المثل ، مما دفع المترددين إلى القدوم طالبين بسط سلطته العادلة [٢] .

ومما يؤكد صعوبة المهمة التي مضى الإمام في سبيل تحقيقها كثرة الممالك التي أقيمت على مقومات قبلية ، بحيث يصعب التمييز بين القبيلة والحكومة [٣] ... لقد كان الحكم لشيخ القبيلة الذي كان يُطلق عليه تجاوزًا ملكاً أو أميرًا ، أما فكرة الدولة القومية الواحدة والإدارة المركزية فهي من المفاهيم التي لم تتعود عليها القبائل في تلك الفترة .

كان الإمام ناصر يعول أهمية كبيرة على نزوى ، ولذا فبمجرد أن فتحها فضل أن يتريث لبعض الوقت ، ويبدو أنه كان يتوقع توافد القبائل عليه تجنبًا لإراقة الدماء ، وقد تحقق ما توقعه الإمام ، حيث استجاب لدعوته أهل « منح » وسمد الشأن « وابرا » وكل المنطقة الشرقية ، ماعدا « صور » و« قريات » ، حيث كانتا تحت السيطرة البرتغالية [٤] .

ومن الظواهر اللافتة في سياسة الإمام أنه كلما حقق قدرًا لا بأس به من الوحدة راح يتريث ترقبًا لرد فعل قد يحول دون الحرب ، وقد تكون فرصة لإعادة ترتيب

(١) نور الدين السالمي ... مصدر سبق ذكره ، ج ٢ ص ٥ .. وسرحان بن سعيد الأزكوي .. ص ٩٨ - ٩٩ .

(٢) نور الدين السالمي ... مصدر سبق ذكره ، ج ٢ ص ٥ .

(٣) روبرت جيران لاند ... عمان مسيرا ومصيرا ، ترجمة محمد أمين عبد الله ص ١٩ .

(٤) نور الدين السالمي ... مصدر سبق ذكره ص ٥ - ٦ .

إن الإمام ناصر بن مرشد كان يغتنم أية فرصة لتوحيد البلاد وتقوية الجبهة الداخلية ، ولم يقبل مبدأ أنصاف الحلول ، وصولاً إلى عودة الوحدة الوطنية وترسيخ دعائم الدولة .

لقد بدأ الإمام يأخذ بسياسة النَّفَس الطويل ، ولذا فقد أخذ يبعث بالسرايا لمناقشة خصمه في مكان ما ، في حين كان يُبيت النية لخوض حرب كبيرة في منطقة أخرى ، وخصوصًا حينما أوشك أن يستكمل سيطرته على معظم أنحاء عمان ، حيث بعث بعِدَّة سرايا يقودها محمد بن غسان النزوي ، الذي صدرت إليه الأوامر لكي يتوجه إلى (الجو) ناحية البريمي لكي يفتحها تمهيدًا لدخول قرية « لوى » التي كان يقطنها الجبور الذي بَدَءُوا يغيرون على جيش الإمام كلما سنحت لهم الفرصة [1] .

لقد كانت السيطرة على منطقة « الجو » عملية سهلة ، أما « لوى » فقد استعصى فتحها على قوات الإمام بسبب تحصيناتها وكثرة المدافعين عنها ، مما اضطر محمد بن غسان النزوي إلى طلب العون من القبائل القريبة من صحار ، والتي كانت تتطلع إلى قوات الإمام وتترقب انتصاراتها بهدف التعجيل لِلّقاء الحاسم بين العمانيين والبرتغاليين في صحار .

وبعد حصار دام أسبوعًا تمت السيطرة على « لوى » ، حيث بدأ التفكير عمليًّا في صحار .

وهكذا استطاع الإمام ناصر بن مرشد خلال سنوات حكمه التي امتدت حتى سنة ١٦٤٩ أن يحقق لعمان تماسكها ، ويؤمنها إلى حد كبير من الأخطار الخارجية التي كانت تتعرض لها ، وكانت محاولاته نحو الوحدة باعثة على تحقيق الأمل الكبير الذي افتقرت إليه البلاد منذ زمن طويل [2] .

وينفرد الإمام ناصر بن مرشد بين أئمة اليعاربة بتصديه لهذا الكم الهائل من المشكلات ، حيث حارب في جبهتين (الساحل والداخل) .

---

(١) سرحان بن سعيد الأزكوي ... مصدر سبق ذكره ، ص ١٠٢ – ١٠٣ ، والسيابي ... عمان عبر التاريخ ، ج ٣ ص ٢٠١ .

(٢) لوريمر ... دليل الخليج ، القسم التاريخي ، ج ٢ ص ٦٣٣ .

وعند وفاة الإمام ناصر بن مرشد (فى ٢٣ أبريل عام ١٦٤٩) كانت كل القبائل العمانية تحت لواء واحد ... وعمومًا فإن فترة الإمام ناصر بن مرشد تُعَدُّ من أغنى وأخصب الفترات في تاريخ اليعاربة ، وأن دوره في سبيل الوحدة الوطنية يعد أساسًا لكل الانتصارات اللاحقة ضد البرتغاليين .

وإذا كانت عمان منذ عام ١٦٢٤ وحتى وفاة الإمام ناصر بن مرشد عام ١٦٤٩ قد واجهت حروبًا أهلية طاحنة ، فإنها قد أنهت مرحلة التمزق والتشتت ، حيث بدأت مرحلة جديدة من الوحدة في ظل حكومة مركزية ، وانتهى العهد الذي كانت فيه عمان مقسمة إلى دويلات صغيرة تحت رئاسة ملوك ضعاف ارتضوا أن يحكموا دويلات مزيلة بدلا من أن تقوى بلادهم وتتحد ، وبكل المقاييس فإن جهاد الإمام ناصر بن مرشد في سبيل الوحدة يعد صفحة ناصعة من الكفاح والبطولات .

الصراع العماني البرتغالي في عهد اليعاربة :

إذا كان الإمام ناصر بن مرشد قد أنجز تحقيق الوحدة الوطنية فإن الوجود البرتغالي علي السواحل العمانية كان في حاجة إلى إمكانات جديدة تفوق تلك الإمكانات التقليدية ، التي استخدمها اليعاربة في سبيل القضاء علي الحروب الأهلية والانصياع لسلطة الدولة الموحدة ... لقد وقعت كل المعارك التي خاضها الإمام ناصر بن مرشد من أجل الوحدة على اليابسة أما البرتغاليون فقد كانوا أهل بحار ، وطريقتهم في الحرب اعتمدت على السفن التي شهدت طفرة كبيرة منذ الكشوف الجغرافية ، ولذا فإن سياستهم الاستعمارية اعتمدت على احتلالهم لكثير من المدن والقلاع والحصون ، التى تقع في طريق البحار والمحيطات دون اللجوء إلى التعمق في اليابسة ، الأمر الذى لا يتناسب وإمكاناتهم البشرية .

لقد أدرك اليعاربة مقدرة عدوهم القادم من أقصى الطرف الأوروبى كدولة بحرية خاضت معارك طاحنة في سبيل الحفاظ على مكانتها ، ولذا فقد كانت العناية بالأسطول وتنمية الموارد الاقتصادية من الركائز الأساسية ، التي اعتمد عليها اليعاربة الذين طوروا أسطولهم التجاري والعسكري مستفيدين من خبرة الدول الأكثر تقدماً في هذا المجال ، وخصوصًا شركة الهند الشرقية البريطانية ، التي أقاموا معها علاقات طيبة مستفيدين

من تنافسها مع السياسة البرتغالية في تلك الفترة (١) قبل أن تنشأ بينهما سياسة الوفاق الجديدة .

وبمجرد أن انتهى الإمام ناصر بن مرشد من القضاء على جميع القوى المحلية ألقى بكل ثقله لمحاربة البرتغاليين ، حيث انتزع منهم صور وقريات ، إذ أسند أمر تحريرهما إلى ابن عمه سلطان بن سيف اليعربي (٢) .

ويبدو أن انتزاع صور وقريات لم تكن مهمة سهلة ، فقد كان التباين واضحًا بين حجم وكفاءة القوتين المتنافستين ، بالإضافة إلى أن الوحدة الوطنية لم تكن قد تحققت بما يتناسب وأعباء المواجهة التي كانت تقتضي قدرًا كبيرًا من الانسجام والتفاهم ، خصوصًا أن البرتغاليين كانوا قد استردوا أنفاسهم منذ أن طُردوا من هرمز عام ١٦٢٢ بسبب انشغال القبائل في الحروب الأهلية ، وقبل كل ذلك فقد استجدت على مسرح الأحداث سياسة وفاق جديدة بين البرتغال وشركة الهند الشرقية ، بدءًا من عام ١٦٣٤ (٣) ، وتحولت إلى صداقة متينة وتعاون بين الطرفين ، وخصوصًا بعد أن استرد البرتغاليون استقلالهم من أسبانيا عام ١٦٤٠ (٤) .

لقد كانت المتغيرات السياسية ، سواءً المحلية أو الدولية في مقدمة عوامل كثيرة جعلت أهل عمان يناضلون في ظروف أشد قسوة ، غير أن نجاحهم في تحقيق الوحدة الوطنية بالإضافة إلى المشاعر الدينية الجياشة ، التي فاقت أية مشاعر وطنية أو عِرقية – كل ذلك كان من أهم العوامل التي جعلت عرب عمان يقبلون على التضحية بنفس راضية وبحماس ورغبة في الاستشهاد ، وهي عوامل كان يفتقدها البرتغاليون المتحصنون في الثغور العمانية .

---

(١) Miles : Countries and Tribes of the Persian Gulf Vol. II p. 196 - 197.

(٢) ابن رزيق ... حميد بن محمد الفتح في سيرة السادة البوسعيديين ، مرجع سبق ذكره ، ص ٢٧٥ ... الأزكوي ، ص ١٠٦ ، والسالمي ، ج ٢ ص ١٢ ، ١٣ .

(٣) لقد نجح البرتغاليون في إبرام هدنة مع الإنجليز عام ١٦٣٤ اقتصرت في بدايتها على إعادة العلاقات بين مستعمرات الدولتين .

(٤) د/ صلاح العقاد ... التيارات السياسية في الخليج العربي ، القاهرة ١٩٨٣ . ص ٤٥ .

إن المتتبع لحركة كفاح اليعاربة ضد البرتغال يدرك للوهلة الأولى أهمية الوحدة القومية كقضية دينية وسياسة ، وهو ما يؤكد أن الإمام ناصر بن مرشد قد أدرك تلك الحقيقة للوهلة الأولى ، ففي ظل التجزئة تنمو الخلافات وتتنامى الأحقاد إلى حد يهون فيه الوطن وتتبدد القيم الكبرى في سبيل تحقيق مصالح شخصية رخيصة .

لقد أدرك بن مرشد هذه الحقيقة بوعي شديد ، وهي أن الوحدة بمثابة الدرس الأول لتحقيق أي عمل كبير ، وبدونها تتبدد القوى وتُتاح كل فرص الوقيعة والشتات لأبناء الوطن الواحد والعقيدة الواحدة .

وقد شهدت الجبهة الداخلية تفوقًا ملحوظًا لقوات الإمام ناصر بن مرشد ساعَدَهُ في توسيع نطاق نضاله ضد البرتغاليين القابعين في المناطق الساحلية ، وكانت « صحار » محورًا استراتيجيًا هامًا في سياسة اليعاربة ، حيث ضربوا حصارًا شديدًا عليها فى حين تحصن البرتغاليون داخل القلاع والحصون وراحوا يمطرون قوات الإمام بوابل من نيران مدفعيتهم ، الأمر الذى أطال أمد الحصار ، مما دفع الإمام إلى بناء قلعة في مواجهة القلعة البرتغالية .

لقد بدأ ناصر بن مرشد بدءًا من عام ١٦٤٠ يجنى ثمار الوحدة الوطنية ، فبمجرد أن علمت القبائل بحصار صحار أخذت تستنفر همم شبابها ، الذين شاركوا في بناء القلعة وخصوصًا من مناطق لوى وبات وكافة المناطق المتاخمة لصحار ، وبينما ضرب العمانيون حصارًا منيعًا حول صحار ، إذ بالإمام ناصر وقد بعث بسرية أخرى إلى مسقط بقيادة خميس بن سعيد الشقصي [١] ، وعلى الرغم من أن تلك السرية لم تحقق نتائج حماسة [٢] ، فإنها أربكت القوات البرتغالية ، سواء في صحار أو في مسقط ، مما مهد لسلسلة من الهجمات العمانية الخطيرة ضد المعاقل البرتغالية كافة .

ففي عام ١٦٤٣ م استولى الإمام ناصر بن مرشد على مدينة صحار ، وبنى بها حصنًا مقابلاً للحصن الذي يسيطر عليه البرتغاليون .

---

(١) الأزكوي ... مصدر سبق ذكره ، ص ١٠٥ - ١٠٦ ، والسيابي ... مرجع سبق ذكره ج ٣ ص ٢٠٧ .

(٢) Kelly, J., Britain And The Presian Gulf p. 15 London 1968.

واللافت للنظر مقدرة الإمام ناصر بن مرشد السياسية ، ومعرفته الدقيقة بإمكانات عدوه ، مما أهَّلَهُ لكي يكون سياسيًّا بارعًا بالإضافة إلى مكانته الدينية ، ومقدرته البارعة على جمع شمل المسلمين لخوض معارك ضارية ضد عدوه اتسمت بالطابع الديني بالدرجة الأولى .

نجح العمانيون في الحصول على عدد من السفن المتقدمة - وكذا الذخيرة والبارود - من الإنجليز ، مما ضاعف من حجم العمليات العسكرية ضد القواعد البرتغالية (١) ... وعمومًا فلم يصل حجم المساعدات البريطانية لعمان بما يتناسب وإمكانات البرتغال ، مثلما حدث في اتفاقية ميناب عام ١٦٢٢ ، حيث حاربت بريطانيا بجانب الفُرس لتحرير هرمز ، أمَّا اليعاربة فقد حاربوا في ظروف مختلفة ، حيث لم يستعينوا بقوى أجنبية بالإضافة إلى أن البرتغال أثناء طردها من هرمز كانت في ظل التبعية الأسبانية ، في حين أن العمانيين قد تضاعف جهادهم بشكل ملحوظ بعد أن استردت البرتغال استقلالها (٢) .

وإذا كانت العلاقات العمانية البريطانية لم تحقق نتائج محددة على عهد ناصر بن مرشد ، فإنها قد تطورت بشكل ملحوظ على عهد الإمام سيف بن سلطان ، وإن كنا لا نتفق مع الراي القائل بأن الإنجليز قد شاركوا بشكل فعال في الصراع العماني البرتغالي ، وهو ما أكده أحد الباحثين الأوروبيين ، على اعتبار أن ثمة تعاطفاً إنجليزيًّا مع العمانيين ضد البرتغاليين ، ويرجع الباحث (Boxer) أسباب ذلك إلى الصراعات المذهبية بين الإنجليز والبرتغاليين . بالإضافة إلى سياسة الاحتكار التي مارسها البرتغاليون ، والتي كانت تتعارض مع مصالح شركة الهند الشرقية البريطانية (٣) .

ويؤكد أحد الباحثين الثقات في تاريخ الخليج ، عكس هذه المقولة تمامًا ، حيث يؤكد انزعاج الإنجليز من تصاعد القوة العمانية ، وهو أمر يتعارض مع مصالحهم على طول الخط (٤) .. بالإضافة إلى أن إنجلترا والبرتغال قد أبرمتا معاهدة في عام ١٦٦١ (٥) .

---

(١) Miles : op. cit. p. 218.

(٢) مصطفى عقيل ... التنافس الدولي في الخليج العربي ، ١٦٢٢ - ١٧٦٣ م ص ١٠٩ .

(٣) د/ جمال زكريا قاسم ... مرجع سبق ذكره ، ص ١١٢ .

(٤) نفس المرجع السابق .

(٥) لوريمر ... مصدر سبق ذكره ، ج ٢ . ص ٦٤٠ .

وليس من المنطقي أن يشارك الإنجليز في الحرب بجانب العمانيين وهم يعلمون أن قوة العمانيين تتعارض مع مصالحهم ، ولعل النشاط الاقتصادي الذي تمارسه شركة الهند الشرقية البريطانية قد بدد من سياسة الاحتكار الذي كان يمارسه البرتغاليون ، مما أعطى فرصة لليعاربة لكي يضاعفوا من نشاطهم التجاري والحربي ، مما أتاح لهم قدرًا كبيرًا من المنافسة ، التي أدت إلى تطوير سفنهم بسبب الاحتكاك الذي تعددت مجالاته ، سواء مع السفن الإنجليزية أو الهولندية ، أو حتى مع السفن البرتغالية نفسها .

لا شك أن التفوق البحري العماني قد أقلق الإنجليز ، وقد عبر برانجون Branguin وكيل شركة الهند الشرقية في بندر عباس عن تلك المخاوف بقوله : « إن العمانيين سيصبحون كارثة على الهند مثلما كان الجزائريون كارثة على أوروبا » (١) .

بل والأكثر من ذلك أن العلاقات قد أخذت تسوء بين اليعاربة والإنجليز الذين أصبحت سفنهم مستهدفة من قبل اليعاربة ، لدرجة أن حاكم مدراس قد كتب إلى رئاسة الشركة طالبًا المزيد من السفن والجنود تحسبًا لهجمات العمانيين (٢) .

ولعل من المناسب في هذا الصدد أن نطرح سؤالاً ؟

إذا كان اليعاربة قد أصبحوا خطرًا على الإنجليز فلماذا لم يتصدَّ الإنجليز لمواجهتهم ؟ .

كان التفوق البحري الذي بلغته دولة اليعاربة أصبح كافيًا لكي يحرك الإنجليز ويتصدوا لذلك النفوذ المتنامى ، غير أن الإنجليز انشغلوا في تثبيت نفوذهم في الهند ، وتضاعف انشغالهم بسبب تورطهم في حرب الوراثة الأسبانية ، كما أن القوة البحرية العمانية وصلت إلى درجة من القوة مع نهاية القرن السابع عشر جعلت التفكير في التصدى لها بمثابة مغامرة غير مضمونة العواقب من جانب شركة الهند الشرقية البريطانية .

لقد تطورت البحرية العمانية بشكل لافت خلال عصر سيف بن سلطان (١٦٩٢ - ١٧١١ م) مما أهّلها لكي تكون القوة البحرية الأولى في الجزء الغربي

---

(١) Wilson, A. The Persian Gulf, p. 194.

(٢) فالح حنظل ... المفصل في تاريخ الإمارات العربية ، ص ١٠٣ .

من المحيط الهندى ، لدرجة أن سفينة الإمام سيف بن سلطان المسماه (الملك) كانت تحمل أكثر من ثمانين مدفعًا [(١)] .

لقد امتد صراع اليعاربة ضد منافسيهم لفترات زمنية طويلة ، تباينت فيها المواقف السياسية ، إلا أن أصعب الفترات وأخطرها هي فترة الإمام ناصر بن مرشد ، حيث كان يقاتل في سبيل تحقيق وحدة وطنية قوية كبدته قدرًا هائلاً من الجهد والوقت ، غير أن الرجل – وبكل المقاييس قد استخدم كل الإمكانات المتاحة بمهارة شديدة ، بما في ذلك المفاوضات السياسية التي لجأ إليها (فى ٣١ أكتوبر ١٦٤٨) . وعند وفاته [(٢)] لم يبق تحت السيطرة البرتغالية سوى مسقط ومطرح وحصن لهم في صحار [(٣)] .

لعل الإمام كان يود قبل وفاته لو أجهز على البرتغاليين نهائيًا في عمان ، وخصوصًا بعد أن بقيت مسقط ومطرح في يد البرتغاليين ، ولذا بعث بمسعود بن رمضان على رأس جيش بهدف تحريرهما .

لقد كانت قوات الإمام ناصر في أشد الحاجة إلى التقاط الأنفاس بعد حرب أهلية طويلة ، وعلى الرغم من ذلك فقد تمكن مسعود بن رمضان من الوصول إلى مطرح ، بل ضرب عليها حصارًا في وقت تفشي فيه مرض الطاعون ، وأُصيب البرتغاليون بهلع شديد [(٤)] .

لعلها كانت فرصة مناسبة لكي يجهز العمانيون على عدوهم الذي كان يقاتل في ظروف غاية في القسوة ، وبدت وكأنها فرصة مناسبة لكي يفرض الإمام شروطه استكمالا لمفاوضات كانت قد جرت منذ فترة وتراجع البرتغاليون عن قبولها ، غير أن القصف المستمر لقوات مسعود بن رمضان التي سيطرت على كافة التلال المحيطة بمسقط ومطرح كان عنيفًا لدرجة أربكت الحاميات البرتغالية ، فى حين كان الطاعون

---

(١) Coupland, R. East Africa and its invaders. p 69. London 1939.

(٢) أشهر الروايات أنه توفي في ١٥ ربيع الآخر ١٠٥٩ هـ ، الموافق ٢٣ أبريل ١٦٤٩ م .

(٣) ابن رزيق .. حميد بن محمد ص ٢٧٥ .

(٤) لوريمر ... مصدر سبق ذكره ، ج ٢ القسم التاريخي ، ص ٦٣٥ – ٦٣٦ .

يحصد أكثر من خمسين شخصًا في اليوم الواحد [(١)] ... ولم يؤدِّ هذا الحصار إلى تحرير مسقط ومطرح ، وإنما نجم عنه إبرام هدنة جاءت معظم بنودها في صالح العمانيين [(٢)] .

لقد كان إبرام هذه الهدنة بمثابة اختبار عملي لقوة كل من الطرفين ، حيث أدرك العمانيون حالة الوهن التى وصل إليها البرتغاليون ، وفي الوقت نفسه كان الإمام ناصر ابن مرشد في أشد الحاجة لالتقاط الأنفاس وإعادة تقيم الموقف .

ومن جانب آخر فقد شعر البرتغاليون بنوع من الارتياح ، وخصوصًا قد سبق لهم أن أبرموا صلحاً مع الإنجليز ، إلا أنهم قد تورطوا في صراع جديد مع الهولنديين [(٣)] .

لقد تضاعفت طموحات العمانيين وأدركوا بأنهم قاب قوسين أو أدنى من تحرير بلادهم من احتلال دام أكثر من مائة وأربعين عامًا ، وبوفاة الإمام ناصر بن مرشد كان العمانيون قد وضعوا أقدامهم عند نهاية الطريق بعد رحلة طويلة من الجهاد والتضحيات ... لقد امتد جهاد اليعاربة إلى جلفار (رأس الخيمة) التي كان البرتغاليون يحتلون إحدى قلاعها ، وكان الفرس بقيادة ناصر الدين الفارسي يحتلون القلعة الثانية [(٤)] .

وتشير كتب التراث العماني إلى أن ناصر الدين الفارسي هذا كان متحالفًا مع أعداء الإمام ، وعلى علاقات قوية مع مانع بن سنان وناصر بن قطن ، وهما من أكثر الزعامات المحلية عداوة للإمام ، ولهذا كان تحرير جلفار يمثل رغبة أكيدة في مخططات اليعاربة ، حيث قاد علي بن أحمد حملة اعتمدت على عنصر المباغتة والالتفاف بشكل

---

(١) نفس المصدر السابق ص ٦٣٥ .

(٢) د/ جمال زكريا قاسم ... مرجع سابق ص ١٠٦ .

Boxer C.R. : Some aspects of the Struggle between The Gmonis and the portugeese 1650. 1730. p. 27.

(٣) د/ طارق نافع الحمداني ... دور عرب عمان في إقصاء البرتغاليين عن الخليج العربي خلال النصف الأول من القرن السابع عشر ، مجلة معهد البحوث والدراسات العربية ، العدد ١٣ ، ص ٢٧٧ .

(٤) عبد الله بن خلفان بن قيصر ... سيرة الإمام ناصر بن مرشد ، تحقيق عبد المجيد القيسي ، ص ٤٦ ، الأزكوي ص ١٠٤ .

سريع ، مما أربك الحاميات المدافعة عن جلفار ، وعندما ضاعفت القوات العمانية من حصارها طلب البرتغاليون السماح لهم بالانتقال إلى مسقط ، وهكذا بدأت تتهاوى كل القوى المناوئة لليعاربة ، مع ملاحظة أن كل انتصار كان يفتح المجال لمزيد من التفكير في انتصار آخر ، وهكذا .

لقد استطاع سلطان بن سيف الذي ، بُويع بالإمامة (فى أبريل ١٦٤٩) بعد وفاة الإمام ناصر بن مرشد أن يواصل الجهاد ، حيث سبق له أن تمرس على الأعمال الحربية ، سواء حينما قاد بنفسه العديد من العمليات الحربية بتوجيه من الإمام الراحل ، أو حينما أرسل عدة مرات إلى مسقط لتسلم الجزية المستحقة على البرتغاليين ، ولذا فقد كان الإمام الجديد أهلاً لتولي القيادة في وقت كانت البلاد فى أشد الحاجة إلى مواصلة المسيرة التي بدأها الإمام ناصر بن مرشد .

لقد أدرك الإمام الجديد أهمية الوقت كعامل هام في الإجهاز على البرتغاليين ، وخصوصًا بعد أن نما إلى علم الإمام أن عدد الجنود قد نقص نقصًا كبيرًا بسبب حملات برتغالية أُرسلت إلى الهند [1] اعتقادًا بأن موت الإمام ناصر بن مرشد يُعد سببًا كافيًا لإرجاء أي نوايا عدوانية نحو مسقط ومطرح ، غير أن سلطان بن سيف لم يمكث إلا أيامًا قليلة وأسرع متخذًا من طوى الرولة قاعدة للهجوم الشامل ، وتحصن البرتغاليون بقلاع وأسوار عالية ، حيث رابط جنودهم بعد أن ثبّتوا مدافعهم الثقيلة في كل اتجاه ، وزيادة في الحيطة حفروا خندقًا عميقًا حول الأسوار ، وعلى رءوس الجبال المحيطة بمسقط ومطرح بنوا مجموعة أبراج ثبتوا في داخلها جنودًا أشداء أخذوا يمطرون القوات العمانية بوابل من نيران مدافعهم [2] .

لقد كانت الحرب سجالاً لا قُدْرَةَ للبرتغاليين على مواجه العمانيين ، ولا قدرة للعمانيين على دخول مسقط أو مطرح ، واعتمد الجيشان على القنص كلما أُتيحت الفرصة لذلك ... لقد طالت الحرب حتى كاد سلطان بن سيف أن يتراجع عن حصاره ، وخصوصًا بعد أن نما إلى علمه أن بعض القبائل بدأت تفكر في التراجع عن مساندته .

---

(١) د/ طارق نافع الحمداني ... مرجع سبق ذكره ، ص ٢٧٩ .

(٢) ابن رزيق ... مرجع سبق ذكره ، ص ٢٨٤ .

لقد كان هناك صراع جديد من نوع آخر بين البرتغاليين والهنود داخل المدينتين المحاصرتين ، ولعل بعض الهنود قد نجح فى تقديم معلومات على درجة كبيرة من الخطورة أفادت الإمام ودفعت بقواته إلى الدخول ، فى حين أن الحامية البرتغالية قد أُخذَتْ على غِرَّة ، مما أفقدها القدرة على المواجهة ، ومن ثم كان الانهيار والاستسلام (١) .

ويبدو أن سلطان بن سيف قد استقى معلوماته التي مكنته من دخول مسقط من العرب القاطنين حولها أيضا ، ولا يُستبعد أن يكون هؤلاء العرب هم الذين زودوه بحقيقة الأوضاع داخل المدينة ، وخصوصًا أنهم كانوا فى نهاية شهر ديسمبر ١٦٤٩ ، وهو موعد رأس السنة الميلادية ، حيث لم تكن هناك ثمة مراقبة دقيقة ، مما سهل على العرب مهمة التسلل إلى داخل المدينة (مسقط) (٢) .

لقدُ حوصر البرتغاليون في قلعة الجلالي ، وبعد أن قَلَّتْ مئونتهم اضطروا إلى التسليم وتركوا القلعة (٣) . وهذا ما حدث في مطرح أيضًا ، ولم يبق للبرتغاليين غير سفينتين كانتا تحاصران مسقط ، غير أن العمانيين تمكنوا من أسْرِهما ، وعندما وصلت الأخبار إلى السلطان البرتغالية في الهند أسرعت بإرسال أسطول برتغالي كبير ، ولكنه وصل متأخراً ، حيث سقطت كل القلاع ، وتهاوت كل الحصون البرتغالية (٤) .

لقد أصيب البرتغاليون بخسائر جسمية ، حيث قُتل معظم جنودهم ، وكل المحاولات التي قاموا بها في الهند لإمداد مسقط باءت بالفشل ، وبنهاية عام ١٦٥٢ لم يبق للبرتغاليين في الخليج إلا وكالتهم في « كينيج » على الساحل الشرقي من الخليج .

ولكن البرتغال لم تفقد الأمل في استعاذة عمان ، حيث راحت تدعم مركزها في كينج ، بل أخذ البرتغاليون يتفاوضون مع الفُرس على السماح لهم بإنشاء وكالة تجارية في جزيرة « هانجام » غير أن الشروط الفارسية كان مبالغًا فيها ، ولذا فقد رفض البرتغاليون العرض الفارسي (٥) .

---

(١) يمكن الرجوع إلى تفاصيل هذا الهجوم من خلال قصة طريفة وردت في معظم كتب التراث العماني مثل : ابن رزيق مصدر سبق ذكره ، ص ٢٨٦ ، ونور الدين السالمي ج ٢ ص ٦٥ .

(٢) لوريمر ... مصدر سبق ذكره ج ٢ القسم التاريخي ، ص ٦٣٦ .

(٣) ابن رزيق ... مصدر سبق ذكره ص ٢٩٠ .

(٤) د/ طارق نافع الحمداني ... مرجع سبق ذكره ، ص ٢٨١ .

(٥) مصطفى عقيل ... التنافس الدولى فى الخليج العربى ١٦٢٢ - ١٧٦٣ - ص ٢٤ .

ويؤكد لوريمر أن سبب رفض البرتغاليين للعرض الفارسي هو تطلعهم إلى الساحل العربي ، حيث كانت تبذل محاولات في هذا الصدد [١] .

لم يتوقف العمانيون عن مطاردة البرتغاليين ، حتى بعد أن لجئوا إلى وكالتهم التجارية في كينج ، والتي لم تنجُ من هجمات العمانيين الذين أخذوا يتعقبون عدوهم في الهند وشرق إفريقيا ، مما جعل خطوط الملاحة بين الوكالة التجارية للبرتغاليين في كينج وبين شرق إفريقيا والهند تبدو مستحيلة في ظل السيطرة العمانية ، واضطر البرتغاليون إلى الانسحاب من كينج نهائيًا [٢] .

لا شك أن طرد البرتغاليين نهائيًا من الخليج يعد عملاً بطوليًا وصفحة مشرفة في التاريخ العماني .

إن هذه الانتصارات ما كان لها أن تتحقق إلا بوحدة وطنية متماسكة عادت على عمان في ظل إمامة سلطان بن سيف بالقوة والمنعة ، حيث أصبحت أكبر قوة سياسية وعسكرية ضاربة في الخليج ، وراحت العديد من الدول تخطب ودها ، في حين كان الأسطول العماي يجوب كل البحار الشرقية دون منافس .

ولا شك أن كفاح اليعاربة ضد البرتغاليين لم يكن منعزلاً عن التيارات السياسية المتضاربة التي كان يمر بها الخليج ، والتي استوعبها أئمة اليعاربة بموضوعية شديدة ، ولذا فقد حقق اليعاربة نجاحًا هائلاً في مجال العلاقات الدولية ، ولعل عدم قيام تحالف استراتيجي بين شركة الهند الشرقية والبرتغال قد سهل مهمة اليعاربة وأتاح لهم فرصة الإجهاز على البرتغاليين .

لقد بدأت قضية التوازن أكثر أهمية فيما يتعلق بالصراع الدائر بين القوى المتنافسة في الخليج ، وخصوصًا مع اقتراب القرن السابع عشر من الانتهاء ، ففي ظل العلاقات الودية بين اليعاربة من جانب ، والإنجليز والهولنديين من جانب آخر ، كان يشتد الصراع العماني البرتغالي ، ويكثف العمانيون من هجماتهم ، بل وينتقلون بالصراع إلى المحيط الهندي وشرف إفريقيا [٣] .

---

(١) لوريمر ... مصدر سبق ذكره ، ج ٢ ص ٦٧ .

(٢) مصطفى عقيل ... مرجع سبق ذكره ، ص ١٢٥ .

(٣) د/ جمال زكريا قاسم ... الخليج العربي ، مرجع سبق ذكره . ص ١١١ .

وعلى الرغم من العلاقات العمانية البريطانية قد تميزت في تلك الفترة بقدر كبير من التعاون ، غير أن ذلك لم يكن على حساب المصالح العمانية ، فحينما طلب الإنجليز من الإمام سلطان بن سيف ١٦٥٩ أن يقيموا لهم قاعدة في مسقط لا يزيد عدد أفرادها عن مائة جندي رفض الإمام رفضًا قاطعًا ، وحينما ألحّ عليه الإنجليز وحاولوا إقناعه على اعتبار أن القاعدة مجرد حامية صغيرة لخدمة شركة الهند الشرقية ذات النشاط الاقتصادي الخاص كرر الإمام رفضه لهذا المطلب (١) .

لا شك أن اليعاربة اعتمدوا على قوتهم الذاتية مع قدر من المرونة ومحاولات الاستفادة من تضارب المصالح بين القوى الأوروبية المختلفة ، مما عاد على الدولة بقدر كبير من القوة والمنعة ، وخصوصًا فيما يتعلق بقوة البحرية العمانية (٢) التي كانت تتعاظم يومًا بعد يوم فى حين كانت البحرية البرتغالية في طريقها إلى الزوال .

ويقرر المؤرخ الإنجليزي كوبلاند Coupland أن عمان قد وصلت إلى درجة من القوة مع نهاية القرن السابع عشر تفوق أي دولة من دول المحيط الهندي ، حيث أصبحت تخشاها الأساطيل الإنجليزية والهولندية (٣) .

لقد أدرك سلطان بن سيف أهمية العلاقات مع معظم دول المشرق الإسلامي ، سواء في الخليج العربي أو الميحط الهندي ، ومحاولة التنسيق مع كثير منها ، وخصوصًا في مجال النشاط البحرى ، ولعل ذلك ما أقلق بعض الدول الأوروبية التي حرصت على قطع العلاقات بين عمان وشرق إفريقيا من جانب ، ومحاولة الوقيعة بين عمان وأمراء الهند من جانب آخر (٤) .

ولعل ما حققه اليعاربة في مجال النشاط البحري من تفوق ملحوظ جاء نتيجة الطفرة الاقتصادية الهائلة التي تحققت مع نهاية القرن السابع عشر نتيجة دخول العمانيين

---

(١) لوريمر ... دليل الخليج ، القسم التاريخي ، ج ٢ ص ٦٤٠ .

(٢) Coupland, R. : East Africa and its Invaders p. 69 London 1939.

(٣) Ibid, p. 70.

(٤) د/ جمال زكريا قاسم ... الخليج العربى ، مرجع سبق ذكره ، ص ١١٤ .

في حلبة التجارة العالمية ، بعد أن قضوا على البرتغاليين وسياستهم الاحتكارية ، وبحلول عام ١٦٩٥ كان لدى العمانيين خمس سفن ضخمة ، على ظهرها ألف وخمسمائة رجل يجوبون كافة البحار الشرقية ، وخصوصًا موانىء الخليج الأخرى ، لدرجة أن موظف الجمارك الإيراني في بندر عباس طالب شركة الهند الشرقية بإبقاء بعض قطع سفنها لتحمي الميناء ، وأُجيب إلى طلبه (١) .

وبدت دلائل عدم احتمال قيام الهولنديين والإنجليز بمساعدة الإيرانيين عسكريًا ، لكن سيرجون (حاكم بومباي) أشار على حكومته بأن مثل هذا العمل العدائي ليس مناسبًا ، وخصوصًا أن العمانيين لم يضعوا أي عقبات في وجه الملاحة والتجارة الإنجليزية .

والحقيقة أن هناك مصادر كثيرة وصفت الحروب البحرية التى كان يقوم بها اليعاربة ضد البرتغاليين وغيرهم من القوى الأوروبية الأخرى التي حلت محلهم فى محاولة للسيطرة على بحار الشرق بأنها كانت نوعًا من القرصنة ، لعل هذه المصادر قد تجاهلت الجرائم البرتغالية في بحار الشرق ، حيث قام البرتغاليون بتدمير الأساطيل المحلية بالإضافة إلى ممارستهم لكثير من الأعمال الشاذة ضد البحّارة المسلمين ، وربما يرجع وصف حركة كفاح اليعاربة بأنها نوع من القرصنة إلى عدم اعتراف القوى الأوروبية بالتنظيمات السياسية العربية في الخليج ، ورفض إطلاق لفظ الدولة عليها ، وهي مغالطة لم يتنبه لها الأوروبيون ، ومن ثم لم تفرق هذه المصادر بين العمليات البحرية التي كان يقوم بها اليعاربة تحقيقًا لسيادتهم ، وبين ما كان يمارس من قرصنة فردية (٢) .

والمدهش – فى وصفهم – أن تكون القرصنة عملاً قوميًا إذا ما ارتبطت بالأوروبيين ، أمّا إذا ارتبطت بالعرب أو المسلمين فإنها تُعد عملًا من أعمال السلب والنهب ، حيث حفلت سواحل المحيط الهندي بعمليات يندي لها الجبين ، حتى وصل الأمر إلى حد إبادة بعض السفن التي كانت تقل الحجيج ، حيث دمرها البرتغاليون وكانت تحمل المئات من الشيوخ والنساء ، لماذا لم يطلق الأوروبيون على هذه الأعمال الإجرامية أنها نوع من القرصنة ؟ .

---

(١) لوريمر ... مصدر سبق ذكره ، القسم التاريخي ج ١ ص ١٣٢ .

(٢) د/ جمال زكريا قاسم ... الخليج العربي ، مرجع سبق ذكره ، ص ١١٥ .

والحقيقة أن العمليات البحرية العمانية كانت تُخيف الأوروبيين الطامعين في بحار الشرق الإسلامي ، ولعل ذلك ما دفع الدول الأوروبية إلى التكتل فيما بينها ، برغم ما بينهم من منافسات لإضعاف القوة البحرية العمانية .

وبالفعل تم التوقيع على عدة اتفاقيات ، لعل أهمها اتفاقية عام ١٧٠٠ م بين كل من إنجلترا وفرنسا وهولندا ، حيث قُسمت بموجبها المناطق البحرية التي ينبغي على كل منها أن تحافظ فيها على سلامة الملاحة ، فاختص الفرنسيون بالخليج العربي ، واختص الإنجليز ببحار الهند الجنوبية ، واختص الهولنديون بجنوب البحر الأحمر ، وكانت هذه الاتفاقية قد وضعت أساسًا لمقاومة ما سُمي بالقرصنة العربية [(١)] .

لم يكترث العمانيون للموقف الأوروبي وراحوا يتعقبون البرتغاليين في المحيط الهندي وشرق إفريقيا ، وانطلقت سفنهم لتصفية الجيوب البرتغالية على السواحل الفارسية والاستيلاء على سفنهم ومعداتهم العسكرية ، وأخيرًا اضطر البرتغاليون إلى الانسحاب من ميناء « كينج » نهائيًّا لعجزهم عن الدفاع عنه ضد الهجمات العمانية ، مما أوجد نوعًا من المواجهة المباشرة بين العمانيين والفرس الذين راحوا يتضامنون مع القوى الأوروبية ضد العمانيين بحجة محاربة القرصنة ، التي لم تكن من وجهة النظر القانونية إلا نوعًا مشروعًا من الكفاح المسلح ضد قوى أجنبية استباحت لنفسها حق الغزو والاحتكار والنهب .

قد يصعب تفسير هذا التغيُّر الواضح الذي نقل عمان في ظل دولة اليعاربة من دويلات كانت مطمعًا للغزاة ، بعد أن بددتها الحرب الأهلية الطاحنة ، إلى دولة لها مكانتها الدولية ، ولها شكلها السياسي والقانوني ، ولعل ما يفسر هذا التحول تلك السياسة التي التزم بها أئمة اليعاربة ، والتي كانت كفيلة بهذا التغير الهائل ، وخصوصًا في المجالات الآتية :

١ - الوحدة الوطنية ، باعتبارها الدرس الأول الذي التزم به ناصر بن مرشد ، وبغير الوحدة لن تتحقق المصالح العليا للبلاد ، وفي سبيل الالتزام بهذا المبدأ خاض الإمام حروبًا ضارية ضد أنصار التجزئة .

---

(١) Wilson, A, op cit. p. 195.

٢ - نجاح الدولة في تكوين قوة بحرية تتناسب وطبيعة الصراع الدائر في تلك الفترة ، ولعل ما تحقق في هذا المجال كان مقدمة لإحراز انتصارات عظيمة تركت آثارها على مسرح الأحداث السياسية والاقتصادية ، باعتبار أن توجيهات عمان البحرية هي قضية استراتيجية ثابتة ، وبدون السيطرة على زمام البحار والمحيطات لن يتحقق التوازن المطلوب .

٣ - لقد عنى اليعاربة باستثمار كل مقومات النجاح ، وكانت الزراعة في مقدمة اهتماماتهم ، حيث شُقت الأفلاج ، وتم جلب كثير من المحاصيل الزراعية من شرق إفريقيا ، إذْ نجحت تجربة زراعتها بشكل ملحوظ ، مما أوجد رواجًا اقتصاديًا .

٤ - عنى اليعاربة بتوفير كل مقومات النجاح لحركة التجارة بعد أن تم القضاء على سياسة الاحتكار التي ابتدعها البرتغاليون ، وباتت تجارة الخليج العربي جزءًا من حركة التجارة العالمية ، وهو ما عاد على عمان بطفرة اقتصادية هائلة .

٥ - العودة إلى الجذور العمانية الأصيلة بإبراز الهوية العربية والإسلامية ، وفي هذا المجال نجح اليعاربة بشكل ضاعف من ترابط واتحاد دولتهم .

وكلما تحقق الانسجام والتجانس بين الساحل والداخل أدى ذلك إلى تجسيد مشاعر الوحدة العربية القومية والدينية ، وعَمَّق من مقومات الترابط ، وهكذا بات المجتمع العماني وقد استنفر كل مقومات نجاحه بشكل عاد على مجالات الحياة بالخير الوفير .

لعل الازدهار الاقتصادي الذي شهدته دولة اليعاربة كان من أهم مقومات نجاحها ، ولا يمكن إغفال المتغيرات الاقتصادية مع مطلع القرن الثامن عشر ، حيث انتهت سياسة الاحتكار التي ابتدعها البرتغاليون وحل مكانها العديد من الشركات التجارية التي مارست نشاطها بقدر لا بأس به من التنافس الحر ، وأفسح المجال للقوى المحلية التي لها خبرتها السابقة في هذا المجال إلى أن تنبهت القوى الأوروبية إلى ما يمكن لهذه العناصر المحلية أن تشكله من خطورة عليها ، وراحت تتضامن مع بعضها بهدف تصفية القوى المحلية ، وتأمين مواصلاتها الاستعمارية إلى الهند [1] .

---

(١) عبد الفتاح إبراهيم ... على طريق الهند ، ص ٣٠ - ٣١ بغداد ١٩٣٥ .

واللافت للنظر أن الانتصارات التي حققها اليعاربة قد أثارت فارس ، التي كانت تتطلع إلى وراثة النفوذ البرتغالي ، ولذا فقد تعددت المواجهات العمانية الفارسية ، والتي جاءت في مصالح اليعاربة ، لدرجة أن التجارة الفارسية قد أُصيب بضرر بالغ ، وهو ما دفع بالفرس إلى الاستعانة بالقوى الأُوروبية بهدف القضاء على منافسة عمان لها (١) .

وإذا كان الإنجليز لم يتحمسوا للعرض الفارسي خوفًا على مصالحهم الاقتصادية من الأسطول العماني ، فقد توجهت فارس إلى فرنسا على عهد لويس عشر ، وتمخضت الاتصالات عن توقيع معاهدة بينهما عام ١٧٠٧ ، وكان من بين النصوص السرية التي احتوتها تلك المعاهدة أن يقوم الفرنسيون بإرسال أسطول لمساعدة فارس في غزو مسقط ، غير أن فرنسا ترددت قبل الإقدام على تلك الخطوة لنفس السبب الذي منع الإنجليز من تضامنهم مع فارس ، على الرغم من الدبلوماسية النشطة التي مارسها الفُرس في محاولة للضغط على لويس الرابع عشر ... وعمومًا فلم تسفر الاتصالات عن قيام تحالف فارسي فرنسي ، على الرغم من إبرام اتفاقية جديدة عام ١٧١٥ ، ولعل ما حال دون إقدام فرنسا على تنفيذ بنود المعاهدة الجديدة تلك الفوضى التي اجتاحت فارس ، وما ترتب عليها من غزو أفغاني لها عام ١٧٢٢ .

وتشير العديد من المصادر العمانية إلى الازدهار الاقتصادى الذي حققه اليعاربة ، وخصوصًا فى نهاية عصر سلطان بن سيف ، فقد وصل إلى درجة (كادت أن تفيض البيضاء والصفراء من أيدي الناس) وفقًا لقول السالمي (٢) .

لقد تجسدت ملامح الوحدة الوطنية في أبهى صورها ، حيث كان العدل هدفًا للراعى ونهجًا للرعية ، ولذا أقبل العمانيون على تشييد الحصون والمعاقل ، وشق الأفلاج ، وغرس الأشجار ، مما ضاعف من قوة عمان .

لقد أدركت البرتغال أن زمن الضعف العربي قد ذهب ، وأن مواجهة اليعاربة في كل مراحل الصراع قد باءت بالفشل ، وأن استمرار الوضع يعني ضياع كل الممتلكات البرتغالية على سواحل الهند وشرق إفريقيا ، ولذا فقد راحوا ينسقون مع الفرس في محاولة لقيام تحالف عسكري يكون قادرًا على ضرب اليعاربة .

---

(١) جمال زكريا قاسم ... الخليج العربي ، مرجع سبق ذكره ، ص ١١٧ .

(٢) السالمي – نور الدين مصدر سابق ، ج ٢ ص ٩٠ .

لقد أدرك سلطان بن سيف خطورة التحالف الجديد ، ولذا فقد عجل بضرب البرتغاليين وتصفية نفوذهم ، وقسم أسطوله إلى قسمين : أحدهما توجه إلى شرق إفريقيا ، حيث نجح في انتزاع ممباسا عام ١٦٩٨ تمهيدًا لانتزاع الجزيرة الخضراء وكلوة [١] . أما القسم الآخر من الأسطول فقد توجه إلى الهند ، حيث نجح في تدمير الوكالة البرتغالية فى مانجالور على الساحل الهندي [٢] .

لقد كان للانتصارات المتكررة التي أحرزها اليعاربة أكبر الأثر في إتاحة الجو المناسب لنشر الإسلام والثقافة العربية في كل من شرق إفريقيا والهند [٣] .

ويُعد سقوط ممباسا في يد اليعاربة نقطة تحول خطيرة في تاريخ الإسلام ، فمن المعروف أن البرتغاليين قد تمكنوا من خلال تواجدهم في شرق إفريقيا والهند من العمل على نشر عقيدتهم الكاثوليكية ، إلا أن اليعاربة كان لهم أكبر الأثر ، ليس في وَقْفِ النشاط الكاثوليكي فقط ، بل وإرغام البرتغاليين على الجلاء عن جميع الساحل الذي يقع شمال خليج دلجادو .

وقد استطاع اليعاربة كسر شوكة البرتغاليين وإنهاء سيادتهم الاحتكارية ، والقضاء على مراكزهم الاستراتيجية ، سواء على الشاطىء الإفريقي أو على سواحل الهند ، ويقرر المؤرخ الإنجليزى كوبلاند Coupland أن التجربة العمانية مع مطلع الثامن عشر قد وصلت إلى درجة من القوة فاقت آية قوة بحرية أخرى ، حيث كانت الأساطيل الإنجليزية والهولندية تخشاها ، ويكفي أن هذا الأسطول استطاع أن يقوم بكل هذه العمليات الناجحة في هذه المنطقة الشاسعة ، وأن يجعل الرعب يملأ قلوب الجميع ، سواء سكان البلاد الواقعة على الخليج ، أو المحيط ، أو التجار الأوروبيين [٤] .

وبكل المقاييس فقد نجح العمانيون حتى نهاية عهد سلطان بن سيف الثاني ١٧١٨ م في إيجاد قدر كبير من التوازن الدولي انعكست نتائجه على كل المستويات ، وترك انطباعًا هائلا لدى الأوروبيين عن هيبة الدولة ، حيث عملت العديد من القوى

---

(١) سعيد بن علي المغيري ... جهينة الإخبار في تاريخ زنجبار ، ص ١٩٥ . الطبعة الثانية ١٩٨٦ .

(٢) عائشة السيار ... مرجع سبق ذكره ص ٧٦ .

(٣) عبد الرحمٰن بدوي ... إفريقيا والثقافة العربية ، العدد ٤٨ من مجلة نهضة إفريقيا ، السنة الرابعة ، أكتوبر ١٩٦١ .

(٤) عائشة السيار ... مرجع سبق ذكره ، ص ٧٨ .

الأوروبية على كسب ودها ، ولعل الازدهار الاقتصادي الذي وصلت إليه دولة اليعاربة ومكانة أسطولها البحري كان نتاجًا طبيعيًّا لقوة الدولة وحجم ثقلها البحري على البحار الشرقية في ظل جو مناسب من الألفة لدى عناصر السكان ، حيث انعكس ذلك على جميع مشروعات التنمية الاقتصادية في شتى مناحيها ، وبات الناس في أمن على حياتهم وأرزاقهم في ظل سياج من الهيبة والعدل .

وبعد هذا العرض نخلص إلى عدة نتائج أساسية :

١ - لقد ظلت عمان تسعين عامًا ونيفًا (١٦٢٤ - ١٧١٨ م) دولة قوية متماسكة أخذت بكل أسباب القوة ، من الاهتمام الشديد بقضية الوحدة الوطنية باعتبارها صمام الأمان ، وفي سبيلها خاض ناصر بن مرشد حروبًا ضارية ، وأُريقت دماء كثيرة ، على اعتبار أن قضية الوحدة هي مبدأ استراتيجي ثابت ، وهي أساس لكل الأعمال الكبيرة التي حققها سلطان بن سيف ، ثم من بعده سيف بن سلطان ، وبينما القوات العمانية تخوض حروبًا ضارية بهدف اقتلاع كل الحصون والقلاع البرتغالية - ليس في الخليج العربي فقط وإنما في شرق إفريقيا وسواحل الهند كافة - كانت العيون يقظة على الأرض العمانية ، لأن الدرس الذي وعاه هؤلاء الأئمة العظام كان حافزًا لمزيد من الاهتمام بتلك القضية الاستراتيجية التي لا تقبل أنصاف الحلول .

٢ - إذا كانت الوحدة هي صمام الأمان ، فإن التنمية الاقتصادية كانت ضرورة قومية ودينية ، وبغيرها يصعب ملاحقة المتغيرات السياسية ، التي فجرت قدرًا من التناقض بين العديد من القوى ، سواء المحلية منها أو الدولية ... ولذا فقد انصرف الناس إلى شق الأفلاج ، وغرس النخيل ، والأشجار ، وتحت حماية البحرية العمانية عاد الخليج العربي والمحيط الهندي يباشران دورهما الحضاري بهدف الوصول بحركة التجارة إلى أكبر معدل يتناسب وكمية المنتجات المتبادلة .

٣ - أدرك أئمة اليعاربة أن كل الآمال الطموحة يصعب تحقيقها بدون هيبة الدولة من خلال قوة عسكرية بحرية ضارية ، وفي سبيل ذلك نجح الأئمة الثلاثة : ناصر بن مرشد ، وسلطان بن سيف ، وسيف بن سلطان ، في تجسيد هذه الطموحات ، لدرجة أن البحرية العمانية باتت لها السيادة الأولى على المياه الشرقية ، وهو أمر أثار ضيق العديد من القوى الدولية ، التي أحدثها اليعاربة ، والتي كان من أهم نتائجها إيجاد قدر كبير من التوازن الدولي ، وهو أمر لا يحقق كل طموحات القوى الدولية المتنافسة في المياه الشرقية .

تصدع الوحدة الوطنية ونهاية دولة اليعاربة :

بوفاة سلطان بن سيف (الثاني) عام ١٧١٨ عادت البلاد إلى عصر الخلافات والعصبيات ، ودخلت البلاد مرحلة اتسمت بتباين الآراء ، وانقسم الناس إلى فرقتين ، إحداهما تقول بأحقية سيف بن سلطان بن الإمام سلطان بن سيف – وكان صبيًا لم يبلغ الحلم – ونادى بذلك اليعاربة وعامة الناس ، أما أهل العلم والخبرة فقالوا بإمامة مهنا بن سلطان بن ماجد اليعربي [(١)] ، والذي كان موضع ثقة الإمام المتوفي ، وكان زوجًا لابنته ، ويقول الشيخ السالمي : « لقد كان أهلاً للإمامة ، لكونه ذا قوة عليها ، ولم يكن كثير علم ، ولكنه يتعلم ويسأل ، ولم يقدم على أمر إلا بمشورة العلماء » [(٢)] .

لقد وقع عامة الناس تحت تأثير المشاعر التي كان يحظى بها سلطان بن سيف ، وعلى الرغم من أن ولده سيفًا كان مفتقدًا لمقومات الإمامة – وخصوصًا أن إمامته لا تجوز في الصلاة ، على اعتبار أنه لم يبلغ الحلم ، فكيف يكون إمامًا على المسلمين ؟ – فإن كثيرًا من الناس رفضوا نصيحة العلماء واجتمعوا بسلاحهم مهددين مَنْ يقول بعكس رأيهم ، فخاف العلماء وقوع الفتنة ، ولما كان موقف العلماء يتعارض مع موقف العامة فإنهم لم يتمكنوا من مبايعة مهنا بن سلطان علنًا ، وخروجًا من الموقف الذي كان ينذر بوقوع الفتنة فقد اقترح القاضي عدي بن سليمان الذهلي حلًا قد يحمل قدرًا من الخديعة الجائزة في مثل تلك الظروف ، حيث جاءوا بالصبي (سيف) وأوقفوه أمام جمهور المسلمين ونادى القاضي عدي « أَمَامَكُم سيف بن سلطان » [(٣)] وهو إعلان يمكن فهمه على أنه أمامكم أو إمامكم بالفتح أو الكسر ، واعتقد العامة أنهم نصبوا سيفًا إمامًا إلى أن هدأت العاصفة ، وشعر العلماء بأن لديهم من القوة ما يكفي لحسم الموقف والإعلان عن رأيهم صراحة ، فجاءوا بمهنا بن سلطان وأدخلوه قلعة الرستاق بحضور جمع من أهل الحل والعقد ، ونادوا به إمامًا حقيقيًا عام ١٧١٩ .

---

(١) تحفة الأعيان في سيرة أهل عمان ، ج ٢ ، مصدر سبق ذكره ص ١١٥ .. وحميد بن رزيق ... مصدر سبق ذكره ص ٣٠١ .

(٢) الشيخ نور الدين السالمي ... مصدر سبق ذكره ص ١١٥ ج ٢ .

(٣) بفتح الهمزة ، أي : في مواجهتكم ، في حين سمع العامة « إمامكم » بالكسر ، أي : خليفتكم .

وعلى الرغم من الكفاءة التي تميز بها مهنا بن سلطان فإن عامة الناس قد رفضوا مبايعته ، واتسعت دائرة المعارضين بعد أن تزعمهم يعرب بن بلعرب ، الذي تعاظم نفوذه ، وأجبر مهنا على التنازل عن الإمامة بعد أن حصل على أمان بسلامته ومن معه ، إلا أن يعرب أمر بقتله ومن معه من عمومته وأصحابه وشيعته [1] .

* * *

(١) حميد بن رزيق ... مصدر سبق ذكره ، ص ٣٠٢ ... والأزكوي ... مصدر سبق ذكره ص ١١٤ .

المصادر والمراجع
التي اعتمدت عليها تلك الدراسة

١ – أرنولد ويلسون ... الخليج العربي ، ترجمة محمد أمين عبد الله ، نشر وزارة التراث القومي والثقافة ، سلطنة عمان .

٢ – أنور عبد العليم ... ابن ماجد الملاح ، العدد ٦٣ من سلسلة أعلام العرب .

٣ – أبو عبد الله محمد بن بطوطة ... تحفة النظار في عجائب الأسفار وغرائب الأمصار ، مجلدان ، القاهرة ١٩٣٣ .

٤ – بانيكار ك . م ... آسيا والسيطرة الغربية ، ترجمة عبد العزيز توفيق جاويد ، القاهرة ١٩٦٢ .

٥ – ج.ج. لوريمر ... دليل الخليج ، القسم التاريخي ، ٧ مجلدات ، ترجمة مكتب ديوان حاكم قطر ، الدوحة ١٩٦٧ .

٦ – د. جمال زكريا قاسم ... الخليج العربي ، دراسة لتاريخ الإمارات العربية في عصر التوسع الأوروبي الأول ، القاهرة ١٩٨٥ .

٧ – الأصول التاريخية للعلاقات العربية الإفريقية ، معهد البحوث والدراسات العربية ، القاهرة ١٩٧٥ .

– دولة البوسعيد في عمان وشرق إفريقيا ١٧٤١ – ١٨٦١ ، القاهرة ١٩٦٧ .

– جون كلي (مترجم) ... بريطانيا والخليج ١٧٩٥ – ١٨٧٠ مجلدان ، سلطنة عمان ١٩٧٩ .

٨ – حميد بن محمد بن رزيق ... الفتح المبين في سيرة السادة البوسعيديين ، تحقيق عبد المنعم عامر ، ودكتور محمد مرسي ، وزارة التراث القومي والثقافة ، سلطنة عمان .

٩ – سالم بن حمود السيابي ... عمان عبر التاريخ ، سلطنة عمان ١٩٨٦ ، أربعة مجلدات .

١٠ – سرحان بن سعيد الأزكوي ... تاريخ عمان المقتبس من كتاب كشف الغمة الجامع لأخبار الأمة ، تحقيق عبد المجيد القيسي ، (وزارة التراث القومي والثقافة ، سلطنة عمان ١٩٨٠) .

١١ – سعيد بن علي المغيري ... جهينة ، الإخبار في تاريخ زنجبار ، تحقيق عبد المنعم عامر ، (وزارة التراث القومي والثقافة ، سلطنة عمان) ، الطبعة الثانية ١٩٨٦ .

١٢ - د/ صلاح العقاد ... التيارات السياسية في الخليج العربي ، القاهرة ١٩٨٣ .
١٣ - صالح أوزبران (مترجم) ... البرتغاليون والأتراك العثمانيون في الخليج العربي ، ترجمة د/ عبد الجبار ناجي ، البصرة ١٩٧٩ .
١٤ - د/ طارق نافع الحمداني ... دور عرب عمان في إقصاء البرتغاليين عن الخليج العربي خلال النصف الأول من القرن السابع عشر - مجلة معهد البحوث والدراسات العربية ، بغداد ، العدد الثالث عشر .
١٥ - د/ عبد الرحيم عبد الرحمٰن ... الدولة السعودية الأولى ، القاهرة ١٩٦٩ .
- من وثائق الدولة السعودية الأولى في عصر محمد علي ١٧٠٧ - ١٨١٩ ، القاهرة ١٩٨٠ .
١٦ - عبد الأمير محمد أمين ... القوى البحرية في الخليج العربي في القرن الثامن عشر ، بغداد ١٩٦٦ .
١٧ - عبد الله بن خلفان بن قيصر ... سيرة الإمام ناصر بن مرشد ، تحقيق عبد المجيد القيسي ، وزارة التراث القومي والثقافة ، سلطنة عمان ١٩٧٧ .
١٨ - د/ عبد العزيز محمد الشناوي ... المراحل الأولى للوجود البرتغالي فى شرق الجزيرة العربية ، من أعمال مؤتمر دراسات تاريخ شرق الجزيرة العربية ، المجلد الثاني ، الدوحة ١٩٧٦ .
١٩ - د/ عبد العزيز عبد الغني ... علاقة ساحل عمان ببريطانيا ، دراسة وثائقية في العلاقات التعاهدية ، مطبوعات إدارة الملك عبد العزيز ، الرياض ١٩٨٢ رقم ٢٥ .
٢٠ - د/ عبد اللطيف ناصر الحميدان ... نفوذ الجبور في شرق الجزيرة العربية بعد زوال سلطتهم السياسية ١٥٢٥ - ١٧٨١ ، العدد ١٧ من دورية كلية الآداب ، جامعة البصرة ١٩٨١ .
٢١ - فالح حنظل ... المفصل في تاريخ الإمارات العربية ، جزءان ، نشر لجنة التراث والتاريخ بدولة الإمارات العربية المتحدة ١٩٨٣ .
٢٢ - د/ محمود علي الداود ... محاضرات في التطور السياسي لقضية عمان ، معهد البحوث والدراسات العربية ، القاهرة ١٩٦٤ .
٢٣ - د/ مصطفى عبد القادر النجار ... التاريخ السياسي لمشكلة الحدود الشرقية للوطن العربي في شط العرب ، دراسة وثائقية ، البصرة ١٩٧٤ .
٢٤ - نور الدين السالمي ... تحفة الأعيان بسيرة أهل عمان ، (مجلدان) الطبعة الخامسة ١٩٧٤ .

٢٥ - Boxer, C.R. Some Aspecte of the Struggle between Omanis & the Portugose - AD 1650 - 1730. Proceedings of Arab Gulf centres Abu Dahabi 1979.

٢٦ - Coupland, R. East Africa and its Invaders, London 1939 -

٢٧ - Kelly, J. Britain and the persian Gulf., London 1968.

٢٨ - Miles, Countries and tribes of the persian Sulf. London

* * *

مملكة الزولو والتوسع الأوروبى فى جنوب إفريقيا
(١٨٢٤ - ١٨٩٧)

دكتور
عبد الله عبدالرازق إبراهيم
أستاذ مساعد بمعهد البحوث والدراسات الإفريقية
جامعة القاهرة

المحتويـــات

أولاً : نشأة مملكة الزولو فى القرن التاسع عشر

ثانيًا : شاكا يتولى شئون مملكة الزولو

ثالثًا : شاكا والقوى المجاورة

رابعًا : مملكة الزولو بعد رحيل شاكا

خامسا : ستشاوايو والصراع مع الأوروبيين .

سادسا : الخاتمة

مملكة الزولو والتوسع الأوروبى فى جنوب افريقيا
(١٨٢٤ - ١٨٩٧)

مقدمــة

شهد القرن التاسع عشر قيام عدد من الممالك والإمبراطوريات الإفريقية التى تزامن توسعها مع بدايات التكالب الأوروبى على القارة الإفريقية ، وكان من الطبيعى أن يحدث الاحتكاك بين الطرفين فى طول القارة وعرضها ، واستطاع الأفارقة الصمود ، وأقاموا الإمبراطوريات التى امتدت طوال القرن التاسع عشر ، وتوحّدت الممالك الإفريقية تحت زعامات قوية ، حافظت فيها على التقاليد الإفريقية فى وجه التيارات الغربية الوافدة ، وتكونت الجيوش الوطنية ، واستخدمت أحدث أنواع الأسلحة المتاحة ، وحاولت بكل قواها أن تصمد أمام التيار الأوروبى الجارف ، فقد قامت مملكة الأشانتى فى غرب القارة ، ودولة سوكوتو فى شمال نيجيريا ، ومقاومة رابح فضل الله فى تشاد ، والأمير عبد القادر الجزائرى فى شمال إفريقيا ، لكن من أعظم هذه الممالك التى ظهرت فى جنوب القارة الإفريقية كانت مملكة « الزولو » التى استطاعت أن تجمع القوى المحلية من مختلف القبائل تحت لواء حاكم واحد هو الزعيم شاكا الذى حَوَّل الولاء من القبيلة إلى ولاءٍ قومى للمملكة الجديدة ، وكان هذا فى حد ذاته ثورة فى المفاهيم الإفريقية ، وتطورًا حديثًا لممالك جنوب القارة .

وقد صمدت هذه المملكة قرنًا من الزمان ، واستطاعت أن توحد جهود الأفارقة تحت لواء سلسلة من الزعماء الذين ساهموا بشكل فعّال فى بناء هذه المملكة ، وكانوا من أهم الموانع التى واجهت التوغل الأوروبى ، خصوصًا هجرات البوير المستمرة نحو أراضى الدولة الخصبة ، ومحاولات التجار الأوروبيين الاستيلاء على أراضى الزولو .

كيف نشأت دولة الزولو ؟ وكيف توسعت حتى امتدت إلى المناطق المجاورة ؟ وكيف استطاع زعماء هذه الدولة التعامل مع القوى الأوروبية ؟ وماهو موقف هؤلاء الزعماء من التوغل والهجرات الأوروبية إلى المنطقة ؟ وكيف انتهى

دور هذه الدولة بتغلب المستعمرين البريطانيين عليها وضمها إلى جمهورية جنوب افريقيا ؟ .

سنحاول فى هذا البحث الإجابة عن هذه الأسئلة بقصد إلقاء الضوء على تلك المملكة الإفريقية ، ومراحل تطورها حتى نهايتها ، على اعتبار أنها نموذج من نماذج المقاومة الوطنية للاستعمار الأوروبى ، ومثال حىّ واضح على أن الأوروبيين عندما قدموا إلى هذه القارة حاملين شعار تعدين الأفارقة ، وإدخال الحضارة فى القارة كانوا مخطئين ، لأنهم وجدوا حضارات ، ووجدوا شعوبًا تعيش فى ظل قيادات زطنية ، وتطبق وسائل حديثة من التنظيم العسكرى لا تقل تطورًا عما جاء به الأوروبى .

إن دراسة تاريخ مملكة الزولو يعطينا بالدليل القاطع نموذجًا فريدًا لواحدة من الوحدات السياسية التى عاشت قبل قدوم الأوروبيين ونمت وتطورت على الرغم من النفوذ الأوروبى ، وكيف أن الوجود الأوروبى والأطماع الاستعمارية كانت فى النهاية السبب فى تقويضها والقضاء عليها .

وهذه الدراسة تُعد مقدمة لدراسات أخرى حول الممالك الإفريقية التى لعبت دورًا هامًّا فى مقاومة الاستعمار الأوروبى .

ونأمل أن نحقق بذلك إعادة تقييم الدراسات التاريخية حول زعماء القارة الذين تصدوا للاستعمار ، لكنهم لم يجدوا من الباحثين اهتماماً بإبراز دورهم البطولى الذى قاموا به .

نشأة مملكة الزولو فى القرن التاسع عشر

يُعد الساحل الشرقى من جنوب القارة الإفريقية من أكثر المناطق جذبًا للاستقرار البشرى فى كل جنوب إفريقيا ، ويضم الإقليم منطقة عُرفت باسم أرض الزولو وناتال ، وعلى طول هذا الساحل توجد سلسلة من المرتفعات تصل إلى جبال دراكنزبرج ، التى تفصل الأراضى الساحلية عن الهضبة الداخلية .

وقد ساعدت الأمطار الغزيرة التى تسقط على سفوح الجبال على تكوين مجموعة من الأنهار والمجارى المائية التى تنساب من الجبال إلى المحيط ، وفى هذه المنطقة ذات الحشائش الغنية توجد أعظم المراعى والأودية الخصبة التى تساعد على إنتاج محاصيل كثيرة ، منها القمح . وفى هذه المنطقة استقر عدد كبير من قبائل النجونى (Nguni) وهى إحدى فروع البانتو الجنوبيين ، وقد جاءت هذه الجماعات من الشمال ، وسيطرت على القبائل المحلية من رعاة البوشمان والهوتنتوت ، وطردتهم إلى المناطق الداخلية (١) .

ولما ازدادت أعداد النجونى ، ضغطت على السكان المحليين حتى وصلوا إلى نهر « جريت فش » (Great Fish) والأراضى الغنية فى زورفيليد (Zurveld) والتقوا ببعض المستوطنين البيض الذين كانوا يتحركون إلى الداخل من منطقة الكيب (٢) .

ومنذ منتصف القرن السابع عشر كانت قبائل النجونى تعمل بالتجارة فى العاج مع الأوروبيين فى خليج دالجوا فى موزمبيق ، هذا إلى جانب الزراعة ، وقد أدت المنافسة الشديدة للحصول على الأراضى للرعى أو الزراعة إلى حدوث المجاعات (٣) .

وكانت النجونى تنقسم إلى أكثر من خمسين عشيرة ، كل عشيرة منها شبه مستقلة ، وظل الأمر كذلك حتى أوائل الفن التاسع عندما استطاع شاب من الزولو ويدعى « دانجسواى Dingiswayo توحيد هذه العشائر المتفرقة تحت لواء دولة

---

(١) Cooper, O : Shaka and the Rise of the Zulu, Tarikh, African Leadership in 19 th Century. Voll No. lp. 1

(٢) انظر شكل رقم (١) .

(٣) Hull, R. Southern, AFrica Civilization in Turmoil, New York 1981, p. 52

واحدة . والحقيقة أن المعلومات عن أصول هذه الدولة تكاد تكون معدومة ، باستثناء بعض المعلومات التى أمكن الحصول عليها من بعض المبشرين ، ومنها عَلِمْنَا أن أول شعب استقر فى منطقة الزولو يرجع إلى عام ١٨٢٤ م ، وكانت ميثاوا (Mthethwa) هى أول اتحاد كونفدرالى قام هناك (١) .

وكانت تحيط بهذا الاتحاد جماعات السوازى من الشمال ، والسوتو من الغرب ، وأما من جهة الجنوب فقد أحاطت بهم سلسلة من التمبو ، والبوند ، والاكسوسا ، والتى كانت تمتد حتى حدود مستعمرة الرأس (٢) .

وفى أواخر القرن الثامن عشر انتهز دنجسواى وفاة والده ، وقام بطرد أخيه من رئاسة متيثاط ، ودمج كل المؤسسات القائمة ، وجند الشباب فى دولته بشكل دائم ، وقام بتوزيع الجنود على فرق من نفس العمر ، وأعد لكل فرقة زيًّا خاصًّا تتميز به ، كاستخدام الدروع من جلد مميز ، وأعاد النظام فى دولته ، واستتب الأمن ، فأخذ يتطلع إلى خارج حدود دولته ، وحاول توسيع أراضى هذه الدولة الفتية ، حتى وصلت إلى مفولوزى (Mfolozi) فى الشمال ، وإلى أرض توكيلا (Tukela) فى الجنوب ، وإلى مسافة تمتد حوالى ستين أو ثمانين ميلا فى الداخل (٣) .

ميلاد شاكا :

فى عام ١٧٨٧ وضعت سيدة تدعى ناندى (Nandi) وهى من عشيرة (Langeni) طفلاً من زعيم الزولو ويدعى زنزنجاكونا (Senzangakona) لكن الزعيم قام بطرد الأم وطفلها ، وكان اسمه شاكا (Shaka) واضطر الطفل إلى قضاء حياته الأولى بين عشيرة لانجينى (أهل والدته) وعندما شبّ عن الطوق أخذته أمه إلى أحد أقاربها فى متيثاوا حيث عمل فى الرعى ، وبعد أن بلغ سن الثانية والعشرين انخرط فى سلك الجندية فى جيش دانجسواى ، وهنا ظهرت مواهبه ، واشتهر بين أقرانه ، ورقى بسرعة حتى صار قائداً لفرقته .

---

(١) Wilson, M. and Leonend Thompson (eds) : the Oxfork History of South Africa, Vol. 1 Oxford 1969, p. 336.

(٢) دونالد ويدنر : تاريخ إفريقيا جنوب الصحراء ترجمة راشد البراوى ص ١٨٣ .

(٣) Ritter, E.A. : Shaka London 1955, p.37.

ولاحت لشاكا الفرصة لتولى مقاليد السلطة فى أرض الزولو عندما مات أبوه ، أنه لم يكن الوريث الشرعى للعرش بسبب وجود أخيه سيجوجانا (Sigujana) فإنه استغل وضعه فى بلاط دنجسواى وحصل على تأييد الاتحاد واتجه بجيشه إلى أرض الزولو ، واستولى عليها دون معارضة (١) .

وظل شاكا يعمل تحت سيطرة الرئيس الأعلى دانجسواى حتى انتهت الأمور بصراعات عامة بين دويلات المنطقة ، ففى البداية دبّ الصراع بين أنصار سبهوزا (Sobhuza) وأنصار زويد (Zwide) حول مناطق الرعى على شاطىء نهر بونجولا (Pongola River) وانتهى الصراع بهزيمة سبهوزا وهروبه مع قواته إلى منطقة سوازى لاند الوسطى ، حيث واصل غزو المناطق المجاورة وأخضعها وأسس دولة السوازى الجديدة (٢) .

وبعد انسحاب سبهوزا صار زويد وجهاً لوجه مع دنجسواى فى منطقة أرض الزولو الوسطى ، وفى عام ١٨١٧ اندلعت الحرب بينهما ، وتحرك جيش دانجسواى لمهاجمة عدوه ، وطلب من شاكا إحضار قواته لمساعدته – لكن تأخرت قوات شاكا فى الوقت الذى كان سيده قد ترك الجزء الرئيسى من قواته.وتسلق التلال المجاورة لإلقاء نظرة على أرض المعركة ، لكنه اكتشف أنه قد وقع داخل سرداب ، مما جعله لقمة سائغة فى أيدى أعدائه الذين قبضوا عليه وأعدموه .

وقد أحدثت هذه الكارثة الذعر فى صفوف اتحاد متيثاوا ، فتفرقت قواته دون انتظار هجوم الأعداء ، وفى ساعات قلائل انهارت إمبراطورية دانجسواى التى كافح من أجل بنائها ، وأصبح زويد هو القوة الرئيسية فى المنطقة حتى ظهور شاكا الذى صار أقوى حاكم فى شمال توكيلا (٣) .

---

(١) Ritterm E.A. : Shaka Zulu, London 1955, p. 37;

(٢) Cooper O. : Op. Cit. p. 6.

(٣) Brayantm A.T. : Old Times in Zululand and Natal, Cape To 1929 p. 158.

شاكا يتولى شئون مملكة الزولو

قبل الحديث عن دور شاكا في البناء والتوسع ، نعرج قليلاً لإلقاء نظرة على نظام الجيش في عهده لأن هذا الجيش كان ساعده الأيمن في بناء مملكته وفي التغلب على كل المنافسين له ، خصوصًا أنه تقلد السلطة في ظروف صعبة ، وفي جو تحيط به المؤامرات ، وتغلفه الفتن والدسائس .

وعندما آلت السلطة إلى شاكا طبّق نظامًا عسكريًا جديدًا في اتحاد متيثاوا ، وأدخل بعض التجديدات على النظم القائمة حيث قسم الرجال دون سن الأربعين إلى ثلاث فرق ، لكل منها غطاء متميز للرأس ، ولكل فرقة دروع من لون خاص من جلد البقر ، ووضع كل فرقة في مكان خاص تحت إشراف ضباطه أو بعض أقاربه ، واستقر هو في بولاوايو (Bulawayo) (١) .

واستبدل الأسلحة التي كان يستخدمها المحاربون القدامى بأسلحة أكثر فاعلية ، فقد استخدم الحربة القصيرة المدببة ، إذ كانت أكثر فاعلية من الحراب القديمة ، وقد اخترع شاكا نفسه هذا السلاح الجديد عندما كان يعمل في جيش دانجسواي ، وجعل رجاله يتخلصون من الأحذية الثقيلة التقليدية ، من أجل السرعة في الكر والفر ، ولخفة الحركة أثناء المعارك .

وساعد وضع الرجال في مدن عسكرية بعيدة عن المناطق المدنية على إلغاء الولاء القبلي المحلي ، فصار الجميع ينتمون إلى قومية واحدة متميزة للزولو (٢) .

وفرض شاكا على رجاله تدريبًا عسكريًا قاسيًا ، وأدخل نُظماً عسكرية جديدة ، مثل نظام الهجوم عن طريق مقابلة فرقة في الوسط يساندها الاحتياطي ، بالإضافة إلى جناحين يتقدمان ويحاصران العدو ، كما جنّد الأطباء لعلاج المصابين في المعارك .

وأضاف شاكا مبدأ الحرب الشاملة ، بقصد تحطيم قوة العدو تمامًا ، وجعله عاجزًا عن المقاومة أو حتى استعادة أنفاسه ، وذلك بالقضاء على عشيرة الحكام ، وتخلص

---

(١) M. Wilson and Tho-pson : Op. Cit. p. 342.

(٢) Hull, R., : Op. Cit. p. 53.

شاكا ، وفى نفس الوقت يذوب الولاء القبلى فى هذه العملية ويصبح الولاء للملك ، مما ساعد على بناء قومية جديدة للزولو [١] .

وباختصار أصبح شاكا فى فترة وجيزة السلطة العليا ، وقاضى القضاة ، ومصدر كل السلطات ورئيس القيادة ، والكاهن الأعظم ، وصار أغنى رجال المملكة ، حيث امتلك أعدادًا ضخمة من الماشية ، وتوسعت المملكة فى عهده وعَمَّتْ شهرتها الآفاق هذا فى الوقت الذى تفرقت فيه قبائل ناتال جنوب نهر توكيلا إلى عدد كبير من الزعامات الصغيرة ، والتى أخذت تتصارع ، مما أدى إلى مصرع آلاف الرجال ، وهروب البعض إلى الجنوب ، فى حين انضم البعض الآخر إلى مملكة الزولو [٢] .

ففى « ناتال » لم تقم دولة لها نُظُم موحدة ، فقد اتجهت جماعات السان (San) إلى جبال دراكنزبرج فى حين عاشت بعض جماعات النجونى فى مناطق تحميها الجبال والأعشاب ، كما عاشت أخرى على جذور النباتات والصيد وأكل اللحوم الآدمية [٣] .

وفى خلال زعامته لقبائل الزولو التى استمرت حوالى أربعين عامًا ، حقق إنجازات مؤثرة ، ووضع التنظيم العسكرى للزولو ، وألغى استخدام الرمح النحيل ، واستعمل الحربة الصغيرة للطعن ، كما وحَّد ولايات الزولو ، ووسع من نطاق سيطرتها ، وكاد أن يوحد كل المنطقة التى تعرف الآن باسم ناتال وليسوتو وسوازى لاند [٤] .

هكذا استطاع شاكا أن يضع أسس دولة كاملة امتدت من حدود مستعمرة الكيب حتى بحيرة تنجانيقا ، وضمت عددًا من السكان زاد على ٢٠٠٫٠٠٠ نسمة ، وصارت عند وفاته عام ١٨٢٨ م أقوى دولة عسكرية فى جنوب إفريقيا وحقق أعظم انتصار لشعب الزولو ، بعد أن تمكن بعبقريته العسكرية أن يكسر حصار الرجل الأبيض لقومه ، وأن ينظم الشباب فى مملكته فى كتائب منظمة تعيش للحرب فحسب [٥] .

---

(١) Cooper, O. Op. Cit. p. 9.

(٢) M. Wilson : Op. Cit. P, 346.

(٣) Lsaacs N., Nathanial : Travels and Adventures in Eastern Africa, Africa, 1936 - 7, p. 107.

(٤) بونار ماغوبين : التطورات السياسية فى تاريخ جنوب إفريقيا ، مقال ضمن مجلة « التاريخ والمستقبل التى تصدرها كلية الآداب جامعة المنيا ، العدد (٢) من المجلد (٢) لعام ١٩٨٨ ص ٥٧ .

(٥) رونالد أوليفر وجون فيج : موجز تاريخ إفريقيا ، ترجمة دولت أحمد صادق (د.ت) ص ١٧٦ وشكل رقم (٣) .

موقف شاكا من القوى المجاورة

بعد مصرع دانجسواى الرئيس الأعلى لاتحاد متيثاوا صار شاكا خليفة له كما سبق أن ذكرنا ، لكنّ زويد ظهر على أنه المنتصر والحاكم الأوحد ، ونظر إلى « شاكا » على اعتبار أنه من التابعين له .

انتهز شاكا فرصة الهدوء النسبى بعد مصرع دانجسواى وراح يشن سلسلة من الحملات القصيرة على القبائل المجاورة وأخضعها ، وضمها إلى قواته ، وما إن وصلت هذه الأخبار إلى علم زويد حتى قرّر القيام بحملة كبرى نضع فيها نهاية لشاكا وأتباعه ، وأرسل عددًا من أبنائه على رأس قوة ضخمة لمهاجمة الزولو . وفشل القائد دنداوانداو (Ndwandwe) فى إخضاع الزولو وجيشهم المدرب على أحدث الأسلحة ، واضطر هذا القائد إلى الانسحاب تاركًا عددًا من الأمراء على أرض المعركة ، مما أثار حنق زويد وتصميمه على إنهاء دولة شاكا والزولو . وأعد حملة جديدة فى عام ١٨١٨ م ووضع فيها كل قواته وعلى رأسها أقوى قياداته [١] .

وانتهج – شاكا أسلوب المراوغة لكى يواجه هذه الأعداد الضخمة من الغزاة ، فانسحب إلى الداخل ، وحطم – قبل انسحابه – موارد الغذاء ، وفى نفس الوقت كان يقوم بهجوم مباغت على العدو أثناء الليل من مواقعه الجديدة . وعندما وصل القائد دانداونداو إلى الحدود الجنوبية لأرض الزولو التقى معه شاكا بقواته على طول نهر توجيلا فى معركة حاسمه .

وكانت المنطقة خالية تماما من المواد الغذائية التى يحتاج إليها الجيش ، لأن شاكا دمر الأخضر واليابس ، مما اضطر قوات الأعداء إلى العودة إلى أوطانها حيث قام شاكا بالهجوم عليها وهى تتقهقر ، وأجبرها على عبور نهر مهالتوز (Mhlatuze) ، واختار اللحظة التى كانت فيها القوات المعادية فى منتهى الإعياء والتعب وأرسل قواته المدربّة لشن هجوم عليها ، ودارت معركة رهيبة حول النهر انتهت بهزيمة الأعداء وهروبهم من أرض المعركة ، مخلفين وراءهم معداتهم وأسلحتهم وبذا أصبح شاكا السيد الفعلى

---

(١) Cooper, O : Op. Cit, p. 7.

والقوة الحقيقية فى أرض الزولو ، خصوصًا أنه استخدم الرماح الخشبية وأسلوب الحرب على شكل هلال متماسك ملتف فى الوسط ، وله جانبان خفيفان يطبقان على العدو .

وبعد هذه المعركة مع قوات زويد لم تستطع قبيلة فى أرض الزولو وفى ناتال أن تقف أمام قوات شاكا ، وعندما أعاد نداونداو الكرّة من جديد فى عام ١٨٢٦ م وجد مقاومة عنيفة ، وقضى عليه تمامًا .

وبعد انتصارات شاكا الحاسمة تقدم بجيشه دمر معظم أراضى ناتال ، كما دمر منطقة بوندو (Pondo) فى شمال الترنسكاى ، وكانت القبائل التى تلتقى بقوات شاكا إما أن تهرب فرارًا من بطشه ، وإما أن تندمج فى قواته ، وكانت تحركات الجيش تحمل فى طياتها الدمار والخراب (١) .

لقد كان لتوسعات شاكا آثارها القوية ، ليس فقط فى أرض الزولو ، بل تعدتها إلى المناطق المجاورة ، فبعد هزيمة نداونداو هرب بعض أتباعه عائدين إلى أوطانهم ، واتجهوا شمالاً ، واستطاع أحدهم ويدعى سوشانجين (Soshangane) أن يؤسس مملكة مستقلة فى الأراضى المنخفضة فى إقليم جازا (Gaza) بين خليج دالجوا ونهر الزمبيزى الأسفل ، وأخضع السكان هناك ، كما حطم المستعمرات البرتغالية فى خليج دالجوا وفى نفس الوقت تمكن رجل آخر من الفارين يدعى زوانجندابا (Zwangendaba) واشتهر باسم نجونى يعبر إلى روديسيا الشمالية (زامبيا) ، وحطم امبراطورية المونوماتابا (Monomataba) وعبر نهر الزمبيزى وأثار الرعب فى كل ممالك شرق إفريقيا ، وأخضع عددًا من الممالك فى كل من تنجانيقا وتنزانيا ومالاوى وزمبابوى (٢) .

وأمام توسُّع شاكا هربت بعض القبائل عبر جبال دراكنزبرج إلى الهضبة الوسطى ، وهناك حدثت اضطرابات بين الشعوب الناطقة بلغة السوتو (Sotho) ، وحدث تدمير وخراب لكثير من هذه المناطق ، مما حدا ببعض القبائل إلى الاتحاد أمام هذا الغزو ، وإلى الالتفاف حول زعيم جديد هو موسشش (Moshesh) الذى استطاع أن يوحد جهود هذه الجماعات وسط تلك الفوضى والاضطرابات ، وأن يؤسس مملكة مستقلة ، صارت تعرف بعد ذلك باسم مملكة باثوتو (Basuto) .

---

(١) M. Wilson : Op. Cit. p. 347.

(٢) Lsaacs, N. : Op. Cit. p. 256;

ومجمل القول أن بزوغ نجم شاكا فى أرض الزولو ، وتطبيقه نظاما عسكريًا جديدا ، واعتماده على الجيش الدائم المدرّب على أحدث الأسلحة ، تطبيقه مبدأ الحرب الشاملة ، بقصد تدمير قوة عدوه ، وجعله عاجزًا عن المقاومة والصمود - كل هذا كان عاملاً فى بسط شاكا سيطرته على كل أراضى الزولو ، وتكوين مملكة قوية خضعت لها كل القبائل التى التحمت معها ، وكان ظهور شاكا فى أوائل القرن التاسع عشر عاملًا هامًّا فى تغيير الخريطة السياسية لمعظم أراضى جنوب إفريقيا ، حيث هربت القوى المنهزمة أمام قوات شاكا ، وراحت تبحث عن مناطق بعيدة لتأسيس دولة جديدة على حساب القوى المحليّة الضعيفة ، كما أن بعض القوى الوطنية حاولت الاتحاد لتكوين أحلاف هذه القوى النازية مما أحدث تغيرات جذرية فى المنطقة ، هذا فى الوقت الذى كان الأوروبيون يسعون - بكل الوسائل نحو التوسع فى الداخل ، وكان لابد من الاحتكاك بين هذه القوى الأوروبية وبين مملكة شاكا التى بدأت هى الأخرى تتوسع وتضم مناطق جديدة .

ففى عام ١٨٢٢ بدأ الكابتن وليم أوين (Owen) التابع للبحرية البريطانية مسحاً شاملا للساحل الشرقى الجنوبى من القارة ، ابتداءً من خليج دالجوا ، وكوّن علاقات طيبة مع زعماء المنطقة ، كما بدأت مجموعة من الإفريكا نزر من جنوب إفريقيا تكوّن شركة من أجل استغلال الأراضى الزراعية فى ناتال وهكذا ازداد التكالب الأوروبى على المنطقة .

وفى عام ١٨٢٤ وصل كل من فرانسيس فيرول (Francis Farewell) ، وجيمس كنج (James King) ، وهنرى فرنسيس فين (Henry Francis Fynn) ومعهم مجموعة من الأفريكانز والإنجليز وبعض الخدم من الملونين وكانت لديهم خطة لتأسيس مستعمرات زراعية ، وجاء بعدهم بعض الإنجليز ، بما فيهم ناثينيال إسحاق ، أحد اليهود الذين اعتنقوا المسيحية ، وكان هدف هذه الجماعات الأخيرة جمع العاج وتصديره ، لكنهم بعد فترة انعزلوا عن العالم الخارجى بعد فقدان سفنهم ، واضطر فين (Fynn) أن يتعايش مع سكان المنطقة ، فتعلم لغة الزولو ، وتزوج امرأة من جماعات النجونى ، وقام بعدّة رحلات إلى الجنوب والشمال ، وحمل كميات من سن الفيل لتصديرها من خليج ناتال .

وعندما نمّا إلى علم شاكا وصول هذه المجموعات من الأوروبيين ، بدأ يعمل

على التفاهم والتعاون معهم ، فقدموا إليه الهدايا ، ونمت علاقات قوية معهم ، ولما شاهد أسلحتهم أبدى إعجابًا بها ومَدَّهم بالطعام ، وتنازل عن أجزاء من أراضى ناتال إليهم فى مقابل إمداده بالسلاح الحديث ووقع على وثائق بهذا المفهوم برغم أنه لم يعرف مضمون الوثائق التى وقَّعَ عليها ، وأعطى شاكا جيمس كنج قطعة من الأرض ، كما أنه جعل إيزاك (Isaacs) رئيسًا لناتال ، ومنحه قطعة من الأرض طولها ميل وعرضها خمسة وعشرين ميلا ، بما فى ذلك ميناء ناتال .

وسمح شاكا لهم بجمع بعض الأتباع من القبائل المحلية فى ناتال ، وصاروا يكونون جماعات تابعة لشاكا ، وصارت هذه الجماعات تدين بالولاء له ، لأنه هو الذى يحميهم ، ويقومون فى ظل رعايته بالاتجار فى سن الفيل الذى يحصلون عليه من مملكته .

وبعد أن دعم شاكا نفوذه فى المنطقة ، وساعد التجار الأجانب ، حاول إقامة علاقات مع البريطانيين بالذات بمساعدة هؤلاء التجار ، وتعهد جيمس كنج بالقيام بهذه المساعى مع الملك جورج الرابع ملك إنجلترا ، ووصلت فعلاً بعثة بريطانية إلى خليج دالجوا – لكن القائم بالأعمال فى الكيب منع البعثة من مواصلة السير إلى مملكة شاكا .

ولم يتوقف شاكا عن التوسعات ، خصوصًا بعد ازدياد قوة « نداوانداو » الذى كان قد هرب من قبل مع قوات زويد . وفى عام ١٨٢٦ م قرر شاكا الاتجاه بجيشه شمالا للقضاء على قوة نداوانداو المتنامية ، والتى يمكن أن تهدد مملكته ، واستطاع شاكا أن يقضى على قوة عدوه نداوانداو ، لكنه فى طريق العودة اتجه إلى نهر مزمكولا (Mzimkhula) وكان معه من الأجانب كل من « فين » ، والسيد « فيرويل » (Farewell) وأما بقية جيشه فقد اتجه على طول الساحل لمواجهة قوات مبوندو (Mpondo) وجيرانهم فى الغرب . وخاض جيش شاكا معارك مع هذه القوى ، وتوجَّه شمالاً لمواجهة قوات سوشنجين (Soshangane) ، وقام جيش الزولو بمهاجمة قوات سبهوزا (Sobhuza) ومنطقة بيدى (Pedi) قبل أن يصل إلى « سوشنجين » الذى كان يقطن فى الطرف الغربى من خليج دالجوا ، واستطاع هذا الرجل أن يصد جيش الزولو الذى انسحب دون خطة منظمة ، مما عرضه للمجاعة ، وأصيب عدد كبير من رجاله بالحمى [1] .

---

(١) Julian C. The Mfecane as Alibi, Thoughts on Dithakong and Mbolompo, Joual of African History 29, 1988, pp. 487-519.

وفى الوقت الذى كان الجيش مشغولا فيه فى حروبه مع أعدائه كان شاكا يعيش مع عدد بسيط من الاتباع الذين شكلوا فرقة خاصة له ، ونظرًا لأنه كان يشغل شعبه فى حروب مستمرة ، ونظرًا لأنه ظل بلا زواج ، مما جعل وراثة العرش أمرًا صعبًا ، لذا بدأ التمرد بين أتباعه ، وأخذت فرق التآمر تتربص به ، لأن عددًا من إخوته كانوا لا يزالون على قيد الحياة ، وكل واحد منهم كان يطمع فى أن يرث هذه الدولة المترامية الأطراف ، وانتهز اثنان منهم هما دانجين (Dingane) ، ومهلانجانا (Mhlangana) غياب الجيش ووضعا خطة لاغتيال شاكا .

وفى أحد الأيام وبينما كان شاكا يستعد للقاء أحد المبعوثين من قبيلة السوتو ، والذى جاء إليه بالضرائب من ريش النعام - تخفى كل من دانجين ومهلانجانا خلف سور حظيرة الماشية التى يقف الملك خلفها ، وبينما كان الملك يتناقش مع مبعوثى السوتو رفع مهلانجانا نفسه إلى أعلى السور وضرب شاكا من الخلف فسقط على الأرض ولم يحرك ساكنًا . هكذا كانت نهاية هذا الملك العظيم لشعب الزولو ، والذى وصفه بعض الكُتّاب الأوروبيين بأنه يُعَدُّ فى مصاف عظماء التاريخ ، من أمثال نابليون ، وجوليوس قيصر ، وهانيبال ، وشارلمان (١) .

وانتهت فترة لكم شاكا ، ذلك الملك القوى الذى جمع فى يده سلطات واسعة ، وحرم رؤساء الأحياء من الانفراد بالسلطة ، حيث حوّل السلطة إلى الرؤساء العسكريين الذين كانوا يدينون له بالولاء ، ولم يشجع رؤساء الفرق العسكرية على عقد أية اجتماعات فى غيابه ، حتى لا تسول لهم أنفسهم تدبير مؤامرات ضده ، خصوصًا أنه كان حاكمًا جمع كل أمور السلطة فى يده ، وكان يجد لذة فى تنفيذ الأحكام ، وكان يحب أن يفرض على شعبه الأوامر فتطاع دون معارضة (٢) .

---

(١) Walter, R. : How Europe Under developed Africa, London 1972, p. 141.

(٢) عند وفاة جدته ثم أمه التى ارتبط بها كثيرًا فرض « شاكا » على شعبه الحداد العام لمدة عام كامل ، ثم قرر فى نهاية العام توجيه حملة إلى قبائل الترنسكاى التى تفصل مملكته عن مستعمرة الكيبو ، ذلك لأن هذه القبائل لم تعلن الحداد على وفاة أمه (ناندى) وفرض عليهم شروطًا قاسية ، وتسلم ماشيتهم بدلا من الحزن على والدته ، ولم يكن هدفه الأساسى الاستيلاء على الماشية والأسلاب بقدر ماكان يخطط للاتصال مباشرة مع مستعمرة الكيب .
Cooper, O : Op. Cit. p. 10.

مملكة الزولو بعد رحيل شاكا والتوسع الأوروبى

بعد النهاية المفزعة لهذا الملك الذى كوّن مملكة مترامية الأطراف ، صارت من أقوى الدول العسكرية فى جنوب إفريقيا تولى السلطة من بعده دانجين الذى لم يستطع أن يسد الفراغ بعد رحيل هذا القائد الإفريقى الكبير .

وقام دانجين بقتل القائد العام ، وأحل محله أحد الضباط الذين يثق فيهم ، وعيّن رجالا من أتباعه حكامًا لمختلف المناطق ، وبالتالى حدث تغير كبير فى القيادات — لكن دانجين لم يكن مثل الملك شاكا فى قوته وعظمته ، ومن ثم بدأت المملكة تفقد هيبتها ، ونظرًا لأن دانجين لم يكن محاربًا مثل شاكا فإنه عجز عن ممارسة القيادة العسكرية الحيوية ، وفقد الجيش معنوياته بعد حملات عام ١٨٢٨ م ، وكان على دانجين أن يستمر فى حملاته السنوية ضد المناطق المجاورة ، لكن باءت معظم هذه الحملات بالفشل [(١)] .

وكانت هذه البداية للانجين وعجزه عن سد الفراغ بعد رحيل شاكا سببًا فى الانقسام والثورة عليه ، حيث ثارت بعض المناطق ضد هذا الملك الجديد ، بل وهاجرت جماعات أخرى صوب الجنوب إلى المناطق المجاورة ، مما أحدث انقسامًا واضطرابًا بين جماعات الزولو ، وأخذ الضعف يدب فى أوصال هذه المملكة ، وبرغم محاولات دانجين المستمرة لإحكام قبضته على مختلف القبائل فإنه فشل فى توحيد قواته كما فشل فى جمع شمل هذه المملكة القوية وبرغم أن الأوروبيين الذين عاشوا فى المملكة فى عهد شاكا وحصلوا على تأييد منه وصاروا تابعين له وازداد عددهم حتى وصل إلى أكثر من ثلاثين رجلا أبيض وأكثر من ٢٥٠٠ من الأفارقة فى ميناء ناتال فإنهم فى عهد دانجين وجدوا من الأفضل إقامة قاعدة لهم معادية له .

وهكذا تزامن الأنقسام فى مملكة الزولو مع رغبة الأوروبيين فى الاهتمام عموماً بهذه المنطقة ففى عام ١٨٣٢ أرسل حاكم الكيب السير لورى كول (Lowry Cole) الدكتور أندرو سميث (Andrew Smith) وهو من رجال الهيئة الطبية لدراسة المنطقة وإمكانياتها الاقتصادية .

---

(١) M. Wilson : Op. Cit p. 352.

وبعد ست سنوات من البحث والدراسة ، أرسل مجموعة من التجار والمقيمين فى ناتال التماسًا إلى الحاكم البريطانى يطالبون فيه بضمّ ميناء ناتال والمناطق الخالية من السكان هناك ، والتى تمتد لأكثر من مائتى ميل على طول الساحل ، وبرغم اعتراض الحكومة البريطانية على فكرة الضم فإن هذه الأحداث كانت سببًا فى الاضطراب داخل أرض الزولو .

وازدادت شكوك دانجين فى الأوروبيين ، خصوصًا عندما علم من أحد المترجمين فى مملكته ويدعى يعقوب (Jacob) – أن الأوروبيين يخططون للسيطرة على أرضه ، ويسعون لتدمير مملكته لذا فقد أرسل فى عام ١٨٣٣ قوة للقضاء على بعثة كين (Cane) التبشيرية ، وحاول فين (Fynn) إثناء دانجين عن هذا العمل ، إلا أن العلاقات ظلت متوترة بين الأوروبيين وملك الزولو الجديد (١) .

وفى عام ١٨٣٥ وصل إلى المنطقة آلن جاردنر (Allan Gardiner) وحاول فرض النظام فيها ، وعقد اجتماعًا للبيض الذين وافقوا على إنشاء حكومة فى مدينة دربان تكون خاضعة لحاكم الكيب ، وتوصل إلى اتفاق مع مملكة الزولو حيث تعهد دانجين باحترام حياة الرجل الأبيض ، والحفاظ على ممتلكات التجار الأوروبيين وأتباعهم من الأفارقة ، كما تعهد جاردنر بإعادة كل الهاربين من مملكة الزولو إلى دانجين . وفعلاً قام جاردنر بإعادة بعض الهاربين من الزولو ، لكن بمرور الوقت تجاهل التجار هذه الاتفاقية ، ولما سمع دانجين بذلك منع رعاياه من الاتجار مع البيض ، واعتبر جاردنر مسئولاً عن سلوك الرجل الأبيض فى ناتال ومنع البيض من دخول المنطقة (٢) .

وسافر جاردنر إلى إنجلترا حيث نشر يومياته ، وطالب الحكومة البريطانية بضمّ منطقة ناتال إلى النفوذ البريطانى لكن البرلمان الإنجليزى لم يكن مستعدًا لإنفاق المزيد من الأموال على منطقة ناتال ، وحسب قانون عقوبات رأس الرجاء الصالح الصادر فى عام ١٨٣٦ فإن الرعايا البريطانيين فى ناتال يخضعون للعقوبات التي تصدرها محكمة الكيب .

---

(١) Fynn, A.F. : The Diary of Henry Francis Fynn (ed) Staurt J. and Melco-, D.M. 1950, p. 188.

(٢) Gardiner, O. Kotze D.J. (ed) Letters of the American Missionaries 1835 - 1838, Van Riebeek Society pp. 187-8.

وعاد جاردنر إلى المنطقة وصار مسئولاً عن تطبيق العدالة حسب هذا القانون ، لكنه كان فى وضع لا يمكنه من تنفيذ القانون لقلة موارده ، ولعدم وجود العدد الكافى من الرجال لتنفيذ أوامره ، هذا فى الوقت الذى رفض التجار البيض تدخّله فى شئونهم ، وقاموا بنقض الاتفاق مع مملكة الزولو ، وأعلنوا استقلالهم عن السيادة البريطانية (١) .

وأمام هذه التطورات انسحب جاردنر إلى مقر بعثته على نهر تونجاتى (Tongati) وتوقف عن العمل السياسى .

لكن فى أواخر عام ١٨٣٧ بدأ المهاجرون من البوير من مستعمرة الكيب يتدفقون عبر ممرات جبال دراكنزبرج فى ناتال العليا ، وترك أكثر من أربعة آلاف رجل وامرأة وطفل مواطنهم فى مستعمرة الكيب وجاءوا يبحثون عن أرض الميعاد ، واستعدوا لهذه الهجرة ، وأخذوا معهم أكثر من ٤٠٠٠ خادم من الملونين ، واستخدموا عربات تجرها الثيران ، وعُرفت هذه العملية باسم الهجرة الكبرى (Great Trek) أو الزحف العظيم (٢) .

وسيطر المهاجرون على المراعى الجديدة فى المنطقة مابين مدينة رولونج (Rolong) ونهر الفال – لكن هذه المنطقة لم تكن هى أرض الميعاد حسب تخطيطهم ، لأنهم كانوا يريدون الاقتراب من المحيط الهندى ، وفى منطقة تكون بعيدة عن السيطرة البريطانية حتى يتمكنوا من الحصول على السكر والشاى والبارود وغيره من السلع من تجار الساحل (٣) .

كان المهاجرون ينتظمون على أساس القرابة العائلية ، لكن هذه العائلات وافقت على القيادة العامة لبعض الشخصيات من ذوى الخبرة والمواهب النادرة فظهرت شخصيات قوية من أمثال أندرياس بورتيجارتر (Andries Portgieter) ، وجيرت مارتز (Gert Maritz) (صانع العربات التى تجرها الثيران ، وبايت يس (Piet Uys) ، وبيتر ريتيف (Peter Retief) الذى حمل لقب القائد الأعلى ، وأصبح الأخير من أقدر القواد الذين تزعموا جماعات البوير النازحة للشمال ، ووضع دستورًا من تسع مواد تحدد الأسس التى أقسم الكل على احترامها (٤) .

---

(١) شوقى الجمل (دكتور) تاريخ كشف إفريقيا واستعمارها القاهرة ١٩٨٠ ، ص ٢٦٦ .

(٢) M. Wilson : Op. Cit. P. 355.

(٣) شوقى الجمل (دكتور) مرجع سابق ص ٢٦٩ .

(٤) انظر شكل رقم (٣) .

ولقد وعد ريتيف المهاجرين بأنه سوف يتوجه إلى ناتال ، وفى حالة الإستقرار هناك فسوف يتعامل مع التجار ، وسوف يقاوم التدخل الأجنبى أو تدخل زعيم الزولو دانجين على هذا فإنه اتجه مع جماعة صغيرة إلى ميناء ناتال فى أكتوبر ١٨٣٧ ، وهناك وجدّ استقبالاً حارًا من التجار ووجد أن جاردنر فى أمس الحاجة إلى قوة تسانده .

وألتقى ريتيف مع ملك الزولو دانجين الذى وعده بمنحه قطعة من الأرض فى ناتال شريطة أن تُظهر جماعات البوير بزعامة ريتيف حسن النيّة ، وأن ترد الماشية التى سُرقت من الزولو ؛ ووافق قائد البوير على هذا الشرط ، وعاد إلى ميناء ناتال لمزيد من المباحثات مع التجار ، وأرسل ريتيف رسالة إلى المهاجرين للتوغل نحو الساحل . وما إن سمع المهاجرون بهذه الأخبار حتى اندفعوا عبر ممرات الجبال ، وتوسعوا حول نهر توكيلا وفروعه (١) .

وقاد ريتيف جماعة من الفدائيين إلى جبال دراكنزبرج ، واتجه إلى منطقة تلوكوا (Tlokwa) التى سبق أن أغارت على أرض الزولو ، وأقنع رئيسها سيكونيلا (Sekonyela) بمقابلته عند مفارين (Mpharane) . وعندما توجه سيكونيلا إلى هذا المكان قام ريتيف بالقبض عليه ، وأعلن أنه لن يطلق سراحه إلا بعد أن يسلم شعبه كل الماشية التى سرقوها من الزولو ، واستجاب الشعب وأعاد الماشية التى حملها ريتيف إلى ناتال ، وقام دانجين بإعطاء المكافأة لريتيف ، وهى أرض الميعاد ، لأنه كان يرغب فى عدم إراقة دماء البيض أو استخدام القوة ضدهم .

وبرغم محاولة دانجين الإبقاء على علاقات الود مع الأوروبيين فإن العلاقات أخذت تتدهور مع التجار ، لأنه بعد رحيل (فرنسيس فين) لم يجد دانجين من يثق فيه منهم ، كما أن جاردنر كان عاجزًا عن الوفاء بالتزاماته ، وعندما اتجه المهاجرون إلى ناتال لم يجد دانجين من يستشيره بعد .

وإزاء هذا الموقف قرّر دانجين منع المهاجرين ، وأدى هذا إلى حروب طاحنة بين الطرفين ، كان أشدها فى فبراير عام ١٨٣٨ ، حيث وضع دانجين خطة تقوم على استدعائهم مع واحد وسبعين من رجاله ، وثلاثين من الخدم ، وبعد حفل راقص رتب دانجين مع رجاله القيام باغتيال ريتيف ومَنْ معه ، لكن فشلت الخطة ، لأن دانجين

---

(١) M. Wilson : oOp. Cit. P. 361

ونظرًا لأهمية هذا النصر على جيش الزولو القوى قد اعتبر المهاجرون هذا اليوم (١٦ ديسمبر) من أعيادهم القومية ، وظلوا يحتفلون به حتى عام ١٩٥٢ م [١] .

ترتب على هزيمة الزولو أن تخلى دانجين عن بعض المناطق التابعة له ، وبعد المعركة قامت قوة من المهاجرين بهجوم آخر على الزولو قرب بلاك مفولوزى (Black Mfolozi) وقتلوا أكثر من ألف رجل من الزولو ، وعادت هذه القوة إلى ناتال فى يناير ١٨٣٩ [٢] .

وبعد هذه الهزائم المتكررة أرسل الملك دانجين سفراء إلى ناتال ليتعهد بعدم التقدم صوب توكيلا ، وأن يدفع تعويضات من الماشية ، ولكن دانجين برغم ذلك لم يرسل الماشية التى وعد بها ، مما اضطر المهاجرين إلى الاستعداد لحرب جديدة ضد الزولو .

ولكى يرفع دانجين الروح المعنوية لجيشه قرر إرسال حملة ضد شعب السوازى ، لكن هذه الحملة لم توفق فى تحقيق أية مكاسب أو انتصارات ، مما جعل رد الفعل بعدها سيئاً ، وبدأت دولة لزولو تعانى من التفكك والتجزئة ، وأخذت بعض الشعوب المغلوبة على أمرها تفقد الولاء لهذه الدولة ، بل وانحاز أحد إخوة دانجين ويدعى مباندى (Mpande) إلى جانب البوير ، وهرب إلى سوازى لاند [٣] .

وكان مباندى يُكِن العداء لأخيه دانجين ، ورفض إرسال قوات لمساعدته فى حملاته الشمالية ، برغم أن دانجين جعله رئيسًا إقليميًّا فى منطقة إيشو (Eshowe) ، وفى أكتوبر عام ١٨٣٩ خشى مباندى على حياته بسبب عدم ولائه لأخيه ، وقام بعبور نهر توكيلا مع ١٧٫٠٠٠ من الزولو ، ثم اتجه إلى ناتل ، وأخذ معه ٢٥٫٠٠٠ رأس من الماشية ، وحدث تفاهم بينه وبين البوير ، وصار حليفًا لهم ، وتعهد بشن حرب ضد أخيه الملك .

وفى يناير عام ١٨٤٠ تحركت قوتان نحو مملكة الزولو ، إحداهما من جيش مباندى قوامها ١٠٫٠٠٠ رجل ويقودها نونجالازا (Nonga Laza) والأخرى بقيادة بيترويوس ومباندى وجماعات الفدائيين ، وتضم ٣٠٠ رجل أبيض و٤٦٠ من الخدم

---

(١) Marianne, C. Op. Cit. P. 98.

(٢) Monica Wilson : The Oxford History of South Africa, Vol.II Oxford 1971 P. 263

(٣) Derik, W. : A History of South and Central Africa, London 1975, P. 142.

الأفارقة والملونين ، وقد التقت القوة الأخيرة بقوات دانجين الذى حاول إغراء هذه القوة بالهدايا بدون جدوى .

وأما الفرقة الأخرى التى يقودها نونجالازا فقد اشتبكت مع جيش دانجين ، وانضمت إليها قوات من المهاجرين البوير ، وانهزمت قوات الزولو هزيمة ساحقة ، وفقدت الكثير من الرجال والماشية ، وفى أثناء انسحاب جيش دانجين قبضت عليه جماعة موالية للسوازى ، وقامت بقتله ، وانتهت حياة شخصية أخرى من زعامات الزولو .

وأعلن قائد المهاجرين بيتروريوس أن مباندى هو ملك الزولو الجديد ، لكنه سيكون تابعًا لجمهورية ناتال ، وعاد هذا القائد إلى مقره فى ناتال بعد أن استولى على ٣٦٫٠٠٠ رأس من الماشية ، وهكذا حكم مباندى من منطقة بافالو توكيلا حتى بونجولا تحت رئاسته بعض التابعين ، وانتهج سياسة سلمية حرص خلالها على عدم الإساءة إلى البيض من السكان ، بل ورفض الدخول فى صراعات مع جمهورية جنوب إفريقيا ، وسلك سياسة العزلة والاعتدال ، وحاول تنمية ثروته الحيوانية ، وظل يحكم فى هذه المملكة حتى عام ١٨٧٢ عندما تولى بعده ستشاوايو (Cetshwayo) دون أى اعتراض من أحد .

ستشاوايو والصراع مع الأوروبيين

تولى ستشاوايو السلطة عام ١٨٧٣ فى وقت كان التكالب الأوروبى على القارة الإفريقية قد وصل إلى ذروته ، وكانت إنجلترا تسعى بكل الوسائل لضم كل جمهوريات جنوب إفريقيا تحت اتحاد واحد تابع لها ، وكانت مملكة الزولو المستقلة إحدى العقبات أمام هذه السياسة البريطانية ، وكان على ستشاوايو أن يواجه كل هذه الأطماع الخارجية ، وأن يعيد بناء جيش تحطم فى عدة معارك مع البوير ، وقد استطاع هذا الحاكم الجديد أن يسلك طريقًا سليمًا حتى أعاد بناء جيشه ، وصار نموذجًا فريدًا للمقاومة الوطنية العنيفة ، وأظهر شجاعة فائقة أعادت إلى الأذهان أمجاد شاكا ودانجين ، وصار هذا الملك من أعظم الرجال الذين حافظوا على مملكة الزولو فترة من الزمان وسط العواصف القوية حتى إنتهى الأمر بسقوطها ودخولها تحت السيطرة البريطانية .

عندما تولى ستشاوايو السلطة أعاد إحياء الجيش ، وجعل التجنيد إجباريًا على

كل الشباب الذين سكنوا فى معسكرات ، وطبق نظامًا صارمًا ، وحرم عليهم الزواج إلى أن يطلق الملك سراحهم ، واستطاع الملك بفضل هذه السياسة أن يعيد بناء قواته ، وأن يؤسس جيشًا حديثًا يحظى بثقة عالية ويستطيع الدفاع عن وطنه ضد القوى التى تتربص به من كل جانب ، خصوصاً البوير الطامعين فى التسرب إلى أراضى هذه المملكة الخصبة .

وكانت مملكة الزولو فى ذلك الوقت تضم عددًا قليلاً من السكان البيض ، وكان العدو التقليدى للزولو هم جماعات البوير من البيض الذين كانوا السبب فى هزيمة دانجين ، وإضعاف المملكة ، وكان البيض يتسربون إلى المملكة من شرق نهر بلود (Blood) حيث لا توجد فواصل طبيعية بين أرض الزولو وناتال [١] .

وفى تلك الأثناء كانت الحكومة البريطانية تريد أن تكسر دائرة الأحداث المتكررة من الصراع بين الأفارقة والبوير ، كما كانت تسعى إلى ضم المنطقة نهائيًا إلى التاج البريطانى ، وفكر وزير المستعمرات البريطانى اللورد كرنارفون (Carnarvon) أن فكرة اتحاد فيدرالى ربما تكون أكثر قبولاً لدى جمهورية جنوب إفريقيا ، ولتحقيق هذه الغاية أرسلت الحكومة السير شبستون (Shepstone) مسئول الشئون الوطنية فى ناتال إلى جمهورية جنوب إفريقيا فى محاولة لإقناعها بفكرة الانضمام إلى الاتحاد . ووجد قبولاً من زعماء هذه الجمهوريات التى قبلت الانضمام فى أبريل ١٨٧٧ ، وأعلن شبستون أن الترنسفال صارت منطقة بريطانية ، وبرغم احتجاج بول كروجر نائب الرئيس السابق فى الجمهورية فإنه لم يستطع المقاومة ، وانضمت الترنسفال ، ومن هنا أخذت الأنظار تتجه إلى مملكة الزولو [٢] .

وأخذت الأمور العسكرية والدبلوماسية تضيق حول مملكة الزولو ، خصوصًا بعد أن وصل السير بيرتل فرير (Bertle Frere) ليعمل مندوبًا ساميًا فى جنوب إفريقيا ، ولينقذ سياسة الاتحاد الفيدرالى التى اقترحها كرنارفون . والتقى فرير مع شبستون الذى أقنعه بأن العقبة الوحيدة لتنفيذ فكرة الاتحاد تكمن فى مملكة الزولو ، والتقت آراء الرجلين ، وحاولا إقناع وزير المستعمرات بأن الاستقرار لن يتحقق فى المنطقة طالما بقيت مملكة الزولو مستقلة . وتوضح هذه الأمور أن كل القوى الأوروبية كانت تتربص

(١) M. Wilson : Op. Cit. P. 263.

(٢) الشكل رقم (٣) .

بمملكة الزولو القوية ، وكانت تعتبر بقاءها يمثل عقبةً أمام فكرة الاتحاد المقترح ، ومن هنا كان التحدى الذى واجهة ملك الزولو قويًا وعاصفًا . وفى نفس الوقت شكل فرير لجنة لدراسة مشكلة الأرض بين مملكة الزولو والترنسفال ، وقامت اللجنة فعلاً بالحصول على بيانات من كُلّ الجانبين ، وانتهت إلى أن ادعاءات الترنسفال للأرض الواقعة شرق نهر بلود لا أساس لها ، ولا يوجد أى سند قانونى يؤكد حقها فى تلك الأرض ، وتضايق فرير من قرار اللجنة واعتبره تحيزًا مع الزولو (١) .

وبرغم هذا فقد أُجّل فرير إرسال تقرير لجنة الحدود حتى يضمن وصول الإمدادات التى طلبها ، وفى نفس الوقت انتهز فرصة قيام بعض المناوشات على الحدود بين ناتال ومملكة الزولو وجلاء جماعات التبشير من أرض الزولو وقام بإرسال إنذار فى ١٦ نوفمبر عام ١٨٧٨ إلى ملك الزولو ، وقد حدث كل هذا قبل أن تدرس الحكومة البريطانية تقرير لجنة الحدود .

وكان الإنذار الذى أرسله فرير غاية فى الغرابة ، حيث طلب من الملك بعض الشروط القاسية ، ومنها حل جيش الزولو خلال ثلاثين يومًا ، وأن يسمح للرجال بالزواج ، وأن تمارس جماعات التبشير عملها بدون عرقلة من ستشاوايو ، وأن يقبل هذا الملك وجود مقيم بريطانى فى عاصمة الزولو أولندى (Ulundi) حتى يضمن تطبيق هذه الشروط ، وللإشراف على حياة الأوروبيين ورفاهيتهم فى المملكة – وانتهى الإنذار بأنه إذا لم تنفذ هذه الأوامر فسوف يهاجم أرض الزولو (٢) .

ولم يقتصر الإنذار على هذه المطالب القاسية ، بل طلب فرير من ملك الزولو تقديم غرامة ضخمة من الماشية كتعويض لحوادث الحدود ، وهو أمر يستحيل تنفيذه ، وبالطبع لا يمكن لحاكم مثل ستشاوايو قبول هذه المطالب أو تنفيذها ، لأنه إذا قام بذلك فسوف يجد معارضة من رجاله فى السلطة ، وربما يقوم أتباعه بطرده من على كرسى العرش . وكان الرفض يعنى قيام فرير بتطبيق خطة شلمسفورد (Chelms ford) لغزو مملكة الزولو ، والتى حدد لها ١١ يناير عام ١٨٧٩ (٣) .

---

(١) Clammer, D. : The Zulu War P. 28.

(٢) M. Wilson, Op. Cit. P. 264.

(٣) Clammer, D. : Op. Cit. P. 20.

معركة إيساندهلاونا :

أدرك ستشاوايو أن الأمل فى التفاهم مع البريطانيين أصبح مفقودًا ، وخصوصًا أن صيغة الإنذار الذى وجهه فرير كانت قاسية ، ولذا فإنه استعد لخوض معركة طويلة الأمد ، معركة البقاء أو الفناء ، معركة يحسم فيها الموقف ويعيد إلى المملكة كرامتها ، ويحافظ عليها وسط هذا الصراع الذى يحيط به من كل جانب .

وكان ستشاوايو قد أعد جيشه الذى وصل إلى ٥٠٫٠٠٠ محارب ، وينقسم إلى أكثر من ٣٥ فرقة عسكرية ، منهم حوالى ٤٠٫٠٠٠ رجل على أهبه الاستعداد لأى معركة [(١)] .

وجمع ستشاوايو أكثر من ٣٠٫٠٠٠ رجل قوى فى عاصمة أولندى (Ulundi) واستعد للمعركة بدون أن يضع تخطيطا معينًا للهجوم ، بل كان يحبذ الهجوم الجماعى على الأعداء .

وفى ٢٢ يناير ١٨٨٩ علم ستشاوايو أن قوة بريطانية مكونة من ١٨٠٠ رجل تقيم فى تل اسندهلاونا ، وهو مكان يشبه معدة الثور ، ويضم ممرًا ضيقًا ومنحدرًا ، ويجرى من الشمال إلى الجنوب ، وعرضه حوالى ٣٠٠ ياردة ، وقام جيش الزولو بالهجوم على هذه القوة بشكل مفاجىء وحطمها تمامًا ، وفقد الجيش البريطانى أكثر من ١٦٠٠ رجل فى أعظم كارثة تواجهها بريطانيا منذ حرب القرم [(٢)] .

ولقد بقى على قيد الحياة من القوة البريطانية بعد هذه الكارثة حوالى ٤٠٠ رجل ، أما الباقون فقد قتلوا على أرض المعركة ، وانتشر الخوف وعم الذعر والغضب فى أرجاء مستعمرة الكيب ، وازدادت الخلافات بين البوير والبريطانيين ، بل ورفع بعض القادة الأفارقة راية العصيان على أسيادهم من البيض [(٣)] .

لم يحاول ستشاوايو التقدم إلى ناتال بعد هزيمة الإنجليز حيث اهتم أساسًا بتحصين

---

(١) تمثل خسائر الأوروبيين فى هذه المعركة مصرع ٤٧١ من الوطنيين ، وبذا وصل عدد الضباط القتلى ٥٢ ضابطًا و ١٢٧٧ رجلاً من مختلف الرتب العسكرية . وانظر الشكل رقم (٣) .

(٢) Derik, W. : Op. Cit. P. 144.

(٣) Clammer, D. : Op. Cit. P. 214.

مملكته ، ولو تقدم بعد هذه الهزيمة لحقق انتصارات أخرى ، لكنه لم يهاجم ناتال وقنع بهذه الهزيمة للقوى التى تحدته وطلبت منه شروطًا قاسية ، وبالطبع كان للهزيمة البريطانية أثرها فى إرسال المزيد من الإمدادات والمعدات العسكرية للانتقام من ملك الزولو .

وما إن وصلت الإمدادات حتى واصل الإنجليز تقدمهم نحو عاصمة الزولو التى كانت قد شهدت بعض أعمال التمرد والانشقاق من هامو (Hamu) ابن عم الملك ستشاوايو ، ودخلت القوات البريطانية إلى العاصمة أولندى فى الرابع من شهر يوليو ، وحارب جيش الزولو بكل ما يملك من أسلحة ، لكن الجيش البريطانى بأسلحته الحديثة وتعزيزاته القوية استطاع أن يحسم اللقاء ، وأن يدمر العاصمة ، وأن يقضى على قوة الزولو ، حيث بلغت خسائر جيش الزولو أكثر من ١٥٠٠ قتيل ، فى الوقت الذى خسر فيه البريطانيون اثنى عشر قتيلاً و٨٨ جريحًا فقط [١] .

وتولى السيرجارنت ولسلى (Garnet Wolseley) منصب الحاكم العام لناتال والترنسفال ، والمندوب السامى لجنوب شرق إفريقيا ، ومنذ المعركة الكبرى ضد الزولو توقفت بريطانيا عن الاستمرار فى القتال بسبب زيادة الأعباء المالية فى جنوب إفريقيا ، وكانت تعلميات ولسلى عدم ضم أرض الزولو ، وكانت المشكلة الرئيسية هى كيفية التوصل إلى تسوية سلمية تمنع قيام مملكة الزولو مرة ثانية ، وذلك بأقل التكاليف للحكومة البريطانية ، وكان الحل الذى انتهجه ولسلى هو القيام بنفى ستشاوايو إلى مدينة الكيب ، وسمح له عام ١٨٨٢ بارتداء الملابس الأوروبية والسفر إلى إنجلترا حيث استقر فى كنسنجتن (Kinsington) وكانت شعبيته كبيرة ، ودعته الملكة إلى حفل غداء ، وفى شوارع لندن كان الاستقبال حارًا ، والحفاوة به بالغة ، والناس تسعى لمشاهدة آخر وأعظم ملوك الزولو [٢] .

وبعد نفى ستشاوايو لم يعد هناك رئيس جديد للزولو ، وبدلاً من ذلك تم تقسيم المملكة إلى ثلاثة عشر إقليما يحكمها رؤساء يختارهم حاكم ناتال ، ويكونون تحت إشراف المقيم البريطانى [٣] .

---

(١) M. Wilson : Op. Cit. Vol. II. 264.

(٢) Hull, R. : Op. Cit. P. 73.

(٣) Derik W. : Op. Cit. P. 145.

وعاد أتباع زويد ودانجسواى وهاموا وابن عم ستشاوايو للحكم ، لكن تحت ظلّ البريطانيين ، وُحرم على الرؤساء المحليين تكوين جيوش جديدة ، وانتقد المؤرخون هذه التسويات التى فُرضت على مملكة قوية مثل الزولو ، لأن هذه التقسيمات كان هدفها ميكيافليًا ، فقد حاول ولسلى انتهاج مبدأ : قسم وابتعد عن الحكم (Divide and Refrain from Rule) وهى وسيلة أضرت كثيرًا بالمصالح الإفريقية من أجل إرضاء الآمال البريطانية ، وهذا ما يؤكد أن السياسة البريطانية كانت تفكر فى المقام الأول فى أضعاف جبهة الأفارقة قدر المستطاع ، وبأقل التكاليف الممكنة .

ولقد أدت هذه التسوية لمملكة الزولو وتقسيمها إلى ثلاث عشرة منطقة إلى خلق نوع من التجزئة القومية لشعب عاش حوالى قرن من الزمان فى ظل وحدة قومية واحدة ، وتحت قيادات إفريقية قوية ، لكن الرؤساء الجدد لم يكن لهم مكانة سامية فى مناطق حكمهم ، وكانوا بلا شعبية ، وليست لهم سلطة بناء الجيوش أو اتخاذ قرارات دون الرجوع إلى المقيم البريطانى ، وكانوا غالبًا مايواجهون منافسات من زعماء آخرين ، ومن بعض المغامرين البيض ، فضلاً عن المنازعات القديمة التى أضافت المزيد من نار الحقد والغضب .

ولم تستمر هذه الحالة على هذا النحو حيث ظهرت التماسات تطالب بعودة ستشاوايو والذى أيدته الصحافة البريطانية والقسيس كولنسو (Colenso) وسمحت له بريطانيا بالعودة إلى وطنه فى عام ١٨٨٣ ، لكن بعد أن تعهد بعدم بناء جيش من جديد .

وما إن عاد ستشاوايو حتى اندلعت حرب أهلية بينه وبين منافسه زبهبو (Zibhebho) الذى صارت له اليد العليا فى هذا الصراع ودمرت مدينة أولندى مرة ثانية ، وهرب ستشاوايو أمام عنف المقاومة ، لكنه مات فى عام ١٨٨٤ وخلفه ابنه الأكبر دينوزولو (Dinuzulu) البالغ من العمر خمسة عشر عامًا ، وقد اعترف الفلاحون من البوير بهذا الحاكم الجديد ، وساعدوه على تحقيق النصر على عدوه زبهبو ، وفى مقابل ذلك أعلنوا قيام جمهورية جديدة على جزء كبير من شمال غرب بلاد الزولو ، وكان لهذا الإجراء من جانب البوير رد فعل عنيف فى بريطانيا .

وكانت بريطانيا لا ترغب فى ضم أراضى الزولو ، لكن مع التطورات الجديدة وجدت أن الحل الوحيد لاستعادة النظام والاستقرار فى هذه المنطقة هو ضم أرض

الزولو ، وكانت هذه الأحداث هى السبب فى اشتعال الحرب بين البوير والبريطانيين ، فقد غررت بريطانيا لأخذ سلع أحد تجار الترنسفال بسبب عدم دفع الضرائب ، فتجمع السكان وطردوا الموظفين الإنجليز ، وفى ديسمبر عام ١٨٨٠ انتخب البوير ثلاثة من قوادهم ، هم : بول كروجر (Paul Kruger) وبريتوريوس (Pretorius) وجوبرت (Joubert) وأعلنوا استقلالهم [١] .

ودارت معارك بين الطرفين ، كان أعنفها معركة تل ماجوبا (Majuba Hill) والتى استطاعت فيها القوات البويرية محاصرة القوات البريطانية وأوقعت بها هزيمة فادحة ، لكن لم تلبث أن تولت حكومة الأحرار برئاسة جلادستون (Gladstone) الوزارة فى إنجلترا عام ١٨٨٠ ، وفضلت هذه الحكومة الجديدة سياسة المسالمة مع البوير ، ودعت زعيمهم للتفاوض ، وانتهى الأمر بعقد اتفاق بريتوريا Pretoria) Convention) فى عام ١٨٨١ ، وبمقتضاه اتفق على وضع جمهورية جنوب إفريقيا تحت الحماية البريطانية [٢] .

وفى عام ١٨٨٦ اعترفت بريطانيا بجمهورية ناتال ، وانضمت هذه الجمهورية فى العام التالى إلى جمهورية جنوب إفريقيا بعد أن اقتطعت جزءًا كبيرًا من أرض الزولو التى قسمتها بريطانيا إلى عدة أحياء وعينت على كل منها حاكمًا تابعًا لها ، ولما حاول الحاكم الرسمى دينوزولو منع هؤلاء الحكام من تولى المسئولية قامت الحكومة البريطانية بالقبض عليه ، ونفته إلى جزيرة سانت هيلانه ، وعندما سمحت له بالعودة صار مجرد حاكم إقليمى فى حى أوسوتو (Usutu) .

وفى عام ١٨٩٧ انضمت أرض الزولو كلها إلى ناتال ، ومن ثم صارت مفتوحة أمام فلاحى البوير من البيض .

وهكذا أمكن إخضاع مملكة الزولو على أربع مراحل :

فى المرحلة الأولى قام البوير والإنجليز بغزو المملكة وتدمير جيشها .

وفى المرحلة الثانية : قسمت أراضى الزولو إلى ثلاث عشرة وحدة مستقلة .

---

(١) د. شوقى الجمل مرجع سابق ص ٢٨١ ، وأيضا رونالد أوليفر وجون فيج : مرجع سابق ص ١٨٣ .

(٢) M. Wilson. : Op. Cit. P. 266.

وفى المرحلة الثالثة قامت بريطانيا باستبدال الحكام المحليين بآخرين من البيض .

وأخيرًا قسمت الأراضى وتركت للزولو فقط ثلث المملكة (١) .

وهكذا دمرت بريطانيا باسم الحضارة مملكة من أعظم الممالك التى ظهرت فى جنوب إفريقيا ، والتى أثبت رجالها مقاومة عنيفة للقوى الأوروبية ، مما جعل البريطانيين يعتقدون أن ضم المنطقة فى إتحاد واحد لن يتحقق إلا بالقضاء على مملكة الزولو .

ولم تنس بريطانيا أن هذه المملكة هى التى كلفت الخزينة البريطانية ٥٫٢٥٠٫٠٠٠ جنيه استرلينى ، وهو مبلغ زاد عن كل التوقعات ، كما أن بريطانيا ظلت تتذكر أن هذه المملكة هى التى أدت إلى مصرع مالا يقل عن ١٣٢٦ رجلاً ، علاوة على إنزال أسوأ كارثة تحل بالجيش البريطانى فى تاريخه ، ولذا كان الهدف البريطانى هو تدمير قوة هذه المملكة تمامًا (٢) .

وبرغم تدمير هذه المملكة الإفريقية القديمة ، فقد ثار الزولو عام ١٩٠٦ تحت قيادة زعيم يدعى بامباثا (Bamtatha) عندما فرضت حكومة الناتال ضريبة الرأس على كل الشباب البالغين ، وخشى الزولو أن يؤدى ذلك إلى سحب الشباب من عائلاتهم مما يضعف هيكل الحياة العائلية ، وازداد التوتر فى مناطق الزولو عندما قَتَل عدد من شبابهم المسلحين اثنين من رجال البوليس البيض ، وعمت الاضطرابات فى ناتال لكن رجال المقاومة من الزولو لم تكن لديهم خطة معينة أو تنسيق عسكرى مخطط ، وخشيت سلطات ناتال من تفاقم الموقف ، وازدياد حركة التمرد ، فقضت على الثائرين ، وحرقت المبانى ، ومساكن الأسر ، ودمرت المحاصيل الزراعية ، وسرقت الماشية ، بل وقتلت زعيمهم بامباثا ومعه أكثر من ثلاثة آلاف إفريقى ، وبرغم القضاء على الثورة فإن شعب الزولو لم يفقد قط شعوره بالوعى القومى ، ومازال يذكر شخصيات مثل شاكا ودانجين وستشوايو وبماثا من الأبطال القوميين الذين لعبوا أدوارًا لها أهميتها فى بناء مملكة قوية عاشت حوالى قرن من الزمان وهى تصارع التوسع الأوروبى ، والتوغل البويرى فى منطقة خصبة من إفريقيا .

* * *

---

(١) Clammer, D. : Op. Cit. P. 216.

(٢) Hull, R. Op. Cit. P. 73.

الخاتمـــة

من هذا العرض لهذه المملكة الإفريقية طوال القرن التاسع عشر نجد أن تاريخ إفريقيا فى الحقبة السابقة للاستعمار الأوروبى حافل بالبطولات والأمجاد التى تدحض كل مزاعم الأوروبيين من أنهم جاءوا يحملون رسالة التمدين لإفريقيا وشعوبها ، ذلك لأن هذه الممالك استطاعت أن توحد القبائل تحت زعامة واحدة ، وفرضت نظامًا من الحكم والإدارة تبعه الناس مختارين ، وعاشوا فى ظله مطمئنين ، وانتشر الأمن ، وعمت السكينة فى هذه الممالك الإفريقية .

ولقد عرفت هذه الممالك أن الجيوش هى دعامتها فى السلم والحرب ، ونظرًا لأن حدود القبائل لم يكن معروفًا ، ونظرًا للحاجة إلى المراعى وموارد الماء التى تحتاج إليها الماشية التى هى مصدر الثروة والجاه ، فقد حرصت الممالك الإفريقية – ومنها مملكة الزولو – على تكوين جيش قوى واستعرضنا كيف أن شاكا أدخل النظام الحديث لجيشه ، واستخدم تكتيكًا جديدًا يقوم على الحرب الشاملة وعزل الرجال فى معسكرات خاصة ، وجعل الولاء للدولة بدلا من الولاء للقبيلة ، مما ساعد على خلق بذور الوعى للأفارقة ، وهو تطور خطير فى المجتمعات الإفريقية قبل قدوم الاستعمار الأوروبى .

وهكذا وجدنا أن مملكة الزولو حاولت جمع القبائل الإفريقية تحت لواء واحد ، وارتبط الناس بالولاء للملك الذى كوّن فرقًا عسكرية من مختلف أعوانه دون مراعاة للقبيلة أو العائلة ، وصار الجميع يدينون بالولاء لقومية واحدة تحت رعاية ملك واحد ، هو ملك الزولو .

واتضح من عرض تاريخ هذه المملكة والملوك الذين تعاقبوا على حكمها طوال القرن التاسع عشر أنهم جميعًا حافظوا على الدولة ، وقاموا بتوسيع حدودها ، وبرغم سماحهم للأوروبيين بالإقامة فيها فإنهم رفضوا الخنوع أو الخضوع للسيطرة الأوروبية برغم المحاولات التى بُذلت طوال هذا القرن لإدخال المملكة تحت السيطرة الأوروبية .

وكانت مملكة الزولو من الممالك الفريدة فى جنوب إفريقيا ، لأنها طورت نظامًا للحكم قَبِلَهُ الناس وتعوّدُوا عليه ، وتصدت بكل قوة لمحاولات التجزئة والإنقسام ، وحارب ملوك هذه المملكة كل محاولات الانفصال ، ولولا خيانة بعض الأعوان

لصارت مملكة الزولو ، وحدة متماسكة ، وَلَمَّا تعرضت لهزات داخلية انعكست على أوضاعها الخارجية .

ولقد رفض شعب الزولو الاستسلام لمطالب الأوروبيين ، وحافظ الملوك على هذه المملكة ، وعندما حاول الأوروبيون فرض شروط قاسية عليهم رفضها الملك ستشاوايو ، وقابل التحدى بالهجوم على الجيش البريطانى قبل أن تنتهى مدة الإنذار ، وكبده أكبر خسارة مُنِىَ بها فى القرن التاسع عشر . ويكفى هذه المملكة فخرًا أنها كبدت الخزينة البريطانية أموالا طائلة ، بالإضافة إلى الخسائر الفادحة فى الأرواح والمعدات .

إن هذه المملكة تعطى نموذجًا فريدًا للمقاومة الوطنية الإفريقية فى جنوب الصحراء ، وتبرهن بالدليل الجلى الواضح على مدى محافظة الأفارقة على أرضهم وشعوبهم ، كما أنه توضح العبء الذى حمله الآفارقة على عاتقهم لمواجهة هذه الغزوة الاستعمارية التى كانت أشد ضراوة فى جنوب القارة ، لموقعها الاستراتيجى ، ولمناخها الذى يتناسب مع الاستيطان الأوروبى ، ولوجود جماعات البوير المهاجرين الذين اندفعوا إلى الداخل أمام التوسع البريطانى فى الكيب ، مما كان له أثره على الممالك الإفريقية ، ومنها مملكة الزولو .

وأخيرًا وليس آخرًا يمكن أن نُجمل القول بأنَّ مملكة الزولو الإفريقية ضربت المثل لروح التضامن الإفريقى فى مواجهة التحديات الأوروبية ، وظلت تقاوم الاستعمار الأوروبى برغم كل المحاولات من أجل تجزئتها وتقسيم ممتلكاتها ، وما زال شعب الزولو فى جنوب إفريقيا من أقوى الجماعات التى تناضل حتى يومنا هذا من أجل تحقيق الاستقلال التام لشعب قاسَى من التفرقة العنصرية على أيدى البيض الذين يتولون مقاليد الأمور فى الجنوب الإفريقى .

* * *

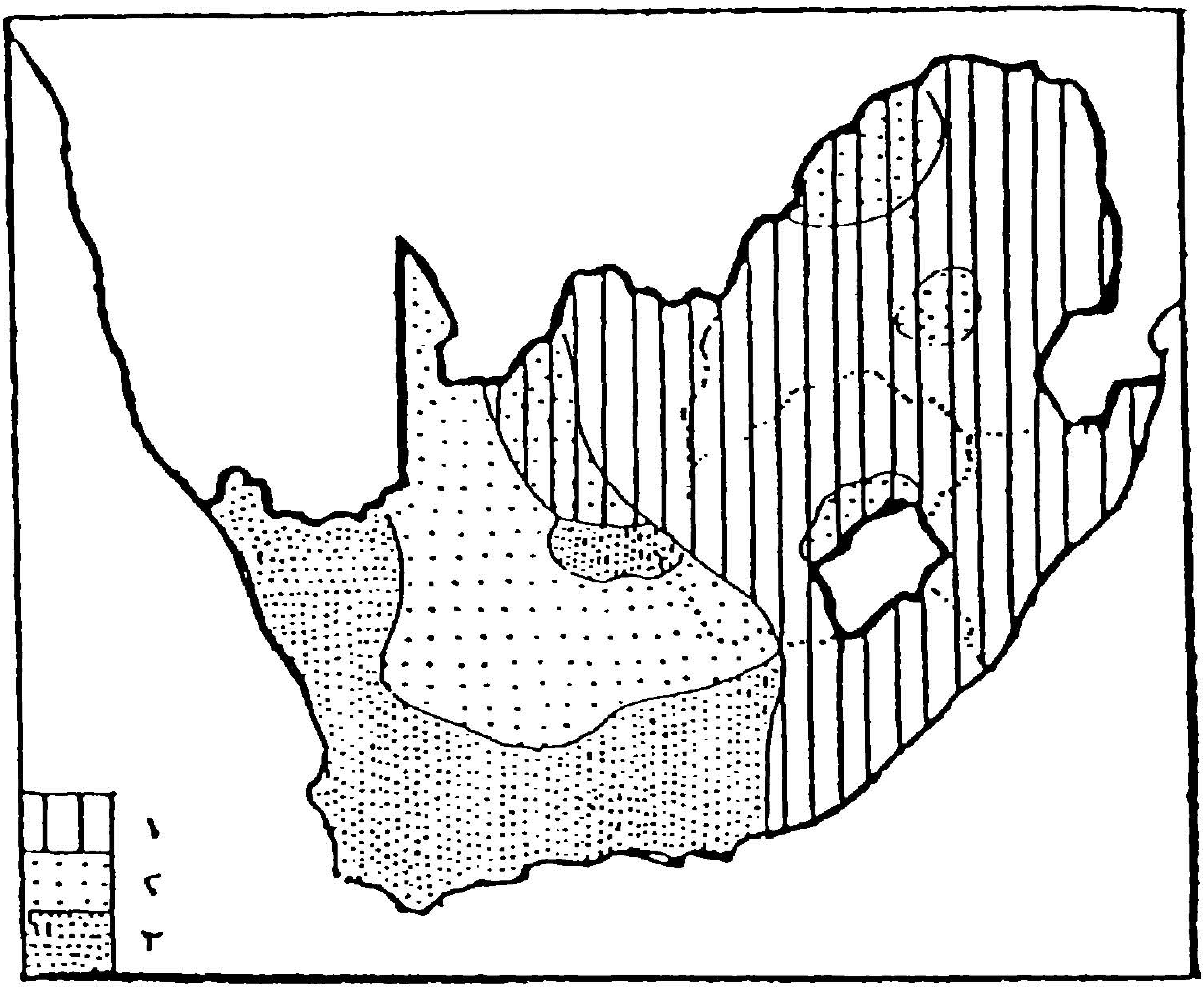

شكل رقم (١)

شعوب جنوب إفريقيا قبل وصول الأوروبيين

١ - أوطان البانتو (زنوج الجنوب) .

٢ - أوطان البشمن .

٣ - أوطان الهوتنتوت

سوازيلاند
الترنسفال
نهر بونجولا
أرض الزولو
نهر توجيلا
باسوتولاند
بوندولاند
المحيط الهندى
تمبولاند
ترنسكاى
أرض الزولو

شكل رقم (٢)

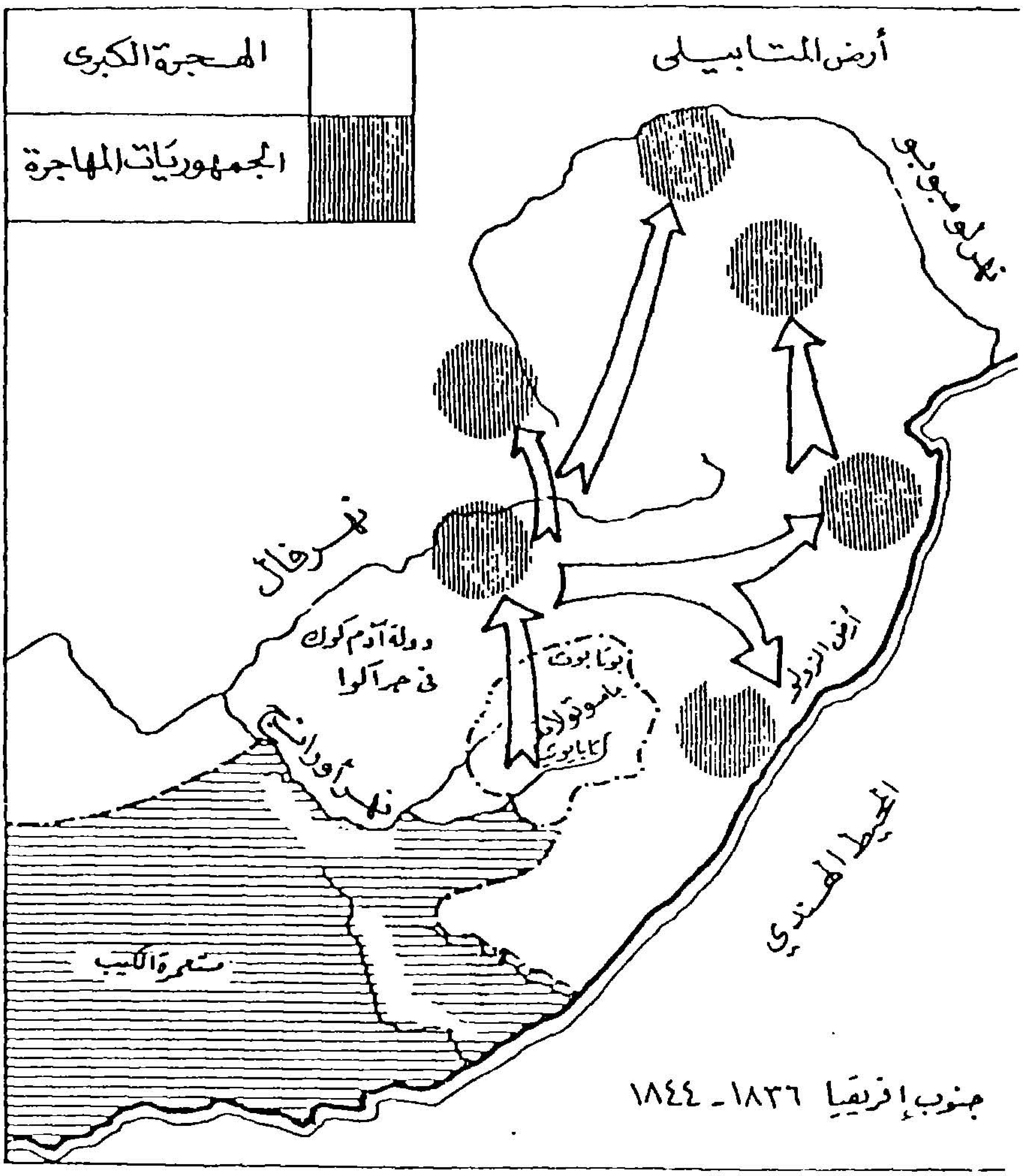
الهجرة الكبرى
الجمهوريات المهاجرة
أرض المتابيلي
نهر فال
نهر أورانج
مستعمرة الكيب
أرض الزولو
المحيط الهندي
جنوب إفريقيا ١٨٣٦ - ١٨٤٤

شكل رقم (٣)

التطور المرحلي للحركة الوطنية اليمنية
إبّان حكم الإمام يحيى بن حميد الدين

دكتور
فتوح عبد المحسن الخترش
كلية الآداب - جامعة الكويت

الإمام يحيى والعزلة الحديدية لليمن :

لقد وضع الإمام يحيى بن حميد الدين اليمن في سجن كبير ، وأبقى المفتاح في جيبه ، فقد حكم البلاد حكمًا مطلقاً شموليًا ، هو صاحب اليد الطولى في تسيير كل أمور البلاد سياسيًا واجتماعيًا واقتصاديًا وعقائديًا أيضًا ، وهو صاحب الكلمة التى لا تُرد ولا تنقض ... ولم يحاول حتى أن يلبس هذا النظام الشمولى الحديدى ثيابًا مصطنعة ، تحمل شكل النظم التى أخذت بها كل الدول في العالم الذى كان يتطور تطورًا سريعًا منذ بداية حكمه في القرن العشرين ... لا وزارة ولو ذات طابع شكلى ولا مؤسسات استشارية من أى نوع ، ولا هيئات أو مؤسسات اقتصادية كشركات يمنية أو شركات استثمارية برأس مال مشترك أجنبى ويمنى .. ولم يكن يسمح لأحد من كبار الشخصيات في اليمن مهما كان قدره أن يشترك – ولو بالنصيحة – في إدارة شئون البلاد . واختار سياسة العزلة الحديدية ، وألقى باليمن في هوة هذه العزلة ، خوفًا – كما كان يقول – من النفوذ الأجنبى ... لقد كان يخشى كثيرًا من أن يعقد أى اتفاقية مع الأجانب ، لأن هذه الاتفاقية ستكون في يوم ما من جملة الأسباب التى تحدو بالأجانب إلى التدخل في شئون اليمن (١) .

ولم يفلح الإمام في حل مشاكل بلاده الاجتماعية والاقتصادية والسياسية والعسكرية ، وجانبه التوفيق في معالجتها ، فتكاثفت عليه وعلى بلاده مزيد من المشاكل وتردت أحوال الشعب اليمنى ترديًا محزناً في كل نواحى حياته . وبدلا من أن يدعو الإمام إلى علاج الجسم العليل وتعزيز أسباب ومصادر العافية فيه ، ليصمد أمام الجراثيم التى تتخلل الجو ، فإنه آثر الاستمرار في غلق النوافذ والأبواب لتحول دون دخول كل هواء نقى ، تاركًا الجسم العليل على حاله من العجز والضعف المهين .

هذا التقوقع السياسى والاجتماعى والفكرى ، وهذا العجز عن قراءة المتغيرات وملاحقتها لم يكن مقصورًا على الإمام وحده ، بل شمل كل من كان يستشيره – إذا أراد ذلك بلا التزام من ناحيته – بالأخذ بهذه الاستشاره . وبرغم إحكام قبضته على البلاد ، فإن هذا لم يمنع ظهور حركة وطنية تطالب بالإصلاح والخروج باليمن من قوقعتها ، وإطلاق الحريات الطبيعية للشعب اليمنى لممارسة حياته في ظل الظروف

---

(١) نزيه مؤيد العظم – رحلة في بلاد العربية السعيدة – جزء ١ – ص ٢٤٠ .

التى تناسب العصر الذى يعيش فيه ، والمتغيرات الكثيرة التى كانت تحدث فى العالم حوله ، إذ قامت بعض العناصر الوطنية المخلصة ، تطالب بالحد من سلطة الإمام واتباع النظم الدستورية ، والقيام بالإصلاحات الاجتماعية والاقتصادية اللازمة [1] .

كان هذا فى مطلع عقد الثلاثينيات ، فقد جاء نتيجة لمعاناة عشرين سنة من الصبر والاحتمال والانتصار ، دفع خلالها الشعب اليمنى ثمنًا باهظًا فى حروب لم تأتِ بنتيجة مرضية ولا مشرفة ، وأفضَى حكم الإمام المستبد إلى حالة من الفقر والحرمان والعزلة ، وتدنى الخدمات ، فضلًا عمّا عاناة الشعب اليمنى من السُّخْرة وتقديم الرهائن ، ليجد نفسه مُطالبًا بمزيد من الضرائب وتحمل عبئها ، برغم فقره ، بعد أن زاد الإمام من معدلاتها فى الثلاثينات .

إن طول المعاناة – بلاد طائل – والنتائج المخيبة للآمال نتيجة للحروب التى خاضها الإمام باليمنيين ، فضلاً عن أسباب أخرى سوف نذكرها لاحقًا ، هى التى أدت إلى ظهور الحركة الوطنية على شكل تجمعات منظمة ، ذات أهداف وتوجهات وبرامج عمل محددة .

دوافع الحركة الوطنية :

تستمد عبارة « الحركة الوطنية » دلالاتها وأبعادها من معنى النضال الوطنى ، المتمثل فى الأقوال والأفعال التى بُذلت لصالح الوطن والأمة لتخليصهما من ضرر ، أو محنة ، أو ظلم ، أو عدوان واستبعاد . ولا ريب فى أن الدوافع الإنسانية المحركة للنضال الوطنى اليمنى هى نفسها الدوافع التى حدت بجميع الشعوب المقهورة للنضال والتحرر ، وهى غاية كانت فى اليمن أكثر إلحاحًا ، نظرًا لطول مدة الصبر والاحتمال لحكم متسلط لفردٍ حاكمٍ مستبد ، طوال أربعة وأربعين عامًا ، فضلًا عن فداحة ما حل بعامة الشعب اليمنى خلاله من فقر وتخلف وحرمان وظلم .

ولعل من المفيد أن نطرح هذا السؤال قبل الدخول فى تفصيل تلك الدوافع وهو : لماذا تأخرت هذه الحركة الوطنية تلك السنين ، فأعطت الإمام يحيى فرصة سانحة للاستبداد بالحكم بمشيئته المطلقة قرابة نصف قرن من الزمان ، سجلت له خلالها الوقائع أغرب صنوف القهر والظلم فى العصر الحديث ؟

---

(١) السيد مصطفى سالم – التكوين اليمنى الحديث – ص ٤٩٦ .

للإجابة عن هذا السؤال ، ينبغى أن نفرق بين ما يرجع من الأسباب إلى الإمام نفسه ، أو بين ما يرجع إلى الشعب اليمنى . أما الإمام فقد اتبع مجموعة من السياسات في الداخل والخارج أدت إلى إخماد جذوة التألق والفاعلية في البلاد ، وضربت عليها نوعًا من الجمود ، وكثيرًا من التخلف ، نتيجة لسياسة الإفقار والتجويع وإنهاك القوى ، فضلًا عن العُزلةَ الصارمة التى فرضها على البلاد ، كما كان لأفكاره البالية وأسلوبه في معالجة أمور الحكم ونظرته المتخلفة للأمور دور مؤثر في فوات فرص التقدم والازدهار ، أضِفْ إلى ذلك ما كان يتمتع به شخصه من صفات مرضية ، كالبخل والارتياب ، وما أملاه عليه حرصه ومخاوفه من تصرفات ، كاستخدام فئة أو قبيلة ضد أخرى ، وتحريض الخصوم ضد العناصر الخطرة ، الأمر الذى أفضى إلى حال من التشرذم والصراع القبلى حالَ دُون توحيد الجهود نحو التحرر من طغيانه ، وإذا قارنا ذلك كله برغبته القوية وعمله الدءوب على تركيز السلطة بيده ، بدت لنا صورة هذا الحاكم وقد كرس كل جهده للإبقاء على الأوضاع كما هى دون أدنى تطوير ، بل على العكس أفضى الجمود إلى مزيد من النكوص .

وحين كانت تبدو أية بادرة للسخط على سلطته - وقد حدث ذلك من جانب بعض الأفراد والأسر الذين ادعوا أنهم أحق بالحكم من الإمام يحيى - كان يواجه بعقوبة غاشمة ، كالسجن المؤبد وتقييد الأقدام بالأصفاد ، أو القتل ، فضلاً عن فرض الغرامات الباهظة ، ومصادرة الممتلكات (١) .

إضافة إلى ذلك ما كان يجرى من قطع الرءوس أمام الفلاحين تنفيذاً لعقوبة الإعدام ، وما كان يجرى من تمثيل بالرءوس المقطوعة علنًا حتى تصير عبرة للغير . كما أن المشكوك في ولائهم السياسى كانوا يودعون السجن تحت ظروف مرعبة بدون محاكمة ، ولأجل غير مسمى ، بحيث أصبحت سجون صنعاء وحجة في الحصون الشمالية وغيرها من عواصم الألوية أماكن حبس رهيبة ذاعت شهرتها .

وقد أسهم هذا كله في إرهاب عامة الناس وإرغامهم على الرضوخ والإذعان خوفًا وتحسباً من أن يلقى من يفكر بالتذمر هذا المصير .

---

(١) إدجار أو بالانس - الحرب في اليمن - ص ٤٧ .

ولقد كتب مستر فان درمولن – الذى قضى في صنعاء ثلاثة أشهر عام ١٩٣١ كممثل دبلوماسى ألمانى – وكان يتحدث العربية بطلاقة – عن « القسوة البربرية والخوف الذى خيم كقبرًا فوق كل واحد » .. كما كتب عن « الضعة المُمْسِكَة بتلابيب الفقراء والمساكين » [١] .

ويذكر إدرجار أو بالانس أن « فان درمولن » أصبح صديقًا للطبيب الإسكتلندى بترى الذى كان يعمل آن ذلك في صنعاء ، وروى له بحكم عمله داخل سجون الإمام أنه وجد أبناء الإمام نفسه مصفدين بالأغلال ، شأنهم أبناء الطبقة الأرستقراطية وعِلْيَة القوم اليمنيين » .

وأما ما يتصل بالشعب اليمنى من عوامل أدت إلى تأخر ظهور الحركة الوطنية بشكل علنى فمرده فى رأينا إلى عدة عوامل ، منها :

١ – ما حل بالشعب من آثار سلبية نتيجة لسياسة العزلة والإفقار وإشاعة الجهل .

٢ – الانقياد للسلطة باعتبار الإمام « أمير المؤمنين » و « خليفة الله فى الأرض » ، فاستغل الإمام ذلك فى تغطية الكثير من مواقفه بالغطاء الدينى ، تمشيًا مع ما درج عليه أسلافه من قبل .

٣ – غياب الوعى بحقيقة ما يجرى داخل اليمن وخارجها بسبب العزلة التى فرضها الإمام ، ولانعدام وسائل التوعية من إعلام وغيره ، فما كانت الإذاعة ولا جريدة « الإيمان » شبه الرسمية إلا أبواق دعاية تبرر مشروعية حكم الإمام ، بل إن الإمام نفسه كان يكتب بعض المقالات وينشرها فيها ، كما أن مصير أية صحيفة تُرسل من الخارج إلى أى فرد أو جهة فى داخل اليمن كان المصادرة .

وفى رأينا أن أقوى العوامل وأهمها التى أدت إلى تأخر ارتفاع أصوات المعارضة وظهور حركة النضال الوطنى ضد حكم الإمام تتمثل فيما يلى :

العامل الأول :

هو العامل الدينى ، فقد كان عامة الشعب اليمنى يلتزم التزامًا شبه تام بفروض

---

(١) نفس المرجع والصفحة .

الطاعة والولاء والرضا بالأمر الواقع ، لا حُبًّا فى شخص الإمام ، ولا اقتناعًا بعدالة حكمه ، إنما تمسكاً بمبدأ إطاعة أولى الأمر ، التى لها فى الدين حكم الواجب من وجهة نظر الفقهاء المحافظين .

لقد استغل الإمام تدين الشعب اليمنى استغلالاً موفقًا ، فالأموال تُجبى بشكل غاشم على أنها الزكاة يؤديها الغنى باعتبارها عبادة ، وكانت التهم التى تنال من لا يرضى عنهم الإمام تلصق بهم باسم الدين ، فيودعون السجون ، وتوضع فى أقدامهم الأصفاد لمدد طويلة ، فلا يجدون سبيلاً إلا الامتثال والخضوع ، لأن هذا حكم الشرع .

لقد حالت السلطة الدينية « الكهنوتية » دون مجرد المطالبة بالإصلاحات الهامشية ، فما بالك بالإصلاحات الراديكالية الأساسية ؟! .

لقد فسرت المطالبة الاهتمام بعلوم العصر والارتقاء بالمدارس على أنها مطالب تؤدى إلى إفساد العقيدة وإشاعة الإلحاد ، كما أن أى عمل ثقافى يقصد به التنوير وإشاعة الوعى كان يتهم بأنه نشر لأفكار الأجانب الذين يريدون التسلل إلى البلاد .

العامل الثانى :

اعتقد الشعب أن فترة بناء الدولة وحل مشاكلها ومناجزة أعدائها التى امتدت من عام ١٩٠٤ حين تولى الإمام يحيى الحكم إلى عام ١٩٣٤ سيعقبها الرخاء والاستقرار والازدهار وتحقيق المطالب والآمال .

والواقع أن هذه الفترة شهدت الكثير من الحروب مع الدولة العثمانية أولاً ، حيث ألقى الإمام فى روع شعبه أنها نوعٌ من الجهاد ذو طابع دينى قح ، داعيًا إلى مقاتلة الأتراك ، ليس باعتبارهم محتلين ، بل « لأنهم سعوا فى الأرض بالفساد ، وتركوا الشرائع وظلموا العباد » (١) .

لقد استمرت حروبه مع الأتراك العثمانيين سبع سنوات انتهت بعقد صلح بينه وبين الوالى أحمد عزت باشا فى عام ١٩١١ ، وقد حوت شروط الصلح عشرين مادة

---

(١) أحمد قائد الصايدى : حركة المعارضة اليمنية ، ص ٣٣ ، وكذلك السيد مصطفى سالم : المرجع السابق ، ص ٧٣ .

تنظم العلاقات بين الإمام والسلطات العثمانية ، إذ اعترفت الحكومة التركية بموجبها بالإمام رئيساً للمذهب الزيدى ، ومنحته حق تعيين العمال الزيديين بموافقة السلطان . ومنذ ذلك التاريخ كان الإمام يمارس نوعاً من الاستقلال الذاتى المحلى فى إطار النفوذ التركى ، حيث استمر على ولائه للدولة العثمانية .

وعندما اندلعت نيران الحرب العالمية الأولى ، جعل الإمام يحيى من أهدافه الخاصة ، ومطامعه الشخصية ، ورغبته فى استقلال بلاده الكامل عن العثمانيين ، الوجهة الرئيسية التى يتحرك نحوها ، ومن ثم التزم موقف الحياد طيلة فترة الحرب ، تحسبًا لما قد تتمخض عنه من نتائج . وإذا كان هذا الموقف ينم عن بُعد نظر سياسى ، فإنه خدم طموحات الإمام الشخصية فحسب .

لقد خرجت تركيا من الحروب ووزعت مناطق نفوذها بين الحلفاء ، وهنا تحرك الإمام يحيى ودخل صنعاء ليتسلم مقاليد الحكم ، وليعلن نفسه حاكمًا مستقلا على اليمن عام ١٩١٨ . فى ذلك الوقت كان الإنجليز يحتلون الجنوب اليمنى ، ويقوون قبضتهم على المزيد من الأراضى اليمنية عن طريق سلاطين وشيوخ المحميات المرتبطين معهم بمعاهدات الحماية ، كما احتل الإنجليز الحُدَيْدة ، بغرض استخدامها للضغط على الإمام من أجل تسوية مسألة الحديدة .

لم يفلح الإنجليز فى الضغط على الإمام يحيى ، ولا فى مساومته بمواصلة احتلالهم للحديدة ، فاضطروا فى النهاية لأن يسلموها للإدريسى أمير عسير ، الذى كان يحكم فى هذه الفترة عسيرًا ، ويرتبط مع الإنجليز بمعاهدات حماية . وبحكم تلك المعاهدات كان الإنجليز يدفعون المال والسلاح للإدريسى ، فنشأت بذلك مشكلة جديدة للإمام كانت بداية نهايتها وفاة السيد محمد الإدريسى عام ١٩٢٣ ، وتولى ابنه الأمير على الحكم من بعده ، وقام الإمام يحيى بمحاربة هذا الأخير ، فالتجأ إلى ابن سعود ، وبدأ بذلك صراع بين الإمام يحيى وبين ابن سعود ، وقد تطور هذا الصراع إلى حرب مسلحة انتهت عام ١٩٣٤ بتوقيع معاهدة الطائف التى اعترف الإمام بموجبها بحكم السعوديين على الأراضى الشمالية فى عسير ونجران .

من هنا نرى أن هذه الفترة كانت زاخرة بالأحداث والتغيرات وعدم الاستقرار ، مما ترك انطباعًا فى الأذهان بأن البلاد تسير فى طريق التحرر والخلاص ، وأنها فترة جهاد وبناء ومخاض ، وأن الفترة التى ستعقبها هى فترة التفرغ لمواجهة الأمور المعاشية

الصعبة ، وتخفيف وطأة التكاليف الثقيلة التى فرضتها السلطة على الفقير والغنى سواء بسواء .

ولم يكن أفراد الطبقه المستنيرة من أبناء الشعب والأشراف ورؤساء القبائل بأقل يقينًا من ذلك من عامة الشعب ، فقد رأوا فى الجهاد التخلص من التبعية المرهقة للدولة العثمانية ، وفى منازلة الأدارسة والوقوف ضد أطماع الدولة السعودية ، وفى مقارعة الإنجليز نضالاً مشروعاً لصالح الدين والوطن ، وأن الإمام يحيى يسير بالشعب وبالبلاد فى الطريق الصحيح لتحقيق المبدأ الذى طالما ردده ، وهو « اليمن لليمنيين » . لقد كشف هذا التصور عن ضبابية الوعى السياسى عند الطليعة وبين آمال الشعب اليمنى فى الاستقلال وإنهاء حكم الإمام نفسه .

العامل الثالث :

الاعتقاد بأن الفترة من ١٩٣٥ وما بعدها هى التى سيتم فيها التغيير وإجراء الإصلاحات ، وخصوصًا وأن الإمام اتخذ بعض الإجراءات الإصلاحية بالفعل ، فقد أرسلت البعثات العسكرية للدراسة فى الخارج ، وعقدت الاتفاقيات الدولية والمعاهدات مع إيطاليا ، والاتحاد السوفيتى ، وهولندا ، وأثيوبيا ، وفرنسا ، وبلجيكا ، وأمريكا ، من أجل مؤازرة هذه الدول للإمام ، وللحصول على اعتراف باستقلاله ، وللإفادة – وقت اللزوم – من المستجدات على الساحة الدولية ، ومن الصراع الدولى فى المنطقة ، وانضم الإمام يحيى ببلاده – على غير رغبته – إلى جامعة الدول العربية وهيئة الأمم المتحدة ، لكنه رفض السماح بإقامة الهيئات الدبلوماسية الأجنبية فى اليمن ، غير أنه كان يستقبل هو ووزراؤه من وقت لآخر بعثات وممثلين أجانب ، بناء على دعوة أو ترتيب سابق [(١)] .

بهذه العوامل الثلاثة أوحى الإمام يحيى لشعبه أن تغييرًا مرتقبًا سيحدث ، وأن البلاد فى الطريق للخروج من عزلتها والاتجاه إلى سياسة الانفتاح بدلا من سياسة العزلة ، لكنَّ شيئًا من هذا لم يحدث ، ونتيجة لذلك زاد السخط على الوضع فى اليمن ، لدى

---

(١) الصائدى : ص ٤٤ .

الأفراد الذين خرجوا منها ، وخاصة أولئك الذين كانوا يعيشون فى عدن ، وشكلوا بها قوة عاملة لا يقل عددها عن ٤٨ ألف عامل [١] .

خلاصة القول أن الحركة الوطنية كانت تعانى من مشكلات أساسية بسبب طوق العزلة الطويلة الذى أُحكم حول اليمن ، وسيف الإمام الذى كان كفيلاً بحصد الرءوس التى تطلعت للمعارضة . كذا نتيجة الصبغة الدينية التى حاول الإمام إضفاءها على حكمه ، لكن المتغيرات الدولية فعلت فعلها فى إيقاظ هذه الحركة الوطنية من غفوتها وداعبت رياح التغيير طموحاتها ، فاتجهت للإفصاح عنها ، والتعبير عن طموحاتها التى سوف نعالجها بشىء من الاستطراد والتفصيل .

الدوافع الرئيسية للحركة الوطنية

أولا - نظام الرهائن والاستخبارات :

يُعَدُّ نظام الرهائن الذى اتبعه الإمام يحيى من الدوافع المؤثرة فى تنامى الحركة الوطنية فى اليمن ، وانطلاق صوتها بشجب واستنكار سياسات الإمام ، خصوصًا حول مسألة الرهائن والاستخبارات ، فقد كان الإمام يحتفظ على الدوام بمجموعة من أبناء القبائل فى مقره كرهائن تتعرض حياتهم للخطر إذا بدر أى عصيان من ذويهم ، وقد وُجد لدى الإمام حين وفاته أربعة آلاف رهينة من أقاربه ، وأبناء حكام الألوية ، وعائلات الأشراف ، وشيوخ القبائل الذين تم احتجازهم كضمان لولاء ذويهم وحسن سلوك آبائهم [٢] .

فإذا ما ثبت عدم إخلاص أى من آبائهم ، أو إذا ماشك الإمام فى ولائهم أو بدر منهم مايشير إلى تآمرهم ضده قتل رهائنهم ، أو عذبهم بغرض المساومه [٣] .

---

(١) ادجار أوبلانس : ص ٧٠ .

(٢) ادجار أو بلانس : الحرب فى اليمنى ، ص ٤٧ ، وكذلك راجع :

Basilw Seager:- The yemen, Journal of the Rogal Ceatrde Asian Secicty, XIII, pp 218.

Philby, H.St. John :- The lond of Sheba, Geographocal Jownal, XcII, July August : راجع أيضًا

1938, p. 45.

(٣) المرجع السابق : ص ٢٧ .

كما تشير المصادر إلى أنه طور نظامه الخاص بالتجسس والاستخبارات إلى الحد الذى يمكنه من التعرف على كل مايجرى داخل مملكته ، كما يتيح له القضاء على المؤامرات أو الثورات فى مهدها ... ولم تكن أجهزة مخابراته هى الوحيدة فى البلاد ، بل كان لكل حاكم ولكل والٍ أو شريف أو شيخ ، أو أى موظف حكومى كبير ، جهاز سرى خاص لتزويده بالمعلومات عما يجرى فى الخفاء ليستطيع حماية نفسه .

لذلك تبلور أحد طموحات الحركة الوطنية فى ضرورة وضع حد لهذه الإجراءات التى تستمد مشروعيتها من أعراف العصور الوسطى ، وفكرها السياسى الذى لا ينسجم مع معطيات العصر .

ثانيًا - تغيير نظام الحكم فى اليمن من نظام الإمامة إلى النظام الملكى :

بديهى أن تتطور تطلعات الحركة الوطنية نحو أهداف أهم وأعم ، تمثلت فى القضاء على نظام الإمامة بطابعه الكهنوتى ، والتطلع إلى نظام ملكى ليبرالى يتفق مع مفهوم الدولة الوطنية الحديثة . وقد كان عام ١٩٣٣ يشكل مَعْلَمًا مهمًّا فى هذا الصدد ، حيث بادر الإمام نفسه تحت إلحاح المطالب الوطنية بتغيير نظام الحكم فى اليمن من نظام الإمامة إلى النظام الملكى . فعندما استقر الحكم فى اليمن للإمام يحيى ، وأصبح نظامًا وراثيًا ، أراد أن يغير نظام حكمه من إمامة إلى ملكية ، كما فعل الملك عبد العزيز بن سعود بعد توحيد البلاد وتغيير التسمية من سلطنة نجد والحجاز إلى المملكة العربية السعودية . من هذا المنطلق أراد الإمام أن تصبح اليمن مملكة وراثيه ، بالرغم من أنها رقعة صغيرة انسلخت أطرافها من ناحية عسير للملك عبد العزيز ، والناحية الأخرى ، وهى الجنوب اليمنى ، لبريطانيا .

غير أن الإمام أصر على تغيير التسميه بحكم أنه يُعد نفسه ثانى حاكم مستقل فى شبه الجزيرة العربية ، ولقد لاحَظَ الجميع ، من المستشارين ورجال الحكم ، رغبة الإمام هذه فى كل تصرفاته ، فقد تحولت أفعاله إلى أفعال مَلك يسعى إلى إيجاد مملكة وراثية تقوم على أنقاض الخلافة المبنية على البيعة والاختيار [١] . على أن بعض القوى المحافظة لم يَرُقْهَا هذا التغيير ، فتصدت للمعارضة التى قادها رجال الدين وبعض رؤساء

---

(١) حياة الأمير على بن الوزير ، ص ٣٢٨ .

القبائل والأولية ، وخاصة أمير « تعز » الأمير علي بن الوزير الذى أنكر على الإمام تحويل اسم دولة اليمن الإسلامية إلى اسم « المملكة المتوكلية اليمنية » وذلك عقب ظهور الاتفاقية الموقعة بين حكومة الإمام يحيى والحكومة الإيطالية سنة ١٩٢٦ ، والتى أطلقت على اليمن اسم ملك المملكة المتوكلية اليمنية ، وجاهر الأمير بهذا النقد فى مجالسه الخاصة والعامة ، وقال : « ما لهذا قاتلنا الأتراك ، فقد كان الأتراك ملوكاً وليسوا أئمة » (١) .

وقد ادعى الإمام يحيى أن الظروف الدولية أجبرته على تغير التسمية لإعطاء اليمن مكانة دولية بارزة أمام المجتمع الدولى . وفى الوقت نفسه بدأ أهل اليمن يتهامسون حول فتوى وضعها بعض علماء الدين يجيزون ولاية العهد (٢) .

وانتشر السخط على سياسة الإمام عندما تحدث الناس عن تلك الفتوى التى تجيز ولاية العهد ، مما يُعد خروجًا على التقليد المعروف فى اختيار الإمام الحاكم .

خلاصة القول أن الإمام حين سعى إلى مسايرة المعطيات الدولية ، وبعض طموحات بعض شرائح الحركة الوطنية – خصوصًا من شرائح المثقفين – لم يحرص على إجراء إصلاح دستورى بقدر محاولته تثبيت حكمه ودعمه ، والالتفاف حول أطروحات النخبة المثقفة بتوجهها نحو مزيد من الحكم الاستبدادى .

ثالثا – ولاية العهد :

بدأ الإمام يحيى فى عام ١٩٣٥ جهوده المكثفة لتنفيذ مشروعه في تعيين ولده أحمد ولياً للعهد .. غير أنه آثر ألَّا يعلن عن عزمه ذلك ، لعلمه أنه سيسبب له متاعب حقيقية ، فآثر المراوغة واتخاذ الوسائل غير المباشرة ، ومحاولة خداع من يعرف أنهم لن يوافقوه على ما يريد ، فليس تغيير الإمامة فى اليمن إلى « ملكية وراثية » بالأمر الذى يمر بدون أن يثير غضب الكثيرين ، وخاصة آل الوزير الذين لهم حق الترشيح للإمامه بعد موت الإمام يحيى ... فبدأ كعادته فى تنفيذ خطة دقيقة شديدة الإحكام ، قرر إبعاد الأمير على بن الوزير قائد حامية تعز فى المنطقة المستقلة تقريبًا ، وإحلال

---

(١) المرجع السابق : ص ٣٢٦ .

(٢) حياة الأمير على بن الوزير : ص ٣٢٦ .

(٣) حياة الأمير على بن الوزير : ص ٣٢٧ .

ابنه أحمد محله ، ولم يكن هذا بالأمر الهين ، فاحتال له الإمام بأن كتب رسالة إلى الأمير على بن الوزير يذكر له فيها أنه رأى أن يبعث بولده أحمد إلى الحُديدة وتعز « ليتعرف بالناس ويعرفوه » وأخذ يكرر البرقيات إلى الأمير على بن الوزير مؤكدًا أن القصد والغرض هو تعرف الأمير بوجهاء الناس من مشايخ وحكام وغيرهم ، وأن الأمير أحمد مجرد « زائر سائر » .. ولم يرق هذا للأمير على بن الوزير قائد حامية تعز ، ولا للسيد عبد الله الوزير حاكم الحديدة ، وقررا – إذا كرر الإمام رغبته تلك – أن يعارضا هذه الزيارة المقترحة ، وخاصة أنها تتم فى أجواء مملوءة بإرهاصات تولية الأمير أحمد ولاية العهد .

وفى أبريل من نفس العام لجأ الأمير يحيى إلى الخداع والمخاتلة ، فقرر أن يُسكن أولاده الثلاثة : (عباس ، ويحيى ، والمحسن) « بهجره » آل الوزير فى « السر » ، وكانت خطته الدفاعية التى رسمها تقضى بأن يطلب من الأمير الوزير إعارته بيته بالسر ، ليسكن فيها أولاده حتى يشترى بيتًا ... وكتب بهذا إليه ، فقبل رغبة الإمام بدون أن يدرك أن المقصود بذلك هو إبعاده عن تعز ، ومراقبته هو والسيد عبد الله الوزير فى عقر دارهما . ولم يتبين آل الوزير هدف الإمام من إسكان أولاده الثلاثة بالسر إلا بعد أن أقاموا فعلا فى منزل الأمير على بن الوزير ، ودامت إقامتهم فيه حتى عام ١٩٣٧ [١] .

وبهذا صار له جواسيس على كل تحركات الأمير على بن الوزير وعائلته ، بل إنه استدعى إلى صنعاء السيد محمد بن أحمد باشا عامله على تعز ، بغرض أن يباحثه فى أحوال لواء تعز فى حين كان الغرض الحقيقى هو أن يستخلص منه معلومات جديدة عن السيد على بن الوزير ، فلم يظفر من الرجل بطائل .

فى نفس العام غَيَّر الإمام سياسته مع آل الوزير فجأة ، فبادرهم برغبته فى أن يزوج السيد عبد الله بن على بن الوزير ، بابنته الأميرة تقية ، فرحب الأمير على بن الوزير بالفكرة ، وأرسل ولده إلى صنعاء لحضور العرس والعودة بالعروس إلى تعز .

وقد تمت المصاهرة كما أراد لها الإمام أن تتم [٢] . وفى عام ١٩٣٦ أراد الإمام

---

(١) الأمير على بن الوزير ص ٣٣٨ .

(٢) ثورة ١٩٤٨ الميلاد والمسيرة والمؤتمرات ، ص ٣٣٩ ، مركز الدراسات والبحوث اليمنى « الجمهورية اليمنية » .

أن يستغل هذه المصاهرة لتحقيق هدفه الأساسى منها . فأرسل إلى الأمير على بن الوزير فى تعز ، بعامله على زيد « السيد على بن حمود شرف الدين » ومعه قرار بمبايعة ولده سيف الإسلام أحمد وليًا للعهد ، وإماما بعد وفاة والده . وحاول السيد على بن حمود شرف الدين إقناع الأمير على بن الوزير بالتوقيع على المبايعة بقبولها ، فامتنع عن ذلك .

وكان الأمير على بن الوزير يرى فى تعيين ولى العهد انتقاصًا من حقوقه ، نظرًا لما يقتضيه ميثاق الزيديين وتقاليدهم من حصر دائرة انتخاب الإمام فى طبقة السادة ، لا فى عائلة معينة من هذه الطبقة[1] .

ثم تطورت الأمور إلى عقد اجتماع فى « تعز » شهده الأمير على بن الوزير وكثيرون من المعارضين لسياسة الإمام الموجودين آن ذاك فى « تعز » ، وتدارس الحاضرون الوضع ومستقبل اليمن ، وولاية العهد . ويؤكد أنصار آل الوزير أن الحاضرين رشحوا السيد عبد الله أحمد الوزير ليكون الإمام القادم ، فقبل ذلك الترشيح الذى أقره الحاضرون جميعًا ، وقد اشترط عبد الله تشكيل حكومة تكون هى المسئولة أمام الله والأمة لتخرج اليمن من عزلتها وفقرها وجهلها ، وللسعى جاهدة لتطوير اليمن ثقافيًا واقتصاديًا ، والاتصال بالدول العربية ، وتبادل التمثيل الدبلوماسى معها ومع الدول الأخرى التى لليمن فيها « منافع » ، وإلغاء ولاية العهد حالاً ومستقبلاً ، لأنها غير شرعية ، وإقامة مجلس للشورى يُختار من زعماء وعلماء ومشايخ من ذوى الحل والعقد لمراقبة سير الحكومة ، وطرح الثقة بها ، والتصديق على إبرام الاتفاقات ، واختيار الإمام .

ويقول أنصار آل الوزير : إنّ كل ما دار فى ذلك الاجتماع نُقل حرفيًا إلى الإمام يحيى بواسطة القاضى « حسين الحلالى » الذى حضر الاجتماع كصديق للأمير على ابن الوزير فى الظاهر فى حين أنه فى حقيقة أمره كان جاسوسًا للإمام يحيى .

وصب الإمام غضبه على رسوله السيد على بن حمود شرف الدين لفشله فى إقناع الأمير على بن الوزير بالوقيع على مبايعة ابنه الأمير أحمد ، ومع هذا لم يتخذ أى إجراء ضد الأمير على بن الوزير أو ضد السيد عبد الله بن أحمد الوزير الذى اختير ليكون أمامًا بعد وفاته . ويقول أنصار الأمير على الوزير : إن عدم تحرك الإمام يحيى

---

(١) حياة الأمير على بن الوزير ، ص ٣٣٩ .

ضد آل الوزير كان بسبب ما نقل إليه من أن هذا الحدث لم يكن موجهًا ضده ، بل ضد ابنه ولى العهد ، وأن الترشيح إنما هو بعد وفاة الإمام وليس قبله . ولهذا اطمأن الإمام يحيى إلى هذه الناحية ولم يتصرف بعنف أو بشدة (١) .

أما الأمير سيف الإسلام أحمد فقد غادر صنعاء ، وصرف وقتًا طويلا فى التعرف على لواء الحديدة ، حتى يشعر السيد على بن الوزير بالفعل أن القصد هو التعرف بالناس ، ثم تجول فى مختلف بلاد اليمن ، وانتهى به السير مرة أخرى إلى الحديدة ... ، وفى بيت الفقيه ابن عجيل ، تمت سلسلة اجتماعات ومباحثات بين السيد عبد الله بن أحمد الوزير وبين الإمام أحمد حول نقطتين رئيسيتين : مستقبل اليمن ، وولاية العهد ... وإذا كانت وجهات النظر قد تلاقت حول الإصلاحات الضرورية لأحوال اليمن فقد اختلفت - وفى عنف - حول ولاية العهد ، حيث احتدم الخلاف بين ولى العهد وبين السيد الأمير على بن الوزير الذى رفض فكرة ولاية العهد من أساسها فى صراحة وعنف قائلا : إن ولاية العهد ليست من نظام الخلافة ، وإنها نظام كسروى وقيصرى ، وإن الأمر يُترك إلى ما بعد وفاة الإمام يحيى ، وعندئذ ينتخب « أهل الحل والعقد » من يرونه . وقد أبدى ولى العهد ليونة فى المناقشة بالفروض الإسلامية كالصلاة على وجه الخصوص . وبرغم هذا كله فقد قدم له الأمير أحمد وثيقة ولاية العهد للتوقيع عليها ، فاستمهله الأمير علىّ إلى اليوم التالى (٢) .

وفى أثناء إقامة الأمير أحمد بتعز شرع يغتصب أولاً بأول سلطات حاكمها المعين من قِبَل والده الإمام ، وكانت أول خطوة له فى هذا السبيل أنه بدأ « مواجهة » للفصل فى القضايا الشرعية . والمواجهه تعنى الحكم ، وقد اعتبر الأمير علىّ بن الوزير هذا التصرف طريقة لعزله بصورة هادئة ؛ وتدخلاً صريحًا فى حقوقه كأمير على اللواء ، وأصرّ على أن ولى العهد ليس سوى زائر ، وليس من حقه أن يحكم ، وأبرق إلى الإمام بما يقوم به ولده ، فأبرق الإمام إلى ولده يمنعه من المواجهة (٣) .

ومع هذا فقد استمر ولى العهد فى أسلوبه بالتدخل بصفه علنية وغير علنية ، وأخذ يقرب إليه كل من يرى أنهم يعارضون آراء الأمير على بن الوزير ويحقدون عليه ،

---

(١) حياة الأمير : على بن الوزير ص ٣٤ - ٣٤٤ .
(٢) المرجع السابق ص ٣٤٨ .
(٣) المرجع السابق ص ٣٥٠ .

وقد كان واضحًا من هذا الصراع والعلنى أحيانًا ، والخفى أحيانًا أخرى ، أن العلاقة قد ساءت تمامًا بين الأمير على وبين الإمام أحمد ، وأن إصلاح ذات البين غدا مستحيلاً ، كما أصبح من المستحيل أيضًا الاتفاق على ولاية العهد . وبرغم هذا فقد ظل « ولى العهد » يلح عليه بتجديد البيعة ، وهو أمر لم يتحرك نحوه الأمير على بن الوزير ، وخاصة أنه قد أحس أن الأمير قد تمكن من عزله تقريبًا من أى عمل ذى أهمية .

ويزعم أنصار الأمير على بن الوزير أن ولى العهد كان يعد لاغتياله فى « التمكر » ولكنه فيما يبدو كان يخاف والده ... وإذا كانت محاولة ولى العهد قد باءت بالفشل ، فإن الأمير على بن الوزير كان بدوره يحاول التخلص من ولى العهد ، وهناك من يؤكد أنه دفع ألف ريال لأحد مشايخ حاشد لأغتياله ، ولكن هذا الشيخ لم ينفذ ما طلب منه (١) .

ونتيجة للفتوى التى أجازت ولاية العهد انقسم المطالبون المتنافسون على العرش إلى قسمين ... ففى المقام الأول هناك إخوة سيف الإسلام أحمد ، وكانوا أحد عشر فردًا على قيد الحياة ، ومن بينهم الأكثر تساهلاً « الحسين » ، و « على » المحب للمتعة ، وللاثنين رصيد شعبى عند كل من الزيديين والشافعيين .

وفى المقام الثانى هناك أفراد أسرة الوزير ، وأكثرهم بروزا هو السيد عبد الله حاكم الحديدة ، والسيد على بن الوزير قائد حامية تعز ، والسيد محمد الوزير حاكم الضمار ، وعائلة الوزير هذه هى إحدى فروع العائلة الحاكمة ، ولذلك كان أعضاؤها أهلًا للاختيار للإمام . وكانوا يسيطرون على أهم المناطق الشافعية فى تهامة . وهناك من يزعمون أنهم كانوا على اتصال بالإيطاليين الذين لهم نفوذ قوى فى الحديدة وتعز . ولعل السيد عبد الله بن الوزير كان يصلح لأن يكون حاكمًا قويًا بدون أن يعرض اليمنيين للسيطرة الأجنبية ، غير أن الظروف كانت أقوى منه ، وإنْ كان هناك من يذهب إلى أن السيد على بن الوزير كان لديه الاستعداد لقبول الحماية الأجنبية إذا خدمت أهدافه ومآربه (٢) .

---

(١) المرجع السابق ص ٣٥٢ .

(٢) رسالة من حاكم عدن ب . رايلى إلى المستر أوريس غور . رقم ٣٧ ومؤرخة فى ٢٦ مايو ١٩٣٧ .
وكذلك راجع : Robertson William :- Yemen Journey 1942

The Royal Scittish Geographical Society; Vocs. 58 and 59, 1942-1943.

يتضح لنا مما سبق أن الإمام يحيى أراد أن يحصر نظام الحكم فى عائلته وحدها بتعيين ابنه سيف الإسلام أحمد وليًا للعهد ، غير أن عائلة آل الوزير على وجه التحديد كانوا يطمعون فى ولاية العهد ، وذلك لشعور بعض رجالاتها - مثل عبد الله الوزير وعلى بن الوزير - بأنهما كانا ساعدى الإمام يحيى فى قمع تمردات القبائل اليمينية وإرساء حكمه .

ومما لاشك فيه أن تعيين سيف الإسلام أحمد وليًا للعهد لم يثر حفيظة بعض العائلات « الزيدية » التقليدية فحسب ، بل أثار أيضًا حفيظة أبناء الإمام يحيى الآخرين الذين طمعوا بدورهم فى الإمامة ، ولهذا فإن بعضهم كسيف الحق إبراهيم انضم إلى المعارضة وأيد المتذمرين ، وقد انتهى الأمر بسيف الحق إبراهيم بن الإمام يحيى إلى الهروب إلى عدن ، والانضمام إلى صفوف المعارضه لحكم أبيه ، والقيام بنشاط مكثف فى هذا الباب ، فكان يبعث برسائل ونداءات إلى زعماء العرب وقادتهم ، وإلى الجامعة العربية يطالبهم فيها بالتدخل لإقناع حكام اليمن بإقامة العدل ، ونشر التعليم والثقافة ، وتنفيذ المشاريع العمرانية ، والنهوض بالبلاد .

رابعًا - استيلاء الانجليز على محمية الضالع :

من أهم العوامل التى أثارت الشعب اليمنى استيلاء الإنجليز على محمية الضالع والمناطق المجاورة لها ، والتى تسمى محمية عدن الغربية ، فقد كانت تابعه للإمام يحيى منذ عام ١٩٢٠ عندما هاجمت قواته دويلات الضالع ، والعلوى ، والشعيب ، وأجزاء من يافع العليا ، والعوذلى ، والصبيحية ، واحتلتها ، وقد رحب رؤساء هذه القبائل بالإمام يحيى وتعاونوا معه (١) .

ومنذ هذه الفترة - أى منذ عام ١٩٢٠ - ساءت العلاقات بين الإمام يحيى وحكومة عدن ، باعتبار أن الإمام احتل مناطق تابعة لنفوذ حكومة عدن فى حين ينظر الإمام لهذه المناطق على أنها الجزء السليب من أرضه (٢) . ولذا وجب ضمها تحقيقاً

---

(١) أحمد كامل المحامى : اليمن شماله وجنوبه ص ٢٥٤ .

(٢) أحمد حسين شرف الدين : اليمن عبر التاريخ : ص ٢٩٥

لمبدأ « اليمن لليمنيين » غير أن حكومة عدن لم تسكت على هذا الوضع ، بل طالبت . باسترداد تلك المناطق ، فاتبعت فى البداية أسلوب الدبلوماسية ، وبادرت بإرسال وفد برئاسة الكولونيل جيكب ومعه بعض الهدايا لإغراء شيوخ المناطق التى سوف تمر فيها البعثه والتفاوض مع الإمام بعقد اتفاقية صداقة ، وذلك فى عام ١٩٢١ ، لكنها فشلت . وبعد فترة ليست بالقصيرة أرسلت وفدًا آخَرَ برئاسة السير جلبرت كلايتون – وهو موظف بوزارة المستعمرات – إلى صنعاء بغية التوصل إلى مفاوضات مع الإمام ، ولكن هذه المفاوضات فشلت أيضًا بسبب إصرار الإمام على عدم التنازل عن أراضيه فى الجنوب [١] .

أوقع هذا الموقف المتشدد الذى اتخذه الإمام مع الحكومة البريطانية أفدح الأضرار بالنفوذ السياسى البريطانى فى المنطقة ، بل وفى عدن نفسها ، كما امتدت آثار هذا الضرر إلى التجارة البريطانية فى داخل البلاد التى كان نشاطها يتم عن طريق عدن .

استمر هذا الوضع قرابة تسع سنوات حتى خريف عام ١٩٢٨ ، حين تحول جزء من التجارة البريطانية إلى أيدى التجار الإيطاليين والأمريكيين ، وقد ساعد استرجاع الإمام للحديدة عام ١٩٢٥ على ذلك ، خاصة بعد فتح طريق من ساحل البحر الأحمر حتى أقصى مرتفعات اليمن ، ونتيجة لذلك ساءت العلاقات بين الإمام يحيى والحكومة البريطانية ، وبخاصة عندما استأنفت قوات الإمام اعتداءاتها على حدود محمية عدن فى سبتمبر عام ١٩٢٧ ، مما دفع سلطات الحماية إلى التهديد باستخدام الطائرات وإلى تعزيز موقف المقيم البريطانى وتدعيم السلاح الجوى فى عدن ، منتهزة فرصه الظروف الصعبة التى كان يمر فيها الإمام يحيى مع جاره الملك عبد العزيز بن سعود فى منطقة عسير . وعلى الرغم من هذه الإجراءات البريطانية المتشددة ، فقد أمر الإمام قواته بمهاجمة مواقع بعض المحميات المرتبطة باتفاقية حماية مع بريطانيا ، فقامت الطائرات البريطانية قوات الإمام داخل منطقة المحمية لمدة ثلاثة أيام [٢] .

---

(١) Ader:- Jouvnal of the Centpal Asiatic Society, Vol. XIII, port 11, P. 229. Tuly 1926.

(٢) حياة الأمير على بن عبد الله آل الوزير ص : ٢٧٢ .

وكذلك راجع : فتوح الخترش : العلاقات اليمنية البريطانية فى عهد الإمام يحيى بن حميد الدين – مجلة دراسات الخليج والجزيرة العربية ، العدد ٢١ ص ١٣٦ .

وبدأت بعد ذلك مرحلة من المفاوضات تعثرت أكثر من مرة ، وتخللتها التهديدات البريطانية التى اتبعت بقصف جوى أدى إلى انسحاب قوات الإمام من المناطق التى دخلتها فى نطاق محمية عدن وانتهت هذه المرحلة من المفاوضات المنقطعة والمضطربة بتوقيع معاهدة فبراير عام ١٩٣٤ ، المعروفة بمعاهدة صنعاء ، وقد جاءت هذه المعاهدة بمثابة إقرار للوضع القائم بين الطرفين من حيث الحدود بينهما ، كما تعرضت لأمور أخرى حققت نوعًا من الاستقرار بين بلدين أو حكومتين متجاورتين إقليميًا ، مثل حسن الجوار ، والتبادل التجارى .

ولم يتم التصديق على هذه المعاهدة إلا في ٤ سبتمبر عام ١٩٣٤ ، على الرغم من أن التوقيع عليها جرى في ١١ فبراير من العام نفسه ، وكانت أهم شروط التصديق هى إتمام جلاء قوات الإمام عن ٦٤ قرية فى إقليم العوذلى ، وثمانٍ أخرى في إمارة الضالع ، وإعادة فتح طريق التجارة بين المحميات البريطانية واليمن ، والإفراج عن الأسرى والرهائن من أهالى المحميات .

ولعل أخطر ما يُسَجَّل من ملاحظات على هذه المعاهدات هو أنها تركت مسألة الحدود دون تحديد ، بل تركت أمرها حتى يتم التفاوض بشأنها خلال مدة سريان المعاهدة التى حددت بأربعين عامًا ، وقد دلت الأحداث التى وقعت بعد سنة ١٩٣٤ على أن المعاهدة لم تمنع التوتر بين الطرفين ، فكانت تحدث من وقت لآخر اشتباكات مسلحة بين وحدات من جيش المحميات الذى كان بقيادة ضابط إنجليزى وبين القبائل اليمنية (١) . كما أن هذه المعاهدة تُعَدُّ من الناحية العملية اعترافًا من جانب الإمام بحق إنجلترا فى احتلال عدن والمحميات ، وتنازله عنها لمدة أربعين عامًا .

ونتيجة لهذه المعاهدة نرى أن الإمام تنازل عن الكثير من ممتلكاته للإنجليز ، وخاصة منطقة الضالع ، فقد اعتبر اليمنيون ضياعها نتيجة لسياسة الإمام وابنه الأمير أحمد – الضعيفة إزاء الإنجليز . فى حين كانت الحكومة الإنجليزية تعتبر أن الهدف الرئيسى للمعاهدة هو تنظيم العلاقات على حدود المحميات ، وأن الإمام لا يحتل سوى

---

(١) جلوبو فسكايا : مركز الدراسات والبحوث اليمنية ص ٢٩٠ (انقلاب) وأيضًا : نزيس ادنان – اليمن وحضارة العرب ص ٢٢٣ – بيروت ١٩٦٣ .

جزء صغير غير مهم في شمال منطقة المخمية التى تعود إلى قبيلة العوذلى التى تربطها بالحكومة البريطانية معاهدة خاصة [١] .

خلاصة القول أن سياسة الإمام في التفريط ببعض أقاليم اليمن بعد فشله دبلوماسيًا وعسكريًا أججت مشاعر اليمنيين فكانت بمثابة حافز مهم لتعاظم الحركة الوطنية اليمنية .

خامساً - الحرب السعودية اليمنية :

وكان للحرب اليمنية السعودية التى انتهت بهزيمة الإمام ، وتوقيعه معاهدة الطائف التى تنازل بموجبها عن منطقتى عسير ونجران اليمنيتين أثر في تزايد النقمة على حكم الإمام ، فقد كشفت تلك الحرب هشاشة النظام القائم أمام أعدائه الخارجيين برغم شراسته في إسكات معارضيه من الداخل . وأثبتت أنه كان ضعيفاً عاجزاً عن حماية التراب اليمنى عند أول اصطدام له مع الأعداء الخارجيين ، مما شجع على ارتفاع الأصوات الناقدة وتفاعلها مع بعضها [٢] .

ويصف « عبد الله الشماحى » حال الإمام يحيى بعد توقيع المعاهدة والتخلى عن عسير وردود الفعل في أوساط الشعب اليمنى بقوله : بدأ الإمام مشلولاً خوارًا ، وفي صورة طفل استسلم حيث لا داعى للاستسلام ، وأحنى عُنقه إليه ابنه سيف الإسلام عبد الله ، فإذا الإمام يحيى يقبل صلح الطائف ، ويستسلم ، ويأمر ابنه [*] بأن يوقف الحرب ويتراجع ، بل وينسحب من نجران ، ويسلم الإدارة ، وإن لم يفعل فقد حلت به نقمة الله ، وكان أحمد مطواعًا لأبيه ، فراجع أباه ، فلم تُجْدِ مراجعته ، فاستجاب لأبيه وحشرجة الغضب والألم تكاد تخنق أنفاسه ، وأُصيب يحيى كادت تميته ، وقد أثار الإمام يحيى بموقفه هذا استغراب واستنكار الفئات اليمنية ، وغضب القبائل الزيدية [٣] .

---

(١) وثيقه رقم (١٥) من السير جون سيمون Public Recrds office :- Fo. 406/75 إلى السير . دراموند (روما) مكتب الخارجية - ١٥ فبراير ١٩٣٣ .

(٢) الصائدى ص ٥٠ .

(*) سيف الإسلام أحمد هو ولى العهد الذى حقق انتصارات متقدمة على الجيش السعودى في المناطق الجبلية ، وأوشك أن يقطع خط رجعته لولا أوامر والده بالانسحاب .

(٣) عبد الله الشماحى : ثورة ١٩٤٨ - مركز الدراسات والبحوث اليمنى ، صنعاء ص ٢٢ - ٢٣ .

كذلك كان لمواجهة الإدريسى الذى كان يتلقى الدعم من بريطانيا ، وما كلفته هذه المواجهة من تضحيات قدمها الشعب اليمنى أثره في السخط على الإمام وحكمه المتسلط .

كل هذه العوامل ساعدت على تزايد النقمة الشعبية على حكم الإمام ، وخاصة بعد هزيمته أمام القوات السعودية ، وقصوره وعجزه وموقف الشعب اليمنى الذى رفض أن يقاتل ، لأنه لم ير شيئاً يقاتل من أجله ، مما وضع الإمام في موقف حرج [(١)] أمام الشعب .

ويمكننا ابتداء من هذه المرحلة أن نشير إلى اهتمام السلطة الإمامية بتركيز سيطرتها على القطاع المتبقى من اليمن ، وعلى الرغم من الاستقرار الظاهرى الذى حققته الإدارة الإمامية ، فإن الأصوات الثائرة التى انطلقت من القبائل كانت تعكر صفو هذا الاستقرار ، وكانت تُواجَه بالقمع والبطش ، وبالتشريعات المتلائمة مع العقلية الإمامية الحاكمة . وكان الاهتمام الرئيسى للإدارة الإمامية ينصبُّ على جمع السلاح والمال ، وتخزين مايفيض عن الحاجة ، مما أضاف في الوقت الذى كان تُجْبَى فيه الضرائب - إرهاقاً شديداً على كاهل الشعب .

ولا يفوتنا ذكر ما ارتكبه حكام الألوية والأقضية والنواحى - باسم المحافظة على الشرع - من مظالم كثيرة بسبب انتشار الرشوة وشيوع الفساد في الإدارة [(٢)] واضطراب أوضاعها ، حتى إن العائدين من البعثات العسكرية استخدمهم الإمام في جباية الزكاة ؟ .

كل هذه العوامل أدت إلى تزايد المعارضة للسياسة الاستبدادية للحكم ، والتى تمثلت في تركيز السلطة في يد الإمام ، مما ألحق الضرر بقوى متعددة ، من أهمها مشايخ القبائل وكبار موظفى الدولة ، كما عم الاضطهاد العام ، حتى أدوات حكمه من موظفين وجنود ، فضلا عن الفلاحين والتجار والطبقة المستنيرة في البلاد ، الأمر الذى وسع من دائرة القوى الغاضبة على الإمام ، وأسهم في تعاظم الحركة الوطنية اليمنية .

---

(١) المرجع السابق : ص ٥٠ .

(٢) المرجع السابق : ص ٥٠ .

وكان للسياسة المالية والاقتصادية التي اتسمت بالبخل الشديد والاتجاه إلى الإفقار العام أثرها كذلك في تفاقم الأوضاع ، إذ أضرت بجميع فئات الشعب ، حتى الفئات المستغلة ، وصارت ممتلكات هذه الطبقة بمثابة ممتلكات للإمام يصادر منها ما يشاء .

أدت هذه العوامل بمجموعها - فضلاً عن ارتفاع أسوار العزلة في الحياة العامة إلى توليد السخط والتذمر الذى أوشك أن يتحول إلى ثورة .

المعارضة :

عندما بُويع الإمام وتولى الحكم في فبراير عام ١٩٠٤ ، خلفاً لاثنين وسبعين إمامًا زيديًا من أسلافه ، رفض البعض مبايعته ، ومنهم محمد جغمان (١) .

ولذلك الأمر دلالته في أن المعارضة ولدت مع بداية عهد الإمام ، لكنه - لضيق نظره - تجاهل هذه المعارضه ، ورفض - في غطرسة - مواجهتها بالحوار ، ولو فعل لما تفاقمت طوال حكمه حتى أدت إلى إسقاطه .

ويجمع المؤرخون على تعامل الإمام مع المعارضة بالبطش والاضطهاد في محاولة لاستئصال شأفتها . ومن سياسته في هذا الصدد أخذه بنظام الرهائن البشرية من أبناء الجماعات والتكتلات والقبائل ، حيث أسكنهم في قلعة حصينة ليأمن بوجودهم داخل أسوارها عدم خروج أية قبيلة أو جماعة عليه ، أو معارضتها لحكمه ، كما حاول اتباع نفس الأسلوب مع نظام الحاكم وأجهزته ، خشية المروق والعصيان ، الأمر الذى أدى إلى اتساع دائرة المعارضة لتشمل القوى الشعبية والإدارية في آن واحد .

وحين كتب المؤرخين عن المعارضة في عهد الإمام يحيى وعن نشوئها وتطورها أجمعوا على وجودها ، واختلفوا في تحديد ظهورها وبداياتها الأولى : أيُعَدُّ رفض البعض مبايعته ١٩٠٤ هو البداية ؟ أم أن البداية كانت في سنوات الثلاثينيات ؟ أم في الأربعينات باعتبار أنها لم تكسب طابعها السياسى إلا في تلك الفترة من حكم الإمام . من هنا فرقوا بين مَقْصِدَيْن للمعارضة ، فإذا أطلقوا القول عرفوها بأنها : كل موقف ، أو رَأى ، أو قول مناوىء للإمام ، وإذا قيدوا قولهم ، ذهبوا إلى أنها الموقف السياسى

---

(١) الصائدى : ص ٤٦ .

المعــارض ، والهــادف إلى إحداث تغيير وإصــلاح في طبيعـة الحكم وأســاليب الحيــاة .

وقبل الخوض في تفاصيل حركة المعارضة ، يحسن أن نشير إلى الصله بين حركة المعارضة من حيث هى « موقف سياسى » وبين الحركة الوطنية من حيث هى « نضال وطنى » مشروع من أجل مصلحة الوطن وتخليصه من ضيم أو اغتصاب أو ظلم أو عدوان ونحو ذلك من أهداف مشروعه ، ومن التأمل فى هذه الصلة يبدو لنا بعض التداخل في مفهوم كل من الحركتين من حيث أن كُلاًّ منهما ترمى في الظاهر إلى تحقيق مصلحة الوطن ، وأن بعض قوى المعارضة تعطى حركتها المعارضة للنظام الصفة النضاليــة .

وفى رَأْيِى أن الفروق بين الحركتين يمكن إجمالها في الآتى :

١ - الغالب على حركات المعارضة أنها تهدف إلى تحقيق مكاسب سياسية ، معلنة أو غير معلنة ، في حين أن الحركات الوطنية تسعى إلى تحقيق مصلحة وطنية عليا ، بغض النظر عن المكاسب السياسية للمناضلين .

٢ - تمثل قوى المعارضه قطاعًا محدودًا من الشعب ، هو القطاع المعارض لسياسة الحكومة وتوجهاتها وأساليبها في الحكم وأدواتها ... إلخ في حين أن قوى الحركة الوطنية تنتمى إلى عموم الشعب ، وتمثل ضمير الأمّة .

٣ - القوى المعارضة قوى معلنة يفترض أن يكون عملها ظاهرًا ، وبخاصة فى الأجواء الديمقراطية ، وحين تعمل فى السر فى الأجواء الاستبدادية لا تسمى قوى معارضة بالمفهوم المعاصر ، بل ربما أطلق عليها « قوى مقاومة » أو أية تسميات أخرى ، لأنها حين تعمل فى السر تعطى مبررًا للسلطة الحاكمة لملاحقتها ، فى حين أن الحركة الوطنية وقواها يسوغ لها أن تعمل فى السر والعلن ، حسب معطيات الحال ومواتاة الظروف .

لا تستطيع قوى المعارضه الاستناد إلى القوانين الدولية كحقوق الإنسان ، لأن المفترض أن عملها فى المعارضة لا يتنافى مع دستور البلاد ، فى حين أن القوى الوطنية العاملة داخل نطاق الحركة تستطيع الاستناد إلى تلك الحقوق ، بل تسوغ لها فى بعض الحالات والأوضاع أن تتلقى الدعم من دول أخرى مناصرة .

٥ – تعتبر حركات المعارضة فى الأجواء الديمقراطية ذات صفة دستورية ، باعتبار أن مبدأ المعارضة لا يتنافى مع دستور الدولة داخل إطار التحالف الوطنى ، أما الحركات الوطنية ، والتى غالبًا ما تكون حركات تناهض المستعمرين والغاصبين أو الحكام المستبدين ، فإنها تنادى بالاستقلال والسيادة ووضع الدستور .

٦ – تضم قوى المعارضة السياسيين وزعماء الكتل السياسية والحزبية – إنْ وجدت الأحزاب – فى حين أن قوى الحركات الوطنية تضم مختلف طبقات الشعب ، بل ربما تشكلت أصلا من هذه الطبقات بدون أن يكون لزعمائها سوابق فى العمل السياسى .

المعارضة والنضال الوطنى فى اليمن :

وعلى ذلك يمكننا القول بأن الحركة الوطنية فى اليمن مرت فى عهد الإمام بمرحلتين رئيسيتين :

الأولى :

اتخذت فيها شكل المعارضة ، وكانت من نمط يمكن تسميته « بالمعارضة القبلية » وبدأت منذ تولى الإمام يحيى الحكم .

الثانية :

ظهرت فى الثلاثينات من القرن العشرين ، حيث أخذت الحركة شكلها النضالى ومضمونها الوطنى ، وأعلنت عن أهدافها السياسية الإصلاحية التى عبرت عن رغبتها فى إنقاذ كل الوطن اليمنى من تحكم الإمام ، سواء عن طريق إصلاح الأوضاع القائمة – بتغيير سياسة الإمام – أو عن طريق التخلص منه نهائيًا بخلعه .

نشوء المعارضة :

تناول الكُتّاب والمؤرخون بالبحث نشوء المعارضة فى عهد الإمام يحيى ، وبينوا مراحلها من زوايا مختلفة ، وبنظرات متقاربة ، ويُستفاد من هذه الكتابات ومن المصادر المختلفة أن المعارضة كموقف ، وُجدت من قبل فى ظل حكم الأئمة السابقين ، وكان وجودها فى عهد الإمام يحيى استمراراً لما كان ، ويعزون وجودها فى عهود الأئمة الزيديين لأسباب وعوامل عدة ، ، يأتى العامل الدينى فى مقدمتها ، ويفسرونه بأنه الادعاء بعدم توفر الشروط الشرعية فى شخص الإمام ، ويضعون العامل القبلى فى الدرجه الثانية ، إذ كانت بعض القبائل تتمرد لإثبات مكانة شيوخهم ، أو طلبًا لحاجات ومطالب لم تكن متوفرة لهم .

وقد أفاض الكُتاب والمؤرخون فى بيان الأسلوب الذى كان يتبعه الإمام يحيى فى مواجهة معارضية ، وقد ذكروا أنه قلما كان يميل إلى مهادنة شيخ القبيلة المعارض ، أو يسعى لسماع شكواه أو وجهة نظره ، بل كان يعمد إلى طرق ملتوية يدرأ بها معارضته ويشغله عن مطالبه ، كان يرمى القبيلة المعارضة بقبيلة أخرى تقاتلها ، أو يُسير إليها أحد « سيوف الاسلام » من أبنائه فى قوة متفوقة فيؤدب شيخها ورجالها المتمردين أو الخارجين عن طاعته ، ولا يعود السيف إلا ومعه « رهائنهم » ليكونوا وقاية من العودة إلى التمرد أو الخروج على الطاعة ، وقد حدث هذا مرارًا وتكرارًا ، كإرسال الإمام سنة ١٩٢٤ قوة لإخماد تمرد قبيلة حاشد [١] ، وإرسال « سيف الإسلام » ولى العهد إلى قبائل العصيمات [٢] . وسنة ١٩٣٢ إلى قبائل دهمة الذين امتنعوا عن تسليمه رهائنهم .

ويدخل عامل المعاناة والقهر ، وما لحق بالشعب من مظالم وأمراض لم تحاول الدولة التخفيف من وطأتها ، فى دفع بعض الجماعات إلى الهجرة خارج البلاد بحثًا عن الأمن والغذاء ، أو للبقاء فى اليمن على مضض ، أو للتمرد والمطالبة بالإصلاح .

---

(١) الجرافى : المقتطف من تاريخ اليمن ص ٣٠٤ .

(٢) المرجع السابق : ص ٣٠٨ ، وأيضًا حسين شرف الدين : اليمن عبر التاريخ ص ٢٩٤ .

الحركة الوطنية :

أدت المعارضة فى مرحلتها السابقة للثلاثينيات دورها فى تنمية مشاعر السخط والتذمر ، وأسهمت فى بناء الأرضية الصالحة لنشوء حركة وطنية تهدف إلى تخليص شعب اليمن من الظلم والقهر والحرمان والعزلة والتسلط الاستعبادى الفردى ، وقد أخذت هذه الحركة منذ بداياتها السمات التالية :

١ – قيام طبقة مستنيرة واعية بقيادتها وتوجيهها .

٢ – تجسيد الأهداف الوطنية وبلورتها والإعلان عنها .

٣ – استعمال أدوات العصر فى الدعوة إلى الإصلاح ، كالكتابة فى الصحف .

٤ – التخلص من رهبة المواجهة وضغوط السلطة وعقدة الخوف .

٥ – ربط الشعور الدينى بالغيرة الوطنية .

٦ – انتقال جزء من قيادة الحركة الوطنية إلى خارج الحدود ، والدعوة إلى الخلاص فى الداخل والخارج ، واطلاع الرأى العام الخارجى على ما يجرى داخل أسوار العزلة التى فرضها الإمام على البلاد .

٧ – شمول عناصر الحركة الوطنية لقطاعات واتجاهات متباينة لشتى القوى الاجتماعية والسياسية .

توجهات الحركة الوطنية :

أصيب جسم الشعب اليمنى بحالة مرضية خطيرة أسلمته للأنين الصامت ، وخصوصًا بعد قطع كبير من الرءوس ، وبعد إفلاس التجار أمام المنافسة غير المتكافئة مع السلطة الحاكمة وموظفى الدولة .

وفى الأربعينات من القرن العشرين نعمت الإمامة باستقرار نسبى أعطاها مزيدًا من الهيبة ، وأعطى الشعب إلى حد ما صورة واضحة عن أسلوبها الظالم العقيم ، ومن خلال هذه الأرضية المليئة بسلبيات الوجود الأجنبى المضاعفة بسلبيات الإمامة ، بزغت مرحلة جديدة من النضال ضد هذه الإمامة ، ولا شك فى أن المعارضة اعتمدت – كأمر متوارث – على الشعور الدينى ، غير أنها أخذت تربط هذا الشعور بالناحية

الوطنية ، مما ألبس المعارضة شكلاً جديدًا لم تعهده البلاد من قبل . وهنا انطلقت الألسنة من عقالها لنقد الإمام والجهاز الذى اعتمد عليه فى حُكمه ، وبرز هنا اتجاهان :

الأول :

اتجاه نحو حياة متطورة من قيود الزيدية والحُكم المطلق ، ومن كل ما يقف فى طريق التقدم اليمنى ، إلى مستوى الحضارة المعاصرة ، على أن يكون ذلك التقدم فى إطار الروح الإسلامية الصحيحة ، وهذا ما كان يستهدفه المستنيرون من الشباب بقيادة أبى الثورة السيد أحمد المطاع العلوى .

الثانى :

اتجاه يطالب بالإصلاح ، إلا أنه يربطه بإحياء الدعوة الزيدية وإمامتها ، وبذلك فهو يرى أن يطالب الإمام يحيى بإصلاح جهاز حكومته وإدارته المهترئه ، عن طريق إدخال عناصر قوية من ذوى الكفاءة والنزاهة تستطيع التقدم باليمن وحماية الدعوة الزيدية من التعثر أو التآكل . وقد أبدى الإمام يحيى تجاوبه مع هذا الاتجاه بعد الحرب السعودية اليمنية ، لكنه لم يفعل شيئًا .

وقد بلورت الحركة الوطنية بمختلف قطاعاتها هذه الأهداف فى صيغ ومطالب كتب عنها الرواد ، ونقلها عنهم الكتّاب والمؤرخون ، فعلى سبيل المثال يشير « منفرد ونير » إلى أن أحد المطالب كان عدم السماح لأبناء الإمام بالمشاركة فى الإدارة وشئون الدولة ، وأنه يمكن أن تُصرف لهم معاشات ، حتى يبقوا غير فعّالين (١) .

فى حين ذكرت « جلوبوفسكايا » أن المعارضة صعّدت بعض المطالب ، ومنها ألا تقتصر الوظائف الهامه على أبناء الإمام (٢) .

ومن المطالب التى طرحتها القيادات الوطنية ، تأسيس مجلس شورى من علماء البلاد وأعيانها ورؤسائها وأولى الأمر فيها ، وتشكيل وزارة من رجالات البلاد الأكفاء ،

---

(١) Wernner :- Mondern Yemen p. 92.

(٢) ثورة ١٩٤٨ الميلاد والمسيرة والمؤثرات ص ٢٨٣ .

واحتفاظ سيوف الإسلام - أبناء الإمام - بمكانتهم كأمراء ، وابتعادهم عن تولى المناصب فى الدولة ، وإعفاؤهم من المسئولية حفاظًا على كرامتهم وكرامة العرش [(١)] .

وتُعَدُّ كتابات النازحين عن اليمن من المستنيرين والمثقفين السجل الأدنى للمطالب اليمنية الشعبية ، وليس هؤلاء وحدهم هم الذين نزحوا عن قراهم وبلدانهم إلى عدن وغيرها ، بل كانت الهجرة هربًا من الظلم والفقر والتسلط - إحدى السمات المميزة لعهد الإمام ، وقد جاءت مطالب النازحين والمقيمين على حد سواء كشفًا تسجيليًا للفراغ الماثل فى بنية الحكم الإمامى ، وبيانًا وافيًا لافتقاره وافتقار البلاد إلى أهم مقدرات الحياة السوية . ويجد القارىء فى تلك الكتابات ، جُملة من المطالب ، منها على سبيل المثال ما كتبه أحمد محمد النعمان ، مدير المعارف سابقًا ، فى لواء تعز الذى رمز إلى نفسه باسم مستعار « يمانى بلا مأوى » فقال بصدد هذه المطالب [(٢)] :

١ - إنصاف الفلاح .

٢ - إنشاء المدارس بما فيها مدرسة للبنات .

٣ - تنوير البلاد بالكهرباء .

٤ - منع القات .

٥ - سفر أمراء اليمن إلى الخارج ليعرفوا كيف تقوم الأمم .

٦ - الاهتمام بالصحة والمواصلات كى يزول عهد البغل والحمار والجمل .

٧ - إيقاف تشريد الشعب اليمنى ، كما هو الحال بالمتشردين فى عدن .

٨ - استغلال الثروة الوطنية ، وإنشاء الشركات الوطنية .

٩ - وجوب أن يعيش الجيش على نفقة الحكومة ، وليس على نفقة الأهالى .

١٠ - إلغاء وإسناد أعمال القضاء إلى غير الحكام ، وتأمين حقوق القضاة .

---

(١) صوت اليمن عدد ١٩٤٦/١ - ص ١ .

(٢) سلطان ناجى : (فتاة الجزيرة - العدد ٣٢٩ ، ٧ يونيو ١٩٤٦) .
دور جريدة فتاة الجزيرة فى أحداث ١٩٤٨ فى صنعاء .
منشورات مجلة دراسات الخليج والجزيرة العربية ، جامعة الكويت .

١١ – إلغاء المحاكم الشرعية القائمة وإصلاحها على أسس شرعية حديثة .

١٢ – إلغاء الأمر القائل بحبس كثير من الأبرياء والمسجونيين .

١٣ – إلغاء السخرة .

١٤ – تأليف هيئة شورى من رءوس البلاد وشيوخ القبائل .

١٥ – توفير الرقابة على وسائل الصرف .

١٦ – حرية الكلام والصحافة والعمل .

١٧ – إنفاق أموال الأوقاف في الإصلاحات العامة .

١٨ – تمثيل الأمة عند الحكومة .

١٩ – منع الرشوة .

٢٠ – إعلان حكومة اليمن بأن العالم قد اكتشف القنبلة الذرية .

٢١ – إنشاء رصيف حديث في الحديدة ، ومدرسة صناعية في مناخية ، ومستشفى في العدين ، وثانويتين في أب وتعز .

٢٢ – نقل مدينة تعز من مركزها الموبوء إلى سفوح الجبال .

هكذا تنبىء هذه المقالة بصفتها التوثيقية عن مجموعة كبيرة من المطالب العادلة التى تتخللها السخرية اللاذعة ، التى تنم عن مرارة نفس كاتبها لحالة التردى التى وصلت إليها البلاد قبيل الثورة ، وتكشف عن أوضاع النظام الذى كان قائمًا ، بل وتعريه ، وتطلب من السلطة الحاكمة المتمثلة فى الإمام وأبنائه ومَنْ حولهم أن يتداركوا الأمر ويقوموا بالإصلاح ، وهى بهذا تعترف ضمنًا أن بإمكان الإمام يحيى وأبنائه أن يكونوا مقبولين ، وأن يكون النظام مقبولاً فيما لو وضعت هذه المطالب ونحوها موضع التنفيذ ، وهذا تَوَجُّهٌ ظَلَّ واردًا في خواطر رجال الحركة الوطنية لفتره ليست بالقصيرة ، بل عملوا له طويلا عن طريق الكتابات والنصح ورفع الشكوى ، وإنْ كان هناك اتجاه أكثر راديكالية ينادى بخلع الإمام أو التخلص منه نهائيًا . إنَّ الدراسات التى نُشرت فى هذا الصدد إن كانت بعيدة عن الطابع التوفيقى فى التعبير عن مصالح قوى المعارضة المختلفة فيمكن القول بأن هذين التوجهين كانا يعبران معاً عن الواقع وإن سبق أحدهما

الآخر فالاتجاه المعتدل أثبت عدم جدوى أطروحاته ، نظرًا لعدم الاستجابة للإصلاحات ، الأمر الذى عزز موقف الاتجاه المتطرف الذى نادى بضرورة الثورة على النظام .

التجمعات الوطنية :

يستدعى الحديث عن التجمعات الوطنية اليمنية في عهد الإمام يحيى معرفة المراحل التى مرت بها الحركة الوطنية ، ولابد لمن يكتب عن المراحل أو يدرسها من الإحاطة بهذه التجمعات والاطلاع على هويتها وانتمائها وتوجهاتها ، باعتبارها القوة المحركة والفاعلة لتطور الحركة الوطنية ، وقد اخترنا تقديم الحديث عن هذه التجمعات الوطنية محاولين – وما أمكن – الاقتصار على تعريف ما ذُكر عنها ، في محاولة لتوضيح الأمور ، كما استعملنا كلمة « تجمعات » التماسًا لشمول كل الفاعليات والمبادرات الشعبية الوطنية التى ظهرت في البلاد مُعارضة لحكم الإمام ، أو للحكم الإمامى عمومًا ، أو داعية إلى التخلص منه وإسقاطه ، أو لإصلاحه ، لنستخلص منها التنظيمات الوطنية ذات المحتوى الفكرى ، والشكل التنظيمى ، والأهداف الواضحة .

ومن الواضح أن كل الذين تصدوا لدراسة الأوضاع المتصلة بالمعارضة اليمنية وبالثورة وبالعمل الوطنى وقفوا حائرين أمام اضطراب النصوص الوثائقية المرجعية التى يستمد منها المؤرخ مادته الأصلية ، وهى نصوص لا يزال بعضها ينبض بالحياة ، لأن أصحابها مازالوا أحياء .

ولقد تباينت الروايات حول موضوع التنظيمات التى ناهضت حكم الإمام يحيى تباينًا كبيرًا مس وجودها وأسماءها وتواريخ ظهورها وأماكن نشاطها إلى درجة يصعب معها – استنادا إلى هذه الروايات – الخروج بصورة واضحة عنها .

ويشير الدكتور أحمد قائد الصايدى إلى ذلك بقوله :

« ولو أن التباين في الروايات قد اقتصر على الذين تناولوا حركة المعارضة من أبناء جيل ما بعد ١٩٤٨ م لهان الأمر ، إذ يمكن عندها الرجوع – للتثبيت والتدقيق – إلى معاصرى الحركة ، وإلى الشخصيات التى لعبت أدوارًا رئيسية فيها ، ولا تزال على قيد الحياة ، ولكن هؤلاء أنفسهم لم يستطيعوا أن يصلوا إلى رأى موحد ، وأن يخرجوا برواية واحدة أو روايات منسجمة » [١] .

---

(١) الصايدى : حركة المعارضة اليمنية – ص ٦٢ .

وعلى سبيل المثال ، جاء في ندوة مركز الدراسات والبحوث واليمنية التى انعقدت في شهر شباط سنة ١٩٧٩ ، وكان محور النقاش فيها يدور حول حركة ١٩٤٨ ، التى شارك فيها عدد كبير من المساهمين فى هذه الحركة ، جاء في أقوال أولئك الرواد ، وكلها وثائق وشواهد عن التجمعات الأولى للمناضلين ما يلى :

قال الشماحى :

لما جاءت الحرب السعودية اليمنية وظهر خور الإمام ، تساءل الناس عن الأسباب ، فى الوقت الذى كان فيه سيف الإسلام أحمد قد هزم الجيش السعودى .

وانقسم الناس إلى قسمين : طائفة تريد التحرر من الإمامة الزيدية والشافعية ، وطائفة تريد أن تحتفظ بالإمام وتبدل الجهاز بجهاز آخر ، وقد شكلت هيئة النظام برئاسة أحمد المطاع ، وعبد السلام صبره والحلوى ، والشماحى ، والعزى صالح السنيدار ، وغيرهم .

وقال الربيع :

بدأت الفكرة من أحمد المطاع ، حيث كان ضابطًا في الجيش عام ١٣٥١ هـ ، وكان يتم التجمع في منزل العزى صالح السنيدار ، حيث كانت تُناقش الأوضاع ، ثم توسعت الفكرة حتى انضم إليها الدعيس ، والحلوى ، ومحمد الأكوع .

وقال المرونى :

توجهنا إلى العراق عام ١٩٣٦ وكان الحوار بين المطاع ومحى الدين العنسى أن يقوم المطاع بجولة في أنحاء اليمن بحجة عمل خريطة ، وفعلا بدأ جولته عام ١٣٣٧ هـ ، ووصل إلى تعز ، واتصل بنادى الإصلاح في الحجرية ، وبذلك تشكل أول خيوط الثورة .

وقال على ناصر العنسى :

أول تجمع لنا كان في القاهرة ، عندما كنا ندرس في الأزهر ، وفي ذلك الوقت لم تكن لدينا فكرة وطنية واضحة .

وقال الحضراني :

الفكرة من أساسها ترجع إلى أواخر العهد العثماني ، وبدأ تنظيمها الشهيد المطاع عام ١٣٥٥ هـ عندما قام بجولته ، وكانت تصل منشورات من مصر ، أعتقد أن النعمان كان يرسلها ، تطالب بإلغاء نظام الرهائن ، وأن تكون الزكاة أمانة .

وقال الفسيل :

ومع أنه لا يمكن فصل تجمعات الأحرار فإن المحلوى – نتيجة لتأثره بالاتحاد التركي – كان أول شخصية يمنية تلاحظ خطورة حُكم الإمامة .

وقد قام بعد الثورة التركية باستقطاب تلاميذ له وربطهم بالتنظيم من عدة جهات ، دون أن يعرفوا ارتباطهم به ، وهم أحمد المطاع ، والعزى صالح السنيدار وغيرهم ، وذلك بعد دخول الإمام يحيى صنعاء ١٣٣٧ هـ – (١٩٠٤ م) وكان الشخص الأكثر اتجاهًا للتنظيم هو أحمد المطاع ، ثم تشكلت تنظيمات برئاسة النعمان في تعز ، والدعيس في أب .

عبد السلام صبرة :

بدأت التجمعات في عام ١٣٥٠ هـ ، وكان هذا التجمع يشكل نواة التنظيم السياسي عند الإمام يحيى .

محمد السياغي :

بدأت التجمعات الأولى للأحرار قبل الثلاثينيَّات ، ولا أستطيع التحديد ، لأننا كنا نتجمع تجمعًا بدائيًّا بدون تحديد فكرة أو هدف ، وإنما توجع وتأفف (١) .

هيئة النضال :

أسس أحمد بن أحمد المطاع العيسى العلوى هيئة النضال سنة ١٣٥٣ هـ (١٩٣٤ – ١٩٣٥ م) على إثر جولة قام بها في مناطق اليمن « على بغلة قوية فارهة

---

(١) راجع ثورة ١٩٤٨ م : ميلاد ومسيرة ، ص ٣٤١ – ٣٤٤ .

أعطتها الحكومة له »[1] ، بقصد الكشف على المدارس فى اليمن ، فزار حجة ، وزبيد ، وتعز ، والمخا ، والحجرية ، ثم اب ، وذحار ، وغيرها ، وتمكن بشخصيته القوية وحُسن بيانه وأسلوبه الحكيم في التعامل من كسب تقدير كثير من البارزين في الجهاز الحكومى ، والتأثير عليهم ، بدون اطلاعهم على خطته وأهدافه ، وكان من بين هؤلاء على بن عبد الله الوزير ، أمير لواء تعز ، ومحمد بن أحمد باشا عامل تعز آن ذاك وحسين الحلالى عامل الحجرية ، ومجموعة كبيرة من رجالات اليمن .

وقد درس معهم الأوضاع في اليمن ، وما يتهددها في الداخل والخارج ، وتبادل معهم الرأى ، وعاد إلى صنعاء وقد هيأ مجموعة ممن اتصل بهم لقيام كل منهم بما يُسند إليه من عمل ، وكانت صلاته فيما بعد قوية بالقاضى عبد الرحمٰن بن يحيى الإيريانى ، وفي العام التالى أسرع بتشكيل المركز الرئيسى لهيئة النضال في صنعاء ، ومن أعضائها عبد السلام صبرة ، ومحمد المحلوى ومجموعة من رجالات اليمن ، وبعد عدة اجتماعات وضعت الحركة مخططاً واسعًا ومرحليًّا ، من أهم معالمه :

١ - اختيار صنعاء مركزًا رئيسيًّا للهيئة .

٢ - إقامة فروع لها في أنحاء اليمن يديرها من يعتمد عليهم من الأنصار .

٣ - تفويض رؤساء الفروع وأعضائها الاتصال بأرباب المال ، من أمراء وتجار ، للاستفادة من ثرواتهم في الإصلاح ، بدون الكشف عن حقيقة الهيئة .

٤ - تكوين مالية للهيئة تودع عند الخادم غالب والعزى صالح السنيدار .

٥ - محاولة تسرب أعضاء المنظمة إلى جهاز الحكم وإلى قمته إنْ أمكن ، لضربه من داخله ، وإثارة بعض عناصره على البعض الآخر ، وكشف الأسرار ، وَدَرْء الأخطار عن المنظمة ، وتنفيذ ما يمكن من القرارات .

٦ - إحباط مخطط الاتجاه المعاكس الداعى إلى إصلاح الجهاز الحاكم ضمن إطار الدعوة الزيدية والإمامة الذى أبدى الإمام تجاوبه معه .

٧ - الاتصال بالصحافة الخارجية والشخصيات العربية لنقد سياسة الإمام والأوضاع فى اليمن .

---

(١) عبد الله الشماحى : نشوء وتطور حركة المعارضة ، ص ٢٥ .

٨ - توعية القبائل ، خاصة فى الشمال .

هذه أهم النقاط التى اتخذتها هيئة النضال ، وهى تكشف جانبًا من التوجه العام لهذا التنظيم الوطنى ، وأبرز ما يُستفاد منه التعرف على الخط الرئيسى للتوجه المناقض لدعوة الإصلاح الإمامى القائم والتخلص منه ، وإنْ لم يفصح بعد هذا التوجه عن الوضع البديل .

وظلت هيئة النضال المنظمة الوحيدة للمقاومة من عام ١٣٥٤ وحتى عام ١٣٦٣ (١) .

الأحرار اليمنيون فى عدن :

ساد عدن عدم رضا عندما كشفت عنه وعن أسبابه رسالة حاكم عدن السرية المؤرخة فى ٢٦ مايو عام ١٩٣٧ إلى « المستر أوره سبى جور » حيث ورد بالفقرة الثانية منها :

« أن الوضع المتردى فى اليمن يعود إلى ثلاثة عوامل رئيسية هى :

أولًا : القلق والشك حول ولاية عهد الإمام .

ثانيًا : عدم رضا السكان الشوافع في تهامة عن حكم الزيديين لهم .

ثالثًا : الاعتقاد السائد بأن إيطاليا تنشط فى المياه العكرة ، وبأنها تعتزم التدخل حالما تتاح لها فرصة مناسبة .

أما الفقرة الثالثة من تلك الرسالة فهى تشير بوضوح أكثر إلى مشكلة الوراثة كسبب لعدم الرضا العام قائلة : « فإن الإمام الطاعن فى السن كان يرغب منذ أمد بعيد فى أن يخلفه على العرش ابنه الأكبر سيف الإسلام أحمد ، وعمل منذ عدة سنوات على انتخابه لولاية العهد .

إن الضعف فى هذا الإجراء يكمن فى إمكانية زعزعة هذا الانتخاب ، لكون

---

(١) عبد الله الشماحى : نشوء وتطور حركة المعارضة - ثورة ١٩٤٨ ، إعداد مركز الدراسات والبحوث اليمن ص ٣٥ .

المذكور شخصية غير محبوبة ، وإنسانا فظًّا وقاسيًا ومحبًّا للأذى ، وحتى زمن قريب كان ينتظر أن يكون سيف الإسلام أحمد وارثًا للعرش بعد وفاة الإمام الحالى ، وأن يؤجل القائمون على أمر المنافسة على العرش نشاطهم ضده إلى حين ظهور آثار حكمه القمعى ، بحيث تُتاح لهم الفرصة للقيام بما عزموا عليه ، وقد ساد مؤخرًا الاعتقاد بأنه تحت تأثير المؤامرات الإيطالية ، فإن الأزمة ستتصاعد حتى قبل وفاة الإمام يحيى . وفى الفقرة الرابعة من تلك الرسالة السريه يعرض حاكم عدن إلى من أسماهم فى الفقرة الثانية « بالقائمين على أمر المنافسة على العرش » فيقول :

« وربما انقسم المطالبون المتنافسون على العرش إلى قسمين .. ففى المقام الأول هناك إخوة سيف الإسلام أحمد – للإمام يحيى أحد عشر ولدًا على قيد الحياة – ومن بينهم الأكثر تساهلاً « الحسين » وأخوه المحب للمتعة « على » وللاثنين رصيد الاستعداد لقبول الحماية الأجنبية إذا خدمت أهدافه ومآربه ... » .

وفى الفقرة الثامنة من تلك الرسالة نرى حاكم عدن يرقب الأمور بعين مصالح بريطانيا الخاصة فى اليمن ، بدون أن يدخل فى اعتباره أو يهتم أدنى اهتمام بحركة الأحرار المطالبة بالحريات والإصلاحات فى اليمن .. تقول تلك الفقرة من رسالته السرية :

« ومن الصعب الآن التنبؤ بما يسفر عنه الوضع الراهن فى اليمن وقد أصبح متوقعًا الآن وفاة الإمام يحيى ، ولكن على الرغم من إصابة كليته إصابة خطيرة ، فإنه لا يزال رجلا قويًّا مع كبر سنه ، وقد يعيش لعدة سنوات أخرى قادمة . ولقد حافظ الإمام على معاهدة صنعاء بكل أمانة ، وطالما بقى حاكمًا لليمن ، فإن الحكومة اليمنية ستحافظ على علاقاتها الودية الرسمية مع بريطانيا العظمى . ويحتمل أن ينجح سيف الإسلام أحمد فى توطيد مكانته كإمام لليمن فى المستقبل ، فهو رجل عسكرى ، ويشارك والده الرأى فى إبعاد النفوذ الأجنبى ، ثم إنه رجل قوى الشكيمة ، ولهذا فإنه من غير المحتمل أن يصبح لعبة أو أداة بأيدى الإيطاليين ، وفى رأيى أن نجاح منافسيه أمر مشكوك فيه ، إلا إذا حصلوا على مساعدة خارجية ، وخاصة فى اليمن »[(١)] .

---

(١) رساله من حاكم عدن (ب رايلى) إلى (المستر أورمسبى غور رقم ٣٧ مؤرخة فى ٢٦ مايو ١٩٣٧ .

Fo 406/75 (E 3326/982/91)

إن الكثير مما جاء فى تلك الرسالة صحيح ويدل على يقظة حاكم عدن فى متابعة أحوال اليمن لرعاية مصالح بريطانيا العظمى .

وتهيأت عدن كأرض خصبة للمعارضين ، إذ وصلت المجموعه الأولى من عناصر المعارضة بقيادة المطيع دماج إلى عدن فى مايو عام ١٩٤٤ م – ١٣٦٣ هـ ، وفى يونيو وصل أحمد محمد نعمان ، ومحمد الزبدى ، وبعدهما مباشرة ظهر فى عدن الشامى ، والشيخ أحمد أبوراس ، والشاعر زيد الموشكى ، وغيرهم ، وشرعوا فى إعداد الخطة السياسية لحركة المعارضة خارج حدود الوطن .

ومنذ أسس هؤلاء الوطنيون تنظيمهم أطلقوا عليه اسم « الأحرار اليمنيون » فى نهاية عام ١٩٤٤ .

ويُعد المطيع دماج أول من وَجَّه نقدًا علنيًا إلى طريقة الإمام يحيى فى الحكم ، أما أحمد محمد نعمان فكان قد سافر إلى القاهرة عام ١٩٣٧ ، والتحق بالأزهر ، واكتسب فى فترة دراسته بتلك الجامعة الإسلامية أفكاره التمردية الثورية ، ولما عاد إلى اليمن عام ١٩٤١ صار معلمًا فى تعز للأمير محمد البدر ، نجل الأمير أحمد ابن الإمام يحيى ، وهو الذى كان أبوه يرشحه فى كل مناسبة لولاية العهد ... غير أن الإمام لم يسترح إلى أفكار أحمد نعمان التقدمية ، فآثر الأمير السلامة وغادر اليمن عام ١٩٤٤ ، أما عبد الرحمٰن الإيريانى فقد كان قاضيًا ، ولكن أفكاره الحرة والتقدمية لم تعجب الإمام يحيى ، ولما خشى أن ينتهى له الأمر إلى السجن فضل هو الآخر مغادرة اليمن كان غادرها قبله أحمد محمد نعمان .

وكان محمد محمود الزبيرى كزميله الإيريانى من قضاة اليمن ، ولما وقع بينه وبين الأمير أحمد ابن الإمام خلاف فى الرأى وخشى مغبته ، رأى أن ينجو بنفسه ويسافر إلى عدن ... وفى عدن اجتمع الثلاثة ، ولحق بهم آخرون كالشامى ، والمشكى ، والوقس ، وهب الشباب العدنى واليمنى للأخذ بيدهم ومناصرتهم ، ورحب بهم الأدباء ، وكرمتهم الجمعيات اليمانية والنوادى العربية ... ولم يلبثوا أن وجدوا فى جريدة عدنية تسمى « فتاة الجزيرة » مجالاً لهم للفت الأنظار إلى الأوضاع فى اليمن ... وبرغم أنهم لم يجدوا من السلطات البريطانية أى تشجيع على الاستمرار فى الإشارة إلى أحوال اليمن وضرورة إجراء إصلاحات جذرية فى أمور كثيرة ، فقد فتحت لهم « فتاة الجزيرة » صفحاتها لكشف مدى الظلم الصارخ والأحكام الجائرة ، والجهل والفساد فى اليمن [1] .

---

(١) إدجار أوبلانس : الحرب فى اليمن ، ص ٧١ .

وبدأت سلسلة المقالات التى أقلقت الإمام يحيى أشد القلق ، وكان مطيع دماج المقيم فى عدن – كما أشرنا سلفًا – هو أول من وجه نقدًا عَلَنِيًا إلى طريقة الإمام يحيى فى الحكم ، ففى المقال الذى نشره بعنوان « آمال الإصلاح فى اليمن » قال :

« لست كاتبًا قديرًا فأكتب على أسلوب القادرين من الكُتَّاب فى الصحف ، ولكننى رجل أُعبر عما فى ضميرى بالصراحة الخالية عن التنميق والمداهنة ، ولست من ذوى الأدب الراق ، لأنه مفقود فى وطننا ، فلو سألت عن الأدب أبناء الشعب اليمنى أجابك لفيف منهم : إنه الخضوع والطاعة العمياء لأهل السلطة والنسب الشريف ، كما أن السياسة عندهم هى التصنع والتملق وإظهار الجمود والغباوة والبَلادة . فالمُتصف بهذه الخلال هو السياسى الأمين ، فأنت الآن لو وصلت إلى اليمن لهرب أبناؤه خجلا من أن يروك فتقف على حالهم ، ومن جهة أخرى ماعليه المدارس والبلاد من التأخر المفجع ، فهذه مدارس تعز الآن خالية عن تعليم كل علم نافع ، فلا يُدَرَّسُ فيها غير حفظ القرآن فقط . ولا تجد من لا يعرف (من) القرآن إلا نصف جزء ، ولَوَجَدْت أُمَّةً من الناس يُساقون مُسَخَّرِين فى الأعمال الخاصة بالحكومة فلا تفكير ، ولا نظرة ، ولا اهتمام إلا بسلب الأهالى أموالهم باسم الواجبات ، ولوجدت أموالاً مسلوبة ، وسجونًا ملآنه وأناسًا مشردين » [١] .

ومن الواضح أن هذا النقد المُوَجَّه إلى الإمام وحكومته لم يكن نقدًا علميًا سياسيًا بالمفهوم العلمى للنقد السياسى ، بل هو أشبه بزفرات غير مرتبة مَسَّتْ ألوانًا من الحياة تحت حكم الإمام .. ومع هذا فقد تبلورت مطالب المعارضة التى تمركزت فى عدن ، وشرعت فى تنظيم عملها ودراسة أسلوب نقدها لحكومة الإمام بدون أن تمس الإمام نفسه شخصيًا .

ولم يقف دعاة الحكومة الإمامية ساكتين أمام المقالات النقدية التى كانت تنشرها « فتاة الجزيرة » فانبروا للدفاع عنها فى مقالات نُشرت فى نفس الجريدة ... فكتب من يدعى « عبد ربه » بعنوان « تعز اليوم غير تعز الأمس » ، مؤكدًا أن ولىّ العهد « أحمد » قد استطاع – على حد قوله – بسلامة فطرته « أن ينظم قوانين مدنية شعبية

---

(١) سلطان بن ناجى : فتاة الجزيرة ، ص ٨ – منشورات مجلة دراسات الخليج والجزيرة العربية التى تصدر عن جامعة الكويت .

على أحسن أسلوب وأحدث طراز ، كفلت الحقوق وأراحت الناس ، وخففت عن الغوغاء ... وفى مقال آخر كتب نفس الكاتب :

« إن إدارة القضاء فى تعز قد حازت القدح الأعلى ، فولى العهد بعدُ العُدَّة بعد والده فى إحاطته بالتشريع الإسلامى ، فتراه يستعرض ما دق وجل من الأحكام بنفسه » .

وفى مقال آخر رد على دعاوى المعارضين بفساد التعليم فى اليمن فقال :

« كما يجب الملاحظة الدقيقة والعناية الكاملة بأن يكون الطلاب بعيدين عن النظر فى كتب الملحدين والزنادقة المبشرين ، ويحذرون – ويراقبون فى مجالهم – عن مطالعات الروايات المُفسدة للأخلاق ، والصحف المستهجنة »[1] . وانضم كثيرون إلى جماعة أنصار الإمام وحكومته ، ولم تخرج ردودهم على دعاوى المعارضين عن شقشقات كلامية ، وتوجيه اتهامات شخصية ، ودفاع عن الحكومة الإمامية بدون دليل ملموس عملى ... من ذلك ما كتبه من أسْمَى نفسه « عبد الله بن الرحمٰن اليمانى » ونشر فى نفس الجريدة :

« نقول لدماج : إن العمى الذى رَمَى به الأمة ليس بموجود إلا في قلبه فقط ، ففى عاصمة البلاد صنعاء ، وفى حوث ، وفى صعدة ، وفى ذمار ، وفى زبيد ، وفى بيت الفقيه ، مدارس عاليات ، وقَلَّ أَنْ تظفر بقرية لا يعلم فيها التعليم الابتدائى ... وإنى لأعرف مراد دماج ومَنْ على شاكِلته ، إنه يريد العلم الغربى ، فمن معانيه الحرية ، ومن معانى الحرية تبرج النساء واختلاط الجنسين ، ودراسة عملية بين أحضان الفتيات ، وتحت أقدام الحِسان »[2] .

ومن الواضح أن تلك المقالات التى تصَدَّى بها للمعارضة ، مؤيدو الحركة الإمامية ، وبعض مقالات المعارضين ، قد خرجت عن نطاق الجدل السياسى النافع إلى السباب والتجريح ، حتى لقد علق محرر الجريدة ، في العدد الصادر في ٦ أغسطس سنة ١٩٤٤ على هذا اللون من الجدل العقيم بقوله : « نرجو من أصدقائنا اليمانيين أن يتجنبوا السباب في الكتابة » .

---

(١) سلطان بن ناجى المرجع السابق ص ٩ .

(٢) سلطان بن ناجى (المرجع السابق) ص ١٠ .

وتابعت المعارضة نقدها لحكومة الإمام بحدة أكثر ... بل وجهت – وربما لأول مرة – هجومًا مباشرًا لنظام الحكم الإمامى :

« حل الدمار والفناء بأوروبا من جراء هذه الحرب الطاحنة (الحرب العالمية الثانية) ... أما اليمن فقد حل بها الفناء والخراب والشتات ، وضربت على أهلها العزلة والمسكنة ، لا عن ويلات الحرب ... بل من ويلات وغرور مَنْ على البلاد » [١] .

وكانت تلك – كما قلنا – أول مرة تتكلم المعارضة فيها بصراحة عن فساد حكم الإمام ، وهى التى تحاشت أن تمس الإمامة من قبل بنقد مباشر صريح ... وتوالى نشر أمثال هذا الهجوم .. ومن عجب أن يتوقف أنصار الحكومة عن الرد على انتقادات المعارضة .. ولم تعد جريدة « فتاة الجزيرة » تتلقى مقالات لأنصار الحكم الإمامى ... بل على العكس ، توالت المقالات الانتقادية المعارضة للحكم الإمامى تُلقى أضواءً كاشفه على ألوان الحياة التعسة فى اليمن ، وفساد الإدارة ، وسوء حالة التعليم ، وعدم الاهتمام بالجيش اليمنى ... فكتب من يدعى « فتى الفليحى » مقالا بعنوان « هل فى اليمن مدارس حديثة للتعليم ؟ » [٢] . أكد فيه أن « التعليم الصحيح مفقود فى اليمن ، والمدارس الموجودة ضئيلة ، وأن ما يُسمى « بوزارة المعارف » تحت سيف الإسلام عبد الله ، وزارة صورية ، وأن الشبان اليمانيين العائدين من العراق شردتهم السلطة الحاكمة كل ممزق ، مما اضطر بعضهم إلى أن يغادروا اليمن إلى مصر ، كالأستاذ أحمد حورش ، والأستاذ محيى الدين العنسى » .

وتكلم بتفصيل أكثر عن حالة المدارس فى صنعاء وقال : إنها لا تعدو أن تكون أربع مدارس ، يقول جلالة الإمام إنه ينفق عليها من جيبه الخاص ... والدروس المقررة بها عقيمة ، وأهم ما يدرس فيها هو القرآن الكريم ، والخط العربى ... وذكر ما حدث للمدرسة الثانوية ، فبعد أن كانت أحوالها تسير فى الطريق التربوى المأمول تحت إدارة ، أحمد الحورش الذى عدل مناهجها لتساير المناهج الحديثة ، ودبر الخطة مع زملائه المدرسين لتكون الدراسة حسب الأصول الحديثة ، مع بث الروح القومية فى التلاميذ ، وتحبيبهم فى الثقافة والعلم والمطالعة ، بعد هذا كله شعرت وزارة المعارف بالقلق ،

---

(١) سلطان بن ناجى (المرجع السابق) ص ١١ .

(٢) سلطان بن ناجى (المرجع السابق) ص ١١ .

وشددت الرقابة على المدرسة وما يُلقى بها عن دروس ، ومنعت المحاضرات ، وأغلقت غرف المطالعة ... « وانتهى الأمر بالمدرسة إلى أن غدت كتّابا صغيرًا ولم يبق لها إلا اسمها » [١] .

وامتدت أقلام النقد الشديدة إلى حالة الجيش ، فكتب عقيل بن عثمان مُقارنًا حالة لواء تعز أيام الاحتلال العثمانى وأيام الحكم المتوكلى ، ليثبت بالأرقام أن الحالة أصبحت أسوأ بكثير تحت حكم الإمام .

وفي آخر ذلك العام تغيّر أسلوب المعارضة تغيّرًا له مدلوله السياسى الكبير ، وهو أسلوب مخاطبة الإمام يحيى نفسه عن طريق المذكرات ، وقد نشرت جريدة « فتاة الجزيرة » في أول بادرة من هذه المبادرات السياسية ما يشير إلى أن أعضاء حزب الأحرار اليمنى قدموا مذكرة لجلالة الإمام يحيى تشتمل على مطالب مختلفة غايتها إصلاح اليمن ... وذكرت أن الإمام أجاب بأنه يستحسن كلّ ماعرضوه عليه ، وقال إنه لن يخالف شريعة الله سبحانه وتعالى ، ووعد بما يأتى :

١ – توسيع نطاق التعليم .

٢ – منح الأهالى حرية القول .

٣ – السماح للأهالى بعقد الاجتماعات .

ولم يكن هناك أى دليل عملى على أن الإمام وعد بشىء كهذا ، أو أصدر بشأنه قرارات عملية . ولا يدرى أحد إنْ ما نشرته الجريدة عن تلك الوعود مجرد تصريحات صدرت عن بعض أنصار الحكومة الإمامية أم أنها كانت من بين الوعود الكثيرة التى بذلها الأمير أحمد بن الإمام ، وهو المرشح لولاية العهد ، والذى ستدور حول أحقيته في تلك الولاية أخطر ألوان الصراعات في اليمن ، سيُودِى في النهاية بحياة الإمام يحيى نفسه .

كان عام ١٩٤٥ م ، عاد جمود بالنسبة لنشاط المعارضين بسبب ما حل بحركة الأحرار من انشقاق ، وكان من الواضح أن حكومة عدن ليست راضية عن حركة المعارضة ، واشترطت لإقامتهم في عدن ألّا يشتغلوا بالسياسة ، مع اعتبارهم لاجئين

---

(١) سلطان بن ناجى : المرجع السابق ، ص ١٢ .

سياسيين . « ويقول رئيس تحرير جريدة الفتاة » : « ... ناداني صاحب السعادة ، حاكم عدن وسألني إنْ كنت أضمن المهاجرين ، فضمنتُ استقامتهم وحالتهم المالية » [1] .

ويثور هنا السؤال عن مدى علاقة بريطانيا – عن طريق حاكم عدن – بالحركة الوطنية اليمنية المتزايدة النشاط ، وليس بين يدينا ما يشير إلى هذه العلاقة بوضوح بالنفي أو بالإيجاب ، سواء ماجاء على لسان بعض هؤلاء الوطنيين ، في الندوة التي عُقدت في الفترة الواقعة ما بين ١٨ و ١٩٧٩/٢/٢٥ ، بمناسبة الذكرى الواحدة والثلاثين لقيام حركة ١٩٤٨ [*] .

فقد ذكر علي ناصر العنسي أن هذه الإشاعة غير صحيحة مطلقًا ، وحتى لو فرضنا أن أحد الأحرار قام بالاتصال بوالي عدن ، فهذا لا يعني صدق هذا الإشاعة ، لأنه كان لاجئًا سياسيًّا في عدن ، وكان يمارس نشاطه فيها ، وليس هناك ما يمنعه من الاتصال به بحكم طبيعة نشاطه [2] .

وذكر أحمد المروني :

« أعتقد أن الذين يروجون هذا الكلام هم أقلية ... وأنا أعتقد أنه لو كان للإنجليز ضلع في ثورة ١٩٤٨ لما وقفوا يتفرجون عليها وهي تُوأَدُ في مهدها » [3] .

وذكر أحمد جابر عفيف في نفس الندوة المشار إليها من قبل :

« إن اليمن كانت في عهد الإمام شبه مستعمرة للإنجليز من الناحية الاقتصادية ، حيث أن كل شيء يصل إلى الشمال كان من عدن ، وكان الإنجليز هم [المستفادين] من الحكم الإمامي في اليمن بالدرجة الأولى ، فلا يعقل أن يضحُّوا بذلك على حساب مصالح مجهولة » [4] .

---

(١) سلطان ناجي ، المرجع السابق ، ص ١٧ .

(*) شارك في هذه الندوة مجموعة من المثقفين ومنْ معايشي الحركة وبعض رجالاتها .

(٢) ثورة ١٩٤٨ : الميلاد والمسيرة والمؤثرات إعداد مركز الدراسات والبحوث ، اليمن ص ٤٣ .

(٣) المرجع السابق ، ص ٤٣١ .

(٤) المرجع السابق ، ص ٤٣١ .

إنشاء جريدة أسبوعية يُطلق عليها « صوت اليمن » ، مهمتها التعبير عن أغراض الجمعية [(١)] وقد وضع سيف الإسلام إبراهيم - الذى هرب إلى عدن عام ١٩٤٦ - على رأس الجمعية بعد أن لُقب بسيف الحق ، ومن المحزن أن يقع الشقاق داخل حزب الأحرار عصب الجمعية وأساسها ، بسبب التبرعات التى أمد الجمعية بها عدد كبير من اليمانيين واليمانيات ، وبلغ قدرها حوالى ثلاثة آلاف روبية ، وطالب بعض الأعضاء بأن يكون لهم نصيب من هذا المال ، ووقع الخلاف ، مما أدى إلى عودة بعض أعضاء الجمعية إلى تعز ، حيث استُقبل هؤلاء المنشقون عن « الأحرار » بترحيب شديد من ولى العهد ، الذى منحهم على الفور الوظائف والمرتبات الشهرية .

ومما لا ريب فيه أن أنصار الإمام لعبوا دورًا بالغ الأثر في إحداث هذا الانشقاق فى الحزب ... سواء بالإساءة إلى سمعة البعض ورميهم بالإلحاد والكفر ، أو بالتسلل إلى جلسات الحزب ، حتى السرية منها .

وبرغم هذا التفكك والتفسخ فى الحزب الوليد « الأحرار » الذى أضعفته الأغراض الشخصية من ناحية ، وشائعات جواسيس الإمام ، وتوجس حكومة عدن من نشاطه المناوىء للإمامة من ناحية أخرى ، فإن الحزب أخطأ حين أساء توقيت إصدار برنامجه ... فقد كان صدور ذلك البرنامج ضربة شديدة وجهت إلى نشاطه الذى ارتابت فيه حكومة عدن من البداية ، فشددت الخناق على رجال الحزب ، وهددت بإغلاق صحيفة « فتاة الجزيرة » ومطبعتها بسبب نشرها لهذا البرنامج [(٢)] . وعلى إثر تسليم الإمام يحيى مطالب الحزب ، أبرق إلى أحمد نعمان والزبيرى يدعوهما إلى زيارة صنعاء ، وهو الأمر الذى لم يكونا على استعداد لتلبيته خوفاً مما قد ينتظرهما فى صنعاء من عقاب ، أقله السجن .

وبعد أن تدارس أعضاء الحزب الأمر مدارسات طويلة قرروا إرسال مذكرة مفصلة إلى الإمام تشرح فيه الجمعية اليمنية الكبرى - التى تأسست - آمالها فى الإصلاح المنشود فى اليمن ، مطالبين بحكم ديمقراطى ونظام ضرائبى غير جائر ، وإدارة مستنيرة ،

---

(١) ثورة ١٩٤٨ : إعداد مركز الدراسات والبحوث ، اليمن ص ٥٤٣ .

(٢) سلطان ناجى : دور جريدة فتاة الجزيرة فى إحداث عام ١٩٤٨ ، منشورات مجلة دراسات الخليج والجزيرة العربية التى تصدر عن جامعة الكويت ص ١٩ .

ومنددين باحتكار أولاد الإمام الحكم فى الألوية والوزارات ، ومزاولتهم التجارة فيما يشبه الاحتكار ...

ولم يكن لهذه المذكرة أى صدى ، وأهملها الإمام إهمالاً تامًا ، ولا ريب أن جواسيسه قد نقلوا إليه تردِّى حال الحزب ، وتخبط القائمين عليه ، وفشلهم حتى فى استعداء حاكم عدن على الإمام ، بعد أن اختلفوا حول الرأى القائل بطلب أسلحة من المعتمد البريطانى لمحمية عدن للهجوم على المنطقة الجنوبية من اليمن وسلخها عن الحكومة الإمامية .. وهو أمر يعزز اعتقادنا بعدم وجود علاقة مشبوهة بين أحرار اليمن وحاكم عدن . وكان لسوء حالة الحزب المالية وانقطاع موارده وتقاعس المتبرعين والمتبرعات عن إمداده بما كان فى حاجة إليه من مال ، سواء لإعاشة أعضائه أو للنفقات الضرورية التى يتطلبها أى عمل سياسى ، كان لسوء هذه الحالة المالية أثره الحاسم فى تفسخ الحزب ، ووقوع الفرقة الشديدة بين زملاء الأمس ، واشتدت الأزمة المالية ببعضهم إلى حد قبول العمل فى التدريس بمرتبات بالغة الضآلة .. واضطر البعض الآخر إلى نفض أيديهم من الحركة الوطنية والعودة إلى اليمن .

ولكن الحركة انتعشت من جديد مع بداية عام ١٩٤٦ ، وصارت الجمعية اليمنية الكبرى – بعد أن احتلت مكان حزب الأحرار – هى المعبرة عن آمال الشعب اليمنى ، ومما لاشك فيه أنه كان للسلطات البريطانية فى عدن يدٌ فى ذلك البعث ، ويبدو أن أعضاء الحزب ، استمعوا إلى نصيحة سرية من المعتمد البريطانى بتحويل حزب الأحرار إلى جمعية ، يمارس أعضاؤها نشاطهم السياسى من خلالها ضد الإمامة ، باعتبار أن أمثال هذه الجمعيات – وليست الأحزاب السياسية – هى القنوات المسموح لها بممارسة النشاط السياسى فى المحمية .

وتأسست لممارسة هذا النشاط صحيفة خاصة بالجمعية حملت اسم « صوت اليمن » لصاحبها القاضى محمد محمود الزبيرى ، واشترك فى تحريرها أحمد محمد نعمان ، وشرعت الصحيفة الجديدة مع صحيفة فتاة الجزيرة فى نشر المقالات الشديدة النقد لحكومة الإمام ، مما دفع أنصار الإمام – وعلى وجه الخصوص ابنه سيف الإسلام عبد الله ، وولى العهد الأمير أحمد – إلى التصدى لهذه المقالات ، محاولين التقليل من شأن حركة الأحرار ومطالبها ... ومما تجدر الإشارة إليه أن تلك المطالب وبنودًا أخرى كثيرة متباينة ، لم يُحسن القائمون كتابتها وتبويبها وتصنيفها تحت أبواب محددة

واضحة على أنه كيفما كان سوء عرض هذه البنود فإنها عبرت عن رغبة الجمعية اليمنية اليمنية فى إجراء إصلاحات جذرية فى نظام الحكم الإمامى ، مما يتيح للشعب اليمنى أن يحكم نفسه حسب نظم الحكم فى البلاد المتقدمة سياسيًا واجتماعيًا واقتصاديًا ، حتى يخرج اليمن من الحالة الاجتماعية المتردية تحت حكم الإمام يحيى .

ويتبين من تحليل الوثائق المتوفرة المجسدة لمطالب الأحرار اليمنيين أنهم استمروا فى الاعتقاد بصلاحية النظام الملكى كشكل أكثر ملاءمة للحكم ، وأرجعوا ماتعانيه البلاد من تخلف وعزلة وفقر إلى طبيعة الحكم الاستبدادى لسلالة بيت حميد الدين الملكية ، وبخاصة الإمام يحيى ، الذى خرج نهجه السياسى الداخلى – من وجهة نظرهم – عن أصول قواعد الشريعه الإسلامية .

واعتقد هؤلاء الأحرار اليمنيون بإمكانية حل كل التناقضات فى اليمن عن طريق الإصلاحات ، فدافعوا عن وجهة نظرهم فى سلطة قوية للإمام ، محصورة إلى حد ما – بمجلس دستورى – هو مجلس الشورى الذى يمكن أن يضم رجال الدين ، ومشايخ القبائل ، وممثلى الأسر الكبيرة .

وهكذا لم يرتفع هؤلاء الأحرار « كما يقول المحللون » إلى مستوى فهم الأسباب الحقيقية للتناقضات الاجتماعية ، فانحصروا في نطاق المطالب السنوية التى أعلنوها بدقة متناهية ، مثل ضرورة النضال ضد الرشوة ، ومراعاة الشرعية عند تحصيل الضرائب ، وإنهاء التفرقة بالنسبة للشافعيين ، وإلغاء نظام الالتزام الذى يعود إلى القرون الوسطى ، والكامن في أساس نظام الوصايا في اليمن المتوكلية ، كما طالب الأحرار اليمنيون بتحسين أوضاع الجيش اليمنى ، وإلغاء احتكار كبار التجار الذى كان الإمام يحيى يؤيده بحكم قربهم من أسرة حميد الدين ، والحد من القيود والاستبداد الداخلى ، وإعداد ميزانية للدولة [(١)] .

وكان مطلب « قيام مجلس استشارى » وحكومة من الشعب وإقصاء أفراد الأسرة عن المناصب الحكومية من أهم المطالب والأهداف التى أعلنوها ، وتضمن هذا كله « الميثاق الوطنى المقدس » الذى نشرته قيادة الجمعية اليمنية الكبرى عام ١٩٤٨ م ،

---

(١) أوليغ جيرا ، سيمون شيوسون : الثورة اليمنية : قضايا وآراء ص ٦٢ .

بعد أن تم اندماجُ أهم قوتين معارضتين ، هما الأحرار اليمنيون ، وآل الوزير عام ١٩٤٦ م [١] .

ويبدو من خلال تتبع الأحداث أن التعاون لم يكن تامًا بين الجهات المختلفة المعارضة ، ففى الفترة التى ظهر فيها التجمع الوطنى كانت هناك مجموعة أخرى تحاول تنظيم نفسها ، وقُدِّرَ لها أن تحرز نجاحًا أكبر .

جمعية الإصلاح :

هى تنظيم وطنى « سرى » ظهر في آب ، قام به القاضى محمد بن على بن حسين الأكوع الذى ترأس هذه الجمعية ، وكان من أعضائها القاضى عبد الرحمٰن الإيريانى ، والقاضى عبد الكريم بن أحمد العنس ، وعبد الرحمٰن بن محمد بسلامة ، وحمد أحمد صبرة ، والشيخ حسين الدعيسى ، وغيرهم .

وضعت « جمعية الإصلاح » نظامًا لها وأرسلته « على شكل مسودة » إلى القاضى محمود الزبيرى في عدن ، فقام بالتعليق عليه وتوسيعه وسماه « برنامج الإصلاح » ، ثم طبعه وأرسل منه نسخًا إلى القاضى محمد الأكوع رئيس الجمعية .

لم تخرج أهداف هذه الجمعية عن الأفق العام للحركة الوطنية في غالبية تنظيماتها ، إذ كان أعضاؤها يرون أن السبيل لخلاص اليمن من مشاكلها يكمن في إزالة حكم الإمام يحيى وأبنائه ، وقد ركزت الجمعية حملتها ضد سيف الإسلام الحسن حاكم لواء اب ، ونددت بأعماله ، مما دعا الإمام يحيى إلى استدعائه إلى صنعاء وتجميده ، ووصفه بالموج والبلاهة [٢] .

هكذا اتسم نشاط الحركة الوطنية اليمنية في عهد الإمام يحيى بالمراهقة السياسية ، وهى سمة مشتركة في سائر الحركات المعاصرة لها في العالم العربى . ومن أهم مظاهر

---

(١) لى دوجلاس – الإعلان الكاذب عن وفاة الإمام يحيى ، من وثائق مركز الدراسات والبحوث اليمنى ، ص ٢٥٢ .

(٢) ثورة ١٩٤٨ م الميلاد والمسيرة : مركز الدراسات والبحوث اليمنية ص ٣٦ – ٣٧ .

هذه المراهقة افتقارها إلى الوحدة الوطنية وتشرذمها إلى تيارات يتسم بعضها بالاعتدال والآخر بالتطرف ، ناهيك عمّا شجر بينها من خلاف وشقاق جعل الإمامة قادرة على اختراق أطرافها التنظيمية .

ولعل من أهم أسباب فشلها محاصرتها في الداخل بحكم الإمامة المتسلط ، وعجزها عن إذكاء الوعى السياسى بين جماهير تفشت بينها الأمية ، والولاء القبلى ، والصراع المذهبى ، ناهيك عن محاصرتها من الخارج بقوى أجنبية استعمارية ، عولت على دعم نفوذها في المنطقة على حساب الإمامة ، دون أن يُتَاح للحركة الوطنية تطوير نضالها السياسى .

* * *

خاتمة :

اتسم حكم الإمام يحيى بن محمد حميد الدين لليمن الذى دام أكثر من أربعة وأربعين عامًا بالجمود ، نتيجة لسياسة الإفقار والتجويع ، والعزلة التى فرضها الإمام على البلاد .

وعلى الرغم من أن ذلك يكفى دافعًا قويًا للثورة وإنبات بذور المعارضة ، فإن العامل الدينى المتمثل في التزام عامة الشعب اليمنى بفروض الطاعة والولاء تمسكاً بمبدأ إطاعة أولى الأمر ، وما مرت به البلاد من حروب مع العثمانيين ، والأمير على بن محمد الإدريسى أمير عسير تارة أخرى ، والاعتقاد بأن الفترة من ١٩٣٥ م وما بعدها سيتم فيها التغيير وإجراء الإصلاحات ، كل ذلك أدى إلى تأخر ظهور أصوات المعارضة حتى منتصف العقد الثالث من القرن العشرين ، عندما ضاقت الصدور بما اتبعه الإمام من احتفاظه بمجموعات من أبناء القبائل في مقره كرهائن لضمان ولاء ذويهم ، وانتشار التجسس والاستخبارات ، وتغيير نظام الحكم في اليمن من الإمامة إلى النظام الملكى ، وتعيين ابنه أحمد وليًا للعهد ، واستيلاء الإنجليز على محمية الضالع ، وأخيرًا هزيمته في الحرب السعودية اليمنية ، وتوقيع معاهدة الطائف التى تنازل بموجبها عن منطقتى عسير ونجران اليمنيتين – كل هذه العوامل ساعدت على تزايد النقمة الشعبية على حكم الإمام ، وبدأت المعارضه الوطنية في صورة معارضه قبلية مهدت لظهور المعارضة كحركة منظمة وشبه مترابطة سَعَتْ إلى كونها حركة وطنية تسعى إلى تحقيق مصلحة وطنيةُ عليا وتُمثل ضمير الأمة ، ساعد على ذلك اعتماد المعارضة على الشعور الدينى وربطه بالناحية الوطنية ، وسارت المعارضة نحو عدة مسارات :

أولاً : اتجاه نحو حياة متطورة متحررة من قيود الزيدية والحكم المطلق ، على أن يكون ذلك في إطار الروح الإسلامية الصحيحة .

ثانيًا : المطالبة بإصلاح يرتبط بإحياء الدعوة الزيدية وإمامتها ، وكثرة التجمعات الوطنية ، فكانت هيئة النضال ، والأحرار اليمنيين ، وجمعية الإصلاح ، وتباينت السبل ، فمن معارضة تشبه الزفرات غير المرئية ، إلى معارضة تبرز في صورة مقالات منشورة ، ثم إلى مخاطبة الإمام يحيى نفسه عن طريق مذكرات . كما تعددت المطالب والأهداف ولو أن التجمعات الوطنية جميعها التفت حول مطالب وأهداف عامة استمدت منها الثورة اليمنية ثقتها .

ثالثاً : ومن عواملها الإيجابية أنها دعت إلى تكثيف أعضائها ، فلقد حددوا أهدافهم الإصلاحية بوضوح ، وللأمانة التاريخية لم يكن معظم القائمين عليها من أنصار العنف .

رابعًا : كان من أهداف الحركة وحدة الشعب اليمنى وخاصة أن الجنوب كان يرزح تحت الحكم البريطانى ، فى حين انشغل الشعب بمشاكل مذهبية وقبلية ، وهى من المشاكل التى كان يهتم بها ويرعاها الإمام على اعتقاد أنها حكمه .

خامسًا : المطالبة بدستور عصرى مُستمد من الشريعة الإسلامية ، ليكون قيدًا على سلطات الإمام المطلقة ، برغم عدم تبلور الجانب الاجتماعى .

ومن سلبيات الحركة :

أولًا : أنها جعلت مقر حركتها ونشاطها في مدينة عدن ، مستغلة النسبة المتاحة من الحرية ، مما أبعدها عن الاحتكاك بكوادر الشعب اليمنى في الشمال .

ثانيًا : كان للجانب الدينى الذى يمثله الإمام أكبر الأثر فى عدم مواجهة أعماله وتصرفاته ، باعتباره رأس المذهب الزيدى .

ثالثًا : إن الحركة لم تستفد من عوامل الدعاية ، وخاصة داخل اليمن ، وهذا راجع إلى سوء الحالة التعليمية في البلاد .

وختامًا :

كانت هذه التفاعلات الوطنية التى قادها أفرادٌ ، معظمهم من مثقفى الطبقة الوسطى ، النواة الأولى التى كان من ثمارها بذور الثورة الكبرى ، ونجحت نجاحًا محدودًا ، فثورة ١٩٤٨ م قد استمرت في النمو إلى أن تحقق التفاف الشعب بكل فئاته حول هذه النواة الثورية ، مما كان له الأثر الأقوى في نجاح ثورة اليمن التي قامت فى سنة ١٩٦٢ م ، وصمودها النهائىّ أمام محاولات حكم الإمام إرجاع سلطاته بكل الوسائل ، عندما انسحبت القوات المصرية من اليمن .

لقد كانت الحركة الوطنية في اليمن مثالاً حيًّا لصلابة النضال في أقسى الظروف ، وكانت درسًا واضحًا ، واتسمت بأسباب نجاح الثورة الرئيسية ، وهى أن الثورة لا يمكن أن تنجح إلّا إذا كانت من صُنع الشعب نفسه الذى يعانى الفقر والحرمان والإرهاب .

المراجع

المراجع العربية :

١ – أحمد بن محمد بن عبد الله الوزير : حياة الأمير على بن الوزير ، الطبعة الأولى ١٩٨٧ ، منشورات العصر الحديث .

٢ – أحمد حسين شرف الدين : اليمن عبر التاريخ ، القاهرة ١٩٦٤ .

٣ – أحمد قائد الصايدى : حركة المعارضة اليمنية . دار الآداب ، بيروت سنة ١٩٨٣ .

٤ – إدجار أوبلانس : الحرب في اليمن ترجمة الدكتور عبد الخالق محمد لاشين ، الدوحة ١٩٨٥ .

٥ – السيد مصطفى سالم : تكوين اليمن الحديث ، القاهرة – معهد الدراسات العربية العالية ، ١٩٦٣ .

٦ – سلطان ناجى : (أ) التاريخ العسكرى لليمن .

(ب) فتاة الجزيرة ، العدد ٣٢٩ ، ٧ يونيو ١٩٤٧ .

قحطان الشعبى : منشورات مجلة دراسات الخليج والجزيرة العربية ، جامعة الكويت .

٧ – عبد الكريم الجرافى : المقتطف من تاريخ اليمن ، القاهرة ١٩٥١ .

٨ – عبد الله أحمد الثور : (أ) ثورة اليمن ١٩٦٨ .

(ب) هذه هى اليمن مطبعة المدنى ١٩٦٩ .

٩ – تزيس ادنان : اليمن وحضارة العرب ، بيروت ١٩٦٣ .

١٠ – نزيه مؤيد العظم : رحلة في بلاد العربية السعيدة ، مطبعة الحلبى ١٩٣٧ ، جزءان .

١١ – محمود كامل المحامى : اليمن شماله وجنوبه ، دار بيروت للطباعة والنشر ١٩٦٨

١٢ – مركز الدراسات والبحوث اليمنى « الجمهورية اليمنية ، ثورة ١٩٤٨ ، الميلاد والمسيرة والمؤثرات .

١٣ - قحطان الشعبي : الاستعمار البريطاني ومعركتنا العربية في جنوب عدن والإمارات - القاهرة ، النصر ١٩٦٢ .
١٤ - هلفرتيز : اليمن من الباب الخلفي ، ترجمة خيري حماد ، بيروت ، المكتب التجاري ١٩٦١ .

ثانيًا - المراجع الأجنبية :

1- SIR BERNARD REILLY: Aden and the yemen London, Colonial office, 1960
2- Ingrams H:- The yemen : Imam and revo Lutions. London, John murray, 1962
3- Wenner, Manfred :- Modern Yemen 1918-1966 Baltimore, The Johns Hopkins Prcss, New York 1967.

ثالثًا - الدوريات :

أولاً - الدوريات العربية :

فتوح الخترش : العلاقات اليمنية البريطانية في عهد الإمام يحيى بن حميد الدين ، مجلة دراسات الخليج والجزيرة العربية العدد ٢١ ، جامعة الكويت .

ثانياً - الدوريات الأجنبية :

1- Aden :
Journal of the Central Asian Society, Vol, XIII Part III July 1926.
2- Basi L W. Seager :-
The Yemen, Journal of the Royol
Central Asian Society XLll.
3- PHILBY, H. ST John :-
The Landof sheba, Geoghraphical Journal Xcll July & Angust
4- Wil iam ROBERT Son:-
Yemen Journey. The Royal Scotlish Geographical
Society VOL. 58-59, part T

رابعًا - وثائق أجنبية غير منشورة :

Public RECORDS office :-
Fo 406 - 75

* * *

تطور العلاقات المصرية السعودية
في ضوء حرب أكتوبر ١٩٧٣
(أكتوبر ٧٣ ـ مارس ١٩٧٤)

دكتور
عاصم محروس عبد المطلب
أستاذ مساعد التاريخ الحديث والمعاصر
كلية التربية ـ دمنهور ـ جامعة الإسكندرية

تطور العلاقات المصرية السعودية فى ضوء حرب أكتوبر ١٩٧٣
(أكتوبر ٧٣ - مارس ١٩٧٤)

تمهيـــد

تُعَدُّ حرب أكتوبر العسكرية وما صاحبها ولاحقها من أحداث سياسة بكل المقاييس من الأحداث الهامة المعاصرة ، التى كان لها تأثيرها الفعال فى مجرى الأحداث فى المنطقة العربية .

ويعتبر من المتغيرات البارزة فى حرب أكتوبر التضامن العربى بصورة لم تعهدها الدول العربية فى الجولات العسكرية الإسرائيلية - العربية السابقة .

ومن أبرز جوانب هذا المتغير ، هو اللقاء المصرى السعودى فى هذه الحرب بصورة جعلت العلاقات المصرية السعودية فى هذه الفترة من أبرز المتغيرات التى أثرت فى أحداث هذه المنطقة العربية بشكل واضح .

ولعل ماكُتب عن هذه الحرب - إلى جانب اللقاءات الشخصية التى قمتُ بها مع بعض المشاركين فى الأحداث ، ودوريات هذه الفترة التاريخية ، بالإضافة إلى بعض الوثائق والتقارير المنشورة عن أحداث سابقة ولاحقة عن حرب أكتوبر ، والتى لم تكشف الوثائق عنها بعد - قد يبرز ما للعلاقات المصرية السعودية وتطورها فى هذه الفترة من أهمية فى هذا الصدد .

وفى هذا الصدد أتوجه بالشكر للأستاذ الدكتور / مصطفى خليل رئيس الوزراء المصرى السابق ، والدكتور محمد عبد القادر حاتم ، نائب رئيس الوزراء آن ذاك ، والمشير محمد عبد الغنى الجمسى ، رئيس أركان القوات المسلحة فى هذه الفترة ، فقد كان للقائى معهم أثر كبير فى تأكيد بعض الأحداث التاريخية الهامة التى شاركوا فيها .

وفى هذه الدراسة ، لن نتعرض للبترول وأثره إلا بالقدر الذى يوضح دور المملكة العربية السعودية فى حرب أكتوبر ، سواء فى أثناء المعارك العسكرية ، أو بعد وقف إطلاق النار .

مقـدمـة

كانت السمة السائدة فى العالم العربى بصفة عامة هى الشقاق والشك ، أو رفع شعارات الإخوة والتضامن ، والوحدة والاتحاد ، دون مضمون حقيقى ، فكان أهم ما يميز العرب لأكثر من ربع قرن من الزمان ، هو غياب خطة جادة ضد إسرائيل [١] . فلم يكن هناك فى وقت من الأوقات منذ عام ١٩٤٨ ، خطة عربية مشتركة ، أو خطط للتعاون العسكرى بين الدول العربية فى صراعها المسلح ضد إسرائيل [٢] .

لكن عندما خلصت النوايا بدرجة ما ، كتب التاريخ صفحةً مُغايرة لهذا العالم فى أكتوبر ١٩٧٣ ، أكدت أن إمكانيات العالم العربى غير محدودة ، وهو قادر على حُسن استخدامها إذا خلصت إرادته لتحقيق أهدافه القومية ، وأن يكون له كينونة بين قوى العالم التى اختفت بينها الكيانات الصغيرة .

لقد أحدثت حرب أكتوبر ١٩٧٣ ، بين مصر وسوريا من جانب ، وإسرائيل من جانب آخر ، هذا المتغير الذى أحدث درجة من التماسك العربى ، كان لها أثرها الكبير فى معركة أكتوبر السياسية التى أعقبت المعارك العسكرية .

وإذا كان ذلك هو الإطار العام لما أحدثته هذه الحرب فى العالم العربى ، فإن هذه الدراسة ستكتفى بعرض التضامن بين مصر والمملكة العربية السعودية فى ضوء حرب أكتوبر (أكتوبر ١٩٧٣ - مارس ١٩٧٤) .

تطور العلاقات المصرية السعودية :

ليس الهدف استعراض العلاقات المصرية السعودية قبل أكتوبر ١٩٧٣ ، فالمساحة الزمنية ليست بالقصيرة ، وتحتاج إلى دراسات متعددة .. ولكن الهدف بهذا

---

(١) Syzliowicz, S. Joseph, Bard E. Oneill, the energy crisis and U.S. Foreign-policy, P.100.

(٢) محمد عبد الغنى الجمسى ، مذكرات الجمسى - حرب أكتوبر ١٩٧٣ ، ص ٨٢ ، ٨٣ .

التمهيد هو إبراز أهمية تطور العلاقات المصرية السعودية إبّان معركة أكتوبر بأبعادها المختلفة ، فلم تشهد هذه العلاقات فيما قبل أكتوبر ١٩٧٣ - فى جولات الصراع العربى الإسرائيلى - تنسيقًا وتكاملاً مثلما حدث فى الجولة الرابعة من هذا الصراع .

لقد زار اللواء محمد نجيب المملكة العربية السعودية ، وبعد مراسم الحج تقابل مع الملك عبد العزيز الذى أعرب عن سعادته بهذه الزيارة ، مؤكدًا استعداده لتأييد مصر فى كفاحها بكل ما يملك (١) . وعندما جاء الملك سعود إلى مصر عام ١٩٥٤ أكد تأييده التام لمطالب مصر بجلاء الإنجليز (٢) ، بل وبذل جهد طاقته لحسم الخلاف بين أعضاء مجلس الثورة (٣) ، ولكن الأمور فى مصر تطورت بالشكل المعروف ، واستقال محمد نجيب ، وتولى السلطة جمال عبد الناصر لتبدأ صفحة جديدة فى العلاقات المصرية السعودية .

لقد بدأت العلاقة بين الرجلين - جمال عبد الناصر ، والملك سعود - بصورة جيدة ، والتقى الرئيس المصرى بالملك عقب أدائه فريضة الحج عام ١٩٥٤ ، وتوسم كلاهما فى الآخر خيرًا ، وأدركا أهمية العلاقات المصرية السعودية ، وتَعَاوَنَ البلدان لعدة سنوات لمواجهة مخططات حلف بغداد ، ومع أن هذه المخططات كانت معبرة عن اتجاهات السياسة الأمريكية ، فإن عداء الملك للهاشميين - دُعاة الحلف - فاق علاقته الخاصة بالولايات المتحدة (٤) .

وعندما أخذت الأحداث تتطور بشكل سريع نحو العدوان الثلاثى على مصر كان جمال عبد الناصر مهتماً بموقف المملكة العربية السعودية ، ولا سيما قد رأى المحاولات الأمريكية للوقيعة بين البلدين ، ولقد أيد الملك سعود مصر فى قرارها بتأميم القناة ، وعندما توالت التهديدات على مصر ، أرسل برقية إلى عبد الناصر عبر فيها عن قلقه وانزعاجه للموقف ، فالأزمة لا تخص مصر فقط ، بل والسعودية كذلك ، وأخبره باتصاله بالأمريكيين للتأثير على بريطانيا وفرنسا (٥) ، بل وأرسل إلى الرئيس

---

(١) إبراهيم المسلم : العلاقات المصرية السعودية ، ص ٣٥ ، ٣٦ .

(٢) نفس المرجع : ص ٤٤ .

(٣) محمد نجيب : كنت رئيساً لمصر ، ص ٢٦٣ ، ٢٦٤ .

(٤) محمد حسنين هيكل : سنوات الغليان ، جـ ١ ، ص ٢٨٨ ، ٢٨٩ .

(٥) وثيقة رقم ١٣٨ من الملك سعود إلى جمال عبد الناصر .. ملفات السويس ص ٨١٩ .

المصرى تقرير وزير خارجيته الأمير فيصل عن اتصالاته بالولايات المتحدة الأمريكية [١] . ثم يلبث أن تلقى عبد الناصر رسالة ملكية فى ٧ سبتمبر ١٩٥٦ ، اقترح فيها سعود القيام بدور الوساطة بين مصر والولايات المتحدة [٢] .

وأحس عبد الناصر بتحول موقف الملك من التأييد إلى الوساطة ، واعتقد أن هذا التحول ربما كان مبعثه المحاولات الأمريكية للإيقاع بين البلدين ، فقرر الرئيس المصرى ضرورة اللقاء المباشر مع سعود ، فكانت زيارته للسعودية فى ٢٢ سبتمبر ١٩٥٦ ، واستنتج عبد الناصر من هذا اللقاء عدة أمور لم تكن موضع ارتياح الملك .

- مفاجأته بقرار تأميم القناة ، وكان الملك يرى وجوب معرفته مسبقاً بالقرار قبل إعلانه « كأخ وصديق » .
- تخوف الملك من خطر التأميم بعد تجربة صدق ، وهو خطر لن يصيب مصر وحدها « لأن ما يصيبها - لا سَمَحَ الله - يصيبنا جميعًا » .
- قد يؤدى تأميم القناة إلى طرح فكرة تأميم البترول العربى فى أذهان الناس ، و « هذا فوق طاقتنا واحتمالنا » .
- إن الملك يشعر أن عملية التأميم - وما صاحبها من التعبئة النفسية فى العالم العربى - قد خلقت لدى العامة والبسطاء من الناس ، جوًّا مشحونًا ، و « هذا مصدر خطر » .
- أن الهجوم على حلف بغداد ، قد امتد إلى دور الهاشميين ، وتجاوز ذلك إلى الملوك جميعًا بدون استثناء أو تمييز ، و « أن الحُكْم السعودى ملكى » والحملة العامة على الملوك تسىء إليه .

وعلى أية حال ، فلقد فند الرئيس المصرى هذه المزاعم ، وأوضح أن الهدف الثابت للولايات المتحدة ، هو الوقيعة بين مصر والسعودية ، واقترح ضرورة التنسيق بين البلدين [٣] .

---

(١) وثيقة رقم ١٤٠ رسالة معلومات من الملك سعود إلى عبد الناصر ... ملفات السويس ص ٨٢١ ، ٨٢٢ .

(٢) وثيقة رقم ١٣٩ - برقية مستعجلة من سعود إلى عبد الناصر ، أرسلها السفير السعودى بالقاهرة للسيد على صبرى فى ٧ سبتمبر ١٩٥٦ ، ملفات السويس ، ص ٨٢٠ ، ٨٢١ .

(٣) محمد حسنين هيكل : ملفات السويس ، ص ٥٠٧ - ٥١٠ ، سنوات الغليان ١٩٦٧ ، ص ٢٨٩ ، ٢٩٠ .

ومهما كان الأمر فالثابت أن مصر وحدها ، قد تحملت الأعباء العسكرية فى معركة العدوان الثلاثى عليها فى أكتوبر ١٩٥٦ (١) . وتحت الضغط العربى ، نُسفت أنابيب البترول من السعودية إلى البحر المتوسط ، وبدأت معظم دول أوروبا الغربية ، تعانى من نقص خطير فى البترول ، وكانت الولايات المتحدة (عن طريق أرامكو) قد حثت الملك سعود على إبقاء التابلاين (خط أنابيب البترول) مفتوحًا من السعودية إلى البحر المتوسط ، بمجرد الوعد بألّا تُزَوِّد البريطانيون والفرنسيون بالبترول (٢) ، وقام الضباط السوريون - بناء على قرار اتحاد التجارة العربى - بتخريب المنشئات البترولية فى خطوط أنابيب البترول ، وفى ليله ٢/٣ نوفمبر تم تدمير ثلاث محطات ضخ على خط الموصل - بانياس (٣) ، وقام عمال البترول فى السعودية والبحرين وقطر والكويت ، بتدمير منشئات الشركات وأنابيب النقل ، مما كشف للشركات عن حقيقة هامة ، وهى أن الحكومات التقليدية ليست وحدها هى العامل المؤثر الذى يمكن الاعتماد عليه (٤) ، ومن الطبيعى أن تمنع السعودية تزويد ناقلات البترول الإنجليزية والفرنسية من موانيها بالبترول ، وهو مازوردت به مصر (٥) .

وبصفة عامة فإن هذه الأحداث البترولية عام ١٩٥٦ ، لم يكن لها تأثير إلا على الدول المستهلكة فى غرب أوروبا ، وهو ما يتمشى مع الأهداف العربية ، نظرًا لاشتراك دولتين من هذه المنطقة - هما بريطانيا وفرنسا - فى العدوان (٦) ، ولكن تأثير استخدام البترول كان ضعيفًا لعدة عوامل ، منها عدم وحدة العمل العربى فى هذا الصدد ، وعدم سيطرة الدول المنتجة للبترول على سير العمليات الإنتاجية (٧) ، وهما كفيلان بوأد أى تحرك فى هذا الصدد .

فما حدث فى الجولة الثانية من الصراع العربى - الإسرائيلى عام ١٩٥٦ ، هو

---

(١) محمد عبد الغنى الجمسى : المرجع السابق ، ص ٨٣ .

(٢) محمد فوزى : حرب السويس ١٩٥٦ ، ص ١١٨ .

(٣) محمد حافظ إسماعيل : أمن مصر القومى ، ص ٦٤ .

(٤) صلاح العقاد : البترول أثره فى السياسة والمجتمع العربى ، ص ١٣٣ .

(٥) إبراهيم المسلم : المرجع السابق ، ص ٥٣ ، ٥٤ .

(٦) صلاح العقاد : المرجع السابق ، ص ١٣٤ .

(٧) أحمد يوسف أحمد : تأثير الثروة النفطية على العلاقات السياسية العربية ، ص ٨٤ .

رد فعل الغضب الجماهيرى بدرجة كبيرة ، ولم تكن طبيعة العلاقات المصرية السعودية ، تسمح بتنسيق مابين الدولتين ، ولا سيما أن تطورات الأزمة منذ تأميم القناة كانت واضحة ، بل أن هذه الأحداث البترولية فى هذا العام أدت إلى اضطرابات فى اقتصاد السعودية والعراق ، مما يدل على أن طول النفس فى معركة البترول غير متوفر فى هذه المجتمعات الاستهلاكية (١) .

ودخلت العلاقات المصرية السعودية بشكل عام حتى سنة ١٩٦٧ فى عدة أطوار بعيدة كل البعد عن إمكانية التنسيق لاتخاذ موقف موحد إزاء تطورات الأحداث التى أدت إلى نكسة ١٩٦٧ ، وكان للولايات المتحدة الدور الأكبر فى هذا الصدد ، إذ كان الملك سعود يمثل لها الشخص الوحيد الذى يستطيع بنجاح أن يتحدى عبد الناصر فى قيادة العالم العربى ، ويحول مركز القومية العربية من اتجاه الاتحاد السوفيتى إلى اتجاه الغرب (٢) .

وهكذا أخذت الغيوم تسيطر بين آونة وأخرى على العلاقات بين البلدين ، وتصل إلى ذورتها بقيام الوحدة بين مصر وسوريا ، وقيام ثورة اليمن (٣) .

وعندما تتطور الأحداث ، وتغلق مصر خليج العقبة أمام الملاحة الإسرائيلية ، لم تتخذ السعودية موقفًا إيجابيًا ، بل فكرت فى إنزال قوات سعودية فى جزيرتى تيران وصنافير ، الواقعتين عند مدخل الخليج – وهما من أملاك السعودية ، وتركتهما لمصر بعد حرب ١٩٤٨ ، لإحكام السيطرة على خليج العقبة – ثم ما لبثت أن تراجعت عن تنفيذ الفكرة فى ٤ يونيو ١٩٦٧ ، وهو ماكان يجعل السعودية – كما رأى عبد الناصر – شريكة بالتضامن فى إغلاق الخليج ، إلا إذا اتخذت موقفًا غير ذلك وأعلنته ، وهو ما يؤدى إلى إحراجها إحراجًا لا تستطيع أن تتحمله ، وهو ما تفادته المملكة بتراجعها عن وضع قوات لها فى هاتين الجزيرتين ، كما أوقفت السعودية شحناتها العسكرية للأردن ، لعقابه – على ما يبدو – لزيارة الملك حسين للقاهرة (٤) .

---

(١) صلاح العقاد : المرجع السابق ، ص ١٣٤ .

(٢) محمد حسنين هيكل : ملفات السويس ، ص ٦٠٣ ، سنوات الغليان ، ص ٢٨٩ .

(٣) لمزيد من التفاصيل انظر (هيكل : سنوات الغليان ، ص ٢٨٥ – ٣٠٨ ، الانفجار ، وثيقة رقم ٩ ، وهى خطاب من عبد الناصر إلى الملوك والرؤساء العرب ، يشرح فيه تطورات الأوضاع فى اليمن ، ومحاولات مع الملك فيصل للوصول إلى حلول سلمية للمشكلة ص ٩٦٥ – ٩٦٩) .

(٤) محمد حسنين هيكل : الانفجار ١٩٦٧ ، ص ٦٨٥ ، ٦٩١ – ٦٩٣ .

وتوجه زكريا مُحيى الدين - نائب رئيس الجمهورية - إلى الجزائر فى مهمة عاجلة ليطلع رئيسها هوارى بومدين على تطورات الموقف ، وطلب منه الاتصال بالملك فيصل لاستطلاع رأيه إزاء التطورات المتلاحقة للأزمة ، وكان رد فيصل - كما نقله السفير الجزائرى بعد مقابلته للملك فى لندن : « أن الملك أبلغه أننا حاضرون لكل ما يتفق عليه الإخوان » ولم يكن هذا الرد مُحَدَّدًا بما فيه الكفاية [(١)] .

وهكذا يحدث العدوان الإسرائيلى فى ٥ يونيو ١٩٦٧ ، فى جولته الثالثة ، ولم تكن العلاقة بين البلدين تسمح بالتنسيق والتعاون ، بل إن جمال عبد الناصر أرسل فى ٨ يونيو ١٩٦٧ إلى الملك فيصل والرؤساء العرب ، بيانًا يوجهه هؤلاء إلى دول العالم متضمنًا اتخاذ موقف عربى موحد ضد إسرائيل والقوى المساندة لها (الولايات المتحدة الأمريكية) وتخصيص جميع الموارد والطاقات العربية كلها لخدمة المعركة ، بدون قيود أو حدود ، وتضمَّن البيان أن القوى التى ناصبت الأمة العربية العداء ، وسهلت للعدوان الإسرائيلى ، يجب أن تتحمل مسئوليته ، ولن يكون لهذه الدول موضع قدم فى أى وطن عربى ، كما تضمن كذلك الدعوة لعقد مؤتمر قمة عربى ، وسافر الملك حسين شلى واشنطن والرئيس الجزائرى للاتحاد السوفيتى متحدثين باسم العرب ، لشرح الظروف والعواقب التى يمكن أن تترتب على استمرار العدوان الإسرائيلى المدعم بالقوى الأجنبية [(٢)] .

وهو بيان يحوى خطة عمل كفيلة بعمل عربى ذى قيمة ، وللسعودية دور فيها ، لا سيما فيما يختص بالإمكانيات والطاقات العربية ، ولكن لم يترجم البيان إلى واقع ، لقد سافر بومدين والملك حسين ، وترددت الأحاديث عن عقد مؤتمر قمة عربى ، ولم يكن لذلك صدى ، ويبدو أن الأمة العربية لم تكن مستعدة لمواجهة عدوها [(٣)] .

وكان عبد الناصر يتوقع استخدام البترول للضغط على الدول الغربية ، ومن ثم على إسرائيل فى جولة ١٩٦٧ ، معتمداً فى ذلك - وبدرجة كبيرة - على العمال العرب ، كما حدث عام ١٩٥٦ [(٤)] . ولكن الظروف فى هذه الجولة لم تكن مواتية لاستخدام البترول فى المعركة مع إسرائيل لعدة اعتبارات منها :

(١) محمد حسنين هيكل : المرجع السابق ، ص ٦٩٣ .
(٢) نفس المرجع ، ص ٨٠٠ - ٨٠٣ .
(٣) نفس المرجع ، ص ٨٠٣ .
(٤) صلاح العقاد : مأساة يونيو حقائق وتحليل ، ص ٢٧٥ ، ٢٧٦ .

• الهزيمة العسكرية السريعة .

• عدم وجود إرادة سياسية موحدة ، بصدد استخدام البترول ، فلقد اجتمع وزراء بعض الدول المنتجة للبترول فى بغداد فى ٤ يونيو ١٩٦٧ ، لوضع أسس سياسة عامة حول استخدام البترول ضد إسرائيل ، وحضر الاجتماع ممثلون عن مصر والعراق والجزائر وليبيا والكويت والسعودية ولبنان وسوريا وقطر والبحرين ، أبو ظبى ، واتخذوا قرارهم فى اليوم التالى بالإجماع بإيقاف الضخ للبترول ، ومنع بيعه لاية دولة ترتبط بالعدوان على أية دولة عربية ، أو تتخذ موقفًا إيجابيًا إزاء هذا الاعتداء بطريق مباشر أو غير مباشر ، وأوقف بالفعل تصدير النفط العربى [١] ومُنع البترول عن إنجلترا والولايات المتحدة وألمانيا ، كما أُغلقت قناه السويس لمدة طويلة [٢] ، ولكن سرعان ماحدث الخلاف بين الدول المصدرة للبترول ، بصدد المدة التى تلتزم فيه بهذا السلوك ، والبلدان التى تطبقه عليها ، بل بدأت تظهر بعض التصريحات الرسمية أو الموضوعات الصحفية فى بعض الأقطار المنتجة للبترول ، تتذمر من الخسارة المترتبة على وقف الضخ بالنسبة لها فى شهرى يوليو وأغسطس ١٩٦٧ .

• كان من الصعب التأكد من أن البترول المتجه إلى بلد معين ، لن يتخذ طريقه إلى بلد آخر .

• الخلافات العربية .

• إن الضغط على الولايات المتحدة باستخدام البترول لن يكون له الأثر الفعال ، فلم تكن عام ١٩٦٧ فى حاجة ماسة إلى البترول العربى ، وكان فى إمكانها الاستغناء عنه أو تعويضه [٣] ، فلم تكن تستورد منه سوى ٣٪ من حاجات النفط العربى [٤] .

• إن استخدام البترول ضد إسرائيل - العدو المباشر - كان صعبًا ، فقد خرجت من حرب الأيام الستة وقد استولت على آبار سيناء ، وصار بوسعها أن تُصَدِّر بعض كميات من البترول .

---

(١) أحمد يوسف أحمد : المرجع السابق ، ص ٨٣ .
(٢) Hurewitz, J.C., oil, the arab-Israel dispute and the industrial world, 1976, P. 111.
(٣) أحمد يوسف أحمد : المرجع السابق ، ص ٨٤ ، ٨٥ ، ٨٦ .
(٤) صلاح العقاد : مأساة يونيو ، ص ٢٧٦ .

• إن أوروبا عام ١٩٦٧ استفادت من درس ١٩٥٦ ، واتخذت الاحتياطات اللازمة لمثل هذه الأزمات ، كبناء الناقلات العملاقة ، وتشييد الصهاريج الضخمة التى توفر لأوروبا مخزونًا عند الضرورة ، وكان لديها مخزونٌ يكفى لمدة ثلاثة أشهر .

• استغلال حقول شمال إفريقيا التى لم تكن موجودة عام ١٩٥٦ ، وكان معظم بترول الجزائر يصدر إلى فرنسا ، فلم يكن هناك مبرر لإيقافه ، أما ليبيا فكان يحكمها وقت ذاك ، حكومة الملك إدريس السنوسى ، الذى كان يتجنب أى موقف إيجابى إزاء القضايا الدولية والعربية [١] .

وعلى أية حال ، فبعد نكسة ١٩٦٧ ، بدأ ذوبان الثلوج فى العلاقات المصرية السعودية بداية من مؤتمر القمة بالخرطوم ، عندما توصل فيصل وعبد الناصر ، إلى حل لمشكلة اليمن ، يحقق العورة للقوات المصرية [٢] ، وتتحسن هذه العلاقات فى عهد أنور السادات بشكل مهد إلى قيام السعودية بدور إيجابى فى حرب أكتوبر لم تشهده الحروب المصرية الإسرائيلية السابقة .

فلقد استطاعت مصر أن تُحسن علاقاتها مع الدول العربية ، حين اعترفت بالاختلافات فى نظم الحكم العربية ، فلم تعد تفرق بين دولة عربية وأخرى - كما يقول السادات - على أساس ما يسمونه « بالرجعية والتقدمية ، أو الملكية والجمهورية » [٣] ، كما يرجع ذلك أيضًا إلى اعتماد مصر على المعونات المالية من الدول المصدرة للبترول [٤] .

وفيما يتعلق بالمملكة العربية السعودية فقد قويت علاقات مصر معها ، فكانت هناك علاقات قوية بين السادات والملك فيصل [٥] ، وكما يقول أنور السادات : إن الملك فيصل كان صديقاً له عندما كان وليًا للعهد منذ المؤتمر الإسلامى عام ١٩٥٥ [٦] .

---

(١) صلاح العقاد : البترول ، أثره فى السياسة والمجتمع العربى ، ص ١٣٤ ، ١٣٥ .

(٢) محمد حسنين هيكل : الانفجار ١٩٦٧ ، ص ٩٣٢ .

(٣) محمد أنور السادات : البحث عن الذات ، قصة حياتى ، القاهرة ١٩٧٨ ص ٢٥٢ .

(٤) نازلى شكرى : سياسة البترول وحرب أكتوبر ١٩٧٣ ، الندوة الدولية لحرب أكتوبر المجلد الثانى ، القاهرة ١٩٧٥ ، ص ٥٣ .

(٥) Douty Alan, Middle east crisis, P. 199.

(٦) محمد أنور السادات : المرجع السابق ، ص ٢٥١ .

لقد ذاب – إلى حد كبير – الجليد الذى بدأ فى الأفق بين القطرين ، فقد زار فيصل مصر عام ١٩٧٢ ، وكان لهذه الزيارة الأثر الكبير فى تحسن العلاقات المصرية السعودية ، فقد وافق الملك على أن يعاود أبناء المملكة زيارة مصر ، التى قامت كافة التسهيلات عند حضورهم ، كما قام الدكتور عبد القادر حاتم نائب رئيس الوزراء ، بزيارة المملكة فى نفس العام ، وأكد الملك فى مناسبات عدة أن الملك عبد العزيز قد أوصاهم خيراً بمصر ، وناشدهم بضرورة التعاون معها بصفة دائمة (١) .

وعندما سافر السادات إلى موسكو في فبراير ١٩٧٣ ، من أجل تزويد مصر بالسلاح – وكان قد أفضى للملك فيصل بمماطلة السوفيت فى هذه المسألة – تلقى برقية من ملك السعودية بوضع عشرين قاذفة من طراز (لايتننج) تحت تصرف مصر ، وكان لهذه المبادرة السعودية أثر فى إمداد السوفيت القوات الجوية المصرية بالقاذفة تى – يو ٢٢ ، وكانوا فى الماضى يرفضون تزويد مصر بها ، إلى جانب الأسلحة الأخرى (٢) ، وهو ما أكده المشير الجمسى ، مشيرًا إلى أن رسالة الملك فيصل كانت للضغط على السوفيت لإمدادنا بالأسلحة ، فلم تصل هذه الطائرات السعودية لمصر (٣) .

وردًا على هذه المبادرة السعودية ، طلب السادات من الفريق صادق – وزير الحربية المصرى – إبلاغ نظيره السعودى بتلقى القوات المسلحة المصرية أوامرها – عند حدوث أى طارىء – من الملك فيصل ، أثناء تواجد السادات فى موسكو ، وكان لذلك أثره الطيب لدى الشعب السعودى وقواته المسلحة (٤) .

وأكد نائب رئيس الوزراء فى بيان الحكومة أمام مجلس الشعب ، أن إزالة آثار العدوان ، ليس قَدَر الأمة المصرية وحدها ، بل هو قدر الأمة العربية ، الأمر الذى

---

(١) لقاء مع الدكتور عبد القادر حاتم .

(٢) إبراهيم المسلم : المرجع السابق ، ص ٨٥ .
ومحمد حسنين هيكل : الطريق إلى رمضان ، دار النهار للنشر ، بيروت ١٩٧٥ ، ص ١٤٣ .

(٣) لقاء مع المشير محمد عبد الغنى الجمسى .

(٤) إبراهيم المسلم : المرجع السابق ، ص ٨٥ .
ومحمد حسنين هيكل : المرجع السابق ، ص ١٤٣ .

كان له أثر فى نفسيه الملك فيصل ، الذى أكد بضرورة العمل من أجل المعركة الأساسية [١] .

واستعدادًا للمعركة ، نصح الملك فيصل السادات بالتخلى عن فكرة عقد مؤتمر قمة عربى ، وكان محددًا له ١٨ أغسطس – للخلافات العربية – مما يؤثر فى قرار المعركة ، وأن يستعد لها عن طريق اللقاءات الثنائية ، ووافق السادات على نصيحة فيصل ، وأبلغها للرئيس حافظ الأسد ، وتأجل المؤتمر [٢] .

وبصفة عامة ، ففى عهد الملك فيصل – خصوصًا بعد تولى السادات السلطة – احتفظت السعودية بعلاقات قوية مع مصر ، وساعدتها ماليًا لمواجهة أعبائها [٣] ، وبالتالى فقد أصبحت الظروف أكثر ملاءمة لمحاولة إيجاد موقف موحد ، أكثر تأثيراً فى حالة بدء الجولة الرابعة ، من الصراع العربى الإسرائيلى .

قرار الحرب والتقارب المصرى السعودى

كانت طبيعة القرار المصرى بالحرب نتيجة منطقية للظروف الدولية والإقليمية والمحلية .

أولا – الظروف الدولية :

كان الوفاق الدولى بين الولايات المتحدة والاتحاد السوفيتى ، قائمًا على الساحة الدولية ، وهى مرحلة التفاهم والتعايش بينهما ، وضرورة التصدى للمشكلات والأزمات الدولية بالحلول الوسطى ، بحيث لا يسمح لأى منهما أن تُهدد هذا الوفاق الوليد ، وهو ما يعنى إقرار الأمر الواقع بالنسبة لمشكلة الشرق الأوسط ، وفرض حالة من الاسترخاء العسكرى فى المنطقة ، وهو ما يعنى كذلك ، عدم السماح للعرب بالتحرك الفعال لتقويض الوضع الذى استقر فى المنطقة منذ حرب يونيو ١٩٦٧ [٤] .

---

(١) لقاء مع الدكتور عبد القادر حاتم .

(٢) محمود رياض : مذكرات محمود رياض ١٩٤٨ – ١٩٧٨ ، الطبعة الثانية ، دار المستقبل العربى ، القاهرة ١٩٨٥ ؛ ص ٤٤ .

(٣) Raymond Vernon, the oil crisis, New york, 1976, P. 61.

(٤) محمود خيرى عيسى ، مصطفى علوى : مضمون السياسة الأمريكية تجاه الشرق الأوسط بعد أكتوبر ١٩٧٣ ، الندوة الدولية لحرب أكتوبر ٧٣ ، المجلد الثانى ، القاهرة ١٩٧٥ ، ص ١٣١ ، ١٣٢ ، ومحمد عبد الغنى الجمسى : المرجع السابق ، ص ٢٥٦ .

إن القوتين العُظميين قد افترضتا بذلك أن القوى الصغيرة والمتوسطة لم تعد تملك – إزاء اتفاق الكبار – حرية إرادتها فى اتخاذ أى قرار يتعلق بمصلحتها أو قوميتها [١] . وهكذا فرضت هذه السياسة حالة اللاسلم واللاحرب فى منطقة الشرق الأوسط ، وهى بيئة ملائمة تمامًا للتجمد [٢] ، وهذه الحالة – كما قال السادات – كفيلة بأن تحقق لإسرائيل على المدى الطويل كل ما تريد بدون أن تطلق رصاصة واحدة ، فضلا عن أن البيان الذى صدر عن لقاء القمة الثانى يؤكد حرص العملاقين الكبيرين على وجود إسرائيل ، وأن يتصرف كلٌّ بطريقته للحفاظ على ذلك ، وبالتالى أعطت الولايات المتحدة التفوق الكامل لإسرائيل على جميع العرب ، لتوازن القوى كما تراه ، والسوفيت من ناحية أخرى وضعوا القيود على ما يقدمونه للعرب من سلاح وتكنولوجيا ، لحرصهم على الوفاق ، ولعوامل أخرى ، من بينها طبيعة علاقتهم بنظام السادات فى مصر ، قطب المواجهة مع إسرائيل [٣] . وهكذا بدأ أن الوفاق سيفرض شروطه على مشكلة الشرق الأوسط ، بدلا من أن « تفرض مشكلة الشرق الأوسط شروطها عليه » [٤] ، فإذا كان الوفاق يعنى عدم الصدام فى أى جزء من العالم ، فإنه يعنى عدم الصدام فى الشرق الأوسط [٥] .

وقد حذر كيسنجر السادات من جولة عسكرية جديدة مع إسرائيل ، لأنها سوف تنتصر مرة أخرى « أشد مما انتصرت فى سنة ١٩٦٧ » ، وطالب مصر – وهى فى موقف المهزوم – بألّا تفرض شروطها على الطرف الآخر ، بل تقدم التنازلات ، ليمكن للولايات المتحدة المساعدة فى حل الأزمة [٦] .

نضيف إلى ذلك أن المجتمع الدولى – ممثلاً فى تنظيمات الأمم المتحدة – قد فشل فى حل مشكلة الشرق الأوسط حلًّا سلميًّا ، ووضع قرار مجلس الأمن رقم ٢٤٢

---

(١) محمود خيرى عيسى ، ومصطفى علوى : المرجع السابق ، ص ١٣٢ .

(٢) جمال حمدان : ٦ أكتوبر فى الاستراتيجية العالمية ، القاهرة ١٩٧٤ ، ص ٢٦٣ .

(٣) محمود خيرى عيسى ، مصطفى علوى : المرجع السابق ، ص ١٣٢ .

(٤) محمد حسنين هيكل : المرجع السابق ، ص ١٨٥ .

(٥) جمال حمدان : المرجع السابق ، ص ٢٧٣ .

(٦) محمد عبد الغنى الجمسى : المرجع السابق ، ص ٢٦٢ .

ومحمد أنور السادات : المرجع السابق ، ص ٣٨٢ .

موضع التنفيذ ، فلقد نسفت إسرائيل مهمة السفير « جونار يارنج » عام ١٩٧١ ، فى حين كان الموقف المصرى إيجابيًا ، وكان ذلك دليلا على أن الأمم المتحدة لا تملك بذاتها مفتاح الحل ، واستمر عجز المنظمة الدولية عامى ١٩٧٢ و ١٩٧٣ ، وهدد هذا العجز أزمة الشرق الأوسط بالتجمد ، وزاد الأمر صعوبة إخفاق المحادثات للدول الأربع الكبرى ، فى إطار المنظمة الدولية ، وكذلك المحادثات الثنائية بين الولايات المتحدة والاتحاد السوفيتى ، وهذا عجز واضح للأمم المتحدة ، وأكدت أنها لا تملك حتى التحريك المبدئى للأزمة [١] .

ثانيًا – الظروف الإقليمية :

(أ) الموقف الإسرائيلى :

وهو أمر غاية فى الأهمية ، لأنه الطرف الذى بيده مفتاح الموقف إلى حد كبير ، فبعد حرب ١٩٦٧ ، واحتلال إسرائيل لأراضٍ عربية من مصر وسوريا والأردن ، وصلت إسرائيل إلى حالة من الغرور يصعب معها التفاهم نحو تحرير الأراضى العربية ، ففى الجولات الإسرائيلية العربية كان حجم النصر الإسرائيلى فى تصاعد مستمر ، وكانت جولة عام ١٩٦٧ ، أكثر سهولة من الجولتين السابقتين (١٩٤٨ – ١٩٥٦) وحجم النصر أكبر ، وهو ما يجعل من الصعب إقناع العدو بالتعقل ، أو بمراجعة النفس ، أو كبح جماح غروره [٢] .

واعتبرت إسرائيل امتداد حدودها إلى هذه الأراضى الجديدة ، هى الحدود الجديدة لإسرائيل ، فخطوط الهدنة عام ١٩٤٨ كانت خطوطًا مؤقتة ، ولكن منذ « اللحظة التى ألغت فيها الدول العربية من جانبها وحدها اتفاقيات الهدنة فى حزيران ١٩٦٧ ، انتهت بطبيعة الحال مفعول خطوط الهدنة ، وعندما استجابت الأطراف المتحاربة لأمر وقف إطلاق النار الصادر عن مجلس الأمن فقد حلت اتفاقيات وقف إطلاق النار مكان اتفاقيات الهدنة ، كما أصبحت خطوط وقف إطلاق النار خطوط

---

(١) مفيد شهاب : دور الأمم المتحدة فى أزمة الشرق الأوسط بعد السادس من أكتوبر ، الندوة الدولية ، المجلد الثانى ، ص ٢٩٨ ، ٢٩٩ .

(٢) جمال حمدان : المرجع السابق ، ص ٢٢٠ ، ٢٢١ .

الحدود الجديدة التى تفصل بين إسرائيل وجاراتها ، بموجب القانون الدولى والعرف السياسى » [(١)] .

ويعتقد « آلون » أن الحدود الجديدة ، وهى الحدود الآمنة ، لا يمكن التراجع عنها ، فلا يمكن « تصور عودة المدفعية السورية إلى مرتفعات الجولان ، وعودة المدرعات الأردنية مقابل سهول الشارون وعيمق حيفر والساحل ، ولن يسمح أبدًا بإعادة تقسيم القدس ، ويجب أن ألا تفتح أبواب النقب إلى حدود سيناء من جديد ، ولن نضع حرية الملاحة الإسرائيلية فى الممرات الدولية تحت علامة استفهام مرة أخرى » [(٢)] .

وإذا كان ذلك يمثل الاستراتيجية الإسرائيلية ، فإن انتصار إسرائيل عام ١٩٦٧ جعلها تعتقد أنها الدولة الحاكمة والمتحكمة ، المعترف بها عالميًا وإقليميًا فى الشرق الأوسط ، وهى التى تقرر مصيره ، فهى القوة العظمى فى الشرق الأوسط بل أكثر من ذلك – وكما قال « موشى ديان » – بأن إسرائيل تعتبر « أقوى دولة فى العالم ما بين أمريكا وروسيا » [(٣)] ، بل إن الانتخابات الإسرائيلية – والتى كان محددًا لها ٣١ أكتوبر ١٩٧٣ – كانت مسرحًا للمزايدات بين الأحزاب والمرشحين بالنسبة لمشروعاتهم للأراضى العربية المحتلة [(٤)] ، والخلاصة : أن التعامل مع إسرائيل لتحقيق العدل أمر صعب فى إطار هزيمة ١٩٦٧ .

(ب) الموقف العربى :

لا يهدف الباحث عرض الموقف العربى قبل حرب ١٩٧٣ ، فهو أمر يحتاج إلى دراسة خاصة ، ولكن الثابت أن الموقف العربى فى تلك الفترة لم يصل بأية صورة – فى أحسن حالاته – إلى مستوى المسئولية ، وفرض إرادته كقوة عربية متجانسة ، برغم إمكانياته الكبيرة .

---

(١) يغئال آلون : ثلاث حروب وسلام واحد ، ترجمة محمود عباس ، الطبعة الأولى دار النهضة للنشر ، الناصرة ، اسرائيل ١٩٧٠ ، ص ١٥٣ .

(٢) نفس المرجع : ص ١٥٨ .

(٣) جمال حمدان : المرجع السابق ، ص ٢١٩ .

(٤) محمد حسنين هيكل : المرجع السابق ، ص ١٨٤ .

ثالثاً – الظروف المحلية :

كانت مصر اقتصاديًا فى وضع غير محتمل ، فتطوير الصناعة والسد العالى وحرب اليمن قد جعلت من أوائل الستينيات وسنوات الوسط فترة فوق الطاقة ، ثم أضافت هزيمة ١٩٦٧ الكثير ، إذ كان من الضرورى إعادة بناء القوات المسلحة ، وأنفقت مصر ما بين ١٩٦٨ ، ١٩٧٣ ، ما يتراوح بين ٨ و ٩ بلايين دولار ، وكانت هذه فترة تضحية للشعب المصرى « لا يمكن أن نتوقع من أى شعب أن يتحملها إلى ما لا نهاية » .

يضاف إلى ذلك أن الثقة فى النظام بدأت تهتز منذ عام ١٩٦٧ ، فكانت هناك حالات تمرد فى عهد عبد الناصر ، واستمرت فى عهد السادات ، وبلغت الذروة عندما انتهى عام الحسم (١٩٧١) بدون تحرير الأرض ، وانفجر الشباب ، وإن أمكن احتواء انفجاره ، ولكن الغليان كان قائمًا على السطح [١] .

ومن ناحية أخرى ، فقد بدأت القوات المسلحة فى تدريب وتنظيم نفسها ، بداية من عام ١٩٦٧ ، واستمرت سنوات ، ولم يكن لهذا كله نهاية ظاهرة فى الأفق ، وأخذت مظاهر التوتر تبدو على كل مستوى ، وحدث ذات يوم « أن قاد أحد الملازمين ، قافلة من سبع عربات مصفحة إلى قلب القاهرة ، ودخل أحد المساجد وراح يخطب منددًا بالحكومة » ، كما أن المجندين – وهم من خريجى الجامعات – قد استمروا فى التجنيد مدة خمس أوست سنوات بدون أن يكون هناك أمل فى حصولهم على وظائف مدنية طبقًا لمؤهلاتهم العلمية ، يُضاف إلى ذلك أن مصر أصبحت موضع سخرية العالم العربى ، فبعد انتهاء حرب الاستنزاف عام ١٩٧٠ ، كانت تطلب من الغير استخدام ما لديهم من سلاح البترول ، فى حين لم تُظهر دليلاً على استعدادها لاستخدام ما لديها من سلاح [٢] .

رابعًا – طبيعة القرار المصرى بالحرب :

كان هذا القرار محصلة الظروف الدولية والإقليمية والمحلية السابقة ، فاستمرار

---

(١) نفس المرجع ، ص ١٨٣ .

(٢) نفس المرجع ، ص ١٨٣ .

الموقف على ماهو عليه أمر صعب ، والاعتماد على النطاق الدولى وهيئة الأمم أمر متعذر ، وإسرائيل لن تستجيب لأى نداء ، فهى المنتصرة ، فأصبح الحل ليس أمامه إلا باب الإرادة المصرية ، تدعمها الإرادة العربية ، فالقوة الذاتية العربية هى التى يمكنها مواجهة الموقف ، لا الاعتماد على توازن القوى ، وقد أثبتت سنوات مابعد يونيو ١٩٦٧ أن الخطر الإسرائيلى والعداء الأمريكى مُسَلَّطٌ على جميع العرب ، وبدون وحدة الموقف السياسى والعسكرى سيكونون – فى عصر الوفاق – أضْيَعَ منهم فى أى وقت مضى (١) .

ولكن كيف توزع الأدوار ، فإن الحل العسكرى وحده لا يكفى ، وذلك راجع إلى المساعدة الأمريكية غير المحدودة لإسرائيل ، والجهد العسكرى المصرى لا يكفى ، لجسامة الموقف وتعقيده ، وبالتالى فإن الحل الذاتى المطلوب هو الذى يجمع بين الحلين : العسكرى والسياسى ، الأول ضد إسرائيل وبيد مصرية ، والثانى ضد الولايات المتحدة المساندة لإسرائيل ، وبيد العرب البترولية (٢) ، وهو ما رآه مجلس الوزراء المصرى فى اجتماعه برياسة السادات فى ٥ أبريل ١٩٧٣ ، إذ أقر حتمية العمل العسكرى ، وأهمية التدخل ضد تدفق البترول ، والعمل على تحويل الأرصدة العربية من المؤسسات المالية الغربية (٣) .

فالعمل العسكرى والسياسى وجهان ضروريان لحل القضية ، ومن هنا كان قرار المعركة ، متمشيًا مع المنطق والواقع ، فهو يتجنب الحرب التحريرية الشاملة ، بل يركز على حرب محدودة طبقًا لإمكانيات القوات المسلحة ، تُحرك القضية وتخدم المعركة السياسية ، وهو ما أكده السادات فى توجيهه للقائد العام للقوات المسلحة فى أول أكتوبر ١٩٧٣ ، إذ حدد مهمة العمل العسكرى ، بتحطيم نظرية الأمن الإسرائيلى ، بعمليات عسكرية حسب إمكانيات القوات المسلحة ، وإذ « استطعنا بنجاح أن نتحدى نظرية الأمن الإسرائيلى فإن ذلك سوف يؤدى إلى نتائج محققة فى المدى القريب وعلى المدى البعيد » ، فنتائج المدى القريب هى إمكانية الوصول إلى حل مشرف لأزمة

---

(١) جمال حمدان : المرجع السابق ، ص ٢٦٣ ، ٢٦٤ .

(٢) نفس المرجع ، ص ٢٦٤ .

(٣) محمد عبد الغنى الجمسى : المرجع السابق ، ص ٢٦٣ ، ٢٦٤ ، ومحمد حافظ إسماعيل : المرجع السابق ٢٦٨ ، ٢٦٩ .

الشرق الأوسط ، وربما حدثت متغيرات فى فكر العدو ، ونزعاته العدوانية على المدى البعيد [(١)] ، وهو ما يشير إليه وزير الخارجية الأمريكية هنرى كيسنجر ، من أن السادات لم يكن « واضعًا نصب عينيه مكاسب أرضية ، لكنه كان يهدف إلى خلق أزمة تزحزح تلك المواقف ، التى جمد فيها كل الفرقاء ، ومنها يخلص دون ريب إلى فتح باب المفاوضات » [(٢)] .

ومن ناحية أخرى فقد أشار التوجيه إلى الوجه الآخر للمعركة القادمة عندما ذكر التحسينات التى طرأت على الموقف العربى ، مما يزيد احتمالات تأثيره ، مع تزايد أزمة الطاقة وأزمة النقد فى العالم ، فإن « الضغط العربى فى أحوال ملائمة يستطيع أن يكون عاملا له قيمته » [(٣)] .

فإذا كان الفكر الاستراتيجى للسادات مرتبطًا بالواقع ، وإمكانيات العدو ، والمساندة الأمريكية التى تجعل النصر على إسرائيل فى حرب تحريرية طويلة أمرًا مشكوكاً فيه - يركز على النصر فى معركة محدودة ، طبقًا لقدرات القوات المسلحة المصرية ، ليحرك القضية سياسيًا [(٤)] ، مدعمًا باستخدام النفط والأرصدة العربية ، للضغط على الولايات المتحدة للوصول إلى حل عادل لقضية الشرق الأوسط ، فمن الطبيعى أن تتوجه مصر إلى دول البترول العربى للاطمئنان على استخدامه فى المعركة القادمة ، وفى مقدمة هذه الدول المملكة العربية السعودية .

لماذا المملكة العربية السعودية :

اهتمت السياسة المصرية فى هذه الظروف بالتقارب مع المملكة العربية السعودية لعدة أمور :

---

(١) محمد أنور السادات : المرجع السابق ، ص ٣٥٤ ، ٣٥٦ ، ومحمد عبد الغنى الجمسى : المرجع السابق ص ٢٧٩ ، ٢٨١ .

(٢) هنرى كيسنجر : مذكرات كيسنجر فى البيت الأبيض ، ترجمة خليل فريجات ، الجزء الرابع ، دمشق ١٩٨٥ ، ص ٢٨٠ .

(٣) محمد أنور السادات : المرجع السابق ، ص ٣٤٨ - ٣٥٣ ، ومحمد عبد الغنى الجمسى : المرجع السابق ، ص ٢٧٨ .

(٤) محمد حسنين هيكل : المرجع السابق ، ص ١٦٤ ، ١٦٥ .

أولا - قوة العلاقات السعودية الأمريكية :

لا يتعرض الباحث فى هذا الصدد إلى العلاقات السعودية الأمريكية ، ولكن إجمالاً فإن قوة هذه العلاقة ترجع إلى ضخامة الاستثمارات الأمريكية فى المملكة ، فعندما انبثق البترول إحدى آبار الدمام عام ١٩٣٩ وقعت شركة « كاليفورنيا أرابيان ستاندرد أويل كومبانى » امتيازًا جديدًا ، أضاف حوالى مليون كيلو متر مربع إلى مساحة الأراضى التى يشملها الامتياز الأمريكى ، وفى عام ١٩٤٤ استبدلت الشركة اسمها بـ « أرابيان أمريكان أويل كومبانى » « أرامكوا » ، ولا تزال الاستثمارات الأمريكية تستثمر بترول السعودية تحت هذا الاسم (١)، فتملك هذه الشركة ١٠٠ ٪ من إنتاج البترول فى المملكة ، الذى بلغ ٢٩٨ مليون طن عام ١٩٧٢ ، وهى أعلى نسبة للاستثمارات الأمريكية فى مجال البترول فى العالم العربى (٢) .

ومن الثابت أن دول الخليج - وفى مقدمتها السعودية - تميل فى سياستها إلى التعاون مع الغرب (٣) ، كما كان الملك فيصل عدوًّا للشيوعية (٤) ، وشارك رغبة واشنطن فى احتواء النفوذ السوفيتى الذى يعتبره تهديدًا لمملكته (٥) .

ويوضح هنرى كيسنجر إطار هذه العلاقة عندما يذكر أن للولايات المتحدة بلدًا آخر يعاونها فى المطالبة بالاعتدال ، وهى المملكة العربية السعودية ، كما كان نيكسون يقدر ويحترم الملك فيصل « الذى كان ثابتًا فى ميله نحو الغرب » (٦) .

---

(١) بونداريفسكى : سياستان إزاء العالم العربى - دار التقدم ، موسكو ١٩٧٥ ص ٢٥٠ .

(٢) فى الكويت تملك الشركات الأمريكية ٥٠٪ من الإنتاج الكويتى الذى بلغ ١٦٥ مليون طن عام ١٩٧٢ ، وفى العراق كانت الشركات الأمريكية تملك ٢٣,٧٥٪ من بترول العراق ، وقد أمم العراق الحصة الأمريكية « بترول البصرة » فى ٧ أكتوبر ١٩٧٣ ، وفى أبى ظبى تملك الشركات الأمريكية ١٤,٧٪ من الإنتاج الذى بلغ ٥٠ مليون طن عام ١٩٧٢ ، وفى قطر ٢٣,٧٥٪ من الإنتاج الذى بلغ ٢٣ مليون طن ، وفى البحرين ١٠٠٪ من الإنتاج الذى بلغ ٣,٥ مليون طن ، وفى دبى ٥٠٪ من الإنتاج الذى بلغ ٤ مليون طن ، وفى ليبيا ٨٥٪ من الإنتاج الذى بلغ ١٠٨ مليون طن ، ولكن الحكومة الليبية أممت ٥١٪ من أسهم الشركات الأمريكية قبل حرب أكتوبر بقليل ، كما أممت شركة بتكرهانت الأمريكية بنسبة ١٠٠٪ ، وفى الجزائر تملك الولايات المتحدة ٢٤٪ من شركات التنقيب عن البترول ، و ٣٠٪ من شركة البترول الفرنسية الأمريكية ، و ٣٩,٥ من شركة سنكلر مديترنيان ، و٤٩٪ من شركة متروبار - فرنكاريب - الباسو . وتنتج الجزائر ٥٠ مليون طن فى نفس العام أى ١٩٧٢ (صلاح منتصر : حرب البترول الأولى ، الأهرام ١٩٧٥ ص ١٠٣) .

(٣) Raymond Vernon, Op. Cit., p. 62.

(٤) Monoharan S. the Oil crisis end of an era, New Delhi, 1974, p. 81.

(٥) Szyliwicz.S. Joseph, Bard E. óneill, the energy crosts and U.S. Foreign-Policy, p. 206.

(٦) هنرى كيسنجر : المرجع السابق ، ص ٣٨٩ .

وفى إطار هذه العلاقة ، كانت محاولة السعودية للوصول إلى تفاهم مصرى أمريكى نحو حل لقضية الشرق الأوسط ، ففى أوائل شهر نوفمبر عام ١٩٧١ ، زار مصر كمال أدهم – نسيب الملك فيصل ، ومستشاره الذى يتولى سلطة الإشراف على المخابرات ، ومن أقوى الشخصيات نفوذًا بالسعودية – وعرض أثناء زيارته المخاوف من ازدياد نفوذ السوفييت فى مصر ، وما يسببه ذلك من انزعاج للأمريكيين ، وأشار إلى أهمية هذه المسألة ، فى نفس الوقت الذى يحاول فيه السعوديون زيادة اهتمام أمريكا بقضية الشرق الأوسط ، وكان رد السادات بأن أمريكا تعطى إسرائيل كل ما تطلبه ، وأنه لن يأتى بالروس وحدهم بل سيأتى بالشيطان نفسه ، إذا كان فى مقدوره الدفاع عن مصر ، ولكنه أضاف أنه إذا « تمت المرحلة الأولى من مراحل الانسحاب الإسرائيلى ، فإن فى استطاعته أن يعد بإخراج الروس من البلاد » ، ووافق السادات أن يبلغ كمال أدهم ذلك للأمريكيين (١) .

ويرجح المشير الجمسى صحة الدور الذى لعبه كمال أدهم فى هذا الصدد ، فلقد كان لصيقًا بالمخابرات الأمريكية ، فضلاً عن قرب محمد حسنين هيكل بالسادات فى ذلك الوقت ، وهو مصدر هذه الرواية (٢) .

وبعد أن أصدر السادات قراره فى ١٨ يوليو ١٩٧٢ بإنهاء مهمة ١٥٠ ألف خبير سوفيتى ، ومغادرتهم البلاد فى خلال أسبوع ، مع أيلولة كل المعدات والتجهيزات الموجودة منذ عام ١٩٦٧ لمصر ، وكان ذلك مثار دهشة كبيرة لواشنطن (٣) – أخذ الملك فيصل يضغط على الولايات المتحدة بشدة ، على اعتبار أن الفرصة صارت مواتية للتحرك ، وتؤكد المصادر السعودية أن الملك فيصل أكد لنيكسون حرج موقفه ، إذا لم تفعل أمريكا شيئًا ، وأن العرب يوجهون إليه اللوم لأى عمل يقوم به الأمريكيون فى الشرق الأوسط ، وإذا « واصل الأمريكيون مساعدة إسرائيل فإنهم لن يستطيعوا بعد ذلك أن يزعموا أن تلك المساعدة تقوم على استراتيجية موجهة للسوفييت ، إنما ستصبح ببساطة مجرد سياسة لمساعدة عدو العرب الرئيسى .. » (٤) .

---

(١) محمد حسنين هيكل : المرجع السابق ، ص ١١٣ ، ١١٤ .

(٢) لقاء مع المشير محمد عبد الغنى الجمسى .

(٣) Kissinger, Henry, White House years, p. 1295.

(٤) محمد حسنين هيكل : المرجع السابق ، ص ١٦٥ ، ١٦٦ .

وكانت الاتصالات السرية التى تمت بين مصر والولايات المتحدة ، والتى بدأت فى أبريل عام ١٩٧٢ ، تجرى من خلال السعودية [١] ، وكانت هناك محادثات بين سيسكو والأمير سلطان فى هذا الصدد [٢] .

وبالتالى فهذه العلاقات السعودية الأمريكية تجعل من المملكة العربية السعودية ركنًا أساسيًا فى المعركة السياسية ، التى تهدف إلى الضغط على الولايات المتحدة لمساندتها إسرائيل ، وكما يقول الدكتور مصطفى خليل ، إنه إذا كانت السعودية ترتبط بعلاقات وطيدة مع الولايات المتحدة ، فاستغلال هذه العلاقة لمصلحة القضية أمر واجب [٣] .

ثانيًا - الثقل البترولى :

وتزداد أهمية العالم العربى بصفة عامة ، والسعودية بصفة خاصة ، لما يمتلكانه من ثروة بترولية عظيمة ، لا سيما عندما انتقل مركز البترول العالمى بعد الحرب العالمية الثانية من الولايات المتحدة الأمريكية إلى العالم العربى ، الذى أصبح المصدر الرئيسى لإمداد أوروبا الغربية واليابان باحتياجاتهما البترولية ، بل أصبحت الولايات المتحدة من مستوردى البترول العربى ، وتصاعدت مساهمة البترول العربى فى الإنتاج العالمى ، حتى بلغت حوالى الثلث ، ففى عام ١٩٧٠ بلغت النسبة المئوية للإنتاج العالمى ٣٠٫٧٪ وفى عامى ١٩٧١ ، ١٩٧٢ بلغت النسبة ٣١٪ وفى عام ١٩٧٣ وصلت النسبة إلى ٣٢٫٤٪ [٤] . لقد بلغ إنتاج الشرق الأوسط من البترول فى خريف ١٩٧٣ ، ٢٤ مليون برميل يوميًا ، يخص إيران منها حوالى خمسة ملايين برميل ، والباقى - وهو حوالى ١٩٫١ مليون برميل - يخص الدول العربية [٥] ، وتصل نسبة إنتاج البترول السعودى إلى ٤٠٪ من الإنتاج العربى [٦] .

---

(١) إسماعيل فهمى : التفاوض من أجل السلام فى الشرق الأوسط ، مكتبة مدبولى ، القاهرة ، ١٩٨٥ ص ٦٦ .

(٢) Kissinger, Op. Cit., P. 1295.

(٣) لقاء مع الدكتور / مصطفى خليل .

(٤) خليل إبراهيم حسين : أزمة الطاقة واقتصاديات ومستقبل البترول العربى ، ص ٥٧ ، ٥٨ ، ٦٣ ، ٦٤ .

(٥) Schmidt, Adams, Dana: Hrmageddon in the Middle East, P. 213.

(٦) Raymond Vernon, Op, Cit., P. 60.

وزادت حصة السعودية بالنسبة لحجم الإنتاج العالمى من ٧ ٪ عام ١٩٦٥ إلى ١٣٫٣٪ عام ١٩٧٣ ، وسد بترول السعودية وحده ٣١٪ من استهلاك دول أوروبا الغربية ، و ٣٥٪ من استهلاك اليابان ، و ١٠٪ من استهلاك الولايات المتحدة الأمريكية [١] ، فهى بذلك - كما قال مستر اكنز - تمسك بزمام السيطرة الفعلية على السوق [٢] .

ويحتل العالم العربى كذلك مركزًا متقدمًا بين الدول المنتجة والمصدرة للبترول ، بما يمتلكه من كميات كبيرة من الاحتياطى العالمى ، ويُقدر احتياطى السعودية بـ ٢٣٫٢٪ من احتياطى العالم ، و ٤١٪ من الاحتياطى العربى ، وتزداد أهمية هذا الاحتياطى ، لقلة الاحتياطى العالمى ، فأوروبا الغربية ليس لديها احتياطى ذو أهمية ، ومستوردة للبترول من الخارج ، لا سيما من العالم العربى ، واليابان يندر فيها الاحتياطى البترولى ، أما الولايات المتحدة فيمثل الاحتياطى البترولى بها ٦٫٣٪ من الاحتياطى العالمى ، وهو لا يكفى لعشر سنوات قادمة ، فضلاً عن أن سياسة الولايات المتحدة تهدف إلى الاحتفاظ بنسبة معينة من الاحتياطى بها ، وبالتالى تتجه إلى الاستيراد ، ولا تمثل احتياطات منطقة البحر الكاريبى أكثر من ٢٫٩٪ من احتياطات العالم [٣] .

وفى هذه الظروف يزداد نصيب البترول من مجموع استهلاك الطاقة ، فقد بلغ عام ١٩٧٣ حوالى ٨٥٪ فى اليابان ، و٦٠٪ فى أوروبا الغربية ، و ٥٠٪ فى الولايات المتحدة [٤] ، وبالنسبة للولايات المتحدة الأمريكية ، فقد تصاعد اعتمادها على البترول المستورد بصفة عامة ، والبترول العربى بصفة خاصة ، فحتى أواخر الستينيات كانت الولايات المتحدة تسد حاجتها البترولية من إنتاجها المحلى بنسبة ٨٠٪ وتستورد نسبة الـ ٢٠٪ الباقية ، وفى عام ١٩٧٢ ازدادت الواردات الأمريكية من البترول بنسبة ٩٨٫٧٪ ، وفى عام ١٩٧٣ ازدادت الحاجة إلى الاستيراد بنسبة أكبر من عام ١٩٧٢ ،

---

(١) الكسندر ياكوفليف : العربية السعودية والغرب ، ص ١٢٥ ، ١٢٦ . ٥ خبير أمريكى فى الطاقة وسفير الولايات المتحدة بالسعودية .

(٢) مصطفى خليل : أزمة الطاقة فى الولايات المتحدة ، الأهرام ١٩٧٤ ، ص ٤٩ .

(٣) خليل إبراهيم حسين : المرجع السابق ، ص ٨٢ ، ٨٣ ، ٨٥ .

(٤) نفس المرجع : ص ١٠٧ ، ١٠٨ .

نتيجة خفض الإنتاج المحلى [١] ، وما يهمنا أنها كانت تستورد من البترول العربى حوالى ١ر٨ مليون برميل يوميًا (١٠٪ من احتياجاتها) ، يضاف إلى ذلك ما يصل إليها بطريق غير مباشر من البترول العربى بعد تكريره فى كندا وهولندا ، فلقد زادت واردات الولايات المتحدة من البترول بين أعوام ١٩٦٩ ، ١٩٧٢ بنسبة ٥٢٪ ، ولقد بلغت هذه الزيادة بالنسبة للشرق الأوسط ٨٣٪ [٢] وبصفة عامة فإن الموقف البترولى بالولايات المتحدة – كما أعلنه معهد البترول الأمريكى من يناير حتى أكتوبر ١٩٧٣ – كان على الوجه التالى :

• انخفض إنتاج البترول بنسبة ٢٪ ، فبلغ معدل الإنتاج ٨ر٨ ملايين برميل فى اليوم .
• زاد الطلب على المنتجات البترولية بنسبة ٨ر٦٪ عن العام الماضى ، وأصبح ١ر١٧٪ مليون برميل فى اليوم .
• ارتفع الاستيراد الإجمالى بنسبة ٤ر٣١٪ ، وبلغ ١ر٦ ملايين برميل فى اليوم من البترول الخام والمنتجات البترولية .
• انخفض المخزون البترولى ، وأصبح يمثل حاجة ٢٠ يومًا ، مقابل ٢١ يومًا فى العام الماضى .
• بلغ متوسط كميات البترول التى كررت فى المصافى الأمريكية ٥ر١٢ مليون برميل فى اليوم [٣] .

أما أوروبا الغربية فكانت تستهلك حوالى ١٥ مليون برميل يوميًا ، تعتمد منها على البترول العربى بنسبة ٦٥٪ [٤] ، وفاقت اليابان الدول الصناعية فى الاعتماد على البترول المستورد ، إذ تستورد حوالى ٧ر٩٩ ٪ من حاجتها البترولية (تمثل ٧٦٪ من الطاقة) يخص الشرق الأوسط منها ٨٠٪ ، مناصفة بين إيران من جهة ، والسعودية والكويت ، وغيرهما من الأقطار العربية من جهة أخرى [٥] .

---

(١) أحمد يوسف أحمد : المرجع السابق ، ص ١٠٠ .

(٢) Schmidt, Op. Cit, p. 213, 214, 215.

(٣) صلاح منتصر : حرب البترول الأولى ، الأهرام ١٩٧٥ ، ص ٩٧ ، ٩٨ .

(٤) Schmidt, Op. Cit, p. 213. 214.

(٥) Hurawitz, J.C. Op. Cit, p. 138.

ولكن مالبث أن حدث تحول فى موقف المملكة العربية السعودية ، إيجابيًا حول إمكانية استخدام البترول بشكل مؤثر وفعال ، يتفق والعمل نحو تحرير الأراضى المحتلة ، وهو ما ناقشه مجلس الوزراء المصرى فى اجتماعه فى ٥ أبريل ١٩٧٣ - كما سبق الإشارة - ففى مايو ١٩٧٣ ، زار الملك فيصل القاهرة ، وجرى بين العاهل السعودى والرئيس المصرى حديث حول المعركة القادمة ، وتساءل السادات عن إمكانية استخدام البترول فى المعركة ، فكانت إجابة الملك « إذا دخلتم المعركة فنحن معكم » (١) .

وفى نفس الشهر عقد مجلس الجامعة العربية اجتماعًا خاصًا لبحث هذه القضية ، وكان الموقف المتأزم فى الشرق الأوسط قد دفع فيصل لتغيير موقفه نحو استخدام البترول (٢) ويبدو أن هذه كانت نقطة البداية فى تحول المملكة السعودية إيجابيًا نحو استخدام البترول كأداة ضغط فى المعركة القادمة بشكل عام .

ففى أبريل ١٩٧٣ ، صرح وزير البترول السعودى ، أن زيادة إمدادات البترول إلى أمريكا ستتوقف على الاتجاه الأمريكى فى قضية النزاع العربى الإسرائيلى ، وتبع ذلك تصريحات مماثلة ، لا يمكن الإعلان عنها دون موافقة الملك فيصل (٣) ، بل إن الملك نفسه فى نهاية مايو ١٩٧٣ فى اللقاء الختامى لقاده (أرامكو) بجنيف ، أوضح ما تتعرض له العربية السعودية من خطر العزلة داخل العالم العربى ، بسبب السياسة الأمريكية ، وأكد لهم أنهم قد يخسرون كل شىء ، وأعقب ذلك تصريحات رسمية ، أدلى بها كل من زكى اليمانى وعمر السقاف ، حول إمكانية استخدام السعودية للبترول ، كسلاح سياسى (٤) .

وفى اللقاء الذى عُقد بين قادة (أرامكو) وكبار المسئولين السعوديين ، زكى اليمانى ، وعمر السقاف ، وفرعون ، والأمير نواف بن عبد العزيز ، وكمال أدهم ،

---

(١) محسن محمد : حرب البترول ... كتاب الإذاعة والتليفزيون رقم ٢٥ ، ص ١٠٨ وإبراهيم المسلم : المرجع السابق ص ٨٨ .

(٢) الكسندر ياكوفليف : المرجع السابق ، ص ١١٠ .

(٣) مصطفى خليل : المرجع السابق ، ص ٤٢٩ .

Dowty Alan, Middle East Crisis, p. 206.

(٤) الكسندر ياكوفليف : المرجع السابق ، ص ١١٠ .

وصلاح منتصر : المرجع السابق ، ص ٥٤ .

أكد الجانب السعودى أن العربية السعودية هى المدافع الوحيد فى المنطقة عن المصالح الأمريكية التى تتعرض للتخريب من قبل الصهيونية والشيوعية ، وطالبوا المستثمرين الأمريكيين ، أن يفعلوا شيئًا لتغيير موقف الحكومة الأمريكية ، وإنْ كانوا حقًّا « أصدقاء للعرب » ، وأدرك هؤلاء المستثمرون ، مدى الخطورة التى تهدد استثماراتهم ، فبذلوا كل جهد للاتصال بالجهاز الحكومى الأمريكى ، فى محاولة لتغيير اتجاه الولايات المتحدة إزاء قضية الشرق الأوسط .

فنشرت « موبيل أويل » إعلانًا مدفوع الأجر بجريدة « نيويورك تايمز » أشارت فيه إلى أى اتجاه ينبغى تغيير السياسة الأمريكية . وفى الفترة نفسها ألقى « ج . بيدج » أحد رؤساء (أرامكو) خطابًا بنفس المعنى السابق فى الجامعة الأمريكية ببيروت ، كما أرسل و. ميلر رئيس مجلس إدارة « سوكال » ، خطابًا إلى المساهمين ، أوضح فيه شعور العالم العربى المتصاعد بتخلى الولايات المتحدة عنه ، وفى نهاية خطابه يتوجه إلى الشعور الوطنى للمساهمين ، ليحثوا حكومتهم لتحقق السلام والاستقرار فى المنطقة ، وأنه « يجب أن نعترف بالمصالح الشرعية لكل شعوب الشرق الأوسط ، وأن نساعدها على تحقيق الأمن والمستقبل الاقتصادى الآمن » (١) .

وفى الثانى من أغسطس ١٩٧٣ ، تسلم وزير البترول السعودى نسخة من هذا الخطاب ، وطالب بنشره على الرأى العام فى الولايات المتحدة ، وأبرزت جميع الصحف العربية والسعودية بصفة خاصة ، خطاب ميلر فى صدر صفحاتها ، واعتبرته نقطة تحول فى السياسة الخارجية الأمريكية ، وأشار قادة (أرامكو) فى مراسلاتهم السرية إلى أن الخطاب قد ترك تأثيرًا كبيرًا على الملك فيصل باعتباره « خطوة حقيقية تجاه السعوديين والعرب الآخرين » (٢) .

وفى النصف الأول من عام ١٩٧٣ ، زار السعودية بدعوة من (أرامكو) أكثر من عشرة من الشخصيات الرسمية الأمريكية ، كان من بينهم كل من الجنرال ج . جود بايستر قائد القوات الأمريكية فى غرب أوروبا ، والأدميرال أ. كروافورد مساعد القائد ، وج . هوارد ، وس . داميكو ، وج . فود ، من أعضاء الكونجرس وغيرهم ،

---

(١) نفس المرجع ص ١١١ ، وص ٥٥ .

(٢) الكسندر ياكوفليف : المرجع السابق ص ١١٢ .

وسلمتهم الشركة مذكرة أوضحت فيها أن الدفاع عن مصالح شركات البترول الأمريكية مرتبط بتغيير سياسة الولايات المتحدة تجاه الشرق الأوسط ، وقد لعب السفير الأمريكي ج . ايكنز دورًا في هذا الصدد ، إذْ ألح على هذه القيادات استخدام علاقاتهم بالحكومة الأمريكية لشرح موقف العرب ، بل وأوصى زكي اليماني أن يظهر « الحب للشعب الأمريكي والقلق من السياسة الأمريكية » عند لقائه بممثل الرئيسي الأمريكي ... والتقى ميلر عدة مرات بنيكسون ، ووزير الخارجية روجرز ، وكيسنجر مساعد الرئيس لشئون الأمن القومي حين ذاك ، كما بذل أعضاء (أرامكو) جهدًا كبيرًا مع واشنطن (١) .

وبرغم هذا الاتجاه الجديد للمملكة العربية السعودية ، باستخدام سلاح البترول ، وهو ما أدى إلى تحذير مديرو شركات (أرامكو) لحكومتهم بضرورة تبني سياسة أكثر إيجابية تجاه القضايا العربية ، حرصًا على المصالح الأمريكية – فإن رد الفعل الأمريكي الرسمي تغافل كل هذه التحذيرات ، فقال جوزيف سيسكو مساعد وزير الخارجية الأمريكية : إنه سبق أن سمع مثل هذه التحذيرات من قبل ، وأن المعلومات التي استقاها من وكالة المخابرات المركزية تختلف عن معلومات هذه الشركات . كما أكد بيل كليمنتس نائب وزير الدفاع للمديرين الأربعة ، بأن العرب لن يتحدوا ، وأن مخاوف الشركات لا أساس لها ، لأن الملك فيصل يعتمد على الولايات المتحدة (٢) . بل إن الرئيس الأمريكي ، حذر هذه الدول في ٦ سبتمبر ١٩٧٣ من رفع أسعار البترول ، أو تأميم ممتلكات الشركات الأجنبية ، وتهديدها بفقد أسواق بيع الوقود السائل في الدول الغربية (٣) .

وعلى أية حال ، فإن موقف السعودية كان بداية لسياسة بترولية جديدة ، واقتضى الأمر ضرورة تدعيم هذا الاتجاه ، والخروج به إلى حيز الواقع والتنفيذ ، إذا أُريد تعبئة كل الجهود والطاقات العربية للمعركة القادمة .

---

(١) نفس المرجع والصفحة .

(٢) صلاح منتصر : المرجع السابق ، ص ٥٤ ، ٥٥ .

(٣) الكسندر باكوفليف : المرجع السابق ، ص ١١٢ .

رابعًا – مركز السعودية بين دول الخليج :

إن دول الخليج الأربع : الكويت ، وقطر ، وأبو ظبى ، والبحرين ، تتبع تقليديًا قيادة السعودية ، فهى – إلى جانب ارتباطها بالرياض بعلاقات سياسية عميقة فهناك تشابه بينها فى البناء السياسى والاتجاهات المحافظة ، وإن كانت الكويت تتبع سياسة أكثر استقلالية نظرًا لغناها ، وتأثرها بموقعها المجاور للعراق وإيران ، والاتجاهات السائدة فى كلتيهما (١) .

ويقول الدكتور مصطفى خليل : إن مَلك السعودية بين دول الخليج هو الملك ، وأن الملك فيصل ، وأثناء زيارة بعثة سيد مرعى للسعودية قد وعد بتمهيد الموقف أمام البعثة فى زيارتها للكويت وبقية دول الخليج ، وهو ما لمسته البعثة فى زيارتها لهذه الأقطار العربية (٢) . وقد اتبعت هذه الأقطار السياسة السعودية ، سواء فى اجتماع وزراء البترول فى الكويت أم بعده ، عندما اتبع فيصل سياسة الحظر البترولى (٣) .

وعندما وعد السادات الولايات المتحدة الأمريكية برفع الحظر البترولى فى يناير ١٩٧٤ ، وتشاور حافظ الأسد مع الملك فيصل فى الرياض ، اقتنع الملك بأهمية الحظر حتى يتم فك اشتباك مماثل لمصر ، على الجبهة السورية – سارعت الكويت ودولة الإمارات والدول العربية الأخرى ، بمساندة الموقف السورى (٤) . فكلمة فيصل لها التأثير القوى على دول الخليج (٥) .

وفى ضوء هذه الاعتبارات السابقة ، كان التنسيق السياسى أمرًا حيويًا ، مع المملكة العربية السعودية ، ومن ثم كانت زيارة أنور السادات للملك فيصل .

لقاء أنور السادات والملك فيصل :

كان من المتعذر الحصول على مصادر أساسية حول هذا اللقاء لعدة أمور :

---

(١) Vernon, Op. Cit, P. 62.

(٢) لقاء مع الدكتور مصطفى خليل .

(٣) Vernon, Op. Cit, P. 62.

(٤) محمود رياض : المرجع السابق ، ص ٤٩٩ .

(٥) لقاء مع المشير محمد عبد الغنى الجمسى .

١ – حداثة اللقاء .

٢ – أن لقاء السادات وفيصل كان لقاءً ثنائيًا ، والمباحثات الثنائية – وإن كانت لها عدة مزايا ، إذ تثير جوًا هادئًا متحررًا من الكلفة ، ويبعث على الثقة ، مما يتيح حرية المناقشة وتبادل الآراء ، ويساعد على الوصول إلى الاتفاق أو عدم الاتفاق فى الموضوع المطروح للمناقشة ، ولكن من ناحية أخرى ليست حديثًا خاصًا – إنما هى حلقة من حلقات النقاش حول موضوع معين ، ترسم على أساسها ما يتم فى الحلقات الأخرى ، وبالتالى فإن تسجيل ما دار فيها أمر واجب ، حتى يكون مرجعًا يسهل الرجوع إليه ، ويمكن تحديد نطاق الاطلاع عليه ، تبعًا لسريته ، وحسبما تقضى المصلحة والظروف ، ولكن « الحال لم تكن كذلك مع الرئيس السادات ، إلّا فيما ندر »[1] .

٣ – إن الأمر متعلق بخطة استراتيجية ضد إسرائيل .

وعلى ذلك لم نجد سوى خطوط عامة لهذا اللقاء ، مستندة على عدة محاور :

الأول : خط المواجهة المباشر مع إسرائيل ، وهو الخط الذى يعتبره السادات مجال الصراع المباشر .

الثانى : ضمان استخدام كل الطاقات العربية ، والطاقات المؤثرة فى هذه المرحلة ، بحيث تكون هذه الطاقات العربية ذات تأثير فعال على الصراع المباشر .

الثالث : توسيع رقعة العمل العربى المشترك[2] .

وكانت بداية زيارة السادات للسعودية فى ٢٣ أغسطس ١٩٧٣ ، وامتدت إلى قطر وسوريا ، وغلب على اجتماعاتها شكل الاجتماعات المغلقة بين السادات وفيصل ، بقصرى الحمراء والضيافة بجدة[3] .

ويعتبر هذا اللقاء أهم لقاء فى المحيط العربى عام ١٩٧٣ ، حيث كاشف السادات فيصل بقرار الحرب ، باعتباره الوسيلة الوحيدة للتحرير وتحريك القضية ، وبعد أن

---

(١) محمد إبراهيم كامل : السلام الضائع فى كامب ديفيد ، كتاب الأهالى رقم (١٢) القاهرة . ص ١٧٥ ، ١٧٦ .

(٢) الأهرام ١٩٧٣/٨/٢٨ .

(٣) الأهرام ، والأخبار ، والجمهورية ١٩٧٣/٨/٢٨ .

شرح السادات الموقف العسكرى اقتنع فيصل ، ولكنه اشترط استمرار المعركة لوقت يسمح ببناء موقف عربى موحد ، رافضًا طلب إيقاف النار بعد يوم أو يومين ، ووافقه السادات ، وتعاهدا على التعاون الكامل ، وقال السادات : « إننى لا أطلب منك أى شىء محدد ، أطلب منك المساندة ، وبناء موقف عربى واحد » وقد أوفى الملك بما عاهد [١] .

ويؤكد المشير الجمسى مضمون هذا اللقاء ، ومن ناحية أخرى فهو يرى أنه يمكن أن تتخذ هذه الاتصالات كنوع من التضليل لإسرائيل ، فهى تبعد نية الحرب الوشيكة عن مصر ، حيث لا تزال تجرى اتصالاتها من أجل دعم المعركة [٢] ، وعلى أية حال فهذه الزيارة كانت مرتبطة بالمعركة واستخدام الإمكانيات العربية [٣] .

وبرغم عدم صدور بيان مشترك عن هذه الزيارة ، فإن البيان المشترك لزيارة السادات لقطر ، قد أكد على ضرورة حشد كل الطاقات العربية ، لمواجهة العدوان الإسرائيلى على الأراضى العربية المحتلة ، واسترداد شعب فلسطين لحقوقه المشروعة [٤] ، ولا أعتقد أن الاجتماع مع فيصل خرج عن هذا الإطار ، فالهدف هو العمل العربى الموحد ، وحشد الطاقات العربية ووضع الطاقة لخدمة المعركة القادمة [٥] ، إذ كان السادات يأمل من السعودية وقطر المساعدة والتأييد لمصر سياسيًا وماديًا وبتروليًا ، بدون أن يطلب شيئًا محددًا ، ولم تكن هذه الزيارة لطلب عون عسكرى [٦] ، ومن الطبيعى أن تتركز مساعدات هذه الدول ، فى الإمكانيات المادية والبترولية ، وهى ما تملكه وتتميز به ، إلى جانب التأييد السياسى ، ولقد أكد فيصل للسادات بأن إمكانيات السعودية تحت إمرة مصر ، وذلك بشكل عام ، ودون الدخول فى التفاصيل [٧] .

---

(١) موسى صبرى : وثائق حرب أكتوبر ، كتاب اليوم ، الطبعة الخامسة ، القاهرة ١٩٧٨ ص ٢٣٨ .

(٢) لقاء مع المشير محمد عبد الغنى الجمسى .

(٣) لقاء مع الدكتور محمد عبد القادر حاتم .

(٤) الأهرام ، والأخبار ١٩٧٣/٨/٢٨ .

(٥) الأهرام ١٩٧٣/٨/٢٨ .

(٦) لقاء مع المشير محمد عبد الغنى الجمسى .

(٧) لقاء مع الدكتور محمد عبد القادر حاتم .

فإذا كان الملك فيصل فى ربيع ١٩٧٣ - نظراً لاستمرار الإخفاق فى النزاع العربى الإسرائيلى - قد صار متقبلاً بحماس لفكرة استخدام البترول ، كأداة فى الدبلوماسية العربية الأمريكية ، فإن ضرورة توظيف سلاح البترول - باتباع خطوات محددة - كانت موضع حماس زائد فى عدة مشاورات للملك فيصل فى صيف ١٩٧٣ مع الرئيس المصرى السادات (١) .

وذهبت بعض الصحف اللبنانية فى تكهناتها إلى أن اتفاقاً قد تم بخصوص تنسيق مواقف الدول العربية المنتجة للبترول ، لاستخدام الطاقة سلاحًا فى المعركة ضد إسرائيل والبلاد التى تساندها (٢) .

فوصفت جريدة « الأنوار » اللبنانية ، مباحثات فيصل والسادات بأنها ذات طابع هام ، وقالت : إن التنسيق الاقتصادى بين القاهرة وجدة يسير قدمًا إلى الأمام ، وإن تنمية هذا التنسيق ، سيؤدى إلى إقرار استراتيجية مصرية سعودية مشتركة ، وخاصة أن السعودية مقتنعة بضرورة قيام جبهة موحدة لمواجهة الأخطار التى تهدد المنطقة ، وأن السادات وفيصل قد بحثا فى هذا الاجتماع موضوع البترول ، واتفقا على ضرورة تنسيق مواقف الدول العربية المنتجة للبترول لاستخدامه فى المعركة (٣) .

ونشرت مجلة « نيوزويك » تقريرًا لمراسلها بالقاهرة ، ذكر فيه أن الملك فيصل أبلغ الرئيس السادات - أثناء زيارته للسعودية - أنه جاد فى مسعاه للضغط على حكومة نيكسون ، لتتخذ موقفًا أكثر عدلا فى سياستها فى الشرق الأوسط ، ووصف المراسل هذه الزيارة ، بأنها أهم حدث سياسى مصرى منذ حرب ١٩٦٧ (٤) ، وقالت وكالة الأنباء الفرنسية : إن هذه الزيارة التى قام بها السادات للسعودية وقطر وسوريا تمثل تطورًا بالغ الخطورة فى معطيات مشكلة الشرق الأوسط ، ومن المتوقع حدوث تطورات مفاجئة خاصة فما يتعلق بالسياسة البترولية ، تضع النزاع العربى الإسرائيلى فى مقدمة الأحداث ، وقالت الدوائر الأجنبية تعقيبًا على هذه الزيارة ، بأن القاهرة أعدت خطة

---

(١) Vernon, op. Cit, p. 61.

(٢) الأهرام ١٩٧٣/٨/٢٩ .

(٣) الجمهورية ١٩٧٣/٨/٢٩ .

(٤) الأخبار ١٩٧٣/٩/٤ .

لاستخدام البترول والأموال العربية الضخمة ، فى ذروة النشاط الدبلوماسى العربى المكثف ، إلى السعودية وقطر وسوريا ، مبتدئة بذلك معركة البترول ضد الغرب [١] .

وحذرت الصحافة الغربية – بعد اللقاء المصرى السعودى – من خطر استخدام البترول كسلاح سياسى ، فتشير « النيويورك تايمز » إلى أن لعبة الضغط بالبترول قد بدأت للانتقام من أمريكا لمساندتها إسرائيل ، ولا تستبعد الصحيفة حدوث تغير فى السياسة الأمريكية لإسرائيل ، نتيجة للضغط الذى تمارسه الدول العربية المنتجة للبترول ، وطالبت بعدم تعديل السياسة الأمريكية تحت هذا الضغط [٢] . وأشارت « الجارديان » البريطانية إلى استعداد الدول البترولية لتجميد إنتاجها إلى أجل غير مسمى . وأضافت : إن الدول العربية المنتجة للبترول – حتى المعتدل منها – من الصعب عليها رفض أى دعوى لتخفيض إنتاجها . ورأت صحيفة « الديلى تلجراف » أن هذا التشدد المفاجىء الذى يُظهره الملك فيصل يأتى « كصدمة فظيعة للغرب ، ومن الممكن أن تؤدى هذه الخطوة فعلاً إلى تغيير فى السياسة الأمريكية » [٣] .

كما حذرت الشركات البترولية الأمريكية حكومتها ، بضرورة مراجعة سياستها فى الشرق الأوسط ، واتباع سياسة أكثر توازناً فى المنطقة [٤] ، وتضمن تقرير ديوان المحاسبة بالولايات المتحدة ، والذى بعث به إلى إحدى لجان الكونجرس ، أن الدول الأوروبية تنظر بعين القلق إلى موقف الولايات المتحدة المساند لإسرائيل ، وما يمكن أن يسفر عنه من تهديد لمصادر الطاقة القادمة من الشرق الأوسط [٥] .

ومن ناحية أخرى ، فإن الملك فيصل – بعد هذه الزيارة – أخذ يتحدث عن انحياز أمريكا للصهيونية ، وأنه من الصعب على العرب أن يزودوا من لا يعبأ بصداقتهم بالبترول ، فبرغم أن المملكة العربية السعودية كانت أقرب دول الشرق الأوسط إلى الولايات المتحدة ، فإن وحدة الهدف العربى كانت أقوى من هذه العلاقة ، وبدا واضحًا

---

(١) نفس المصدر والتاريخ .
(٢) الأهرام ، والأخبار ، والجمهورية ٢٩/٨/١٩٧٣ .
(٣) الأخبار ٢٩/٨/١٩٧٣ .
(٤) Manoharan Op. Cit, p. 84.
(٥) الجمهورية ١/٩/١٩٧٣ .

الاقتناع بما أسَرَّ به الرئيس المصرى لاستخدام البترول لصالح المعركة القادمة مع إسرائيل [١] .

وأكد الملك فيصل فى حديثه لمحطة الإذاعة الأمريكية تحذيره للولايات المتحدة من استمرار مساندتها لإسرائيل ، الأمر الذى يجعل من العسير على بلاده تزويد أمريكا بحاجتها بالبترول ، وأن هذه المساندة ستؤثر على علاقات الصداقة مع السعودية ، وعلى الولايات المتحدة أن تغير سياستها المساندة لإسرائيل [٢] ، كما تضمن حديثه لمجلة « نيوزويك الأمريكية » أن المنطق يتطلب ألَّا يتجاوز إنتاج البترول الحدود التى يمكن لاقتصاد السعودية استيعابه ، وأن تجاوز هذه الحدود يتطلب شرطين :

الأول : أنْ تُعاون الولايات المتحدة والغرب المملكة العربية السعودية فى مجال التصنيع حتى تجد موارد استثمارية بديلة للبترول .

الثانى : وهو ما يعنينا ، أن يتوفر المناخ السياسى الملائم ، الذى أفسدته أزمة الشرق الأوسط ، والأطماع التوسعية الإسرائيلية [٣] .

أما الطرف الثانى فى هذه المحادثات ، وأعنى به الرئيس أنور السادات ، فقد أكد إمكانية استخدام البترول كسلاح سياسى فى المعركة ، وذلك فى حديثه مع صحيفة « الموند الفرنسية » [٤] .

فالبترول واستخدامه كسلاح سياسى فى المعركة المقبلة مع إسرائيل ، كان موضوعًا رئيسيًا كما يبدو ، فى لقاء فيصل والسادات ، وأصبح يمثل خطًا سياسيًا واضحًا أكده الملك فى لقائه بالسادات ، فى مؤتمر عدم الانحياز بالجزائر فى سبتمبر ١٩٧٣ [٥] ، وفى لقائه بحافظ الأسد فى نفس المؤتمر ، طالبًا منه ضرورة استمرار المعركة لمدة تكفى لتعبئة الرأى العام العربى ، كما طلب من السادات من قبل [٦] .

---

(١) موسى بدوى : السادات رجل الحرب رجل السلام ، سلسلة اقرأ ، دار المعارف يناير ١٩٧٨ .

(٢) الجمهورية ١٩٧٣/٩/١ .

(٣) الأهرام ١٩٧٣/٩/٢٠ .

(٤) نفس المصدر ١٩٧٣/٩/١٢ .

(٥) محسن محمد : المرجع السابق ، ص ١٠٨ .

(٦) محمد حسنين هيكل : المرجع السابق ، ص ٢٤٣ .

ولقد حرص السادات فى هذا المؤتمر على الاجتماع بقادة الدول العربية المنتجة للبترول : الملك فيصل ، والأمير صباح السالم الصباح أمير الكويت ، والشيخ زايد ابن سلطان آل نهيان رئيس دولة الإمارات ، والشيخ خليفة بن حمد آل ثان أمير قطر ، والشيخ عيسى بن سالم آل خليفة ولى عهد البحرين ... وكان البترول أهم موضوعات البحث فى هذه الاجتماعات (١) .

وهكذا اطمأن السادات بدرجة كبيرة – بعد لقائه بالملك فيصل وقادة الدول العربية المنتجه للبترول – إلى استخدام البترول العربى فى المعركة القادمة ، طبقًا لما رآه مجلس الوزراء المصرى فى ٥ أبريل ١٩٧٣ ، وأصبح واضحًا أن للمعركة العسكرية سيُلازِمُها معركة سياسية ، أساسها استخدام البترول بشكل عام كأداة ضغط على الدول المساندة لإسرائيل ، بقيادة المملكة العربية السعودية أكبر الدول المنتجة للبترول ، فقد أكد وزير الدفاع السعودى بأن بلاده لن تستجيب لمطالب أمريكا بزيادة إنتاج البترول ، مالم تضغط على إسرائيل ، للانسحاب من الأراضى العربية المحتلة ، والاعتراف بحقوق الشعب الفلسطينى (٢) ، كما أعلن عمر السقاف فى الأمم المتحدة تعهد الحكومات العربية بوضع كافة إمكانياتها تحت تصرف مصر وسوريا (٣) .

المملكة العربية السعودية وحرب أكتوبر

لقد هيأت حرب أكتوبر العسكرية الفرصة الملائمة لاستخدام البترول كأداة ضغط على الدول المساندة لإسرائيل ، حيث برز دور المملكة العربية السعودية ، وفى هذا الصدد يمكن أن نميز بين مرحلتين : الأولى أثناء المعركة العسكرية ، والثانية بعد وقف إطلاق النار .

---

(١) محسن محمد : المرجع السابق ، ص ١٠٨ ، ١٠٩ .

(٢) الجمهورية ١٩٧٣/١٠/٦ .

(٣) الأخبار ١٩٧٣/١٠/٧ .

وموافاتهم بكل أساسيات الموقف السياسى والبترولى والعسكرى ، مع عرض الاقتراحات والبدائل ، على أن يترك لكل بلد عربى اتخاذ ما يراه وفقًا لظروفه ، فى إطار القضية الأساسية [١] .

ولقد أسفرت مناقشة مذكرة الدكتور مصطفى خليل ، والتى شارك فيها سيد مرعى ، والدكتور محمود فوزى نائب رئيس الجمهورية ، ومحمد حسنين هيكل ، عن عدم استخدام البترول كسلاح تهدد به الدول العربية من تشاء ، فالمصلحة القومية تقضى باستخدامه كسلعة اقتصادية واستراتيجية ، سلعة اقتصادية : أى من حق الدول المنتجة له أن تزيد إنتاجه أو تنقصه محافظة على ثروتها الطبيعية ، وسلعة استراتيجية : بمعنى « إذا احتاج العالم العربى سلعة استراتيجية أخرى هى السلاح ، وإذا منعت دولة منتجة للسلاح هذه السلعة التى تنتجها عن العالم العربى فإن من حق العالم العربى فى هذه الحالة أن يمنع تصدير سلعته الاستراتيجية عن تلك الدولة » . يضاف إلى ذلك أن من حق العالم العربى ، منع سلعته الاستراتيجية فى هذه الحرب عن إسرائيل ومن يُساند إسرائيل ، مع مراعاة التمييز فى المعاملة البترولية بين الصديق والعدو ، وأن هدف استخدام البترول العربى هو حماية القضية العربية ، وأن تخفيض الضخ يتناسب مع تحذير الدول لمواقفها من القضية العربية [٢] .

كما تضمنت مذكرة الدكتور مصطفى خليل ، ضرورة ألا يقل سعر البترول عن مثيلاته من مصادر أخرى للطاقة ، وألّا يزيد إنتاج الدول المنتجة للبترول عن المعدل الذى يهيىء لها قدرًا معقولا لأرباحها [٣] .

ويبدو أنه لم تكن هناك دراسات حول كيفية استخدام البترول فى المعركة ، حتى الخارجية المصرية ، برغم تشكيل هيئة خاصة عُهد إليها بحث الإمكانات المختلفة ، للإجراءات التى يمكن اتخاذها فى هذا الصدد ، فلم تقدم شيئًا يذكر [٤] ، والدراسة الوحيدة التى تم الاعتماد عليها ، هى الدراسة التى قدمها الدكتور مصطفى خليل بالمضمون السابق ، بل لم تكن هناك دراسات تتناول البترول واستخدامه فى العالم العربى [٥] .

---

(١) نفس المرجع ، ص ٧٣٦ .

(٢) نفس المرجع ، ص ٧٣١ ، ٧٣٢ ، لقاء مع الدكتور مصطفى خليل .

(٣) محمد حسنين هيكل : المرجع السابق ، ص ٢٤٥ .

(٤) نفس المرجع : ص ٢٤٣ ، ٢٤٤ .

(٥) لقاء مع الدكتور مصطفى خليل .

وغادرت البعثة – برئاسة سيد مرعى ، وعضوية الدكتور مصطفى خليل ، واللواء سعد القاضى – القاهرة صباح ٨ أكتوبر ١٩٧٣ إلى جدة ، ومنها إلى الرياض [١] ، وفى الرياض كان لقاء البعثة المصرية مع الملك فيصل بقصر الضيافة ، وأخذ أعضاؤها يشرحون له الموقف ، المهندس سيد مرعى من الناحية السياسية ، ومصطفى خليل من ناحية البترول العربى طبقًا للخطوط السابقة ، واللواء القاضى من ناحية تطورات الموقف العسكرى فى سيناء والجولان ، وبارك الملك هذه الخطوات العسكرية ، وأبدى أمله فى الصلاة فى القدس [٢] .

واجتمع مجلس الوزراء السعودى ، ووافق على المقترحات المصرية ، كما استجاب الملك لما طلبه أشرف مروان من أسلحة ، ثم كان اللقاء الثانى مع البعثة المصرية مساءً ، وحضره رشاد فرعون مستشار الملك ، والأمير نواف بن عبد العزيز ، وتم فى هذا اللقاء مزيد من الشرح بالنسبة للدور الأمريكى والبترول السعودى ، وأوضح سيد مرعى تحذيرات الملك فيصل السابقة لشركات (أرامكو) ، بعدم السماح بانعزال السعودية ، بسبب فشل الولايات المتحدة فى مساندة القضية العربية ، بدون جدوى ، وأن الأمر يتطلب وضع هذه التحذيرات موضع التنفيذ ، ودار حوار حول نسبة تخفيض إنتاج البترول ، فاقترح فيصل ١٠٪ ، ولكن الوفد المصرى فضل البداية بنسبة ٥٪ ، وتتزايد النسبة بعد ذلك ، إذا لم يحقق التحذير هدفه [٣] .

واقترح الوفد المصرى استدعاء القائم بالأعمال الأمريكى ، وإعلامه بموجز لما تم مناقشته ، وأن يقدم وزير الخارجية السعودى الموجود فى واشنطن ، شرحًا مماثلا للرئيس الأمريكى ، وقد عمل الملك بالاقتراحين [٤] .

وكان موقف فيصل مدعاة لأن تقترح مصر دعوة وزراء البترول العرب للاجتماع بالكويت لاتخاذ موقف عربى موحد ، ووافق الملك ، كما قدم دعمًا ماليًّا لمصر قدره ٤٠٠ مليون دولار ، فضلاً عن تمهيده لزيارات الوفد المصرى لدول الخليج [٥] .

---

(١) سيد مرعى : المرجع السابق ، ص ٧٣٨ ، محمد حسنين هيكل : المرجع السابق ص ٢٤٤ .

(٢) سيد مرعى : المرجع السابق ، ص ٧٣٩ ، لقاء مع الدكتور مصطفى خليل .

(٣) سيد مرعى : المرجع السابق ، ص ٧٤٠ ، ٧٤١ .

(٤) نفس المرجع ، ص ٧٤٠ ، ٧٤١ ، محمد حسنين هيكل : المرجع السابق ، ص ٢٤٦ ، ٢٤٧ ، لقاء مع الدكتور مصطفى خليل .

(٥) سيد مرعى : المرجع السابق ، ص ٧٤٤ ، ٧٤٥ ، ٧٤٧ ، لقاء مع الدكتور مصطفى خليل .

وتوالت بعد ذلك الخطوات السعودية لدعم المعركة ، ففى ١٤ أكتوبر ١٩٧٣ أصدرت وزارة الدفاع والطيران السعودى بيانًا باستعداد المملكة بوضع إمكانياتها فى المعركة ، وعلى الرغم من وجود قوات سعودية على خط المواجهة الأردنية ، فإن الملك فيصل أمر بتحريك قوات أخرى على الجبهة السورية [١] ، واعتبرت القاهرة هذا التحرك السعودى حدثًا سياسيًا بارزًا أكثر منه حدثًا عسكريًا ، وأن هذا القرار هو نتيجة التقارب المصرى السعودى [٢] .

عمر السقاف يتحدث باسم العرب فى واشنطن :

اتفق محمود رياض مع وزراء الخارجية العرب بنيويورك ، على مواصلة الاجتماعات للاتفاق على موقف موحد فى الأمم المتحدة ، ونظرًا للمساندة الأمريكية لإسرائيل ، فقد تم الاتفاق على أن يسافر إلى واشنطن وفدٌ يمثل السعودية والجزائر والمغرب والكويت لمقابلة نيكسون لإقناعه بعدم الإسراف فى معاداة العرب ، وتحدد يوم ١٧ أكتوبر موعدًا للمقابلة [٣] ، وتم الاتفاق على المطالب العربية فى مذكرة تضمنت الانسحاب الإسرائيلى من الأراضى المحتلة ، واحترام حقوق الشعب الفلسطينى ، ومطالبة الولايات المتحدة بالامتناع عن مساندة العدوان الإسرائيلى [٤] .

والتقى هنرى كيسنجر بالوزراء العرب أولا ، وأوضح لهم أن هدف الولايات المتحدة العاجل هو وقف إطلاق النار ، على أن تبذل بعد ذلك الجهود الدبلوماسية ، لإحلال سلام عادل ودائم ، وأن إطالة النزاع قد تؤدى إلى مجابهة القوتين العظميين ، وعلى الأرض العربية ، وقال : « ليس بالإمكان الآن المطالبة بالتأكيد على القرار رقم ٢٤٢ ، الذى صيغ بشكل غامض ، كما أننا لا نستطيع الحصول على تعهد من الإسرائيليين بالعودة إلى حدود ماقبل حرب ١٩٦٧ ، وإذا صممتم على اتخاذ جميع هذه الأمور شرطًا مسبقا لوقف إطلاق النار ، فإن الحرب لابد مكملة طريقها ... » [٥] .

---

(١) حمدى الطاهرى : حرب أكتوبر فى الإعلام العالمى ، الطبعة الثانية ، القاهرة ص ٢٣٦ ، ٢٣٧ .
هنرى كيسنجر : المرجع السابق ص ٣٤٧ .
الأخبار ١٩٧٣/١٠/١٥ .

(٢) حمدى الطاهرى : المرجع السابق ، ص ٢٤٧ .

(٣) نفس المرجع ، ص ٢٩٢ ، ٣٣٨ ، محمود رياض : المرجع السابق ، ص ٤٥٢ ، ٤٥٣ .

(٤) محمود رياض : المرجع السابق ، ص ٤٥٤ .

(٥) هنرى كيسنجر : المرجع السابق ، ص ٤٠٧ ، ٤٠٨ .
محمد حافظ إسماعيل : أمن مصر القومى فى عصر التحديات ، القاهرة ١٩٨٧ ، ص ٣٤٢ ، ٣٤٣ .

وأوجز عمر السقاف أمام نيكسون المطالب العربية ، فإسرائيل لها حق البقاء ، ولكن داخل حدود ماقبل حرب ١٩٦٧ ، وبالتالى عليها الجلاء عن الأراضى التى احتلتها فى هذه الحرب ، واحترام حقوق اللاجئين فى العودة إلى أراضيهم ، وتعويضهم عما فقدوه [١] . ولم يَعِد نيكسون بأكثر من العمل على وقف إطلاق النار ، والسعى من هذا المنطلق ، لتحقيق تسوية على أساس القرار رقم ٢٤٢ ، وامتنع عن أى التزام بإعادة إسرائيل إلى حدود ماقبل ١٩٦٧ [٢] .

وكرر نيكسون ما ذكره كيسنجر للوزراء الأربعة ، من أن المستشارين الأمريكيين أخطروه فى البداية بأن إسرائيل ستكسب الحرب سريعًا ، ولكن يبدو أن العرب قد نجحوا فى تحقيق أكثر مما كان متوقعًا ، بل إنه يعتقد « أن العرب أنفسهم لم يتوقعوا هذا النجاح الكبير » [٣] . واجتمع نيكسون بعد هذا اللقاء بعمر السقاف لوقت قليل [٤] ، وأعلن الوزير السعودى عقب هذا اللقاء بأن الرجل الذى استطاع إنهاء حرب فيتنام لابد أن يلعب دورًا فى تسوية النزاع فى الشرق الأوسط ، وأنه يتحدث باسم الدول العربية الثمانية عشرة التى قررت القيام بهذا السعى لواشنطن [٥] .

التقى كينسجر بالوزراء الأربعة مرة أخرى ، وأكد أن انسحاب إسرائيل إلى خطوط ٥ يونيو يشكل خطرًا عليها ، كما أن إقامة الدولة الفلسطينية فيه هلاك لإسرائيل أو الأردن ، وأن مساعدة إسرائيل هو لتحقيق التوازن ، ولم ينتج عن هذا اللقاء تغير إزاء التحيز الأمريكى لإسرائيل [٦] .

استخدام البترول :

أما السياسة البترولية الجديدة وتطورها فلن نتعرض لها بالتفصيل ، إلا بقدر ما يوضح دور المملكة العربية السعودية فى هذا المجال ، فقد قدمت حرب أكتوبر فرصة

---

(١) هنرى كيسنجر : المرجع السابق ، ص ٤٠٨ .
(٢) نفس المرجع : ص ٤٠٨ ، ٤١١ ، محمد حافظ إسماعيل : المرع السابق ، ص ٣٤٣ .
(٣) محمود رياض : المرجع السابق ، ص ٤٥٥ .
(٤) الأخبار ١٨/١٠/١٩٧٣ .
(٥) كيسنجر : المرجع السابق ، ص ٤١١ ، والأهرام ، والأخبار ، والجمهورية ١٨/١٠/٧٣ .
(٦) محمد رياض : المرجع السابق ، ص ٤٥٥ ، ٤٥٦ .

فريدة للدول العربية المنتجة للبترول ، لاستخدام البترول سياسيًا واقتصاديًا (١) ، وهو ما يُعَدُّ تطويرًا للسياسات العربية لتحقيق أهداف سياسية (٢) ، وهناك عدة أمور كان لها تأثيرها فى هذا الصدد .

مفاجأة التنفيذ :

بصفة عامة ، منذ أن ظهرت المشكلة الفلسطينية عام ١٩٤٨ ، كانت الدول العربية المنتجة للبترول ، تهدد باستخدام البترول كسلاح سياسى ، ولكن هذه التهديدات المتكررة ، لم تسفر عن شىء ، مما جعل الدول الصناعية تشك فى إمكانية استخدامه (٣) ، ويرجع ذلك إلى عدة أمور ، منها :

١ - أن درس عامى ١٩٥٦ ، ١٩٦٧ ، يشير إلى أن المقاطعة من الصعب حدوثها .

٢ - أن الدول العربية لا تستطيع أن تتعاون معًا (٤) ، فكانت العلاقات العربية مثقلة بخصومات طويلة كان من الصعب محوها فى مدة وجيزة ، مهما كانت الحماسة الطارئة فى أيام الحرب المعدودة (٥) .

فلم يكن العالم يتوقع من العرب القدرة على التنفيذ - برغم كثرة تحذيراته - فهم لا يستطيعون تحقيق مثل هذه الوحدة العملية ، فقد تعود العالم على رؤية العالم العربى منقسمًا على نفسه ، الأمر الذى يحول بينه وأى اتفاق حول استخدام البترول بأية صورة من الصور (٦) ، بل إن الولايات المتحدة - الموجه إليها الضغط البترولى - بَنَتْ سياستها على استحالة حدوث موقف عربى موحد ، لهذه الانقسامات العربية ، وأنهم لا يملكون القوة على التصدى لوكلائها العسكريين ، الذين أناطت بهم الحفاظ

---

(١) Udovitch, A.L., the Middle East, oil, conflict, hope, U.S.A, P. 457.

(٢) نازلى شكرى : المرجع السابق ، ص ٥٢ .

(٣) Hurewitz, J.C., Op. Cit., p. 3.

(٤) Dowty Alan, Middle East crisis, p. 206.

(٥) صلاح العقاد : مأساة يونيو ١٩٦٧ ، ص ٢٧٦ .

(٦) عاطف سليمان : النفط العربى سلاح فى خدمة قضايانا المصيرية ، بيروت ١٩٧٣ ، ص ٨٤ .

على مصالحها فى الشرق الأوسط لضمان تدفق البترول إليها ، ولكن معركة أكتوبر غيرت كل هذه الفرضيات [(١)] ، وبالتالى كان استخدام البترول فى حرب أكتوبر مفاجأة ، الأمر الذى زاد من فعاليته .

التمهيد السياسى لاستخدام البترول :

سبقت حرب أكتوبر استعدادات مدروسة لاستخدام سلاح البترول ، وكان من أهمها إزالة الخلافات العربية ، ولعل مفهوم السادات لقضية الوحدة العربية ، الذى يختلف تمامًا عن مفهوم سلفه ، كان من أهم العوامل التى أزالت ما يمكن وصفه بالحرب الباردة العربية ، فكان مفهوم السادات قائمًا على أساس التضامن بين الحكومات العربية بدون المساس بالكيانات الإقليمية فى المرحلة الحالية ، كما كَفّتْ مصر عن تصنيف الأنظمة العربية القائمة بين تقدمية ومحافظة [(٢)] ، وكما سبق القول ، فقد قامت مصر بجهود كبيرة مع الدول المنتجة للبترول ، وفى مقدمتها السعودية ، للوصول إلى خطة عربية موحدة لاستخدام البترول فى الجولة العسكرية القادمة مع إسرائيل .

النصر العسكرى فى حرب أكتوبر :

إن حرب أكتوبر ١٩٧٣ – طبقًا للتوجيهات الاستراتيجية الصادرة بشأنها فى الأول والخامس من أكتوبر ، وبكل المقاييس – قد أثبتت القدرة العربية على القتال والصمود ، وحطمت نظرية الأمن الإسرائيلى ، فقد استطاعت القوات المصرية عبور قناة السويس ، وتحطيم خط بارليف ، وهو أمر لم تشهده الجولات العربية الإسرائيلية ، فضلًا عن استمرار الحرب فترة ليست بالقصيرة بالنسبة لسابقتها ، وهو أمر هيأ الظروف لاستخدام البترول كأداة ضغط بالنسبة للدول المساندة لإسرائيل ، ونستطيع أن نتصور انتكاسه جديدة فى أكتوبر – لا قدر الله – الأمر الذى يجعل من الصعب أن نتصور ، مجرد التفكير الرسمى لاستخدام البترول بشكل يخدم القضية ، كالصورة التى تحققت نتيجة للموقف العسكرى فى أكتوبر ١٩٧٣ .

---

(١) مصطفى خليل : المرجع السابق ص ٦ ، ٧ .

(٢) صلاح العقاد : مأساة يونيو ١٩٦٧ ، ص ٢٧٧ .

انحسار النفوذ الغربى :

لقد سبق القول عن أهمية البترول العربى - والسعودى بصفة خاصة - فى السوق العالمى ، عند الحديث عن الثقل البترولى للسعودية ، ومما زاد من خطورة هذه الأهمية أنه عندما قامت حرب أكتوبر كان تفاعل أوروبا مع الشرق الأوسط قد شابه اتجاهان متضادّان ، الأول يتمثل فى عدم القدرة على التأثير على أحداث المنطقة ، والأمر الثانى هو النمو غير المتوازن فى سوق البترول العالمية ، وزيادة الاعتماد على بترول المنطقة العربية [١] ، فأوروبا الغربية عام ١٩٧٣ كانت تستورد ٧٠٪ من طاقتها من الشرق الأوسط ، وفى الوقت الذى زاد اعتمادها على بترول الخليج فإن سيطرتها على الأحداث فى المنطقة قد انتهى ، فقد أجلت بريطانيا جميع قواتها من الخليج بنهاية عام ١٩٧١ ، وبرغم أن الولايات المتحدة الأمريكية قد حافظت على علاقاتها القوية مع كبرى الدول البترولية فى المنطقة - لا سيما السعودية وإيران - فإن مصالح هؤلاء القادة العرب لم تكن متماثلة مع مصالح الولايات المتحدة ، برغم مشاركتهم إياها فى ضرورة إقرار الأمن فى المنطقة وإقصاء النفوذ السوفيتى [٢] ، فى نفس الوقت الذى زاد استيراد الولايات المتحدة للبترول العربى من ٣٪ عام ١٩٦٧ إلى ١٥٪ عام ١٩٧٣ [٣] .

ومن جهة أخرى ففى الفترة بين ١٩٦٧ و ١٩٧٣ زاد تنظيم الدول المصدرة للبترول (الأوبك) ، وفى نفس الوقت ، تآكلت القدرة الاحتياطية البترولية خارج العالم العربى ، مما قلل من قدرة السوق العالمية للبترول فى مواجهة أى انقطاع فى الإمدادات البترولية [٤] .

الدور البارز للملك فيصل :

إن للملك فيصل دورًا بارزًا فى هذا المضمار ، فحرب أكتوبر ١٩٧٣ وما صاحبها من تطورات بترولية ، كانت ثمرة تضامن وتنسيق سواء فى المجال العسكرى

---

(١) Hurewitz J.C. Op. Cit., P. 111.

(٢) Dougharty, E. James, Pfaltz graff, L.Robert, American foreign policy F.D.R. to Reagun, P. 266.

(٣) صلاح العقاد : المرجع السابق ، ص ٢٧٦ .

(٤) Hurowitz, J.C., Op. Cit, P. 111.

بين مصر وسوريا ، أو فى « المجال السياسى والاقتصادى الذى لعب فيه الملك فيصل ملك السعودية دورًا كبيرًا ، وشاركت فيه غالبية الدول العربية بشكل أو بآخر »[١] ، ويقول الدكتور عبد العظيم رمضان : إنه بعد زيارة المهندس سيد مرعى للسعودية ودول الخليج تبلورت سياسة عربية جديدة ، و « يبرز دور قيادى جديد للمملكة العربية السعودية تحت قيادة الملك فيصل ، قُدر له أن يفتح صفحة جديدة فى حرب أكتوبر بعد انطواء صفحتها العسكرية »[٢] ، ونستطيع أن نتفهم موقف الملك فيصل فى ضوء الاعتبارات التالية :

* أن الملك فيصل ، شعر أن الولايات المتحدة لا تتفهم موقفه بالنسبة للصراع العربى - الإسرائيلى .
* أن القرار الأمريكى بتأييد إسرائيل جعل موقفه موضع تساؤل .
* أن الملك فيصل ، لا يستطيع تجاهل القوى السياسية العربية ، الأمر الذى يعرضه للاستياء إذا حاول تجاهلها[٣] .

وبالتالى فإن المملكة العربية السعودية ، التى تأتى فى طليعة الدول التى تتعامل معها الولايات المتحدة ، قد ساهمت - فى عهد فيصل - عام ١٩٧٣ فى تنفيذ التوجيه العربى العام ، باستخدام البترول ضد الولايات المتحدة وغيرها من الدول المساندة لإسرائيل[٤] .

عدم التوافق الزمنى بين التصاعد العسكرى والسياسة البترولية :

إن بداية اتخاذ السياسة البترولية الجديدة - التى تمت فى اجتماع الكويت فى ١٧ أكتوبر ١٩٧٣ - كانت لسوء الحظ مع التدهور العسكرى على الجبهة المصرية ،

---

(١) محمد كامل إبراهيم : المرجع السابق ، ص ٢٥٠ .

(٢) عبد العظيم رمضان : المرجع السابق ، ص ١٥٣ .

(٣) Szyliowicz S. Joseph, Batd E. 6 Neill, Op. Cit, p.p. 205,206.

(٤) الكسندر رومانوف : نفط الشرق الأوسط ، ترجمة بسام خليل ، بيروت ١٩٨٤ ، ص ٦١ .

فلو « استند هذا السلاح الجديد على جبهة عسكرية قوية ، لحقق نتائج هائلة فى إجبار العدو على الانسحاب من الأراضى التى احتلتها فى يونيو ١٩٦٧ » (١) . وكان من المفروض أن يبدأ استخدام البترول فى المعركة فور قيامها بيومين أو ثلاثة على الأكثر ، وليس فى ١٧ أكتوبر ، فالعمل الاقتصادى تأخر كثيرًا عن العمل العسكرى (٢) ، وهذا لا يعنى أن تأثير العمل العسكرى كان بعيدًا عن استخدام البترول ، فالعمل العسكرى والاقتصادى مكملان لبعضهما (٣) ، فقد مهدت حرب أكتوبر الطريق لاستخدام البترول ، كأداة ضغط لصالح القضية العربية ، ومهما كان الأمر ، فقد كان له التأثير الهام والفعال ، برغم أنه لم يُستخدم بكامل قوته ، سواء فى فترة المعارك العسكرية ، أو بعد وقف إطلاق النار (٤) ، فالمساعدات السياسية والاقتصادية التى قدمتها الدول المنتجة للبترول للدول المجابهة قد زادت من قدرة مصر وسوريا فى المفاوضات الخاصة بإيقاف النار واتفاق السلام (٥) .

ملامح السياسة البترولية :

لقد أضافت قرارات وزراء البترول العرب بتخفيض معدلات الإنتاج ، ويحظر تصدير البترول إلى الدول المساندة لإسرائيل ، أبعادًا خطيرة إلى أزمة التوازن بين عرض البترول والطلب عليه ، فقد أدت حرب أكتوبر ١٩٧٣ إلى انخفاض العرض ، عندما توقف الضخ فى خطوط أنابيب البترول التى تنقل خامات السعودية وكركوك بالعراق ، مارة بسوريا إلى شرق البحر المتوسط (طرابلس ، بانياس ، صيدا) ، وهو ما يعنى توقف ثلثى الإمدادات التى كانت تُشحن من مصبات شرق البحر المتوسط ، والتى كانت تصل فى مجموعها إلى مليونى برميل يوميًا (٦) .

---

(١) عبد العظيم رمضان : المرجع السابق ، ص ١٦٠ .

(٢) لقاء مع المشير محمد عبد الغنى الجمسى .

(٣) أحمد يوسف أحمد : المرجع السابق ، ص ٨٣ .

(٤) عبد الستار الطويلة : المرجع السابق ، ص ٣٥٣ .

(٥) Syzliowicz S. Joseph, Bard E. óNeill, Op. Cit., p. 99.

(٦) محمد محمود شوكت : العلاقات السعرية بين الدول المصدرة والدول المستوردة ، ندوة جمعية الاقتصاديين العراقيين ، المجلد الثانى ، ص ١٥٩٨ ، ١٥٩٩ .

وبصورة عامة ، يمكن القول بأن الدول العربية قد أدارت معركة البترول بمرونة واعية ، فقد طبقوا خططهم فى خفض الإنتاج ، وفى تصنيف الأعداء ، وفى تحديد الأسعار ، أما عن خفض الإنتاج فيتضح ذلك فى مؤتمرات وزراء البترول المتتابعة ، منذ ١٧ أكتوبر ١٩٧٣ ، ومن جهة أخرى لم يكن استخدام سلاح البترول عشوائيًا بلا تمييز ، فقد صنف العرب الدول المختلفة ، طبقًا لموقفها من النزاع العربى الإسرائيلى ، فضلاً عن زيادة أسعار البترول من قبل الدول المنتجة [١] ، منتزعة ذلك الدور من شركات البترول العالمية ، فللمرة الأولى فى تاريخ الصناعة البترولية ، أخذت هذه الدول فى يدها زمام الأمور ، مخالفة بذلك العُرف الذى كان ساريًا على امتداد التاريخ ، فقد كانت الحكومات تطالب الشركات بزيادة الأسعار فإذا اقتنعت هذه الشركات تولت بنفسها إعلان الأسعار الجديدة ، باعتبارها صاحبة البترول المنتج ، والمتصرفة فيه ، ولا شك أن قيام الحكومات بتحديد إعلان السعر من جانبها هو الوضع الشرعى الأصيل ، باعتبار أن البترول ثروة قومية هالكة ، يتولى البلد المالك لها تحديد قيمتها ، بغض النظر عن العوامل التى يأخذها فى اعتباره عن التقييم [٢] . وقد كان لحرب أكتوبر العسكرية الفضل الأول فى هذه الزيادة ، فلم تستطع هذه الدول رفع أسعار البترول إلّا من خلال هذه الحرب [٣] .

اجتماع وزراء البترول بالكويت :

لقد تمثلت المبادىء التى ركز عليها الوفد المصرى ، فى اجتماع وزراء البترول العرب بالكويت فى ١٧ أكتوبر ١٩٧٣ ، فى ضرورة تجنب أى فشل فى الوصول إلى قرار جماعى ، حتى لا تكون هناك أى ثغرة تهدد العمل والإجماع العربى ، والحفاظ على سلامة اقتصاديات الدول العربية المنتجة للبترول ، فالهدف من استخدام البترول هو حفز الدول الصناعية الكبرى للضغط على الولايات المتحدة وإسرائيل ، ليصبح الموقف فى صالح العرب ، بالإضافة إلى تحييد بقية الدول ، وألّا ينال التخفيض من

---

(١) محمد عبد الغنى الجمسى : المرجع السابق ، ص ٤٤٩ .

(٢) محمد محمود شوكت : المرجع السابق ، ص ١٦٠٠ .

(٣) أحمد يوسف أحمد : المرجع السابق ، ص ٨٣ .

الدول الصديقة ، وأن تكون السياسة البترولية مرنة ، تتطور مع الظروف (١) ، وكانت توجيهات فيصل لوزير البترول السعودى ، بأن يكون التنسيق كاملا مع الوزير المصرى ، فى اجتماع وزراء البترول العرب (٢) .

ووافق وزراء البترول العرب (*) على تخفيض إنتاج البترول بنسبة ٥٪ من إنتاج شهر سبتمبر ، ثم تطبق نفس النسبة كل شهر بالتخفيض من الشهر السابق ، حتى تتحرر الأراضى العربية المحتلة منذ عام ١٩٦٧ ، واستعادة الحقوق المشروعة للشعب الفلسطينى (٣) ، وتقرر أن يطبق الخفض على الولايات المتحدة فى المقام الأول ، وعلى الدول الصناعية التى تساند إسرائيل ، مع حصول الدول الصديقة ، على مقرراتها البترولية (٤) .

وهذا التدرج فى استخدام البترول ، له ما يبرره ، فقد تطول الحرب مع إسرائيل ، وبالتالى فمن الأوفق توفير طلقات أخرى فى مخزون ترسانة البترول يمكن استخدامها مع تطور الموقف ، كما أن دول المواجهة يجب أن تأخذ دعمًا من أرباح البترول ، حتى تواصل الجهاد ، مع عدم الإضرار بالدول الصديقة (٥) .

---

(١) حمدى الكنيسى : الساعة ٢,٠٥ بدأ الطوفان ، دار المعارف ، القاهرة ١٩٧٦ ، ص ٥٥٦ ، عبد الكريم درويش ، ليلى تكلا : حرب الساعات الست ، مكتبة الأنجلو المصرية ، ص ٥٤٥ .

(٢) عبد الكريم درويش ، ليلى تكلا : المرجع السابق ، ص ٥٤٣ .

(*) وزراء السعودية ، الكويت ، العراق ، الإمارات ، البحرين ، قطر ، سوريا ، مصر ، الجزائر ، ليبيا . ولم يوافق العراق على قرارات اجتماع الكويت ، فكان يطالب بتأميم جميع الشركات الأمريكية فى المنطقة العربية ، وتحويل الأرصدة العربية ، ووقف إنتاج البترول ، وقد أمم العراق نصيب الشركات الأمريكية فى شركة بترول البصرة (أحمد يوسف أحمد : المرجع السابق ، ص ٨٧) .

(٣) أحمد جروش : غروب يوليو ، الطبعة الأولى ، القاهرة ١٩٨٧ ، ص ٢٠٥ .
حربى محمد : النفط العربى وأزمة الطاقة فى العالم ، دار الثورة بغداد ١٩٧٤ ص ٧٠ .
صلاح منتصر : المرجع السابق ، ص ٥١ ، ٥٢ .
محسن محمد : المرجع السابق ، ص ١٢٥ – ١٢٦ .
أحمد يوسف أحمد : المرجع السابق ، ص ٨٧ .
محمد محمود شوكت : المرجع السابق ، ص ١٥٩٩ .
مجلة الهلال أكتوبر ١٩٧٦ ، ص ٩٤ .
Schmidt, Op. Cit., P. 212., Manoharan, Op. Cit., .p. 85. 86.
Szyliowicz S. Joseph, Bard E. óNeill, Op. Cit., p. 185.

(٤) اللواء حسن البدرى وآخرون : حرب رمضان ، الجولة العربية الإسرائيلية الرابعة أكتوبر ١٩٧٣ ، القاهرة ١٩٨٧ ، ص ٢٨٣ ، الطليعة عدد نوفمبر ١٩٧٣ ، ص ٣٨ .

(٥) محمد طلعت الغنيمى : البترول العربى وأزمة الشرق الأوسط ، القاهرة ١٩٧٤ ، ص ١٩٥ .

وفى اليوم التالى (١٨ أكتوبر) أعلنت السعودية عن مضاعفة نسبة الخفض في إنتاجها البترولى ، لتصل نسبة الخفض إلى ١٠٪ (١) ، وهدد البيان الصادر عن القصر الملكى بوقف شحنات البترول السعودى إلى الولايات المتحدة ما لم تعدل سياستها فى حرب الشرق الأوسط (٢) ، وقال فيصل : « إننا كأصدقاء للولايات المتحدة ، ومن أجل تدعيم وتقوية هذه الصداقة ، ننصح الولايات المتحدة بأن تغير سياستها ذات الوجه الواحد ، والمائلة نحو الصهيونية ، والتى تقف ضد العرب ، وإننى أريد أن ألفت نظر أصدقائنا الأمريكيين لهذا الموقف الخطير ، حتى لا نصل إلى النقطة التى نضطر عندها لاتخاذ إجراءات أخرى » واعتبرت مجلة « التايم » الأمريكية ، بأن صدور هذه الكلمات من ملك عربى ، يعتبره الجميع واحدًا من أفضل أصدقاء أمريكا ، أمر مزعج ، برغم لهجتها المتزنة (٣) ، وأخبر فيصل السادات بقرار السعودية (٤) .

ولم تغير الولايات المتحدة سياستها ، ففى ١٩ أكتوبر طلب الرئيس الأمريكى من الكونجرس ، اعتماد مبلغ ٢ر٢ بليون دولار كمعونة عسكرية لإسرائيل ، وأكد وزير الدفاع الأمريكى بأن المساعدات الأمريكية لإسرائيل لن تقف عند حد ، فقررت الرياض حظر صادراتها من البترول إلى الولايات المتحدة وهولندا (٥) ، وقد جاء فى

---

(١) محمد حافظ إسماعيل : المرجع السابق ، ص ٣٤٣ .
أحمد حروش : المرجع السابق ، ص ٢٠٥ .
صلاح منتصر : المرجع السابق ، ص ٥٢ .
محسن محمد : المرجع السابق ، ص ١٣٤ .
نبيل محمود عبد الغفار : السياسة الأمريكية تجاه الصراع العربى الإسرائيلى ، أكتوبر ١٩٧٣ ، سبتمبر ١٩٧٨ الهيئة المصرية العامة للكتاب القاهرة ١٩٨٢ ، ص ١٠٥ .

(٢) حمدى الطاهرى : المرجع السابق ، ص ٣٦٧ .
هنرى كيسنجر : المرجع السابق ، ص ٤١٧ .
محسن محمد : المرجع السابق ، ص ١٣٤ .
نبيل محمود عبد الغفار : المرجع السابق ، ص ١٠٥ .
الأهرام ، الجمهورية ١٩٧٣/١٠/١٩ .

(٣) روز اليوسف عدد ٢٣٦٧ فى ٢٢ أكتوبر ١٩٧٣ –

(٤) الأهرام ١٩٧٣/١٠/١٩ .

(٥) أحمد حروش : المرجع السابق ، ص ٢٤٣ .
محمد حافظ إسماعيل : المرجع السابق ، ص ٣٤٣ .
محسن محمد : المرجع السابق ، ص ١٣٦ – ١٣٧ .

Szyliowicz S. Joseph, Bard E. óNeill, OP. Cit., p. 97.
Dowty Alan, Op. Cit., p. 242.

بيان رسمى أن السعودية اتخذت هذا القرار بسبب إمدادات السلاح الأمريكى لإسرائيل [(١)] ، ولقد اعتبرت المصادر الدبلوماسية هذا القرار تحولاً حاداً فى السياسة الخارجية السعودية ، التى عُرفت دائمًا بالمحافظة والميل إلى صداقة الولايات المتحدة [(٢)] ، وأرسل الأمين العام لاتحاد المحامين العرب للملك فيصل مشيدًا بقراره التاريخى بإيقاف تزويد الولايات المتحدة بالبترول لمناصرتها العدوان الصهيونى [(٣)] . وبعد يومين – أى فى ٢١ أكتوبر – كانت الدول العربية قد أوقفت تصدير بترولها إلى الولايات المتحدة [(٤)] ، وأصدرت أوامرها للشركات المعنية لتنفيذ ذلك ، ولما كانت واردات الولايات المتحدة من هذه الدول تزيد على نسبة الـ ٥٪ المقرر تخفيضها ، فإن تلك الدول قد زادت نسبة الخفض ، بحيث وصلت فى بعضها إلى أكثر من ٢٠٪ ، وبصفة عامة فقد زادت نسبة الخفض فيها جميعًا منذ الأسبوع الأول لتطبيق القرار عن ١٠٪ [(٥)] .

التحرك السعودى بعد وقف إطلاق النار :

فى ٢٢ أكتوبر ١٩٧٣ ، قبلت مصر وسوريا قرار مجلس الأمن بوقف إطلاق النار [(٦)] ، وأكد الديوان الملكى السعودى ، بأن موقف السعودية لم يتغير بشأن النزاع العربى الإسرائيلى ، وهو جلاء القوات الإسرائيلية من جميع الأراضى المحتلة ، بما فيها القدس ، وحصول الشعب الفلسطينى على حقوقه المشروعة ، مع بقاء القوات المسلحة السعودية فى الجبهة السورية ، والتزام السعودية بالقرارات التى اتخذتها ، وستتخذها لدعم القضية العربية [(٧)] .

وزار السادات السعودية والكويت لمزيد من التفاهم والتشاور حول التطورات الأخيرة فى المنطقة ، والزيارة القادمة لكيسنجر للقاهرة وجدة [(٨)] .

---

(١) نبيل محمود عبد الغفار : المرجع السابق ، ص ١٠٥ .

(٢) الأخبار ١٩٧٣/١٠/٢١ .

(٣) الجمهورية ١٩٧٣/١٠/٣٠ .

(٤) محسن محمد : المرجع السابق ، ص ١٣٨ .

(٥) أحمد يوسف أحمد : المرجع السابق ، ص ٨٧ .

(٦) Manharan, Op. Cit., p. 79.

(٧) الأخبار ١٩٧٣/١٠/٢٤ .

(٨) الأهرام : ١٩٧٣/١١/٢ ، الجمهورية ١٩٧٣/١١/٣ .

الاجتماع الثانى لوزراء البترول العرب :

واستمرت الدول المنتجة للبترول – وفى مقدمتها السعودية – على سياستها ، فاجتمع وزراء البترول العربى فى ٤ و ٥ نوفمبر بعد قرار وقف إطلاق النار ، وقبل زيارة كيسنجر للشرق الأوسط بفترة وجيزة ، فلم يكن توقيت الاجتماع أقل أهمية من قراراته (١) ، التى تضمنت خفض الإنتاج بنسبة ٢٥٪ من إنتاج شهر سبتمبر ١٩٧٣ ، والاستمرار فى التخفيض بمعدل ٥٪ شهريًا ، حتى يتم جلاء إسرائيل عن الأراضى العربية المحتلة عام ١٩٦٧ واستعادة حقوق الشعب الفلسطينى ، ودعوة الدول المستهلكة لأن تتخذ موقفًا أكثر إيجابية تجاه القضية العربية ، ليمكن استثناؤهم من القرارات البترولية ، مع الاستمرار فى الحظر الكامل على شحنات البترول إلى الولايات المتحدة وهولندا ، كما تقرر سفر وزير البترول السعودى اليمانى ، وزميله الجزائرى بلعيد عبد السلام ، للدول المستهلكة للبترول ، لكسب التأييد السياسى ، وشرح الإجراءات العربية (٢) ، كما قرروا تشكيل لجنة وزارية من السعودية والكويت وليبيا والجزائر لمراقبة تدفق البترول العربى فى الأسواق ، بحيث لا يتسرب إلى أية دولة أخرى مفروض عليها الحظر البترولى (٣) .

ويُلاحظ أن هذه القرارات قد جاءت بعد حوالى عشرة أيام من وقف إطلاق النار فى جبهتى القتال فى مصر وسوريا ، أى أن سلاح البترول العربى لم يتراجع بعد وقف إطلاق النار (٤) . الأمر الذى يؤكد للعالم – لا سيما الولايات المتحدة – بأن الدول العربية المصدرة للبترول ، تقف صفًا وحدًا فى المعركة (٥) .

---

(١) محمد طلعت الغنيمى : المرجع السابق ، ص ١٩٥ .

(٢) حمدى الكنيسى : المرجع السابق ، ص ٥٥٦ ، ٥٥٧ .

إبراهيم شحاته : حظر تصدير النفط العربى ، بيروت ١٩٧٥ ، ص ٩٦ ، ٩٧ .

حربى محمد : المرجع السابق ، ص ٧٥ ، ٧٦ ، صلاح منتصر : المرجع السابق ص ٦٠ ، ٦١ .

محسن محمد : المرجع السابق ، ص ١٤٧ ، ١٤٨ .

أحمد يوسف أحمد : المرجع السابق ، ص ٨٧ ، ٨٨ .

السياسة الدولية يناير ١٩٧٤ ، ص ٥٥ ، الجمهورية ، والأخبار ١٩٧٣/١١/٥ .

Vernon, Op. Cit., p. 65.

(٣) أحمد يوسف أحمد : المرجع السابق ، ص ٨٨ ، الأهرام ١٩٧٣/١١/٦ .

(٤) أحمد يوسف أحمد : المرجع السابق ، ص ٨٨ .

(٥) محسن محمد : المرجع السابق ، ص ١٥٠ .

تأثير القرارات البترولية :

وبلا شك أن هذه القرارات البترولية العربية قد أثرت على الحياة فى الولايات المتحدة ، وأوروبا الغربية ، واليابان .

فبالنسبة للولايات المتحدة ، فإن هذه القرارات تعنى حرمانها من ٣٥٪ من وارداتها البترولية ، وهو ما يوازى ١٣ر٦٪ من إجمالى الاستهلاك ، وبحلول فصل الشتاء من المتوقع أن يرتفع الطلب على البترول بنسبة ١٠٪ ، بل إن الطلب الأمريكى من المتوقع أيضًا أن يزداد فى يناير القادم بنسبة تصل إلى ٧٪ ، وهو ما كانت الولايات المتحدة تأمل الحصول عليها من بترول الخليج ، وعلى ذلك فإن العجز الحقيقى فى إمدادات الولايات المتحدة سيرتفع إلى ما لا يقل عن ٣ ملايين برميل يوميًا ، أى ١٨٪ من حجم الاستهلاك على الأقل ، وهى نسبة لا يمكن التهوين من شأنها بالنسبة لدولة صناعية كبرى [١] ، ولذلك وصف الرئيس الأمريكى فى خطابه لشعبه فى ٧ نوفمبر الأزمة بأنها حادة ، وأن حرمان الولايات المتحدة من البترول العربى سيؤدى إلى أخطر أزمة تشهدها أمريكا منذ الحرب العالمية الثانية [٢] .

وطلب نيكسون فى هذا الخطاب من الشعب الأمريكى اتخاذ عدة إجراءات ، تؤدى إلى الإقلال من استخدام الطاقة ، كتخفيض الترموستات فى المنازل ، والاكتفاء بسرعة السيارات ٥٠ ميلا فى الساعة ، وهو أمر يؤدى إلى توفير ٦٠٠ر٠٠٠ برميل من البترول يوميًا ، بل وطلب من الأمريكيين ، الاشتراك معًا لمواجهة احتياجاتهم اليومية ، واستخدام الأتوبيسات ، كما طلب من المصانع والمكاتب والمخازن الإقلال من استخدام الطاقة بنسبة ١٠٪ بإقلال درجة الترموستات ، أو تشغيلها ساعات أقل . بل وطلب الرئيس الأمريكى من الكونجرس السلطات للإقلال من خطوط الطيران [٣] ، كما أعدت البطاقات لاستخدامها فى توزيع البنزين عندما تقتضى الظروف [٤] .

أما أوروبا الغربية ، فقد بلغ ما حُرمت منه ٢٥٪ من وارداتها طبقًا لمعدلات ١٩٧٣ ، وهو ما يوازى ٣٣٪ من استهلاكها ، وستزداد النسبة مع زيادة

---

(١) محسن محمد : المرجع السابق ، ص ١٤٩ .

(٢) صلاح منتصر : المرجع السابق ، ص ٩٣ .

(٣) Schmidt, Op. Cit., p. 215. 216.

(٤) صلاح منتصر : المرجع السابق ، ص ٩٣ .

الاستهلاك وتخفيض الإنتاج [١] ، لذلك فقد تأثرت بشكل أشد ، لاعتمادها الأكبر على بترول العرب ، واستعد البريطانيون للإقلال من استخدام البترول ، ومنعت هولندا قيادة السيارات يوم الأحد ، وأشرفت الحكومة فى بلجيكا على بيع البترول ، وأغلقت لكسمبرج محطات البنزين فى نهاية الأسبوع ، وأدركت أوروبا أن سياسة الولايات المتحدة فى الشرق الأوسط هى السبب وراء هذه الأزمة [٢] .

أما اليابان فكانت تستهلك ٥٫٢٠٠٫٠٠٠ برميل فى اليوم ، ترتفع فى فصل الشتاء إلى ٥٫٨٠٠٫٠٠٠ برميل ، تستورد منها ٢٫٤٠٠٫٠٠٠ من البلاد العربية ، وهو ما يعنى أن اليابان ستعانى نقصًا فى أول ديسمبر يصل إلى ٧٠٠ ألف برميل فى اليوم [٣] ، ولقد كان متوسط التنمية فى اليابان ١١٫١٪ وهى نسبة كبيرة ، ولكن مع العجز البترولى يمكن أن تنخفض إلى أقل من ٦٪ ، الأمر الذى يترتب عليه بطالة مئات الألوف [٤] ، ولذلك أصاب الذعر أصحاب الصناعات المعتمدة على البترول ، وبدأ المستهلكون يخزنون السلع حتى أوراق التواليت ، التى خشوا أن تتأثر بنقص البترول ، وارتفعت أسعار الواردات البترولية إلى أربعة أضعافها ، وإجمالاً فلقد أصابت هذه الأزمة الاقتصاد اليابانى الكثير [٥] .

وكان من الطبيعى أن تحاول هذه الدول التحرك للإقلال من أثر هذه القرارات البترولية ، وَتبَنّى سياسة تتفق مع وجهة النظر العربية ، فى الصراع العربى الإسرائيلى .

لقاء فيصل وكيسنجر ، أو التحرك الأمريكى :

لقد أوضح استخدام العرب للبترول للولايات المتحدة ضرورة تحركها لإيجاد تسوية لمشكلة الشرق الأوسط ، وأن أى تباطؤ فى هذا الصدد سيعرضها لخسائر مادية ، فضلاً عن الضغط من جانب حلفائها فى دول غرب أوروبا واليابان [٦] ،

---

(١) محسن محمد : المرجع السابق ، ص ٩٣ .

(٢) Schmidt, Op. Cit., p. 216.

(٣) محسن محمد : المرجع السابق ، ص ١٤٩ .

(٤) صلاح منتصر : المرجع السابق ، ص ٩١ .

(٥) Hurewitz, Op. Cit., p. 52, 140.

(٦) نبيل محمود عبد الغفار : المرجع السابق ، ص ١٢٧ .

وبالتالى كانت زيارة هنرى كيسنجر - بناء على طلب نيكسون - ليبلغ الملك فيصل ، بالتطورات الجديدة ، ويناقش معه موضوع حظر البترول ، وفى البداية لم يكن فيصل يود لقاء كيسنجر ليهوديته ، ولكن فى النهاية ، أمكن ترتيب اللقاء بينهما [١] ، وكان ذلك هو ختام جولة كيسنجر فى البلاد العربية ، قبل سفره إلى طهران والشرق الأقصى [٢] ، وحضر اللقاء من الجانب السعودى الأمير فهد النائب الثانى لرئيس الوزراء ، ورشاد فرعون المستشار السياسى للملك ، وعمر السقاف وزير الدولة للشئون الخارجية [٣] .

وفى هذا اللقاء ألقى فيصل على كيسنجر محاضرة عن الحركة الصهيونية ، مؤكدًا أن الصهيونية والشيوعية متطابقان ، واستغرق ذلك ساعتين [٤] ، وأكد الملك فى هذا اللقاء استمرار حظر البترول عن الولايات المتحدة وهولندا ، حتى تنسحب إسرائيل من الأراضى العربية المحتلة ، وأن أى اتفاق للسلام يجب ألّا يضع القطاع العربى للقدس تحت السيطرة الإسرائيلية [٥] ، وأضاف بأن على أمريكا ألّا تنتظر شتاءً واحدًا قاسيًا ، إنما يمكن أن تنتظر وقف إمدادات البترول حتى عام ١٩٨٠ ، إذا لم تغير سياستها [٦] : وأشار فيصل إلى مساندة غالبية الدول للقضية العربية ، وهو ما سيكون له الاعتبار فى « علاقاتنا الخارجية ، ونحن أمة تعترف بالفضل ، ولا يمكن أن تقابله بالنكرا » ، وقال : « إن صداقتنا ليست من الأمور التى يمكن تجاهلها أو الاستغناء عنها ، إننا أقوياء بما نؤمن وبما نملك » [٧] .

ولم يصغ الملك لحجج كيسنجر حول ضرورة رفع الحظر البترولى [٨] ، فقد توقف القتال ، وأصبح الأمر أكثر تفاؤلاً لبدء المفاوضات [٩] ، وقال كيسنجر :

---

(١) إسماعيل فهمى : المرجع السابق ، ص ٩٥ .
(٢) الأهرام ١٩٧٣/١١/١٠ .
(٣) الجمهورية ١٩٧٣/١١/٢٢ .
(٤) إسماعيل فهمى : المرجع السابق ، ص ٩٥ .
(٥) الأهرام ١٩٧٣/١١/١٠ .
(٦) صلاح منتصر : المرجع السابق ، ص ٩١ .
(٧) الجمهورية ١٩٧٣/١١/٢٢ .
(٨) إسماعيل فهمى : المرجع السابق ، ص ٩٥ .
(٩) Schmidtm Op. Cit., p. 212, 213.

« لقد أثبتنا حسن النية ، بما قمنا ونقوم به من خطوات إيجابية » ، وكان رد فيصل بأنه يريد خطوات وأعمال ملموسة الأثر لا كلمات . وأوضح وزير الخارجية الأمريكية ، حاجة الرأى العام الأمريكى إلى تطور فى الموقف العربى يساعد على الاستمرار فى الجهود الأمريكية ، فأوضح الملك أن تطوير العلاقات السعودية الأمريكية لابد أن يسبقها عمل جدى ، له نتائج إيجابية من قبل الولايات المتحدة ، و « يجب أن تعتقدوا بأننا لن نبدل من موقفنا تجاهكم بسهولة ، ولن نسمح لعواطفنا أن تتغلب على عقولنا » (١) ، وأن الولايات المتحدة قد أخطأت فى الحكم على تصميم ووحدة الدول العربية المنتجة للبترول ، فى تحركهم ضد الغرب (٢) .

وكرر الملك فيصل مرارًا ، بأن إمكانيات السعودية من بترول وغيره ، موضوعة بالكامل تحت تصرف المعركة ، ما بقى الاحتلال الإسرائيلى للأراضى العربية ، واستمر التجاهل للحقوق الفلسطينية ، وأوضح كيسنجر أن عملية الانسحاب الإسرائيلى تستغرق وقتًا طويلا ، فكانت ملاحظة فيصل بأنه « لو خلصت النوايا ، ففى استطاعتكم إرغام إسرائيل على الانسحاب فورًا ، وفى فترة لا تتجاوز ثلاث أسابيع » . وتمسك الملك برأيه ، برغم اعتراض كيسنجر على هذه الفترة الزمنية (٣) .

وعلى الرغم من أن هذا الاجتماع لم يثمر بأية صورة ، فلم يدع فيصل لكيسنجر أية فرصة للشك فى تمسكه بموقفه (٤) ، فلقد تأثر وزير الخارجية الأمريكية بحزم الملك وتصميمه بالنسبة لمستقبل القدس ، وبالأسلوب الذى عبر به الملك عن نفسه ، وبالاستخدام الدقيق للكلمات فى المسائل التى تناولها ، ووصف كيسنجر فيصل بأنه « رجل يحترم كلمته » (٥) .

وهكذا فشلت مهمة كيسنجر ، لرفع الحظر البترولى مع السعودية ، وأوضحت تصريحات الأمريكيين عقب هذه الزيارة صلابة موقف فيصل ، وتمسكه بسياسته ، حتى تتحرر الأرض العربية ، وتعود القدس لأصحابها . وإذا كانت الدول المستهلكة

---

(١) الجمهورية ١٩٧٣/١١/٢٢ .

(٢) صلاح منتصر : المرجع السابق ، ص ٦١ .

(٣) الجمهورية ١٥ ، ١٩٧٣/١١/٢٢ ، الأخبار ١٩٧٣/١١/١٨ .

(٤) Schmidt Op. Cit., p. 213.

(٥) إسماعيل فهمى : المرجع السابق ، ص ٩٥ .

لديها احتياطى بترولى لمدة ثلاثة أشهر ، فإنها فى توقعاتها لإتمام شروط العرب سوف تحتاج لفترة أطول ، وكان ذلك مصدر قلق بالنسبة لها (١) .

وأكد الملك فيصل فى لقائه مع تقى الدين الصلح ، رئيس وزراء لبنان - وقت ذاك - خط السعودية ، وأوضح الأخير بأن الملك قد ألقى بثقله فى المعركة ضد إسرائيل ، ليس فى مجال البترول فقط ، بل سياسيًا وإعلاميًا كذلك . وأشارت صحيفة الأنوار « إلى مادار فى هذا اللقاء ، وأن السعودية تعلم بأن الولايات المتحدة هى القادرة على فرض الحل العادل ، وتنفيذ قرار مجلس الأمن ، كما أكدت الصحيفة ، أن السعودية على استعداد لخوض المعركة من جديد ، عسكريًا وسياسيًا وبتروليًا (٢) .

كما أصر الملك فيصل فى لقائه مع الصحافة المصرية على استمرار استخدام البترول والإمكانيات السعودية حتى تتحقق الأهداف العربية ، وأنه بغير التضامن العربى ، لن يستطيع العرب الوصول إلى تحقيق أهدافهم العادلة (٣) .

وأكدت القيادات السعودية المختلفة هذا المضمون ، فالأمير فواز بن عبد العزيز أمير منطقة مكة يعلن أن السعوديين على استعداد للعودة إلى التمر واللبن حتى تتحرر الأراضى العربية . وأوضح الشيخ هاشم رئيس الهيئة المركزية للتخطيط أن الدعم أولاً للمعركة قبل التنمية ، وأن موقف السعودية هو واجب قومى . وأكد الشيخ إبراهيم العنقرى وزير الإعلام بأن جميع الأجهزة الإعلامية بالمملكة فى خدمة المعركة ، وأن الموقف البترولى لن يتغير ، وكذلك التنسيق مع دول المواجهة ، وأشار كمال أدهم مستشار الملك إلى أنه لولا حرب أكتوبر وبطولتها لَمَا كان لسلاح البترول ذلك الأثر الذى نلمسه اليوم (٤) .

لقد كان الملك فيصل واضحًا فى موقفه العربى منذ البداية ، وعندما اتخذ قراره كان حاسمًا وحازمًا ، وعندما احتاجت مصر لرفع رصيدها من البترول لم يتردد فى إرسال ما تطلبه مصر ، وأعلن مساندته للدول المتحاربة (٥) .

---

(١) الأهرام ١٩٧٣/١١/٢٠ .

(٢) الأخبار ١٩٧٣/١١/٢٠ .

(٣) الجمهورية ١٩٧٣/١١/٢٢؛ لقاء فيصل مع الصحفى ممدوح رضا .

(٤) الجمهورية ١٩٧٣/١١/٢٩ .

(٥) عبد الكريم درويش ، ليلى تكلا : المرجع السابق ، ص ٥٤٢ ، ٥٤٣ .

وكان السفير الأمريكى الجديد بالسعودية « جيمس اكنز » ، قد ظل فترة بدون تقديم أوراق اعتماد ، والتى عجل بها زيارة كيسنجر للسعودية . ويقال فى الرياض : إنه لولا هذا السبب لما حدد موعد تقديم أوراقه حتى إتمام الانسحاب الإسرائيلى ، الذى أكد الملك للسفير استمرار الحظر البترولى حتى إتمامه [١] .

وربما استمرارًا لهذه السياسة ، فإن الملك فيصل قد أرسل للمرة الأولى إلى الرئيس السوفيتى « بود جورنى » برقية تهنئة بمناسبة الذكرى السنوية لثورة أكتوبر ١٩١٧ [٢] ، وكان هذا الإجراء الذى واكب زيارة كيسنجر للرياض مفاجأة تامه للدبلوماسيين الغربيين ، علمًا بأنه لا توجد علاقات دبلوماسية بين الرياض وموسكو وقت ذاك . [٣] . ومن المعروف أن هذه البرقية قد أرسلت عقب زيارة كيسنجر للسعودية [٤] .

التحرك الأوروبى :

تميزت السياسة العربية البترولية بالمرونة والاستجابة للمتغيرات التى حدثت على الساحة الدولية ، فلقد أحدثت القرارات العربية نوعاً من التناقض السياسى ، بين الولايات المتحدة وأوروبا الغربية ، التى رفضت – عدا البرتغال – أن تستخدم الولايات المتحدة قواعدها لإمداد إسرائيل بالسلاح أثناء حرب أكتوبر [٥] . ولقد أصدرت دول السوق الأوروبية نداءً دوليًا فى ١٣ أكتوبر ١٩٧٣ بإنهاء الصراع فى المنطقة ، ولكن بعد القرارات البترولية العربية . كان قرار وزراء خارجية دول السوق فى ٦ نوفمبر متضمنًا دعوة إسرائيل للعودة إلى خطوط وقف إطلاق النار فى ٢٢ أكتوبر ، واتباع المبادىء الآتية كأساس للاتفاق وفق قرار مجلس الأمن رقم ٢٤٢ فى ٢٢ نوفمبر عام ١٩٦٧ .

---

(١) الجمهورية ١٩٧٣/١١/٢٢ ، الأخبار ١٩٧٣/١١/١٣ .

(٢) Manoharan, Op. Cit., p. 81.

(٣) الأهرام ١٩٧٣/١١/١٠ .

(٤) الجمهورية ١٩٧٣/١١/١٥ .

(٥) Szyliowicz S. Joseph, Bard E. 6 Neill, Op. Cit., p. 99, 188.

(أ) رفض مبدأ ضم الأراضى بالقوة .

(ب) مطالبة إسرائيل بإنهاء احتلالها للأراضى العربية .

(جـ) احترام سيادة واستقلال كل دولة فى الشرق الأوسط ، وحقها فى العيش بسلام فى حدود آمنة معترف بها .

(د) الاعتراف بالحقوق الشرعية للشعب الفلسطينى .

ولإتمام هذا الاتفاق ، فقد أوصى القرار بضمانات دولية ، ومناطق منزوعة السلاح (١) .

وهكذا أدى استخدام العرب لسلاح البترول إلى اشتداد التناقضات وتعقد العلاقات بين المراكز الأساسية الثلاثة للعالم الرأسمالى : الولايات المتحدة ، وأوروبا الغربية ، واليابان ، واتهم الرأى العام والأوساط الحاكمة فى أوروبا واليابان ، الولايات المتحدة بالتساهل تجاه المعتدين الإسرائيليين ، الذين هم المسببون الرئيسيون للنزاع فى الشرق الأوسط ، وبالتالى لتفاقم أزمة الطاقة (٢) . فليس من الغريب أن تسرع أوروبا الغربية بالتعبير عن تفهمها الكبير للموقف العربى فى النزاع فى الشرق الأوسط ، ولقد كان بيان الدول أعضاء السوق الأوروبية المشتركة بداية للحوار العربى الأوروبى (٣) .

فلم يكن أحد يتوقع منذ ثلاثة أيام فقط (من تاريخ الاجتماع الثانى لوزراء البترول العرب) أن تذهب أوروبا إلى هذا الحد فى تحديد موقف سياسى فى قضية الشرق الأوسط . كما قالت صحيفة « لوفيجارو » ، فقد تراجعت دول السوق الأوروبية المشتركة - كما قالت صحيفة « لوموند » - أمام سياسة البترول العربية (٤) . واعتبر البعض ذلك استسلامًا للابتزاز العربى ، ومهما كان الأمر ، فإن سلاح البترول وتأثر

---

(١) صلاح منتصر : المرجع السابق ، ص ٦٢ ، محسن محمد : المرجع السابق ، ص ١٥١ ، محمد طلعت الغنيمى : المرجع السابق ، ص ١٩٧ .

Vernon, Op. Cit., p. 66,

Manoharan, Op. Cit., p. 81.

(٢) بونداريفسكى : سياستان إزاء العالم العربى ، ص ٢٣٦ .

(٣) الكسندر باكوفليف : المرجع السابق ، ص ١٢٦ .

(٤) صلاح منتصر : المرجع السابق ، ص ٩٠ .

أوروبا به كان العامل الحاسم فى تغير السياسة الأوروبية تجاه الصراع العربى الإسرائيلى [١] .

ولذلك فقد قرر وزراء البترول العرب فى اجتماعهم بفيينا فى ١٨ نوفمبر ١٩٧٣ - تقديرًا للموقف السياسى لدول السوق - عدم تنفيذ نسبة الخفض المقررة لشهر ديسمبر ، بالنسبة لهذه الدول ، مع استمراره للدول الأخرى ، واستمرار تنفيذ نسبة ٥٪ بالنسبة لشهر يناير ١٩٧٤ ، ويتناول جميع الدول غير المعنية بالقرار ، ويظل الحظر بالنسبة للولايات المتحدة وهولندا قائمًا ، وحيث أن هذا الخفض لا يتناول دول السوق الأوروبية ، فقد زادت هذه الدول من دورها فى إقرار السلام [٢] .

التحرك اليابانى :

عندما قامت أزمة الشرق الأوسط كان اهتمام الرأى العام فى اليابان ضعيفًا لعدة أسباب :

١ - بُعْد منطقة الصراع عن اليابان .

٢ - إن تجارة اليابان بالنسبة للبترول كانت تتم غالبًا عن طريق وسطاء ، كالولايات المتحدة وبريطانيا .

٣ - الاعتقاد بأن مهمة الأمم المتحدة منع الصراع العربى الإسرائيلى من التحول إلى صراع دولى .

ولكن سياسة البترول العربى قد أجبرت الحكومة والشعب اليابانى على الاهتمام بقضية الشرق الأوسط بصفة مباشرة .

ولقد أصرَّت الدول العربية على اعتبار أن حياد اليابان فى الصراع العربى الإسرائيلى هو موقف غير صديق ، وبالتالى كان تخفيض البترول المرسل إلى اليابان

---

(١) Hurewitz, Op. Cit., p. 118 - 120.

(٢) السياسة الدولية عدد يناير ١٩٧٤ ، ص ٥٦ ، ٥٧ .
صلاح منتصر : المرجع السابق ، ص ٦٣ .
أحمد يوسف أحمد : المرجع السابق ، ص ٨٨ .

كغيرها من الدول الصناعية ، وكان رد الفعل مزعجًا ، وتأثر الاقتصاد اليابانى كثيرًا .

وتركت اليابان خطوة تجاه الجانب العربى ، وأصدرت بياناً صحفيًا فى ٢٢ نوفمبر ١٩٧٣ تضمن وجوب انسحاب إسرائيل من كل الأراضى المحتلة في حرب ١٩٦٧ ، وإقرار حقوق شعب فلسطين ، واحترام قرارات الأمم المتحدة ، كقرار رقم ٢٤٢ ، وأن الحكومة اليابانية ستراقب الموقف فى الشرق الأوسط بكل اهتمام ، وأكدت ضرورة احترام سلامة وسيادة أراضى دول المنطقة [١] . وأشارت صحيفة « أورينتال إيكونومست » - لسان حال دوائر الأعمال اليابانية - بأن الحكومة اليابانية ، قد درست موضوع التعاون الاقتصادى ، ثمنًا لاستقرار تصدير البترول [٢] .

ولم يُقنع ذلك الدول العربية ، فاستمرت القيود بالنسبة لإمداد اليابان بالبترول ، فخطت الحكومة اليابانية خطوة أخرى ، إذ طلب رئيس الحكومة تاناكا Tanaka من نائبه ميكى Miki ، التوجه إلى منطقة الشرق الأوسط - كمبعوث خاص - لرفع القيود البترولية المفروضة على اليابان ، واستغرقت رحلة ميكى فى المنطقة الفترة من ١٢ إلى ٢٧ ديسمبر ، زار خلالها ثمانى دول : هى أبو ظبى ، العربية السعودية ، مصر ، الكويت ، قطر ، سوريا ، إيران ، العراق [٣] . وكان يرافق ميكى وزير التجارة والصناعة لإجراء مباحثات حول التعاون الاقتصادى ، كالمساهمة فى المشروعات والمساعدات المالية [٤] .

وكان اللقاء الحاسم بين ميكى وفيصل ملك العربية السعودية ، والمُصَدِّر الأول للبترول اليابانى ، والذى يتمتع بنفوذ سياسى لدى الدول العربية البترولية ، وتناول الحوار بينهما أيضًا مشكلة الدول الآسيوية التى أصبحت تعتمد على الأسمدة البتروكيمائية اليابانية لزيادة إنتاجها من الغذاء ، وكان الحصول على موافقة الدول العربية الأخرى - ولا سيما مصر - عاملا أساسيًا لليابان لإلغاء القيود البترولية ، وهو

---

(١) Hurewitz, Op. Cit., p. 138, 139.

(٢) الكسندر باكوفليف : المرجع السابق ، ص ١٢٦ .

(٣) Hurewitz, Op. Cit., p. 140.

(٤) الكسندر باكوفليف : المرجع السابق ، ص ١٢٦ .

صلاح منتصر : المرجع السابق ، ص ٩٢ .

ما هدفت إليه بعثة ميكى ، التى نجحت فى مهمتها ، ووافق الملك فيصل على رفع القيود البترولية عن اليابان (١) .

ولقد تعهد ميكى لمصر بقرض قيمته ٣٨ بليون ين للمرحلة الأولى لتوسيع وتعميق القناة ، بالإضافة إلى ٣٠ بليون ين كقرض سلعى . وقد تبودلت المذكرات بين الحكومتين بالنسبة للقرض الأول فى أبريل ١٩٧٥ ، وبالنسبة للقرض الأخير فى يوليو ١٩٧٤ (٢) .

وزاد اهتمام اليابان بقضية الشرق الأوسط فى عهد حكومة ميكى ، سواء فى بيانه فى الدورة العادية للمجلس التشريعى اليابانى فى يناير ١٩٧٥ ، أو على ساحة الأمم المتحدة فى يناير ١٩٧٦ (٣) .

وعلى أية حال ، ففى مؤتمر القمة العربى ، الذى انعقد بالجزائر فى الفترة من ٢٦ - ٢٨ نوفمبر ، تقرر إعفاء اليابان من نسبة الـ ٥ ٪ التى قرر وزراء البترول العرب إعفاء دول السوق الأوربية المشتركة منها خلال شهر ديسمبر ، مكافأة لها على البيان الذى أصدرته مؤيدة للحق العربى (٤) .

وفى ٢٥ ديسمبر ١٩٧٣ ناقش وزراء البترول العرب فى اجتماعهم بالكويت موقف اليابان بعد تغير سياستها إزاء القضية العربية ، وقرروا رفع القيود البترولية عنها (٥) .

وهكذا استطاعت الدول العربية المنتجة للبترول استخدامه كسلاح ، لكى تحظى بتأييد أوروبا الغربية واليابان للقضية العربية (٦) .

---

(١) Hurewitz, Op. Cit., p. 141.

(٢) لقاء مع الدكتور عبد القادر حاتم ، Hurewitz, Op. Cit., p. 141.

(٣) Hurewitz, Op. Cit., pp. 144, 145.

(٤) أحمد يوسف أحمد : المرجع السابق ، ص ٨٨ .
صلاح منتصر : المرجع السابق ، ص ٦٤ .

(٥) إبراهيم شحاته : المرجع السابق ، ص ١٠٣ .
محمد طلعت الغنيمى : المرجع السابق ، ص ١٩٨ .
الأهرام ، والأخبار ، والجمهورية ١٩٧٣/١٢/٢٦ .

(٦) Dougherty E. James, Pfaltzgraff L. Robert, Op. Cit., p. 266.

جهود الوزيرين السعودى والجزائرى فى أوروبا وأمريكا :

طبقًا لقرارات الاجتماع الثانى لوزراء البترول العرب بالكويت تحرك الوزيران بين دول أوروبا لشرح السياسة البترولية ، وكسب التأييد السياسى للقضية العربية ، ففى كوبنهاجن رد اليمانى على تهديدات كيسنجر ، باتخاذ إجراءات مضادة للمقاطعة العربية البترولية ، وأن موقف الولايات المتحدة لن يتغير بهذا الضغط [١] ، بأن السعودية ستخفض إنتاجها البترولى بنسبة ٨٠٪ فورًا ، إذا اتخذت الولايات المتحدة أو أوروبا أو اليابان ، أية إجراءات مضادة للخطر العربى [٢] ، بل حذر أوروبا واليابان من الانضمام لأية خطوات انتقامية أمريكية ، وأن أى تحرك عسكرى سيجبر العرب على تخريب حقول البترول ، وهو ما سيضر باقتصاديات أوروبا واليابان ، وكذلك الولايات المتحدة [٣] . ولوضع هذا التحذير موضع التنفيذ ، قامت السعودية بإحاطة حقولها الأساسية بالمتفجرات ، ووضعت خطة التفجير بإشراف الأمير عبد الله بن عبد العزيز قائد القوات المسلحة [٤] . وأكد اليمانى بأن أى تدخل عسكرى سيجبر العرب على القضاء على تسهيلاتهم البترولية [٥] . وأضاف بأن الحظر مرهون بالانسحاب الإسرائيلى من الأراضى المحتلة ، واستعادة القدس . آملًا أن يفكر الشعب الأمريكى فى الثمن الذى يقدمه لإسرائيل [٦] .

وقابل الوزيران فى باريس ، الرئيس « بومبيدو » ، وأعلنا فى مؤتمر صحفى ، احتمال ازدياد خفض البترول المصدر لأوروبا إذا لم تُتخذ مبادرات لتسوية مشكلة الشرق الأوسط ، كما أكد على أن أوروبا يمكن أن تضغط على الولايات المتحدة وإسرائيل ، فلها عضوان دائمان فى مجلس الأمن ، كما أنها شريكة لأمريكا فى حلف الأطنطى ، ويمكن لهذا الحلف أن يضغط على إسرائيل [٧] .

---

(١) Szyliowicz S. Joseph, Bard E. óNeill, Op. Cit., p. 204.
Manoharan, Op. Cit., p. 92.

(٢) الأهرام ، والأخبار ، والجمهورية ٢٣/١١/١٩٧٣ .

(٣) Szyliowicz S. Joseph, Bard E óNeill, Op. Cit., p. 204.

(٤) Manoharan, Op. Cit., p. 92.

(٥) Vernon, Op. Cit., p. 67.

(٦) الأخبار ٢٢/١٠/١٩٧٣ .

(٧) الأخبار : ٢٢ ، ٢٦/١١/١٩٧٣ ، الجمهورية ٢٨/١١/١٩٧٣ .

وفى بروكسل قابل الوزيران وزير الاقتصاد الهولندى ، ورفضا الدعوة التى وجهها الوزير الهولندى لزيارة بلاده [١] ، وكانت هولندا قد اتخذت موقفًا متحيزًا لإسرائيل ، فقد استنكرت خرق العرب للهدنة القائمة ، ورفضت دعوة إسرائيل للانسحاب من كل الأراضى العربية ، حتى بعد بيان دول السوق الأوروبية فى ٦ نوفمبر ١٩٧٣ [٢] .

وفى الولايات المتحدة قابل الوزيران كيسنجر ، ووزير الدفاع ، وفورد النائب الجديد لنيكسون ، وطلب هؤلاء مساعدة العرب على تحسين وضع الطاقة ، بإعادة تصدير البترول إلى مستوى سبتمبر الماضى ، وأنه إذا لم تظهر الولايات المتحدة بصورة جدية ، فيمكن للعرب إعادة الحظر [٣] . ولكن الموقف العربى كان واضحًا ، فأعلن اليمانى فى نادى الصحافة الأمريكى بواشنطن فى ١١ ديسمبر ١٩٧٣ ، أنه يمكن رفع الحظر عن الولايات المتحدة وهولندا ، منذ الجلسة الأولى لمؤتمر جنيف فى ١٨ ديسمبر ، بشرط قبول إسرائيل للانسحاب من الأراضى المحتلة ، بما فيها القدس ، وبضمان الولايات المتحدة [٤] .

تطور السياسة البترولية :

لقد تقرر فى مؤتمر القمة العربى الذى انعقد بالجزائر فى الفترة من ٢٦ – ٢٨ نوفمبر ١٩٧٣ ، استخدام البترول ، بنفس الأسس التى وضعها وزراء البترول بشكل عام ، مع إعفاء اليابان من نسبة الـ ٥٪ التى قرر هؤلاء إعفاء دول السوق الأوروبية منها ، كما سبق القول [٥] ، إذ أكد الرؤساء العرب على ضرورة تحرير الأرض المحتلة والقدس ، واستعادة حقوق شعب فلسطين ، و « الاستمرار فى استخدام البترول ، كسلاح فى المعركة ، على ضوء قرارات وزراء البترول العرب ، والارتباط الكامل بين رفع الحظر البترولى لأى دولة وبين التزامها بتأييد القضية العربية العادلة » .

---

(١) الجمهورية ١٩٧٣/١٢/٢ .

(٢) Hurewitz, Op. Cit., p. 124.

(٣) محسن محمد : المرجع السابق ، ص ٢٦٤ ، ٢٦٥ .

(٤) الأخبار ١٩٧٣/١٢/١٢ .

(٥) أحمد يوسف أحمد : المرجع السابق ، ص ٨٨ .

صلاح منتصر : المرجع السابق ، ص ٦٤ .

وتضمنت قرارات المؤتمر كذلك قطع العلاقات الدبلوماسية والاقتصادية ، بما فيها الحظر البترولى مع البرتغال وجنوب إفريقيا وروديسيا (١) .

وأثناء المؤتمر أكد الملك فيصل فى حواره مع محمود رياض استعداده لوضع كافة الإمكانيات السعودية فى المعركة ، وأن استخدام البترول مرتبط باسترداد الأراضى المحتلة والقدس ، واستعادة حقوق الشعب الفلسطينى . وكان فيصل يرى – كما يقول « بومدين » – استمرار الحظر حتى يشعر العالم بجدية العرب فى استعادة أراضيهم ، ومن أجل زيادة الضغط على الولايات المتحدة ، كما كان على استعداد لشراء مائة دبابة ، لتقديمها لمصر وسوريا من فرنسا ، ولم يتحمس للشراء من الاتحاد السوفيتى ، كما اقترح بومدين ، ورأى أن يترك لوزير دفاعه مهمة الشراء بما يراه مناسباً (٢) .

واتخذ وزراء البترول العرب فى اجتماعهم بالكويت فى ٨ ديسمبر ١٩٧٣ عدة قرارات هامة ، تتضمن أبعادًا جديدة لأهداف السياسة البترولية ، فلقد تضمنت :

* إذا تقرر الانسحاب من الأراضى العربية المحتلة – بما فيها القدس – بمقتضى جدول زمنى توقع عليه إسرائيل ، وتضمن الولايات المتحدة تنفيذه ، يُرفع الحظر عن الولايات المتحدة ، وفق برنامج زمنى ، يتفق مع مراحل الانسحاب ، يضعه وزراء البترول .

* إعطاء الدول الإفريقية والإسلامية الصديقة كميات البترول المتعاقد عليها – ولو زاد الإنتاج – لتغطية حاجاتها المحلية ، مع التأكد من عدم إمكانية تصديره للدول الخاضعة للحظر ، وكانت السعودية من بين الموقعين على هذه القرارات (٣) .

وهذه الأبعاد الجديدة ليست تراجعًا كما يراها البعض ، إذا قورنت الأمور

---

(١) محمود رياض : المرجع السابق ، ص ٤٧٨ .
السيد فرج : عبور القناة وانتصار الإرادة العربية ، دار الفكر العربى ، القاهرة ١٩٧٣ ، ص ١٤٨ .
Vernon, Op. Cit., P. 66.

(٢) محمود رياض : المرجع السابق ، ص ٤٧٦ ، ٤٨١ .

(٣) إبراهيم شحاته : المرجع السابق ، ص ١٠١ ، ١٠٢ .
السياسة الدولية يناير ١٩٧٤ ، ص ٥٧ ، ٥٨ .
أحمد يوسف أحمد : المرجع السابق ، ص ٨٨ ، ٨٩ .

بمقررات اجتماع الكويت الأول [١] ، فمضمون هذه الأبعاد لا يختلف عن قرارات ١٧ أكتوبر ١٩٧٣ بالكويت ، فلن يرفع الحظر بداية إلا بعد ضمان الانسحاب الإسرائيلي وتعهد الولايات المتحدة ، مع تدرج رفع الحظر البترولى بشكل يتناسب مع مراحل الانسحاب ، وطبقًا لجدول زمنى ، فرفع الحظر قرين الانسحاب من الأراضى المحتلة ، وهو الهدف ، وإذا كانت هذه الأبعاد قد وضعت فى صورة مرنة ، فربما كان الهدف هو الوصول إلى تحرير الأرض العربية - بما فيها القدس - بدون أى تعقيدات قد تقدمها الولايات المتحدة .

لذلك عندما يزور كيسنجر السعودية مرة أخرى - وبعد هذا المؤتمر - يرفض الملك فيصل اقتراح وزير الخارجية الأمريكية ، برفع الحظر عن الولايات المتحدة ، عند بداية أعمال مؤتمر جنيف ، مؤكدًا أن الحظر لن يُرفع إلا عند بداية الانسحاب الإسرائيلي من الأراضى العربية ، بما فيها القدس ، وبضمان أمريكى مكتوب بالتنفيذ ، وأبلغ الملك كيسنجر ، بمسئولية الولايات المتحدة المباشرة ، عن عدم احترام إسرائيل لقرارات الأمم المتحدة [٢] . ولقد أكد هذا المضمون وزير البترول السعودى فى مؤتمر صحفى فى ديسمبر ١٩٧٣ [٣] .

وناقش وزراء البترول العرب فى اجتماعهم فى الكويت فى ٢٥ ديسمبر ١٩٧٣ موقف اليابان ، وقرروا رفع الحظر عنها ، كما سبق القول ، وتقرير الوزيرين السعودى والجزائرى . وفى ضوء ماتقدم قرر الوزراء زيادة إنتاج البترول ابتداء من يناير ١٩٧٤ بنسبة ١٠٪ لتصبح نسبة الخفض فى الإنتاج ١٥٪ بدلا من ٢٥٪ ، مع استمرار حظر البترول بالنسبة للولايات المتحدة وهولندا ، وتقديرًا لموقف بلجيكا ، فقد وافق الوزراء على مدها بالبترول ، وعن طريق هولندا ، بعد أخذ الضمانات لوصوله كاملا غير منقوص . ورحب الوزراء بالاتجاهات الأمريكية الجديدة ، ولكنها - كما قال وزير البترول السعودى - لا تكفى لإعادة النظر فى حظر البترول عنها [٤] .

---

(١) أحمد يوسف أحمد : المرجع السابق ، ص ٨٨ .
(٢) الأهرام ، والأخبار ، والجمهورية ١٩٧٣/١٢/١٦ .
(٣) محمد طلعت الغنيمى : المرجع السابق ، ص ١٩٦ .
(٤) إبراهيم شحاته : المرجع السابق ، ص ١٠٣ .
محمد طلعت الغنيمى : المرجع السابق ، ص ١٩٨ .
أحمد يوسف أحمد : المرجع السابق ، ص ٨٩ .
الأهرام ، والأخبار ، والجمهورية ١٩٧٣/١٢/٢٦ .

وما لبثت أن أخذت الأحداث تتطور نحو إعادة ضخ البترول للولايات المتحدة ، ففى ١٧ يناير ١٩٧٤ أعلن السادات اتفاق فك الاشتباك المصرى الإسرائيلى ، نتيجة مجهود كيسنجر ، وأخذ يضغط لإنهاء سياسة المقاطعة بالنسبة للولايات المتحدة ، فقد رحب السادات بكيسنجر كثيرًا ، وأصبح المسرح مُعَدًّا لإقامة علاقات متينة مع القاهرة ، علاوة على ذلك ، فقد اتخذت خطوة كبيرة لإنهاء المقاطعة البترولية ، وأصبح الأمر متوقفًا على لقاءات السادات مع شيوخ ورؤساء وملوك العالم العربى (١) . الأمر الذى جعل الرئيس نيكسون ، يعلن فى ٣١ يناير ١٩٧٤ ، عن إمكانية استئناف ضخ البترول ، إلى الولايات المتحدة بين لحظة وأخرى (٢) .

وحيث أن وجهة النظر المصرية أقل من الشروط العربية المعلنة فى ديسمبر ١٩٧٣ ، والخاصة بجدول زمنى للانسحاب الكامل لإسرائيل من الأراضى العربية ، بما فيها القدس ، وهى صيغة سعودية ، فقد واجه السادات مقاومة من الأسد ، وبومدين ، وكذلك فيصل ملك العربية السعودية (٣) ، إذ غضب القادة العرب المعتدلون ، الذين لم يكن لديهم الوقت الكافى لتفاهم والتشاور فيما بينهم ، أو مع الدول العربية الراديكالية (٤) . واقتنع فيصل باستمرار الحظر البترولى ، حتى يتم فك اشتباك مماثل على الجبهة السورية ، وذلك بعد اجتماعه مع الأسد فى الرياض ، وبالتالى أسرعت الكويت ودولة الإمارات ، والدول العربية الأخرى بمساندة الموقف السورى (٥) ، الأمر الذى جعل كيسنجر يوجه تهديدًا للدول العربية فى ٦ فبراير ١٩٧٤ ، وحذر من استمرار هذه السياسة ، وأن استمرارها برغم فك الاشتباك المصرى الإسرائيلى يعتبر ابتزازًا (٦) ، وهو موقف يُحسب للملك فيصل ، الذى يتوقف عليه وأمير الكويت والقادة الآخرين المعتدلين ، قرار إيقاف الضخ (٦) .

---

(١) Szyliowicz S. Joseph, Bard E. 6Neill, Op. Cit., P. 205.
Vernon, Op. Cit., P. 67.

(٢) محمود رياض : المرجع السابق ، ص ٤٩٨ ، ٤٩٩ .
Szyliowicz S. Joseph, Bard E. 6Neill, Op. Cit., P. 205.

(٣) Vernon, Op. Cit., P. 67.

(٤) Szyliwicz S. Joseph, Bard E. 6Neill, Op. Cit., P. 205.

(٥) محمود رياض : المرجع السابق ، ص ٤٤٩ .

(٦) نفس المرجع والصفحة .
Szyliowicz S. Joseph, Bard E. 6Neill, Op. Cit., P. 205.

(٧) Manoharan, OP. Cit., P. 93

وكانت واشنطن تصر على أن ترفع الدول العربية الحظر البترولى ، قبل أن تتدخل مرة أخرى ، وهو ما أدركه الأسد ، وبدا منه بطريقة غير علنية عدم معارضته فى ذلك (١) ، وبالتالى كان اجتماع القمة المصغر بالجزائر ، بين السادات وبومدين والأسد وفيصل ، وقرروا إيفاد وزيرى خارجية مصر والسعودية إلى واشنطن لحث الرئيس نيكسون على إنهاء فض الأشتباك فى الجولان ، حتى يمكن الاستجابة لطلبه ، بإعادة الضخ البترولى للولايات المتحدة ، على أن يعقب ذلك مباشرة العمل من أجل الحل السلمى الشامل (٢) .

ويبدو أنه كان هناك ضغط أمريكى على الملك فيصل من أجل رفع الحظر ، غير أنه لم « يكن بمقدور الملك السعودى الاستجابة للطلب الأمريكى بدون مبرر يحفظ ماء وجهه » ، فكان الحل المقترح هو الربط بين رفع الحظر وفك الاشتباك على الجبهة السورية وتبادل الأسرى (٣) .

ووافق الملك فيصل على إعادة الضخ البترولى للولايات المتحدة ، على أن تفى بتعهداتها بفك الاشتباك على الجبهة السورية (٤) ، وتمت مقابلة الوزيرين لنيكسون وأبلغاه بقرار الرؤساء ، وكلف كيسنجر بالمهمة الجديدة فى الشرق الأوسط (٥) ، فكانت رحلات كيسنجر المكوكية بين دمشق وعواصم العالم العربى والقدس ، لإتمام فك اشتباك سورى إسرائيلى فى منطقة الجولان (٦) .

وهكذا وافق الملك فيصل القاهرة فى أن سياسة الولايات المتحدة قد تغيرت بشكل عام ، وإن لم تتحقق المطالب السعودية الثلاث السابقة (٧) ، وبالتالى فمسئولية رفع الحظر عن الولايات المتحدة بدون تحقيق الأهداف العربية يتحملها السادات وفيصل والأسد .

---

(١) إسماعيل فهمى : المرجع السابق ، ص ١٣٣ ، ١٣٤ .

(٢) محمود رياض : المرجع السابق ، ص ٥٠٠ ، ٥٠١ .

(٣) إسماعيل فهمى : المرجع السابق ، ص ١٣٦ .

(٤) محمود رياض : المرجع السابق ، ص ٥٠٣ .

(٥) إسماعيل فهمى : المرجع السابق ، ص ١٤١ .

(٦) Szyliowicz S. Joseph, Bard E. óNeill, Op. Cit., P. 205.

(٧) Ibid, P. 206.

وفى اجتماع وزراء البترول العرب فى طرابلس فى ١٣ مارس ١٩٧٤ ، والذى استكمل بفيينا يومى ١٧ و ١٨ مارس ، استعرض الوزيران السعودى والجزائرى ، نتائج رحلتهما الثانية ، وما لمسوه من تطور إيجابى بالنسبة لإيطاليا وألمانيا الاتحادية . وكذلك بدا للمجتمعين أن السياسة الأمريكية أصبحت تتسم منذ وقت قريب باتجاه جديد نحو النزاع العربى الإسرائيلى ، وهو اتجاه لو أمكن تأكيده وتثبيته فسوف يؤدى إلى أن تتخذ أمريكا موقفًا أكثر تمشيًا مع الحق والعدالة تجاه الأراضى العربية المحتلة ، وحقوق شعب فلسطين ، وبالتالى كان قرار معاملة إيطاليا وألمانيا الاتحادية معاملة البلدان الصديقة ، ورفع الحظر عن الولايات المتحدة ، واستمراره بالنسبة لهولندا ، على أن يُعاد النظر فى ذلك أول يونيو ١٩٧٤ فى اجتماع يعقد فى القاهرة [١] ، وفى ١١ يوليو انتهى الحظر بالنسبة لهولندا ، ووصلت قضية المقاطعة إلى نهايتها [٢] .

إن ظروف استخدام البترول فى حرب أكتوبر كانت إيجابية بالنسبة للعالم العربى ، فبالإضافة إلى ما سبق بيانه ، فإن الدول المنتجة للبترول كانت لديها أرصدة مالية مكنتها من المضى فى سياسة تخفيض الضخ ، فضلا عن التنسيق العربى ، والذى يرجع بالدرجة الأولى إلى التقارب المصرى السعودى ، كما أن سلاح البترول استخدم فى عام ١٩٧٣ لهدف واضح محدد ، وهو تطبيق القرار ٢٤٢ الصادر من مجلس الأمن فى نوفمبر ١٩٦٧ ، وأدى ذلك إلى وجود تبرير لهذا الاستخدام ، وإسباغ صفة الشرعية الدولية عليه ، فضلاً عن مرونة هذا الاستخدام ، طبقًا لموقف الدول من القضية العربية ، وكان ذلك فى بيئة دولية كانت فى حاجة ماسة إلى البترول العربى .

لقد أدى هذا الاستخدام بلا شك إلى بروز القوة العربية ، وأصبح البترول أحد المتغيرات الحاكمة فى الصراع العربى الإسرائيلى ، لا سيما فى دائرته الدولية – وهى الدائرة الأكثر تأثيرًا – كما أن أهم ما يميز هذا المتغير الاستراتيجى هو أنه يجمع بين التكامل الاقتصادى والسياسى ، فتأثيراته الاقتصادية هائلة ، وبالتالى كذلك ضغوطه السياسية ، ويمتد مدى تأثيره من الأوساط الحكومية والمراكز الرسمية إلى دوائر الرأى العام ، وهو أمر بالغ الأهمية للعرب ، لأنه يخرج بهم من موقع القدرة المحدودة إلى حيث القدرة الهائلة فى الضغط على كل المراكز المؤثرة فى هذا الصراع [٣] .

---

(١) إبراهيم شحاته : المرجع السابق ، ص ١٠٦ – ١١١ .
إسماعيل فهمى : المرجع السابق ، ص ١٤٣ .

(٢) Vernon, Op. Cit., P. 67.

(٣) أحمد يوسف أحمد : المرجع السابق ، ص ٨٩ – ٩١ .

كما بدا واضحًا فى تلك الفترة أن الدول العربية قادرة على تهديد مصالح الولايات المتحدة ، وأصبح البترول عاملاً مؤثرًا فى السياسة الأمريكية تجاه الصراع العربى الإسرائيلى [1] ، فعقب رفع حظر البترول العربى عن الولايات المتحدة أعلن نيكسون أن « الولايات المتحدة سوف تواصل مساعيها ، لإقامة علاقات أفضل مع مصر والدول العربية » ، وأن إقامة الصداقة بين أمريكا وإحدى جارات إسرائيل . لن تجعل من أمريكا عدوة لإسرائيل » ، فهى مستمرة فى ضمان استقلالها وسلامة أراضيها . كما أعلن كيسنجر أن أمريكا « ملتزمة بالدفاع عن أمن إسرائيل وبقائها ، ولكنها غير ملتزم بالدفاع عن فتوحاتها » . وعبر السادات عن هذا التغيير فى السياسة الأمريكية فى سلسلة من أحاديثه ، ففى خطابه للأمة بمناسبة ورقة أكتوبر ذَكَر « أن أمريكا ليست معنا ، ولكنها لم تعد ضدنا الآن ... ولقد استطعنا تحييد أمريكا التى كانت منحازة لإسرائيل وتتبنى وجهة نظرها بالكامل » [2] .

ولا يخفى تأثير البترول على دول أوروبا الغربية ، فلقد رفضت هذه الدول التعاون مع الولايات المتحدة فى إمدادات السلاح إلى اسرائيل أثناء الحرب ، وفى التطورات التى طرأت على مواقف الدول الأعضاء فى السوق الأوروبية المشتركة بصفة خاصة منذ بيانها فى نوفمبر ١٩٧٣ [3] ، الأمر الذى قد يمهد إلى التفكك فى داخلية حلف الأطلنطى [4] ، فضلاً عن تأثيره الواضح على اليابان كما سبق القول .

ومن الطبيعى أن تختلف الآراء ، بالنسبة لهذه السياسة البترولية ، التى قادتها السعودية ، فلقد وجه إليها البعض سهام المعارضة والنقد [5] .

ومهما كانت أوجه النقد ، فإن هذه السياسة النفطية فى تقليل الضخ تدريجيًا ، وبصورة مرنة ، طبقًا لمواقف الدول من القضية العربية ، هى ما تقدمت به مصر [6] ، وكانت فى ذلك حريصة على إيجاد موقف عربى موحد فى هذا الصدد ، وهذه السياسة

---

(١) Dowty Alan, Op. Cit., P. 280.

(٢) نبيل محمود عبد الغفار : المرجع السابق ، ص ١٢٩ ، ١٣٠ .

(٣) أحمد يوسف أحمد : المرجع السابق ، ص ٩١ .

(٤) نبيل محمود عبد الغفار : المرجع السابق ، ص ١٢٧ .

(٥) حربى محمد : المرجع السابق ، ص ٧١ - ٧٤ .

(٦) سيد مرعى : المرجع السابق ، ص ٧٣٦ .

تتفق تمامًا مع استخدام البترول كسلعة اقتصادية واستراتيجية ، ومع الحشد الدولى للمعركة السياسة ، بدلا من منع البترول كلية ، فتفقد القضية التأييد السياسى المطلوب ، بل وكيف تتمشى سياسة منع البترول كلية مع الدعوة بضرورة الدعم المادى لدول المواجهة للاستمرار فى الحرب (١) .

وفى هذا الصدد فلنتصور حظرًا نفطيًا اضطرت الأقطار العربية أن تفرضه على الدول لأسباب تتعلق بالصراع العربى الإسرائيلى ، فبإمكاننا أن نتصور - بدون مبالغة - حدوث خطر مضاد من قبل الدول الغربية ، واليابان ، والولايات المتحدة ، قد يأخذ شكل إيقاف تصدير السلع الغذائية والاستثمارية للأقطار العربية ، وتجميد الأرصدة المالية والرسمية للأقطار النفطية ، ولقد أكدت الأزمة الأخيرة فى العلاقات الأمريكية - الإيرانية ، أن هذه الأرصدة النفطية ، والتوظيفات العربية فى الخارج ، سلاح بيد الغرب لا بيد العرب (٢) ، ولا نقول هذا الكلام جزافًا ، بل حدث هذا التهديد ، وعلى يد جيرالد فورد نائب الرئيس الأمريكى ، عندما أكد فى ٨ يناير ١٩٧٤ بأن استمرار نطع البترول سيؤدى إلى توقف الغذاء عن غرب آسيا (٣) .

وفى هذه القضية نشير إلى حقيقة مشكلة الأمن الغذائى العربى ، فيستورد هذا العالم بصفة عامة ما يحتاج إليه من الحبوب بشكل مركز من الولايات المتحدة وكندا وأستراليا ، كما أن الدول العربية هى سوق رئيسية للمواشى واللحوم الأسترالية ، ومع تزايد حاجة الدول العربية إلى المواد الغذائية ، لم تعد مشكلة الأمن الغذائى مشكلة اقتصادية فقط ، بل سياسية أيضًا ، وتبرز بذلك حقيقة هامة ، وهى أن العرب لا يستطيعون اتخاذ قرار عسكرى أو اقتصادى حاسم إلا إذا كانت هناك قاعدة غذائية عريضة ، يتوفر معها فائض غذائى ، يحول دون خشية قطع صادرات الحبوب وغيرها عن الوطن العربى (٤) .

يضاف إلى ذلك التهديد باستخدام القوة ، إذ هدد وزير الحربية الأمريكية بذلك

---

(١) لقاء مع الدكتور مصطفى خليل .

(٢) محمود عبد الفضيل : النفط والوحدة العربية ، القاهرة ١٩٨٢ ، ص ١٨٩ .

(٣) Manoharan, Op. Cit., P. 92.

(٤) أحمد يوسف أحمد : المرجع السابق ، ص ٩٢ .

فى حالة استخدام الحظر بشكل يهدد الدول الصناعية فى العالم [(١)] ، وهى تهديدات سبق الإشارة إليها ، وهى تتمثل إجمالاً فى اتخاذ إجراءات عسكرية لاحتلال منابع البترول لضمان تدفقه ، أو على الأقل التهديد بها ، على نحو يُحدث الأثر المطلوب فى سلوك الدول المنتجة للبترول ، وكانت هذه التهديدات فى أعقاب الحظر البترولى عام ١٩٧٣ ، بل استمرت طيلة عامى ١٩٧٤ ، ١٩٧٥ ، فلقد أعلن كيسنجر فى ٢ يناير ١٩٧٥ أنه لا يستطيع استبعاد استخدام القوة العسكرية إذا تعرض العالم لاختناق بترولى بسبب منتجيه فى الشرق الأوسط ، بل أكد أن ذلك هو وجهة نظر الرئيس الأمريكى فورد ، الذى ما لبث أن صدق على ذلك بنفسه فى حديثه لمجلة Time فى ١٢ يناير ... كما صرح وزير الدفاع الأمريكى جيمس شليزنجر فى حديثه إلى مجلة Worldreport, U. S .News فى ١٨ مايو ١٩٧٥ ، بأنه فى حالة « فرض حظر جديد من جانب الدول العربية فإن الحكومة الأمريكية سوف تبدى ولا شك تسامحًا أقل مما أبدته فى عام ١٩٧٣ ، وقد تستخدم القوة العسكرية لكسر هذا الحظر » . وهذه التهديدات وإن كانت صعبة التنفيذ لعوامل مختلفة ، فهى تشكل خطورة على الأمن القومى العربى بشكل أو بآخر [(٢)] .

ولمواجهة الدول المنتجة للبترول عقد الرئيس الأمريكى نيكسون مؤتمرًا فى فبراير ١٩٧٤ ، وقبل رفع الحظر عن الولايات المتحدة ، ضم كندا ، وبريطانيا ، وفرنسا ، وألمانيا الغربية ، وإيطاليا ، وهولندا ، والنرويج ، واليابان ، إلى جانب الولايات المتحدة ، وإبان الأزمة الأمريكية العربية دعا فيه نيكسون هذه الدول لاتخاذ سياسة موحدة تجاه الدول المنتجة للبترول ، تفاديًا للآثار السيئة التى تترتب على السياسة الانفرادية ، وما تؤدى إليه من رفع سعر البترول ، والتدهور الاقتصادى للدول المجتمعة ، ولقد وصف كيسنجر البعد السياسى للحظر العربى بأنه « سابقه فى استغلال المواد الخام ، بغرض فرض سياسات الدول المنتجة على الدول المستوردة » [(٣)] .

---

(١) Manoharan, Op. Cit., P. 92.

(٢) أحمد يوسف أحمد : المرجع السابق ، ص ٩٢ ، ٩٣ ، ١٠١ - ١٠٦ .

(٣) منظمة الأقطار العربية المصدرة للبترول ، الكويت : ورقة عمل حول مؤتمر واشنطن للطاقة مايو ١٩٧٤ ، ص ١ ، ٢ ، ٦ .

فأمام كل هذه الأخطار والتحركات كانت سياسة تخفيض الضخ هى الأكثر ملاءمة ، ففى إطار استراتيجية المعركة – باستخدام المعارك العسكرية والطاقة العربية لتحريك أزمة الشرق الأوسط – فإن البترول فى هذا الصدد كان علامة أو تلويحًا باستخدامه كسلاح لتحريك القضية [1] . ونجحت هذه السياسة البترولية فى إحداث تأثير كبير فى أوروبا واليابان كما سبق القول ، واستطاعت كذلك أن تلفت نظر الدول الصناعية إلى ضرورة قيام نظام اقتصادى دولى جديد ، يؤمن للدول المنتجة حقها المشروع فى التفوق والرخاء ، بالإضافة إلى حقها الأكيد فى استخدام ماتملكه من أسلحة ، دفاعًا عن حقها فى البناء والتقدم ، كما حققت الدول العربية تحسنًا ملموسًا فى القضية العربية ، نتيجة استخدام البترول فى الضغط السياسى [2] .

وإجمالاً فمهما كان النقد الموجه لهذه السياسة البترولية التى اتبعها العرب ، وعدم تحقيقها للأهداف العربية التى أعلنها وزراء البترول العرب فى اجتماعاتهم المختلفة ، والتى تركزت فى عودة الأرض المحتلة منذ عام ١٩٦٧ ، والقدس العربية ، وإعادة الحقوق الشرعية لشعب فلسطين ، فإنها بلا شك كانت ومضة مضيئة فى تاريخ العالم العربى ، وخطوة أولى يجب أن تتلوها خطوات فى رحلة الألف ميل لتحقيق هذه الأهداف .

* * *

(١) محمود عجلان : البترول والعرب ، بيروت ١٩٧٣ ، ص ٢٤١ .

(٢) سيد فتحى أحمد الخولى : اقتصاديات البترول ، جدة ١٩٨٨ ، ص ٢١٩ .

مصادر البحث

أولاً - التقارير :

• منظمة الأقطار العربية المصدرة للبترول .. ورقة عمل حول مؤتمر واشنطن للطاقة ، وبعض الاقتراحات حول أسس الحوار والتعاون بين الأقطار الأعضاء فى المنظمة والدول الرئيسية المستوردة للنفط - ٤ مايو ١٩٧٤ .

ثانيًا - الوثائق :

• الوثائق المنشورة فى « ملفات السويس » (محمد حسنين هيكل) .

• الوثائق المنشورة فى « الانفجار » (محمد حسنين هيكل) .

ثالثا - المذكرات والدراسات العربية :

١ - إبراهيم شحاته : حظر تصدير النفط العربى ، الطبعة الأولى ، بيروت ١٩٧٥ .

٢ - إبراهيم المسلم : العلاقات المصرية السعودية ، الطبعة الأولى ، مكتبة مدبولى القاهرة .

٣ - أحمد حمروش : غروب يوليو ، الطبعة الأولى ، القاهرة ١٩٨٧ .

٤ - أحمد يوسف أحمد : تأثير الثروة النفطية على العلاقات السياسة العربية ، الطبعة الأولى ، دار المستقبل العربى ، القاهرة ١٩٨٥ .

٥ - إسماعيل فهمى : التفاوض من أجل السلام فى الشرق الأوسط ، الطبعة الأولى ، مكتبة مدبولى ، القاهرة ١٩٨٥ .

٦ - الكسندر رومانوف : نفط الشرق الأوسط ، ترجمة بسام خليل ، الطبعة الأولى ، بيروت ١٩٨٤ .

٧ - الكسندر ياكوفليف : العربية السعودية والغرب ، الطبعة الأولى ، دار العالم الجديد القاهرة ، ١٩٨٨ .

٨ – بونداريفسكى : سياستان إزاء العالم العربى ، دار التقدم ، موسكو ١٩٧٥ .

٩ – حربى محمد : النفط العربى وأزمة الطاقة فى العالم ، دار الثورة ، بغداد ، تشرين الأول ١٩٧٤ .

١٠ – اللواء حسن البدرى ، اللواء طه المجدوب ، واللواء ضياء الدين زهدى : حرب رمضان ، الجولة العربية الإسرائيلية الرابعة ، أكتوبر ٧٣ الهيئة العامة للكتاب ، القاهرة ١٩٨٧ .

١١ – حمدى الطاهرى (الدكتور) : حرب رمضان فى الإعلام العالمى ، الطبعة الثانية القاهرة ١٩٧٥ .

١٢ – جمال حماد (الدكتور) : ٦ أكتوبر فى الاستراتيجية العالمية ، عالم الكتب ، القاهرة ١٩٧٤ .

١٣ – خليل إبراهيم حسين : أزمة الطاقة واقتصاديات ومستقبل البترول العربى ، معهد البحوث والدراسات العربية ، ١٩٧٦ .

١٤ – السيد فرج : عبور القناة وانتصار الإرادة العربية ، دار الفكر العربى ، القاهرة ١٩٧٣ .

١٥ – سيد فتحى أحمد الخولى (الدكتور) : اقتصاديات البترول ، مكتبة دار حافظ للنشر والتوزيع ، جدة ١٩٨٨ .

١٦ – سيد مرعى : أوراق سياسة ، الجزء الثالث ، الطبعة الأولى ، المكتب المصرى القاهرة ١٩٧٩ .

١٧ – صلاح العقاد (الدكتور) : مأساة يونيو ١٩٦٧ ، حقائق وتحليل ، الطبعة الأولى مكتبة الأنجلو المصرية ، ١٩٧٥ .

١٨ – صلاح العقاد (الدكتور) : البترول ، أثره فى السياسة والمجتمع العربى ، معهد البحوث والدراسات العربية ١٩٧٣ .

١٩ – صلاح منتصر : حرب البترول الأولى ، مطابع الأهرام التجارية ١٩٧٥ .

٢٠ – عاطف سليمان (الدكتور) : النفط العربى سلاح فى خدمة قضايانا المصيرية دراسات تقدمية (١٢) ، دار الطليعة ، بيروت ١٩٧٣ .

٢١ – عبد الستار الطويلة : حرب الساعات الست ، الهيئة العامة للكتاب ، القاهرة ١٩٧٤ .

٢٢ – عبد العظيم رمضان (الدكتور) : حرب أكتوبر أمام محكمة التاريخ ، مكتبة مدبولى القاهرة ١٩٨٤ .
٢٣ – عبد الكريم درويش (الدكتور) ، وليلى تكلا (الدكتورة) : حرب الساعات الست مكتبة الأنجلو المصرية ، القاهرة ١٩٧٤ .
٢٤ – محسن محمد : حرب البترول ، كتاب الإذاعة والتليفزيون رقم (٢٥) .
٢٥ – محمد إبراهيم كامل : السلام الضائع فى كامب ديفيد ، كتاب الأهالى (١٢) القاهرة ١٩٨٧ .
٢٦ – محمد أنور السادات : البحث عن الذات ، قصة حياتى ، المكتب المصرى الحديث القاهرة ١٩٧٨ .
٢٧ – محمد حافظ إسماعيل : أمن مصر القومى فى عصر التحديات ، الطبعة الأولى ، القاهرة ١٩٨٧ .
٢٨ – محمد حسنين هيكل : الطريق إلى رمضان ، دار النهار للنشر ، بيروت ١٩٧٥ .
٢٩ – محمد حسنين هيكل : ملفات السويس ، الطبعة الأولى ، الأهرام ١٩٨٦ .
٣٠ – محمد حسنين هيكل : سنوات الغليان ١٩٦٧ ، الأهرام ١٩٨٨ .
٣١ – محمد حسنين هيكل : الانفجار ١٩٦٧ ، الأهرام ١٩٩٠ .
٣٢ – محمد طلعت الغنيمى (الدكتور) : البترول العربى وأزمة الشرق الأوسط ، الهيئة العامة للكتاب ، القاهرة ١٩٧٤ .
٣٣ – محمد عبد الغنى الجمسى : مذكرات الجمسى ، حرب أكتوبر ١٩٧٣ ، الطبعة الأولى ، المنشورات الشرقية باريس ، ١٩٨٩ . . .
٣٤ – محمد محمود شوكت : العلاقات السعرية بين الدول المصدرة والدول المستوردة ، ندوة جمعية الاقتصاديين العراقيين عن : البترول العربى والآفاق المستقبلية لمشكلة الطاقة ، ٢٠ – ٢٣ نوفمبر ١٩٧٦ ، معهد البحوث والدراسات العربية ، المجلد الثانى ، ١٩٧٧ .
٣٥ – محمد نجيب : كنت رئيسًا لمصر ، الطبعة الأولى ، المكتب المصرى الحديث ١٩٨٤ .
٣٦ – محمود خيرى عيسى (الدكتور) ، مصطفى علوى : مضمون السياسة الأمريكية تجاه الشرق الأوسط بعد أكتوبر ١٩٧٣ ، الندوة الدولية لحرب أكتوبر ، المجلد الثانى ، القاهرة ١٩٧٥ .

٣٧ – محمود رياض : مذكرات محمود رياض ١٩٤٨ – ١٩٧٨ ، الطبعة الثانية دار المستقبل العربى ، القاهرة ١٩٨٥ .

٣٨ – محمود عبد الفضيل (الدكتور) : النفط والوحدة العربية ، الطبعة الرابعة ، دار المستقبل العربى ، القاهرة ١٩٨٢ .

٣٩ – محمود عجلان : البترول والعرب ، دار الفارابى ، بيروت ، ١٩٧٣ .

٤٠ – محمود فوزى (الدكتور) : حرب السويس ١٩٥٦ ، ترجمة عن الإنجليزية دكتور مختار الجمل ، الطبعة الأولى ، دار الشروق ١٩٨٧ .

٤١ – مصطفى خليل (الدكتور) : أزمة الطاقة فى الولايات المتحدة ، مؤسسة الأهرام القاهرة ١٩٧٤ .

٤٢ – مفيد شهاب (الدكتور) : دور الأمم المتحدة فى أزمة الشرق الأوسط ، بعد السادس من أكتوبر ، الندوة الدولية لحرب أكتوبر المجلد الثانى ، القاهرة ١٩٧٥ .

٤٣ – موسى بدوى : السادات رجل الحرب والسلام ، دار المعارف ، القاهرة ١٩٧٨ .

٤٤ – موسى صبرى : وثائق حرب أكتوبر ، الطبعة الخامسة ، القاهرة ١٩٧٨ .

٤٥ – نازلى شكرى (الدكتور) : سياسة البترول وحرب أكتوبر ١٩٧٣ ، الندوة الدولية لحرب أكتوبر ، المجلد الثانى ، القاهرة ١٩٧٥ .

٤٦ – نبيل محمود عبد الغفار : السياسة الأمريكية تجاه الصراع العربى الإسرائيلى من حرب أكتوبر ١٩٧٣ وحتى اتفاقية كامب ديفيد ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، القاهرة ١٩٨٢ .

٤٧ – هنرى كيسنجر : مذكرات كيسنجر فى البيت الأبيض ، ترجمة خليل فرحات ، الطبعة الأولى ، الجزء الرابع ، دمشق ١٩٨٥ .

٤٨ – يفئال آلون : ثلاث حروب وسلام واحد ، ترجمة محمود عباس ، الطبعة الأولى دار النهضة للنشر ، القاهرة ، إسرائيل ١٩٧٠ .

رابعاً – الدوريات :

* الأهرام ، الأخبار ، الجمهورية ١٩٧٣ .
* السياسة الدولية ، يناير ١٩٧٤ .

• مجلة الهلال ، أكتوبر ١٩٧٦ .

• الطليعة نوفمبر ١٩٧٣ .

• روز اليوسف أكتوبر ١٩٧٣ .

خامسًا - اللقاءات الشخصية :

• لقاء مع الأستاذ الدكتور مصطفى خليل ، رئيس الوزراء السابق ، بمقر البنك العربى الدولى بالقاهرة فى ٢٠ سبتمبر ١٩٨٨ .

• لقاء مع الأستاذ الدكتور محمد عبد القادر حاتم ، نائب رئيس الوزراء السابق عام ١٩٧٣ ، بمكتبه بالمجالس القومية المتخصصة فى ١٠/١٠/١٩٨٩ .

• لقاء مع السيد المشير محمد عبد الغنى الجمسى ، رئيس أركان القوات المسلحة عام ١٩٧٣ بفندق القوات المسلحة ، سان استفانو الإسكندرية ٦/١٠/١٩٩٠ .

سادسًا - الدراسات الأجنبية :

1. Dougherty E. James, Robert L., Pfaltzgraff, jr: American Foreign-Policy, F.D.R. to Reagan, Newyork.
2. Douty Alan: Middle East crisis, U.S. Decision-making in, 1958, 1970 and 1973. Universty of California press.
3. Hurewitz, J.C. : Oil, The Arab-Israel dis pute and the industrial world, march, 1976.
4. Kissinger, Henry: white House years, U.S.A. 1979.
5. Manoharan S. : The oil crisis, end of an era, New-Delhi, 1974.
6. Schmidt, Adams, Dana: Armaged don in the middle east, Newyork, March, 1976.
7. Szliowicz S. Joseph and Bard E. ONeill: The Energy crisis and U.S. Foreign-policy.
8. Udovitch A.L. : The middle East, oil, Conflict hope lexington books, U.S.A.
9. Vernon, Raymond, The oil crisis, Newyork.

* * *

Lise Manniche, The Tombs of the Nobles at Luxor.The American University in Cairo Press, 1988.

« مقابر النبلاء فى الأقصر » تأليف ل . ما نيشى ، مطبوعات الجامعة الأمريكية فى القاهرة ، ١٩٨٨ .

عرض وتحليل

دكتور علاء الدين عبد المحسن شاهين
كلية الآثار - جامعة القاهرة

ينقسم الكتاب إلى تعريف وشكر ، وسبعة فصول (ص ١ - ١٣١) ، مرفق بنهايتها قائمة بمقابر غرب طيبة (الأقصر) وأصحابها من النبلاء « الأشراف » ص (١٣٢ - ١٤٦) وفهرس عام (١٤٧ - ١٥٠) .

ولقد سبق نشر هذا الكتاب أولا تحت اسم :

City of the Dead : Thebes in Egypt

بواسطة مطبوعات المتحف البريطانى عام ١٩٨٧ .

ويتناول المؤلف فى الفصل الأول « غرب طيبة : مدينة الأموات » (ص ١ - ١٦) تعريف بالمدينة ومركزها الدينى ، وخاصة فى الدولة الحديثة (١٥٧٥ - ١٠٨٧ ق . م) وكذلك المدينة الحالية بملامحها المعمارية الحديثة ، واختلافها فى جزئها الشرقى من نهر النيل عن تلك الواقعة على الجزء الغربى من نهر النيل بتقسيماتها المكانية المختلفة : « شيخ عبد القرنة ، دراع أبو النجا ، الخوخة ، قرنة مرعى ، دير المدينة ، وادى الملوك ووادى الملكات » .

وقد أشار المؤلف إلى تضمن المقابر العديد من المناظر التى تعكس فكرة المصرى القديم فى الخلود (ص ٧ - ٨) . ولعل ماتركه صاحب مقبرة (رقم ١١٠) فى غرب طيبة يوضح لنا مايتمنى أن يقع له فى عالمه الآخر ، وهو خير وصف لذلك التفكير المصرى القديم .

ويتناول المؤلف بالمثل مراحل قطع المقبرة فى الصخر ، وكيفية تنفيذها ، ومن ثم إعداد أسطح جدرانها للمناظر وفقًا لنوعيه الحجر . وأنه فيما يبدو كان هناك تتابع للعمل ما بين الانتهاء من قطع المقبرة فى الصخر ، إلى تمهيد أسطح الجدران ، إلى قيام الرسام بوضع خطوطه الأولية للرسومات (ص ١٤) . ويثير المؤلف نقطة جديرة بالملاحظة ، وهى احتمالية أن يكون هناك « مصدر واحد » أساسٌ نقلت عنه المناظر الزخرفية المتعددة فى مقابر نبلاء طيبة ، مشيرًا إلى مثالين من مقبرة ونسو (Wensu) فى دراع أبو النجا ، ومقبرة باحرى (Paheri) فى منطقة الكاب ، فهذين المثالين تطابقت مناظرهما برغم بُعْد المكان الجغرافي لكليهما ، واختلاف نوعيه التنفيذ : رسم (Painting) فى مقبرة « ونسو » ، ونحت (Curving) فى مقبرة « باحرى » (ص ١٤) .

وأشار المؤلف (ص ١٦) إلى ظاهرة خاصة بجبانة غرب طيبة الممثلة فى وجود ما يسمى « المخاريط الجنازية » (Funerary Cones) والتى تشتمل قاعدتها الدائرية على اسم وألقاب المتوفى ، والتى عثر عليها داخل مقابر غرب طيبة ، باستثناء وحيد فى منطقه دير المدينه ، ويتراوح وجودها الزمنى مابين الأسرة الحادية عشرة ، وحتى العصر المتأخر (٢٠٠٠ – ٦٠٠ ق . م) ، والتى يتميز ما ينتمى منها إلى الدولة الحديثة عن غيره بوضوح شديد .

أما الفصل الثانى « البداية » (ص ١٧ – ٢٨) فقد تناول فيه المؤلف بدايات مدينة طيبة فيما قبل عصر مجدها المزدهر خلال الدولة الحديثة ، وذلك منذ بدايات كونها مدينة إقليمية بعيدة عن العاصمة السياسية للدولة آن ذاك فى منف (ميت رهينة – البدرشين الحالية) وكانت طيبة محددة فى جغرافيتها آن ذاك على الضفة الشرقية لنهر النيل ، فى المنطقة المقام بها ، ويشرف عليها حاليًا معبد الكرنك ، وكان سكانها يدفنون فى جبانة « الطارف » الواقعة مباشرة على الغرب من نهر النيل ، وكان نمط المقابر السائد آن ذاك هو المعروف باسم « المصطبة » مشيدة بالطوب اللبن . وقد تداعت تلك المصاطب ولم يتبق من آثارها إلا القليل . ولم يعثر على أى مقابر لحكام مدينة طيبة من الأسرة الخامسة ، بالرغم من وجود إشارات إلى وجود مقابر لهم آن ذاك بالمكان .

ويبدو أن مركز الجبانة فى الأسرة السادسة قد انتقل إلى الخوخة ، حيث عثر

على خمس مقابر ممثلة لتلك الفترة ، وشغل أصحابها مراكز إدارية هامة . ويشير المؤلف إلى وجود نمطين هامين من المناظر المدونة فى تلك المقابر ، والتى سيتكرر وجودهما فى مرحلة تالية ، هما : الرحلة الرمزية إلى أبيدوس (منظر الحج الرمزى) ومناظر الصيد والقنص فى المستنقعات . إضافة إلى ذلك هناك منظر يظهر فى ماتلى خلال الدولة الحديثة ، بكثرة ، وهو منظر تصوير حجرة النوم (ص ١٨) .

ومع حوالى عام ٢١٣٤ ق.م تغير الموقف مع ظهور قوة العائلة الطيبية ، والتى حمل عديد من أفرادها اسم « انتف » (فرع الأناتفة) ، وتلقب أحدهم بلقب ملك مصر العليا والسفلى ، وجلس على العرش لمدة خمسين عامًا ، وشيدوا مقابر لهم فى جبانة الطارف ، والتى شيد سكان الأسرة الرابعة فيها من قبل مقابر لهم .

وكانت مقابر ملوك تلك الأسرة النواة لجبانة تجمع حولها مقابر الأتباع ، وذلك فى صفوف متوازية . ثم حل محل فرع تلك الأسرة من تسموا « بالمناتحة » ، وقام « منتوحتب الثانى » ببناء آثاره الجنازية فى منطقة الدير البحرى . وتجمع أيضًا حول هذا البناء الملكى مقابر العديد من البلاط الملكى وكبار الموظفين فى الصخور حول المعبد ، منهم محافظو الإقليم ، والوزير ، وأمين المال ، وحاملو الأختام .

ويشير المؤلف إلى بعض مقابر الدولة الوسطى ، ومن أهمها مقبرة الوزير « داجى » (Dagi) رقم ١٠٣ ، والتى أُعيد استخدامها فيما بعد كنيسة ، ومقبره أمين المال « خيتى » (Kheti) رقم ٤٠٥ ، ومقبره الوزير آبى (Ipi) رقم ٣١٥ ، وأمين المال « مكت رع » (Meketrec) رقم ٢٨٠ والتى عُثر بها على ألف ومائتى موديل (نموذج) للأدوات والأسلحة . وبرغم تعرض تلك المقبرة للنهب فإنه قد نجا من السرقة النماذج التى عثر عليها لمقاطعة مكت رع : فيلاته ، اصطبل حيواناته ، المجزر (السلخانة) المخازن ، مصانع النسيج ، المطبخ ، مراكب الصيد ، والاتباع ، والتى تعرض حاليًا بالدور الأرضى من المتحف المصرى . ومع انتقال العاصمة السياسية لمصر خلال الأسرة الثانية عشرة إلى « اللشت » نتوقع أن الجبانة كانت هناك . ولكن يجدر ملاحظة أن « أنتف أقر » الوزير ومحافظ طيبه قام باختيار مكان دفنه ليس فى العاصمة « اللشت » ولكن بالقرب من موقع ممارسته لوظيفته بالمكان (مقبره رقم ٦٠) ، والتى تعتبر مقبرته بمثابة همزة الوصل بين نمط مقابر الدولة القديمة ، وتلك من الدولة الحديثة بالمكان – ونال مناظرها الكثير من التدمير ، وإنْ ظلت إلمامًا فى كثير من جوانبها لمقابر الأسرة الثامنة عشرة (ص ٢٤ – ٢٦) .

ومع انتهاء الدولة الوسطى بدأت مرحلة تاريخية جديدة عُرفت باسم « فترة الانتقال الثانى » سقطت خلالها مصر فريسة للحكم الأجنبى لما يزيد على مائة عام (وجود الهكسوس فى مصر) (ص ٢٧) . ولم يعثر على مقابر ملونة فى تلك الفترة التاريخية ، وإنْ كانت هناك دفنات على منحدرات تلال دراع أبو النجا قدمت لنا أشياء هامة صغيرة ، مثل أدوات الزينة ، والأثاث الجنازى ، والتماثيل الصغيرة ، والأدوات الموسيقية ، بالإضافة إلى التوابيت التى أخذت شكلاً بشريًا ، والتى كان يدفن فيها أهل طيبة .

وتناول المؤلف فى الفصل الثالث « الأسرة الثامنة عشرة ١٥٧٥ – ١٣٣٥ ق.م » (ص ٢٩ – ٦٣) النمط المعمارى السائد لمقابر تلك الفترة فى طيبة ، والمعروف بنمط (T-Shaped Tombs) موضحًا أهمية مقابر طيبة بمناظرها الملونة ، على العكس مما كان سائدًا فى جبانات أخرى ، مع بعض الاستثناء . وتعكس المناظر وبصفة خاصة « مناظر الحياة اليومية » أهمية خاصة . وكانت شخصية الملك – برغم ندرة تمثيلها فى مقابر الأفراد – المحور الأساسى ، ونقطه ارتكاز تدور حولها حياة صاحب المقبرة (ص ٣١) فى ارتباط مع الوظائف التى شغلها الوزير ، الكاهن الأعلى لامون ، قائد الجيش ... إلخ . وقد عكست المناظر ملامح المهام لشاغل الوظيفة ، على سبيل المثال للوزير ، وخاصه فيما ارتبط مع مناظر استقبال الجزية من الأجانب ، ونفس الشيء مع شاغلى الوظائف الإدارية العليا الأخرى .

وقد تناول المؤلف مناظر « القنص والصيد » ورمزيتها فى مفهوم المصريين فى « إعادة البعث والخلق » وإشارته إلى رسم الإوزة المصاحب لمناظر الصيد فى الأدغال ، باعتباره رمزًا جنسيًا يدل على مفهوم الارتباط بين الرجل والمرأة . وأشار كذلك إلى منظر رمى السهام ضد فرس النهر ، ومناظر الصيد فى الصحراء ومدلولاته الرمزية ، وانتصار صاحب المقبرة على الأعداء المقيمين على رمالها الحمراء ، « ست » إله الشر فى المفهوم العقائدى المصرى القديم ، مما يمنح صاحب المقبرة السيطرة والراحة فى عالم الآخرة (ص ٣٨) . إضافة إلى ذلك هناك مناظر الزراعة : جنى الكروم ، رحلة الحج إلى أبيدوس ، طقس فتح الفم ، مناظر الولائم الجنازية على جدران مقابر النبلاء فى جبانة غرب طيبة .

ويتناول المؤلف مقابر « دير المدينة » التى وضع أساسها الثابت من عهد تحوتمس

الرابع ، ووصلت شأوها فى عهد الرعامسة . وقد تم التعرف على ست مقابر مزخرفة من الأسرة الثامنة عشرة ، أهمها مقبرة المعمارى « خع » رقم ٨ ، والتى عثر على دفنتها سليمة : الأثاث الجنازى ، الصناديق ، الملابس ، الشعر المستعار (الباروكات) العطور ، الأعشاب والبخور .

كما عثر على ست مقابر من الأسرة الثامنة عشرة فى جبانة « قرنة مرعى » ، ومن أهمها مقبرة « نائب الملك على كوش » حوى رقم (٤٠) من عهد توت عنخ آمون (ص ٤٧) . ويشير المؤلف كذلك إلى جبانة شيخ عبد القرنة ، والتى يتواجد بها ما يزيد على نصف مقابر الجبانة من الأسرة ، (١١٠ مقبرة من الأسرة الـ ١٨) ومن أشهرها مقبرة « نخت » (Nakht) رقم ٥٢ « ومنتا » (Menna) رقم ٦٩ محط أنظار الزائرين إلى المكان . إضافة إلى ذلك يجدر الإشارة إلى مقابر النبلاء : الكاتب وسرحات (Userhat) رقم ٥٦ ، والمشرف على الغلال « خع – ام – حات » و (khaemhet) رقم ٥٧ ، برغم عدم وجود مناظر ملونة بها ، ومقبره الوزير رخميرع رقم ١٠٠ ، وسن نفر رقم ٩٦ ، وأمنمحات رقم ٨٥ ، ومقبرة الوزير « رغموزا » رقم ٥٥ من عهد أمنحتب الثالث وأمنحتب الرابع (إخناتون) والتى عكست ملامح النقلة الفنية إلى أسلوب فن العمارنة . وقد أشار المؤلف مرة ثانية (ص ٥٠) إلى التشابه والتطابق فى نمطية المناظر فى مقابر « شيخ عبد القرنة » مرجحًا وجود كتاب نموجى تنقل عنه المناظر ، وإن ظل هناك اختلافات فى التطبيق للنموذج من مقرة عن غيرها عكست شخصية ومهارة كل فنان عن غيره .

ويشير المؤلف كذلك إلى مقابر « العساسيف » وإلى مقبرتى الدولة الحديثة ، وخاصة مقبرة « خرواف » (Kharuef) رقم ١٩٢ . كما يوجد حوالى ٣٢ مقبرة من الأسرة الـ ١٨ فى جبانة الخوخة ، ومن بينها مقبرة « أنينى » رقم ١٨١ ، ومقبرة « بوى – ام – رع » الكاهن الثانى لأمون ، رقم ٣٩ .

كما أشار إلى مقابر دراع أبو النجا ، والتى يوجد بها حوالى ٤٨ مقبرة ملونة من الأسرة الثامنة عشرة . وبالرغم من ثورة العمارنة فإن طيبة لم تتأثر كثيرًا ، حيث أنه أعيد استخدام جبانتها للدفن منذ عهد توت عنخ أمون ، وماتلى .

وفى الفصل الرابع « مقابر الرعامسة » (١٣٠٨ – ١٠٨٧ ق.م) (ص ٦٤ – ٨٣) يوضح المؤلف الاختلاف البين بين مقابر الرعامسة (الأسرتين ١٩ – ٢٠)

من مقابر التحامسة (الأسرة الـ ١٨) ، حيث اختفت مناظر الحياة اليومية بما كانت تمثل من معانى « إعادة الميلاد والبعث » (ص ٦٠) . ولم تعد هناك مناظر الصيد فى الصحراء بما كانت تعكس من رمزية الصراع ضد الشر . وأيضًا اختفت مناظر الولائم وما كان يصاحبها من خمور ، وبيرة ، وموسيقى ، وإن ظل ركن بحجم قليل يمثل مناظر للزراعة . وغلب على المناظر بمقابر الرعامسة تلك المشتقة من الكتب الدينية ، وخاصة كتاب « ماهو موجود من عالم الآخرة » The Book of the Underworld وكتاب البوابات (The Book of Gates) . وكتاب الموتى (The Book of the Dead) وما تتناوله من مناظر من عالم الآخرة ، والمصاعب من الأهوال والمخلوقات التى سيواجهها المتوفى هناك . وبالمثل مناظر وزن القلب ، ومنظر محاكمة المتوفى أمام ملك الموتى الإله أوزيريس .

ولقد أصبح منظر الإلهة « الشجرة المعطية الحياة والتغذية فى عالم الآخرة » - الذى كان موجودًا أحيانًا من مناظر مقابر الأسرة الـ ١٨ - سائدًا فى مناظر مقابر الرعامسة . كما يجدر ملاحظة اختفاء مناظر تقديم الجزية من الأجانب ، الحرف والصناعات ، النشاطات العسكرية ، وكذلك الدور الهام للملك فى مقابر الأفراد من الأسرة الـ ١٨ اختفى تمامًا فى المقابر من عصر الرعامسة ، وإن وجد فإن الملك هنا يظهر فى شكل الإله المعبود (امنحتب الأول على سبيل المثال) .

ويوجد حوالى ١٩٤ مقبرة فى الجبانة من عصر الرعامسة ، ٤٧ منهم فى منطقة دير المدينة ، و٥٥ مقبرة فى دراع أبو النجا ، و٣٢ مقبرة فى الخوخة من الأسرة الـ ١٨ فى مقابل ٢٩ مقبرة من عصر الرعامسة ، و١٢ مقبرة من عصر الرعامسة فى جبانة « قرنة مرعى » . وتعتبر مقبرة « نفر رنبت » (Neferronpet) كاتب الخزينة فى عهد رمسيس الثانى فى الخوخة رقم ١٧٨ أكمل مثال لمقابر عصر الرعامسة (ص ٧١) .

وفى الفصل الخامس « العصر المتأخر (١٠٨٧ - ٢٥٢ ق.م) والخاتمة » (ص ٨٤ - ٩٢) يوضح المؤلف قلة المقابر المؤرخة من فترة ما بعد الرعامسة وحتى غزو الأسرة الخامسة والعشرين الكوشية لمصر . ويرجع وجود ما يسمى « المخاريط الجنازية » وجود مقبرتين مزخرفتين هامتين من الأسرة الثانية والعشرين بالجبانة ، ترجع إحداهما إلى الكاهن الثانى لامون ، والأخرى إلى كاهن آمون ومونتو ، وكاتب الملك .

وخلال الأسرتين الخامسة والعشرين والسادسة والعشرين استرجعت جبانة

« العساسيف » أهميتها ، ربما فى ارتباط مع تلك الصحوة لمكانة الإله آمون مع حضور الأسرة الكوشية إلى مصر ، وما كانت تقدمه من ولاء دينى لهذا الإله . ولعل أهم مقابر تلك المرحلة هى تلك الخاصة بـ « مونتو – ام – حات » ، الكاهن الرابع لأمون ، والتى تعكس مناظرها خليطًا من المناظر المنقولة عن مقابر الدولة الحديثة (ص ٨٧) ، كما تعكس جدران مقبرة « عنخ حور » (Ankhhor) رقم ٤١٤ منظرًا مميزًا بعمليه قطف « عسل النحل » .

ولقد أوضح المؤلف حقيقة أنه ليس بالضرورة أنَّ كل كبار الموظفين الذين خدموا فى العصر المتأخر قد دفنوا فى العساسيف (ص ٨٩) . ويشير المؤلف كذلك إلى استخدام المكان – وإن كان بندرة – للدفن حتى فى العصر الرومانى . وتعكس مقبرة المدعو « مونتو – ام – ساف » (Mentvemsaf) الذى توفى فى عهد أوغسطس (Augustus) نموذجًا جيدًا لذلك ، فى جبانة شيخ عبد القرنة .

وبانتهاء دورة الزمان لطيبة الفرعونية ، ومع تداعيات دخول المسيحية إلى مصر ، استخدم العديد من المقابر عقارًا للسكنى والإقامة ، وتحول بعضها إلى ما يوازى « الدير » حاليًا .

وفى الفصل السادس « إعادة الاكتشاف » (ص ٩٣ – ١١٤) يغوص المؤلف فى رحلة سياحية للمكان متناولاً ما ورد فى كتب الرحالة السابقين لطيبة وجباناتها ، بدءًا من القديس الفرنسى C. Sicard (١٦٧٧ – ١٧٢٦) ، وما دَوَّنه الرحالة القبطان البحرى Norden (١٧٠٨ – ١٧٤٢) عن المكان ، وأيضًا الرحالة الإسكتلندى Bruce (١٧٣٠ – ١٧٩٤) وآخرون ، وما قام به محمد على بإصداره فرمانات سمح بها للأجانب بالعمل الأثرى بمصر آن ذاك ، وكذلك ما تعرض له المكان على أيدى الباحثين عن الآثار (النهّابين والنبّاشين) وأخيرًا ما قام به « ولكنسون » بصفه خاصة من أعمال بالمكان .

وينتهى الكتاب فى فصله الأخير « الأيام الحالية » (ص ١١٥ – ١٣٠) بالإشارة إلى الدور الهام الذى لعبته حمله نابليون بونابرت ضد مصر ، وما ترتب عليها من نتائج فى نشأة ما يسمى « مصلحة الآثار المصرية » عام ١٨٥٨ ، وما قام به العالم الفرنسى « أوجست ماريت » من دور هام ضمن أعمال تلك المصلحة ، ثم ما قام به بعد ذلك عديد من العلماء بأعمال البحث والحفر بالمكان ، ومن ثم الكشف عن العديد من المقابر بالمكان ، ثم النشر العلمى لها بعد ذلك .

ويشير كذلك إلى ما قام به عديد من العلماء من جهود علمية بالمكان ، ومنهم لبسيوس كارتر ، سيكار بللى ، وخاصة فى دير المدينة ، وويجال ، امرى ، دى . جاريس ، ونلوك بروترموس ، والمعهد الفرنسى فى دير المدينة ، وما قام به د. أحمد فخرى ، والذى عكس تزايدًا أكاديميًا وبحثًا علميًا منظمًا بالمكان أبانَ عن العديد من ملامحه الحضارية .

كما أشار المؤلف إلى مشكلة التواجد البشرى الحالى لسكان المكان فى داخل حرم المنطقة الأثرية والجبانة ، بما يمثل من خطورة على المكان أثريًا ، ومطالبًا برحيل السكان عن المكان ، مشيرًا إلى تجربة المهندس المعمارى المصرى حسن فتحى ، وما قام به من تشييد لقرية « القرنة » النموذجية ، وإن ظلت خالية من شاغليها للآن .

والكتاب برغم صغر حجمه فإنه يحتوى على مادة علمية غزيرة غطت جوانب متنوعة للمكان جغرافيًا ، وفنيًا ، وأثريًا ، وعقائديًا .. وهذه المادة مرتبة ترتيبًا زمنيًا جيدًا منذ بدء المكان وحتى نهاية العصر الفرعونى .

واكتملت منفعة الكتاب بما قام به مؤلفه فى فصليه الأخيرين بإضافة مسح أثرى شامل للإشارات المتناولة لجبانة طيبة منذ القرن الثامن عشر وحتى الوقت الحاضر . كما يتميز الكتاب بتضمنه لبعض المناظر الأقل شهرة وتناولاً فى المصادر الأخرى .

ولكن قد يُؤخذ على الكتاب تَجاهُل مؤلفه (ص ١٩) - برغم تناوله للعديد من التحليلات - مشكلة تفسير الأثر الجنازى ، الذى تركه لنا بنى جت - ع منتوحتب فى الدير البحرى ، سواء أكان قبرًا رمزيًا ، أم هرمًا ، أم معبدًا جنازيًا ، أم خليطًا من ذلك . كما أنه ، وبرغم إضافة الكاتب لصفحة اشتملت على قائمة مراجع بها عشر مراجع عن طيبة بصفة عامة وتقاريرها بصفه خاصة ، ثم عن دير المدينة ، فإنه يُؤخذ عليه عدم وجود هوامش (ملحوظات) للمادة العملية فى متن الكتاب ، سواء أسفل كل صفحة أو فى نهاية كل فصل من فصول الكتاب ، يرجع إليها الباحث لمزيد من الاطلاع والمعرفة عن المعلومات الواردة به ، وخاصة عند تناوله للتنوع فى المناظر (تطابق واختلاف) بين مقابر عصر التحامسة وعصر الرعامسة .

* * *

مدخل إلى الآثار الإسلامية – تأليف دكتور حسن الباشا . القاهرة ، دار النهضة العربية ، ١٩٩٠

عرض وتحليل
الدكتور
ربيع حامد خليفة
أستاذ مساعد الآثار والفنون الإسلامية
بكلية الآثار – جامعة القاهرة

قليلة هي المؤلفات والكتب التي تتناول الآثار والفنون الإسلامية بوجه عام بالأسلوب السهل الممتنع والتبسيط ، مع قمة التخصص الأكاديمي ، وهذا عرض لكتاب في هذا الموضوع للأستاذ الدكتور / حسن الباشا بعنوان : مدخل إلى الآثار الإسلامية ، من إصدار دار النهضة العربية ، وطباعة مطبعة جامعة القاهرة ، والكتاب الجامعي صدر عام (١٩٩٠ م) .

وإذا وضعنا في الاعتبار مكانة المؤلف العلمية ، ورصيده من الأعمال العلمية في مجال الآثار والفنون الإسلامية ، والتي بلغت أكثر من مائة كتاب وبحث ، وأنه صاحب مدرسة متميزة في هذا المجال منذ ربع قرن أو ما يزيد ، أفرزت عشرات الرسائل العلمية المتخصصة في درجات الماجستير والدكتوراه – اتضح لنا مدى أهمية هذا الكتاب لسد الفراغ في المكتبة العربية .

وجدير بالذكر أن الدار التي صدرت عنها هذه الطبعة الحديثة للكتاب قامت بنشره أولاً في عام (١٩٧٩ م) ، وتكمن أهمية الطبعة الحديثة للكتاب في تلك الإضافات الهامة التي ضَمَّنها المؤلف هذا الكتاب اعتمادًا على خبرته الطويلة في مجال الآثار الإسلامية .

ويقع الكتاب الذي بين أيدينا الآن في حوالي (٦٥٥) صفحة ، ويشتمل على حوالي (٢٣٠) شكلاً توضيحيًا اختيرت من الآثار والفنون الإسلامية من العالم الإسلامي المترامي الأطراف ، وعَبْرَ العصور الإسلامية المتعاقبة ، مع شرح وافٍ لها

يعدُّ إضافة قيمة للكتاب . ويتكون الكتاب من مقدمة وأربعة أبواب ، تليها الأشكال ، وتعريف بالأشكال والمراجع العربية الأوروبية ، ثم مؤلفات بقلم الدكتور حسن الباشا .

ولقد تناول فى المقدمة علم الآثار ونشأته بوجه عام ، وعلم الآثار الإسلامية ، ثم نشأة الفنون الإسلامية ، وأثر العروبة والإسلام فى الفنون الإسلامية ، وأحوال العرب الفنية عند ظهور الإسلام ، والأسس العربية الإسلامية لفنون الإسلام . كما تناول فى هذه المقدمة أثر أحكام الإسلام فى الفنون الإسلامية ، وطُرز الآثار الإسلامية .

ويختص الباب الأول بموضوع تخطيط المدن الإسلامية ، ويشتمل على مقدمة عن المدن الإسلامية وعناية المسلمين بتخطيط المدن وإنشاء الجديد منها . ويلى المقدمة ستة فصول عن مدينة الفسطاط ، ومدينة بغداد ، ومدينة سامرا ، ومدينة الزهراء ، ومدينة الدرعية ، ومدينة الرياض ، بحيث انفردت دراسة كل مدينة بفصل مستقل .

أما الباب الثانى فقد خصصه المؤلف لدراسة العمارة الإسلامية ، ويحتوى على مقدمة وأربعة فصول . واشتملت مقدمة هذا الباب على تعريف بالعمارة الإسلامية ، وأنواعها ، وعناصرها ، ووحداتها ، وأساليبها ، وغيرها . والفصل الأول يتناول المنشآت الدينية ، ويبدأ بمقدمة ودراسة عن المسجد الحرام ، والمسجد النبوى الشريف ، وقبة الصخرة بالقدس . ثم أنواع المنشآت الدينية : من مساجد ، ومدارس ، وأربطة ، وخانقاوات ، وأضرحة . وأما الفصل الثانى فيضم المنشآت العسكرية من قلاع ، وأسوار ، وأبواب المدن . ويليه الفصل الثالث عن المنشآت المدنية ، مثل الوكالات ، والأسواق ، والبيمارستانات ، والطرق ، والدروب ، وينتهى هذا الباب بالفصل الرابع عن القصور والبيوت .

والباب الثالث عن الفنون التشكيلية ، ويتكون من مقدمة وثلاثة فصول ، وخصصت المقدمة لشرح الفنون التشكيلية فى الفن الإسلامي ، وأنواعها ، واستخداماتها فى تزيين المنتجات الفنية المختلفة من عمارة ، وأثاث ، وأدوات ، وغيرها . ويضم الفصل الأول النحت فى الحجر والجص فى العصر الأموى ، وطُرز سامرا ، ثم النحت الفاطمى ، والنحت فى الأندلس ، والنحت السلجوقى . والمغولى ، وأخيرًا النحت فى عصر المماليك .

وينفرد الفصل الثانى بدراسة التصوير ، وحكم التصوير فى الإسلام ، ثم التصوير

وانفرد الفصل الأخير من هذا الباب – وهو الفصل السابع – بدراسة الجلود ، ومشغولات الجلود الإسلامية ، التى تنوعت تنوعًا كبيرًا مابين أغلفة الكُتب ، والسروج ، والحقائب ، وعلب المرايا ، وأغطية المقاعد ، وأجربة السيوف ، وغيرها . غير أن أهم مشغولات الجلود الإسلامية – ولا سيما من الناحية الفنية – هى أغلفة الكتب الجلدية ، وكان من أهم أسباب ازدهار تجليد الكتب فى العالم الإسلامى الحفاوة بالعِلْم ، وبوسائل أخرى ، ومنها الإقبال على تأليف الكتب ونسخها واقتنائها ووقفها ، ومنها تأسيس المكتبات لحفظها ، والانتفاع بها ، وإلحاقها بالمنشآت العلمية ، والدينية ، والخيرية .

* * *

أوراق الهلباوى بين المذكرات والذكريات

عرض وتحليل
الدكتور
أحمد الشربينى
أستاذ التاريخ الحديث المساعد
بكلية الآداب – جامعة القاهرة

حرص إبراهيم الهلباوى على أن يترك للمهتمين بتاريخ مصر السياسى والاجتماعى تسجيلاً للأحداث التى شارك فيها ، أو تلك التى كان على مَقْرُبَةٍ منها ، من خلال أوراق خلّفها لنا لم تُنشر بعد ، ومُودعة ضمن مذكرات السياسيين والزعماء بدار الوثائق القومية ، وهذه الأوراق موجودة جنباً إلى جنب مع مذكرات السياسيين والزعماء ، تُصنَّف وتُوصَف على أنها مذكرات ، برغم أن صاحبها ذهب إلى أنها سيرة ذاتية [1] .

وتبلغ هذه الأوراق ٤١٢ صفحة ، تقع فى كراستين ، تضم الأولى منهما ١٤٣ صفحة والثانية ٢٦٩ صفحة ، ويوجد بالدار ثلاث نسخ منها ، وجاءت الكُرّاسة الأولى من النسخة الأولى بمثابة صورة لأصل منسوخ على الآلة الكاتبة ، أما الكراسة الثانية فهى عبارة عن مسودات كتبت بخط اليد ، ولهذا تُعد هذه النسخة بكراستيها ، مسودات الأوراق .

وإذا كانت النسخة الأولى من هذه الأوراق هى المسودة ، فإن الثانية هى النسخة المنقحة ، لأن كراستها الأولى تضمنت الأصل المنسوخ على الآلة الكاتبة ، أما كراستها الثانية فكان تبييضاً بخط اليد للكراسة الثانية من النسخة الأولى ، باستخدام القلم « الكوبيا » وفى نفس صفحات الأصل للنسخة الأولى . وتعد النسخة الثانية الأصل للنسخة الثالثة ، والتى تُعَدُّ أوضحها ، لأنها كُتبت بحروف تجميعية على هيئة كتاب ، بشكل يوحى بأن النية كانت قد انعقدت على نشرها من جهة ما .

---

(١) مذكرات إبراهيم الهلباوى ، ك ٢ ، ص ٤٠٨ .

وإذا كانت النسختان الأخيرتان تتسمان بالوضوح - وبخاصة الكراسة الثانية التى تعرضت لعمليات شبه جراحية ، من جانب صاحب الأوراق - فإن فحص هذه الأوراق يتطلب العكوف على النسخة الأولى لمعرفة ما إذا كانت هذه الأوراق قد كُتبت مع الأحداث مباشرة وفى وقت واحد أم على فترات متباعدة ، وهل امتدت إليها اليد بعد الكتابة بالتعديل أو الحذف أو الإضافة ؟ وهذا ما يحتاج بلا شك إلى فحص فنى دقيق .

والمُطَّلع على الكراسة الثانية من النسخة الأولى ، ينتهى إلى أن جزءا لا بأس به من أوراق الهلباوى قد دون فى وقت متقارب ، وربما فى وقت واحد ، لتشابه الخط والمداد ، وكذلك الورق الذى جاء أملسَ مائلاً إلى الصفرة . كما دُوِّنَ جزء منها - وجاء فى نهاية المذكرات - فى وقت آخر ، وربما متأخر ، لأنه كُتب بخط مختلف ، وعلى ورق « فلوسكاب » من نوع آخر ، وباستخدام القلم الرصاص ، وهذا ما يُعد شاهداً على أن الهلباوى لم ينسخ أوراقه بنفسه ، كما أنه استعان بأكثر من شخص فى نسخها ، وقام هو بإملائها .

والمتصفح للكراسة الثانية يلمس مدى تدخل القلم - الرصاص فى معظم الأحيان ، والكوبيا فى أقلها - بعد كتابة الأوراق ، وذلك لتقويم الأسلوب ، أو لتصحيح الأخطاء وتغيير فقرات أو صفحات كاملة ، ويؤكد هذا وجود صفحات كاملة كُتبت بقلم مختلف - الرصاص فى الغالب - وعلى ورق مختلف ، تخللت ما كُتب بالخط الأصلى للأوراق . كذلك اتخذت عملية الترقيع - إذا جاز لنا التعبير - للأوراق شكل إضافة قصاصات جديدة ، كُتبت بخط وعلى ورق مختلفين عن الأصل ، كذلك بإضافة قصاصات اقتُطعت من الأصل (١) ، وربما بعد أن استبعد صاحب الأوراق كُلَّ ما قد يؤدى نشره إلى إثارة جو من الشحناء مع من كانوا على خلاف سياسى معه ، ولذا أدت عملية الترقيع إلى غلبة أسلوب التأليف على المذكرات ، وبخاصة أن السياق العام للحديث والأحداث جاء بعدها سليماً ومنطقيًا . وكذلك أدى التدخل فى السياق - بالحذف أو الإضافة - إلى خلو الأوراق من أى قذف أو قدح لأىٍّ من السياسيين المصريين فى تلك الفترة .

---

(١) نفس المصدر ، ك ٢ ، ص ١٦٣ ، ٢٠٢ ، ٢٠٤ ، ٢١٧ - ٢٢٤ ، ٢٣٣ ، ٢٤٥ ، ٢٦٠ ، ٢٩٤ ، ٢٩٦ .

فعلى الرغم من اختلاف الملباوى مع سعد زغلول حول كثير من القضايا التى وردت متناثرة بالأوراق ، فإنه لم يحاول تسخيرها لتشويه الصورة الحسنة لسعد زغلول عند المصريين ، أو حتى إثارة الشكوك حولها . كذلك لم يلوح بأصبع الاتهام لأىٍّ من أعضاء لجنة الوفد المركزية ، برغم تأكيده على وجود تلاعب فى أموال اللجنة .

ولهذا لم تتوفر لأوراق الملباوى المعايير التى تجعلها مذكرات ، وفى تقديرنا أنها أقرب إلى الذكريات ، وهذا ما تؤكده بعض الشواهد التى استخلصت من ثنايا الأوراق ، والتى تثبت أن صاحبها لم يسجل أحداثها فى حينها ، أو على التو من وقوعها ، بل سجل بعضها بعد فترة امتدت إلى نصف القرن ، ففى معرض حديثه عن الثورة العرابية ذهب إلى أنه « منذ ذلك العهد - يقصد الثورة العرابية - آليت على نفسى ألّا أشكو سلطة أهلية مهما جارت وتعسفت إلى سلطه أجنبية ، ولقد نالنى فى الخمسين عاماً الماضية من الحوادث المؤلمة ما لا يُعَدُّ ولا يُحْصَى بسبب تمسكى بهذا المبدأ » [١] .

كذلك سجل الملباوى بعض أحداثه بعد فترة من وقوعها تراوحت بين عقد وعقدين من الزمان ، فعندما انتهى من عرضه لمرافعاته عن إبراهيم الوردانى ذكر أنه برغم « مضى نحو العشرين عاماً لازلتُ أذكر ما اعترانى من الغبطة والسرور ... » [٢] . وبينما كانت يتحدث عن أحداث العنف بالإسكندرية فى مايو سنة ١٩٢١ أشار إلى أنه « على رغم من مضى نحو التسع سنوات على هذه الوقائع .... [٣] » .

وغير ذلك ، فكثيراً ما استخدم الملباوى فى أوراقه كلمات وتعبيرات تؤكد اعتماده على الذاكرة فى استعادة الأحداث وتدوينها ، منها ... وأذكر أن هذا كان فى « كذا » ... ومنذ « كذا » ... وحتى الآن أو اليوم [٤] .

وإذا كان الملباوى قد تأخر فى كتابة أوراقه فالسؤال الذى يطرح نفسه بإلحاح

---

(١) نفس المصدر ، ك ١ ص ٢٢ .

(٢) نفس المصدر ، ك ١ ص ٩١ .

(٣) نفس المصدر ، ك ٢ ، ص ١٧٧ - ١٧٨ .

(٤) نفس المصدر ، ك ١ ، ص ١٠ ، ٤٦ ، ٩٩ - ١٠١ ، ك ٢ ص ١٨٠ .

هو متى بدأ فى تدوينها ؟ يذكر صاحب الأوراق أنه قام بمحاولة أولية لرصد أوضاع المجتمع المصرى السياسية منذ سنة ١٨٧٥ ، وذلك إبان الثورة العرابية ، غير أن ما دوّنه دُمّر على يد أحمد خيرى باشا ، رئيس الديوان الخديو ، بإيعاز من السراى (١) .

ثم عاود الهلباوى التجربة فى نهاية عشرينات القرن الحالى ، حيث بدأ فى كتابة أوراقه المودعة بدار الوثائق القومية ، وهذا ما استخلص من القراءة المتأنية لهذه الأوراق ، وبخاصة أحداث الثورة العرابية ، ومرافعاته عن الوردانى ، والمعلومات التى أوردها عن أحداث فى مايو سنة ١٩٢١ (٢) .

وقد أكد عبد الحليم الجندى – أحد تلامذة الهلباوى – على ذلك بما ذهب إليه من أن الهلباوى قد شرع فى إملاء مذكراته على أحد الكتبة بمكتبه فى أكتوبر ١٩٢٩ (٣) . وقد استغرقت هذه العملية ما يزيد على عشر سنوات ، وهى المدة التى حددها الهلباوى نفسه عندما ذكر أنه كان يؤثر تذييلها بحديث عن حياته الخاصة لكن « الصدفة التى أجلت كتابتها إلى ما بعد وفاة المرحوم حسن صبرى باشا يوم الأربعاء ٥ نوفمبر ١٩٤٠ جعلت من الحق على أن أجعل خاتمتها ... هذا الحادث » (٤) .

وقد يتساءل البعض عن السر فى عكوف الهلباوى بعد أن تجاوز عن السبعين – لما يزيد على عشر سنوات – على كتابة أوراقه ؟ ونعتقد أن هذا كان جرياً على سنن تقليد الزعماء ، وبخاصة سعد زغلول ، الذى لمح فى أكثر من موضع من مذكراته إلى أنه لم يتفوق على الكثيرين فى شىء ، وأن المصادفة لا أكثر كانت وراء لمعان نجمه السياسى . وإلى جانب هذا حرص الهلباوى على أن يسخر أوراقه لتبريد ما عَلِقَ به من أبشع التهم ، والّذع الألقاب – أشهرها جلاد دنشواى – منذ أن قبل تمثيل الادعاء الحكومى فى دنشواى ، وبخاصة بعد أن تملكه اعتقاد بأنه قدم للحركة الوطنية بعد دنشواى ما يجعل الأمة تغفر له موقفه فيها . ولهذا حرص على نشر أوراقه بمجرد انتهائه

---

(١) نفس المصدر ، ك ١ ، ص ١٨ .

(٢) ارجع إلى ما ذكرناه آنفاً عن هذه الأحداث .

(٣) عبد الحليم الجندى : جرائم واغتيالات القرن العشرين ، جـ ١ ، الطبعة الأولى ، دار سعد مصر ، القاهرة ١٩٤٥ ، ص ٤٣ ، ٧٣ .

(٤) مذكرات الهلباوى : ك ١ ، ص ٤٥ : ك ٢ ، ص ٤٠٩ .

منها ، وهذا ما تردد فى أكثر من موضع من مذكراته ، فقد ذهب فى حديثه عن دنشواى إلى أنه « يُخيَّلُ إلىَّ » أن « الذين » سيقع بين أيديهم هذا الكتاب سيُقَلِّبُون صفحاته سراعاً باحثين عن تلك القضية التى شاء القدر أن يقرن اسمى بها »[١] . كذلك استخدم فى سياق الحديث بعض الألفاظ والعبارات التى تدل على ذات العزم كقوله – على سبيل المثال : « ... مما سيراه القارىء فيما بعد »[٢] .

وقد قطع عبد الحليم الجندى الشك باليقين حول النشر من عدمه ، بذهابه إلى أن الهلباوى فى أواخر سنة ١٩٤٠ كان قد استحث مدير دار الكتب « الدكتور منصور فهمى باشا عندئذ – على نشر مذكراته ، وبعد أن جمع بعضها فى المطبعة توقف الطبع[١] ، ربما بعد أن توفى صاحبها فى ٢٠ ديسمبر ١٩٤٠[٢] .

وقد دفع تراجع دار الكتب عن نشر أوراق الهلباوى بعد وفاته بعض أصدقائه وتلامذته إلى التفكير فى نشرها ، وربما كان عبد الحليم الجندى أحدهم ، لأنه كان قد أعد تصديراً لتلك الأوراق ، جاء فى تسع عشرة صفحة ، وأكد فيه على إعدادها للنشر بعد الحصول عليها من الورثة . غير أن هذه الجهود ذهبت أدراج الرياح ، وربما دفع هذا صاحب التصدير إلى إعداد مؤلف يؤرخ لحياة إبراهيم الهلباوى داخل المحاكم ، مستغلاً فى ذلك ، التصدير الذى كان قد كتبه ليكون بمثابة توطئة أو مقدمة للمذكرات ، هذا إلى جانب بعض مرافعات الهلباوى – التى عدها مثالاً يجب أن يحتذى[٣] .

ولما كان الهلباوى قد عقد العزم على نشر أوراقه بمجرد الانتهاء منها ، فقد استبعد بعض الأحداث والملابسات بشكل أصاب أوراقه بقدر من القصور والخلل ، وقد أدرك هذا مَنْ عرفوه عن كثب ، ولمسوا البون الشاسع بين ما كان يتوفر لذاكرته ، وما جاءت بأوراقه ، التى جاءت مختزلة ، فى حين أن من كان يستمع إلى حديثه – على

---

(١) نفس المصدر : ك ١ ، ص ٧٦ .

(٢) نفس المصدر : ك ٢ ، ص ١٧٠ .

(٣) عبد الحليم الجندى : جرائم واغتيالات ، ص ٨٧ .

(٤) مضابط مجلس الشيوخ المصرى ، الانعقاد السادس عشر ، الجلسة الرابعة ، ٢٣ ديسمبر ١٩٤٠ .

(٥) مذكرات الهلباوى : ك ١ ، تصدير عبد الحليم الجندى ، ص ١ – ١٩ ، عبد الحليم الجندى : جرائم واغتيالات جـ ١ .

حد قول أحمد أمين – يدرك أنه « يحمل فى صدره تاريخ جيل لم يدون فى كتــــــاب » [١] . وقـــــد أثنــــــــى على ذلك ك عبد الحليم الجندى بقوله : إن من « عرفوا صاحبها عن كتب سيدركون أكثر مما يدرك الذين عاصروا وقائعها وعاشوا معها » [٢] ، لأنه كان فى إمكانه أن « يقص على مُحَدِّثِه فى سنة ١٩٣٠ أنه فى يوم الأحد كذا يوليو ١٨٩٣ صنع كيت وكيت ، وأنه فى الغداة صنع كيت وكيت ، وهكذا فى حوادث كثار » [٣] .

وبرغم عقلية الملباوى الدقيقة والمنظمة ، والتى أشاد بها من عرفوه ، فإن أوراقه افتقدت التحديد الدقيق لتوقيتات معظم الأحداث التى أوردها ، برغم حرصه الشديد على تجنب الوقوع فى هذا المأزق بالابتعاد عن ذكر توقيت الحدث قدر الإمكان ، حتى لا تخونه الذاكرة ، ومع ذلك خانته كثيراً ، فعند تحديده للمدة التى أقامتها لجنة ملز بمصر ، قال « أتذكر أن ... أقامتها ... ستة أسابيع » [٢] . فى حين أنها بلغت ثلاثة أشهر ، حيث وصلت اللجنة إلى مصر فى ٧ ديسمبر ، وغادرتها فى ٦ مارس ١٩٢٠ [٣] .

كذلك جانبه الصواب فى تحديد اليوم الذى قُبض فيه على سعد زغلول وزملائه ، والذى حدده بـ ٥ مارس ١٩١٩ [٤] ، فى حين تم القبض عليهم فى ٨ مارس ١٩١٩ [٥] .

وعلى الرغم من هذا القصور الذى اعترى أوراق الملباوى ، فإنها تعد مصدراً لا بأس به لفترة هامة من تاريخ مصر الحديث والمعاصر ، تمتد من الثلث الأخير من القرن التاسع عشر وحتى نهاية العقد الرابع من القرن الحالى ، تمكن تلك الأهمية فى

---

(١) نقلا عن محمد كامل الفقى : الأزهر وأثره فى النهضة الأدبية الحديثة ، جـ ٢ ط ١ ، القاهرة ١٩٥٦ ، ص ٨٩ – ٩٠ .

(٢) مذكرات الملباوى : ك ١ ، تصدير عبد الحليم الجندى ، ص ١ .

(٣) عبد الحليم الجندى ، جرائم واغتيالات ، ص ١٢٩ .

(٤) مذكرات الملباوى : ك ٢ ، ص ١٦٦ .

(٥) عبد الرحمٰن الرافعى : ثورة ١٩١٩ ، جـ ٢ ، ط ١ ، النهضة المصرية ، القاهرة ١٩٥٥ ص ١١٢ ، ٣٠٦ .

(٦) مذكرات الملباوى : ك ١ ، ص ١٣٤ .

(٧) عبد الرحمن الرافعى : المرجع السابق ، جـ ١ ، ط ٢ ، النهضة المصرية ، القاهرة ١٩٥٥ ، ص ١٦٦ .

أن صاحبها قد شارك فى ثورتين ، إحداهما وهو فى شرخ الشباب « الثورة العرابية » ، وثانيهما وهو فى طور الشيخوخة « ثورة ١٩١٩ » . كما ساهم فى الحياة الحزبية – فى جانبها المعتدل « حزب الأمة ، والأحرار الدستوريين » غير الشعبى ، باستثناء فترة تأليف الوفد المصرى فى بداية تكوينه – هذا إلى جانب اهتمامه بالحياة النيابية ، التى اتصل بمؤسساتها إمّا موظفاً وإمّا عضواً .

إضافة إلى ذلك تعمد مرافعاته فى القضايا السياسية ، وبصفة خاصة قضايا العنف السياسى ، حادث بطرس غالى ، والسردار ، والقنابل – مادة علمية قيمة لمن يرغب فى كشف النقاب عن ظاهره العنف فى الحركة الوطنية ، حتى اندلاع الحرب العالمية الثانية ، وتُعد مرافعاته فى القضايا الشرعية أيضاً مادة علمية قيمة لدارس تاريخ مصر الاجتماعى ناهيك عن المادة العلمية المتوفرة بالأوراق عن المحاماة والقضاء ، وكذلك دور الأزهر فى الحياة الفكرية المصرية .

* * *